مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

... وجاء الحسين (عليه السلام)

هادي المدرسي

دار أهل البيت (عليهم السلام) للعلوم

بسم الله الرحمن الرحیم

وجاء الحسين عليه السلام

كاتب:

هادي مدرسي

نشرت في الطباعة:

دار احياء تراث اهل البيت (عليهم السلام)

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

وجاء الحسين عليه السلام 7

اشارة 7

اشارة 7

المحتويات 11

هذا الكتاب 16

باختصار.. عن موقع الحسين عليه السلام دينياً و سياسياً و اجتماعياً 18

البدايات 23

الحاكم الجديد وأزمة الشرعية 102

في دار الامارة الحسين علي تحت التهديد 109

قرار الهجرة من المدينة 127

ابن البيت، في جوار البيت 147

واتخذ الحسين عليه السلام القرار 162

انقلاب الكوفة 177

حاكم العراقين يصل الكوفة متعطشاً للدّم والانتقام 195

بداية المواجهة بين مبعوث الحسين ال ووالي يزيد 204

مسلم بن عقيل وحيدا في مواجهة إمبراطورية الشرّ 221

إلي جنّة اللّه هاني بن عروة 253

تتابع فصول المواجهه 259

الطريق إلي كربلا 265

إعلان الثورة 295

الخطوات الأولي 304

الاستعدادات المضادّه 313

تعبئة الكوفة ضدّ الحسين 330

أنباء مقلقة، وحوادث مؤسفة 334

كربلاء..مقدّمات المواجهه 388

يوم المواجهه 429

بداية المعركه 455

اشارة 455

صلاة الحسين عليه السلام: 472

استشهاد أهل البيت عليهم السلام 498

اشارة 498

مقتل إخوة العبّاس عليه السلام: 512

مقتل ثلاثة أطفال في حجر الحسين عليه السلام : 523

هجمات الحسين عليه السلام قبل مقتله 527

ومطرت السّماء دماً 539

تعريف مركز 544

وجاء الحسين عليه السلام

اشارة

سرشناسه:مدرسي، سيدهادي

عنوان و نام پديدآور:وجاء الحسين عليه السلام/هادي المدرسي.

مشخصات نشر:بيروت: دار اهل البيت عليه السلام 2014م - 1435 ق

مشخصات ظاهري:535 ص

يادداشت:عربي.

موضوع:حسين بن علي (ع)، امام سوم، 4 - 61ق.

ص: 1

اشارة

* الكتاب: وجاء الحسين

* المؤلف: هادي المدرسي

* الناشر: دار أهل البيت للعلوم

* الطبعة: الثانية 2014 م . 1435

* Then Came Hussain

* Hadi Al Modarresi

* Second Edition January 2014

* Copyright © Ahlulbait Scientific Publishers

* Beirut Lebanon

* asp.dar@gmail.com

* Twitter: @AspDar

* التنضيد والإخراج: فاطمة أبي عباس

* تصميم الغلاف: In Design

* جميع الحقوق محفوظة©

ص: 2

.. وجاء الحسين عليه السلام

هادي المدرسي

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه ربّ العلمين

الرّحمن الرّحيم

مالك يوم الدين

إيّاك نعبد و إيّاك نستعين

اهدنا الصّراط المستقيم

صراط الّذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضّالين

ص: 4

المحتويات

تصوير

المحتويات

هذا الكتاب 9
باختصار.. عن موقع الحسين عليه السلام دينياً وسياسياً واجتماعياً 11
البدايات 16
الحاكم الجديد وأزمة الشرعية 95
في دار الإمارة الحسين عليه السلام تحت التهديد 102
قرار الهجرة من المدينة 120
ابن البيت، في جوار البيت 140
واتخذ الحسين عليه السلام القرار 155
انقلاب الكوفة 170
حاكم العراقين يصل الكوفة متعطشاً للدَّم والانتقام 188
بداية المواجهة بين مبعوث الحسين عليه السلام ووالي يزيد 197
مسلم بن عقيل وحيداً في مواجهة إمبراطوريَّة الشرّ 214
إلى جنَّة الله هاني بن عروة 246
تتابع فصول المواجهة 252
الطريق إلى كربلاء 258
إعلان الثورة 288
الخطوات الأُولى 297
الاستعدادات المضادَّة 306

تصوير

تعبئة الكوفة ضدَّ الحسين 323
أنباء مقلقة، وحوادث مؤسفة 327
كربلاء.. مقدِّمات المواجهة 381
يوم المواجهة 422
بداية المعركة 448
صلاة الحسين عليه السلام: 465
استشهاد أهل البيت عليهم السلام 490
مقتل إخوة العبَّاس عليه السلام: 504
مقتل ثلاثة أطفال في حجر الحسين عليه السلام: 515
هجمات الحسين عليه السلام قبل مقتله 519
ومطرت السَّماء دماً 531

-السلام عليك يا أبا عبد اللّه

و علي الأرواح الّتي حلّت بفنائك

عليك منّي سلام اللّه

أبداً ما بقيت وبقي اللّيل والنّهار

ولأجعله اللّه آخر العهد منّي لزيارتك

السلام علي الحسين

وعلي عليّ بن الحسين

وعلي أصحاب الحسين

ص: 7

هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين محمد، وعلي آله الطيبين الطاهرين.

وبعد ..

يتناول هذا الكتاب نهضة الإمام الحسين عليه السلام منذ بداياتها الأولي، إلي حين استشهاده في كربلاء.

وفيه دمج بين أمرين:

الأول : بيان ظروف هذه النهضة المقدسة، وأسبابها، وتحليل حوادثها، وتفسير وقائعها، وذلك علي لسان شخصين افترضنا وجودهما في تلك الحقبة .

الثاني : سرد الوقائع التاريخية، بالاعتماد علي أمهات المصادر الموثوقة في هذا المجال.

أرجو أن أكون بهذا الكتاب قد أديت جزءا بسيطة من ديون أهل البيت عليهم السلام علي.

ومن الله تعالي أطلب حسن التوفيق وحسن العاقبة، وأن يحشرني مع محمد وآله يوم ألقاه ، إنه قريب مجيب.

هادي المدرِّسي

1431ه 2010م

ص: 10

باختصار.. عن موقع الحسين عليه السلام دينياً و سياسياً و اجتماعياً

أ– الإمام الحسين عليه السلام من حيث النسب هو ابن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، رئيس الدولة التي كان يمتد سلطانها من إفريقيا ، حتينهاية الإمبراطورية الفارسية.

وهو حفيد النبي محمد صلي الله عليه و آله و سلم الذي اعتبر الرقم واحد في المائة الأوائل الذين كان، ولا يزال، لهم التأثير الأكبر في حياة الناس .

ب – بعد اغتيال الإمام علي عليه السلام في محراب العبادة، استطاع عدوه الأول معاوية بن أبي سفيان أن يبسط سيطرته علي البلاد، و وقَّع معاهدة صلح مع أخيه الأكبر الحسن بن علي عليهماالسلام ، الذي أصبح بعد أبيه هو الحاكم الشرعي للبلاد، إلا أن انتصار معاوية عسكرية دفعه إلي التوقيع علي معاهدة الصلح، والتي بموجبها وافق الطرفان علي عودة الحكم إلي الحسن بن علي عليهماالسلام بعد موت معاوية، وعند وفاته ينتقل الأمر إلي أخيه الحسين بن علي عليه السلام .

ثم إن معاوية نقض المعاهدة بعد استتباب السلطان له، وبدل أن يسلم مقاليد الحكم إلي الحسين عليه السلام لدي رحيله، فرض البيعةلابنه يزيد في حياته .

ص: 11

ج . عنـدما مات معاوية، بعد مضـي عشـرين عاما من حكومته ، تسـلم السـلطة ابنه يزيد بخلاف معاهدة الصـلح، إلا أن الناس الذين ذاقوا الظلم طويلا في عهد أبيه، توجهوا إلي الحسـين عليه السلام ، ليس فقط لأنه كان حفيد نبيهم وابن رئيسهم الشهيد، وصاحب الحق الشرعي في الحكم، وإنمـا لأنه كان الأكثر إيمانا وتقوي وعلمـة والتزام بالقيم والمثل، وبالإضافـة إلي ذلك فقـد كان في نظر المؤمنين وليا من أولياء الله، وقديس من القديسـين، فانهالت عليه الرسائل يطالبونه بالسـفر إلي مدينة الكوفة، عاصمة أبيه التي تم اغتياله فيها، وفي كثير من رسائلهم كانوا يلحون عليه بالقدوم إليهم، وإلا فإنهم يشكونه إلي الله إذا لم يلب دعوتهم هذه .

د. شـعر الحسـين عليه السـلام بأن عليه مسؤولية بسط العدل، ومنع الظلم، وإشاعة الخير، وهداية الناس، وأن المهمة التي كانت علي عاتق الأنبياء جميعا أصـبحت الآن علي عاتقه، وأن راية التوحيد أصـبحت في يديه، فاستجاب لدعوتهم، ليس طمعا في سلطان ولا التماس شيء من الحطام.. فكل ذلككان بعيـدة عن أخلاقيات عائلة النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم الأقربين الذين كانوا يعملون للآخرة وليس للدنيا، ولإشاعة العدل ومنع الظلم لا لبسط السـلطة والحكم. فأرسل إليهم ابن عمه مسـلم بن عقيل يستطلع الأمر، وكتب للذين طالبوه بالمجيء إليهم أنه لو تبين، من خلال تعاملهم مع ابن عمه، أنهم صادقون فيما يطالبون به، ومستعدون لنصرته ، فسوف يرحل إليهم.

ه-. من جهته أرسل يزيد بن معاوية رسلا إلي مختلف البلاد يطالب الولاة بالخضوع لسلطانه، وفرض بيعته علي الناس، وأمرهم

بقتل كل من يخالف ذلك، وخص بالذكر الحسين بن علي عليه السلام ، بسببين:

الأول : إن يزيد كان يشعر في قرارة نفسه أنه يغتصب مكان الحسين عليه السلام وموقعه، لعدة اعتبارات، أقلها تلك المعاهدة التي وقعها أبوه مع الحسن بن علي عليهماالسلام ، فكانت الأزمة الشرعية تعصف بقوة بحكومته .

الثاني: إن الناس كانوا يعشـقون الحسـين عليه السلام ، بما كان قد ورثه من أبيه وجده وأمه وأخيه من الفضائل والعلوم والمناقب . فقد كانت عائلته عائلة قديسين، كما أنهم بايعوه وطالبوا بإعلان دولته ، لأنهم كانوا يرون فيه الخلاص من الظلم والطغيان.

ومع رفض الحسـين البيعة ليزيد، معتبرة إياه غير لائق حتي المنصب شـرطي، لما عرف عنه من الفسوق والانحرافوإراقة الدماء وعدم الالتزام بشـرعة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، فإن يزيد أمر واليه علي المدينة بإجبار الحسين عليه السلام علي البيعة، وقطع رقبته إذا رفض ذلك.

فخرج الحسـين عليه السـلام من معقله في المدينـة المنورة، متجها إلي بيت الله الحرام في مكـة، وهناك انهالت عليه الرسائل تطالبه بالقيام ضـد الطاغيـة، والـدفاع عن الحق، والذهاب إلي الكوفة، فأرسل - كما قلنا - ابن عمه مسـلم بن عقيل إليهم حيث بايعه من الناس أكثر من ثمانية عشـر ألف شخص. فأرسل مسلم رسالة إلي الحسين عليه السلام يخبره أن الكثيرين مستعدون للدفاع عنه، والوقوف معه، وأخبره أنهم يرفضون رفضا قاطعة سلطة يزيد بن معاوية .

و . خرج الحسين عليه السلام نحو الكوفة ومعه أهل بيته، وعدد من الرجال والنساء، غير أن الأوضاع انقلبت رأسا علي عقب بعد قيام

السلطات بالانقلاب علي الناس في مدينـة الكوفة، وتم اعتقال مبعوث الحسين (مسلم بن عقيل) وضرب عنقه، بينما كان الحسين عليه السلام قد انطلق في طريقه إلي الكوفة .

ز. حشدت السلطة أكثر من ثلاثين ألف مقاتل لمواجهة الحسين، والتقي الطرفان في منطقة بين النواويس وكربلاء. ومع رفض الحسين عليه السلام رفضا قاطعة الخضوع لسلطان الظلم والطغيان، فقد وقعت المواجهة بين الطرفين في يوم العاشر من شهر محرم الحرام سنة 61 للهجرة النبوية، وكانتعدد قوات العدو التي واجهت الحسين عليه السلام أكثر من قوات الإمام بخمسمائة ضعف؛ أي أن كل واحد من أصحاب الحسين عليه السلام كان يواجه خمسمائة مقاتل من الأعداء.

وبعد أن لم يبق مع الحسين عليه السلام إلا ثلاثة وسبعون شخصا، وقعت الحرب بينهما، فاستبسل أصحاب الحسين عليه السلام في المواجهة، وقاتلوا حتي أخر رجل، وآخر قطرة دم، وأبدوا من الشهامة والبسالة، والالتزام بالمثل والقيم، ما يفوق أي وصف .. فقد قتلوا جميعا، وأسرت عوائلهم، وأرسلوا إلي يزيد بن معاوية مع رؤوس الشهداء.

ح- في المواجهة بين الحسين عليه السلام وأصحابه من جهة، وبين أعدائه من جهة أخري، تمثل كل الإيمان، وكل النبل، وكل البطولة في معسكر الحسين عليه السلام ، بينما تمثل كل الشر، وكل النفاق، وكل الرذائل في معسكر أعدائه .

ومع استشهاد الحسين عليه السلام وأصحابه بتلك الطريقة البطولية المأساوية، فإنهم تحولوا إلي رمز للبطولات، وأصبحت رسالتهم هي

رسالة جميع المؤمنين الصالحين في الحياة، أما أعدائه فقد تحولوا إلي رمز لكل شر وباطل.

هذا باختصار قصة الحسين عليه السلام ، إلا أن تفاصيلها أهم من ذلك بكثير، وهذا ما يتكفل هذا الكتاب ببيانه .

***

ص: 15

البدايات

كانا صديقين، يجتمعان أحيانا، ويتفرقان أحيانا أخري، ويتفرّقان أحيانا، ويختلفان أحيانا أخري.

وكان كل واحد منهما يميل إلي أحد الطرفين الأساسيين في الصراع الذي بدأ بعد رحيل النّبي صلي الله عليه و آله و سلم واشتدّ في عهد الإمام عليّ عليه السلام بين أهل البيت من جهة، وبني أميّة من جهة أخري ..

وكان كل من الرجلين منصفا يريد معرفة الحقيقة، ولم يكن يبحث عن الجدال من أجل الجدال.

ولئن كانا مختلفين في مواقفهما قليلا، إلا أن مصيرهما انتهي إلي أمر واحد..

الأول كان من الكوفة، واسمه عبد اللّه بن مسلم، وكان يميل إلي أهل البيت عليه السلام .

والثاني كان من المدينة المنورة، واسمه عبد الرحمن الصالح، وكان يميل إلي الطرف الآخر.

كانت أوضاع البلاد مضطربة، وذلك بسبب اندلاع عدّة حروب بين أبناء الأمّة، وانقسامها إلي فئات متناحرة، ووقوع عدة اغتيالات طالت حتي الخلفاء.. إلّا أنّ معاوية بن أبي سفيان استطاع أن يبسط

سيطرته علي جميع البلاد، فقام بتعيين ولاة مناوئين لأهل البيت عليهم السلام ، مستعينا بقومه من بني أمية، من الذين طالما وقفوا في وجه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وشنّوا عليه الحروب، قبل دخولهم في الإسلام.

في مثل هذه الأجواء من عام 54 للهجرة النبويّة، في يوم صائف زار عبد الرحمن الصالح صديقه، عبد الله بن مسلم في الكوفة، وبعد المجاملات الأولية، سأل عبد الرحمن صاحبه عن أوضاع العراق دينيّا وسياسيّا.

فقال عبد الله بن مسلم : إذا كنا نريد أن نقيس الأمور بحسب الموازين التي جاء بها النبي صلي الله عليه و آله و سلم فنحن في واد، والدين في واد آخر.

قال عبد الرحمن : كيف؟

قال عبد الله بن مسلم : إنّك تعرف أنه قد وقعت عندنا حادثة مقتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، هذا الرجل الذي كان اليد اليمني لرسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وكان أول من أسلم، والذي كان النبي صلي الله عليه و آله و سلم يواجه به طغيان قريش. فمنذ أن كان عمره عشر سنوات كان يخرج مع رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، يدفع عنه الأطفال الذين كانوا يرمونه بالحجارة في الطرقات. وحينما هاجر النبي صلي الله عليه و آله و سلم من مكة إلي المدينة نام في فراش رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم لكي يطمئن رجال قريش الذين صمّموا علي اغتياله، إلي وجوده في الدار، حتي يستطيع النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم الإفلات منهم. ثمّ فيما بعد خاض جميع المعارك والحروب التي شنّت علي رسول اللّه ، وكان النصر معقوداً بناصيته، واستطاع أن يواجه كل سيوف قريش بسيف ذي الفقار، وانتصر سيف ذي الفقار علي تلك السيوف، وانتصر النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم وعليّ عليه السلام علي الأعداء، حتّي أن عمر بن

الخطاب قال: «كنّا ننظر إلي عليّ في عهد النّبي صلي الله عليه و آله و سلم كما ننظر إلي النجم»(1).

هذا الرجل بايعه الناس جميعهم، لكن تمرّد عليه شخص واحد هو معاوية، طالباً الاستمرار في ولاية الشام، لكن الإمام عليه السلام رفض ذلك، ووقعت بينهما المعارك المعروفة، ثمّ جاء مقتله علي أيد الخوارج، فلم يقتل عليّ عليه السلام علي أيدي الكفار في معركة بدر، ولا في أحد، ولا في معركة الأحزاب، ولا في خيبر، وإنما قتل بأيدي مسلمين في ظروف تمرّد معاوية .

ثمّ إنّ معاوية بدأ يحكم العالم، ليس وفق شريعة سيّد المرسلين، وإنّما بحسب أهوائه ، وقد عمد إلي كلّ من يروي حديثاً عن علي عليه السلام، فألغاه من الديوان، وأمر ولاته بأن يأخذوا أولياء أهل البيت صلي الله عليه و آله و سلم بالتهمة ويقتلوهم بالظنّة، رغم أن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم كان يقول: «حبّ عليّ إيمان، وبغضه كفر»(2) .

ويقول: «لا يحبّك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»(3).

قال عبد الرحمن الصالح: يا أخي؛ إنّ الأنبياء والأولياء لا يتكرّرون، وهذا هو السلطان، وكما تعرف فإنّ السلطة تغري صاحبها باستخدام القوة، والتوسّل بكل ما يدعم سلطانه .

فقال عبد الله بن مسلم: أعرف ذلك، لكن إذا كنّا نريد أن نقيّم أوضاعنا بحسب الموازين التي جاء بها رسول الله، فنحن في

1- (1) عمار بن ياسر حليف مخزوم، صدر الدين شرف الدين، ص 139.
2- (2) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص 150.
3- (3) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج 1، ص 145.

واد والدين في واد آخر. أمّا أن تقول إنّ ما يفعله معاوية هو لدعم سلطانه، كما هو دأب كلّ سلطان، فهذا صحيح.

فقال عبد الرحمن الصالح: إن معاوية قد كبر الآن، ولقد انتشرت شائعة هنا بأنّه يريد توريث ولده للخلافة.

قال عبد الله : وهذا أيضا من الأمور التي يجعلنا نري أنهم في واد والدّين في واد آخر، ذلك أن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهماالسلام – بحسب المعاهدة التي وقعها معاوية مع أخيه الحسن عليه السلام – هو من يجب أن يكون الخليفة بعد معاوية، ومع ذلك فإن الرجل يتجه نحو توريث ولده، مع أننا جميعا نعرف من هو يزيد.

قال عبد الرحمن : صدقت، فإذا عرفنا من هو يزيد فلابدّ أن نستشعر الخوف، فعلا. لأنه ستقع كارثة إذا أصبح هذا الرجل خليفة علي المسلمين .

قال عبد الله : أعتقد أنّ الكارثة قد وقعت.

قال عبد الرحمن : متي؟

قال عبد الله : منذ فترة طويلة، ألا تري أن السلطان الذي بيد المسلمين، هو نتاج جهاد أهل البيت بزعامة سيدهم رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم فهم الذين صنعوه؟

أين كان العرب قبل بعثة النبي صلي الله عليه و آله و سلم وأين أصبحوا اليوم؟ حتي بني أمية كان يتلخص سلطانهم في السيطرة علي التجارة في مكة، وهي مجرد قرية كبيرة، وقصاري ما كانوا يفعلون هو رحلة الشتاء والصيف إلي الشام.

ص: 19

أما اليوم فإين معاويـة يحكم العالم المعمور كله، ولكن أين هم أهل البيت عليهم السـلام؟ وماذا حصـلوا عليه؟ وأين أجر النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم الذي شنّت عليه الغارات، وعاش منذ بعثته بين الحياة والموت، متنقّلا من معركة إلي معركة، حتي أنه صلي الله عليه و آله و سلم خلال ثلاثة عشر عاما فقط من عمر بعثته خاض أكثر من سبعين معركة؟

قال عبد الرحمن : النبي صلي الله عليه و آله و سلم كان زاهداً في الحياة.

قال عبد الله : نعم؛ ولكن هذا لا يلغي واجب الناس تجاهه، ثم ماذا عن أهل بيته ؛ فاطمة الزهراء عليهاالسلام العزيزة عليه لم تري بعد وفاة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم راحة في هذه الحياة، فقد عاشت باكية، وماتت مكظومة، والتحقت بأبيها بعد شهور قليلة من وفاته، ثم منعوا عليا عليه السلام من تبوأ أي مقام خلال أربعة وعشرين عاما ولم تعرض عليه حتي منصب قاض بسيط.

قال عبد الرحمن : هو لم يطلب ذلك .

فقال عبد الله : وهل عرضوا عليه أي موقع ومقام؟

ألم يكن علي بن أبي طالب هو أعلم الصحابة وأفضـلهم، وقـد قال النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم في حقه ما لم يقل في حق أي أحـد، وكانت له مواقف لم تكن لأي شخص آخر، وهو أول من آمن بالنبي وصلي معه؟

ألم يكن يستحق أن يعرض عليه مثلاـ أن يكون والية في بلـد من البلـدان؟ ثم ألم يكن من واجب الجميع أن يطيعوه بعـد أن بايعه الناس؟ فلماذا نكثت طائفة، ومرقت أخري، وقسط آخرون، وقتل أصحابه غيلة واحداً بعد آخر، وشنّت عليه الحروب كما شنّت من

قبل علي ابن عمه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ثم ضرب علي أم رأسه بسيف الظلم في محراب العبادة؟

ثم ماذا جري لولده الحسن عليه السلام، وهو سبط رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، وابن فاطمة الزهراء عليهاالسلام ، والذي قال عنه رسول الله : «الحسن منّي»(1)، وقال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة» (2) ؟

وها هو الحسين عليه السلام جالس في المدينة ، معزولا عن كل أمر، محاطا بالشرطة، ممنوعة من أن يلتقي به أحد، ثم الكارثة التي تحدثت عنها أن يأتي يزيد ويصبح خليفة رسول الله . أين العمل بقوله تعالي : (قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربي) (3)؟ وأين الطاعة لسنة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم القائل : «أهل بيتي فيكم كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»؟ و«إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي»؟

فقال عبد الرحمن : الآن أخبرني علي الشائعة، هل صحيح أن معاوية يعزم علي توريث ولده، وهل هذا من سنة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ومن سبق من الخلفاء؟ ومن أين جاءته هذه الفكرة؟

قال عبد الله : سوف أعطيك الخبر اليقين، أن المغيرة بن شعبة، والي الكوفة، أحس بأن معاوية يريد أن يعزله من الإمارة، ويستعمل بدلا منه سعيد بن العاص، ولكي يستطلع الأمر قام بكتابة رسالة إلي معاوية يقول له فيها بالنص: «أما بعد فإني كبرت ودقّ

1- (1) الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، ج 1، ص 59.
2- (2)قرب الإسناد، الحميري القمي، ص 111.
3- (3) سورة الشوري، الآية 23.

عظمي وشنفت – أي تنكّرت – لي قريش، فإن رأيت أن تعزلني فعزلت».

فكتب إليه معاوية : «جاءني كتابك تذكر أنه كبرت، فلعمري ما أكل عمرك غيرك، و تذكر أن قريشا شـنفت لك، ولعمري ما أصبت خيرة إلا منهم، وتسألني أن أعزلك فقد فعلت، فإن تك صادقا فقد شفعتك، و إن تك مخادعا فقد خادعتك»(1).

ولما وصلت الرسالة إلي المغيرة قال لمن حوله: الرأي هو أن أشخص إلي معاوية فأستعفيه، ليظهر للناس كراهتي للولاية .

فسار إلي معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة، لا أفعل ذلك أبدا (2).

قال عبد الرحمن : فالرسالة التي أرسلها إلي معاوية لم يكن يقصد بها أن يعتزل، وإنما كان يريد أن يعرف نوايا معاوية؟

قال عبـد الله : تماما، كان يريد أن يثبت ولايته علي الكوفة ، وليس الاعتزال عنها، ففكر في الأمر كثيرا .. حتي توصل إلي خطة تدفع معاوية إلي أن يثبته في مقامه، وذلك بأن يعرض علي معاويـة خلافـة يزيد، وكان يعرف أن لمعاوية كل الهوي في مثل هذا الأمر، رغم الشك الكثير الذي كان يحوم حول يزيد. صحيح أن المسلمين سكتوا علي خلافة معاوية بقوة السلاح والخداع والمال، لكن أمر يزيد يختلف تماما ، فهو متجريء علي الله ورسوله، ومجاهر بالفسق والفجور.

1- (1) تجارب الأمم، ج 2، ص 35.
2- (2) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 3، ص 503.

قال عبد الرحمن : وماذا حدث بين معاوية والمغيرة؟

قال عبد الله : إن المغيرة دخل أولا ـ علي يزيد وقال له: «إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وآله، وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم، وأحسنهم رأيا، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة»؟

فقال له يزيد مستغربا : أو تري ذلك يتم؟

قال المغيرة : نعم.

ثم خرج من عنده، فدخل يزيد علي أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضره معاوية وقال له : ما يقول يزيد عنك؟

قال المغيرة : يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس، وخلفا منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة .

فقال معاوية: ومن لي بهذا؟

قال المغيرة : أنا أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك «زياد» أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

فقال معاوية : فارجع إلي عملك، وتحدث مع من تثق إليه في ذلك، وتري ونري.

فخرج المغيرة من عند معاوية ورجع إلي أصحابه ، فقالوا له : ماذا ورائك؟

فقال المغيرة : لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية علي أمة محمد صلي الله عليه و آله و سلم ، وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا.

وتمثل يقول الشاعر:

بمثلي شاهد النجوي * وغالي بي الأعداء والخصم الغضابا

ثم رجع مع أصحابه حتي قدم الكوفة، وبدأ يذاكر من يثق إليه، ومن يعلم أنه من شيعة بني أمية، فتحدث معهم حول أمر يزيد، فأجابوا إلي بيعته. فأوفد منهم أربعين رجلا إلي الشام، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسي بن المغيرة، فقدموا علي معاوية وزينوا له بيعة يزيد، ودعوه إلي عقدها.

فقال معاوية : لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا علي رأيكم.

ثم قال لموسي بن المغيرة سرا : بكم اشتري أبوك من هؤلاء دينهم؟

قال موسي : بثلاثين ألف درهم.

فقال معاوية : لقد هان عليهم دينهم.

*

و بعد رجوع هؤلاء النفر إلي الكوفة، قوي عزم معاوية علي أخذ البيعة ليزيد، بعد أن اطمأن إلي وضع ثلث المدينة .

ثم أرسل رسالة إلي «زياد ابن أبيه» وكان واليه علي البصرة ليستمزج رأيه، ويستشيره في بيعة يزيد. ومع أن زيادا كان له هوي في بني أمية، وعلي الخصوص في معاوية الذي نسبه إلي أبيه، وجعله أخا له، بعد أن كان معروف بزياد ابن أبيه، فأصبح زياد بن أبي سفيان، مع ذلك فإنه لم يكن مرتاحا إلي خلافة يزيد، ليس

بسبب تقواه، وإنما خوفا من خسارة بني أمية لسلطانهم، لأن الناس لا يرغبون في خلافة شاب فاسق نزق مثله.

ثم إن زياد ابن أبيه أحضر عبيد بن كعب، وقال له: «إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودعا.. وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، أن أمير المؤمنين معاوية كتب يستشيرني في بيعة يزيد، وهو يتخوف من نفرة الناس، ويرجو طاعتهم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين معاوية ، واذكر له فعلات يزيد، وقل له: رويدك بالأمر، فأحري لك أن يتم لك، لا تعجل فإن دركا في تأخير، خير من فوت في عجلة»

فقال له عبيد بن كعب: أشير عليك بغير هذا ؟

قال زياد: وما هو؟

قال عبيد بن كعب: «لا تفسد علي معاوية رأيه، ولا تبغض إليه إبنه، وألقي أنا يزيد، فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له، وأن زيادا يتخوف من خلاف الناس عليك لهنات ينقمونها عليك، ولذلك فإنا نري أن نترك ما ينقم عليه الناس، لتستحكم له الحجة عليهم ويتم ما تريد، فتكون قد نصحت أمير المؤمنين، وسلمت مما تخاف من أمر الأمة» .

فقال زياد: أشخص علي بركة الله – يعني إفعل – فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغش، وتقول بما تري.

فقدم عبيد بن كعب علي يزيد، فذكر ذلك له، فأظهر يزيد

تصميمه علي الكف عن كثير مما كان يصنعه أمام الناس، وكتب زياد معه إلي معاوية يشير عليه بأن لا يعجل(1) .

كما كتب معاويـة إلي كل من مروان بن الحكم، وسـعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وهم من أركان نظامه في المدينة ، يسـتطلعهم أمر بيعة يزيد. فأشاروا عليه بالتأني في أمره، وأن لا يعجل حتي يطالع أهل المدينة في ذلك.(2)

والغريب أن معاوية لم يواجه رفض البيعة ليزيد من قبل أركان نظامه فحسب، بل واجه ذلك حتي في بيته، حيث إن زوجته فاختة بنت قرضة بن حبيب بن عبـد شـمس، كانت تكره بيعـة يزيـد، وتود لو أثر معاويـة بالبيعـة إبنها عبد الله ، فقالت له: «ما أشار به عليك المغيرة، أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك، يتمني هلاكك كل يوم» .

وممّن عارض معاوية علي البيعة ليزيد، سعيد بن عثمان، الذي كان يري نفسه أحق من يزيد بالخلافة، لأنه ابن عثمان بن عفان الذي استولي معاوية علي الخلافة باسمه، فقال لمعاوية : «يا أمير المؤمنين، علام تبايع ليزيد وتتركني، فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وأنك إنما نلت ما نلت بأبي».

فقـال له معاويـة ضاحكا: «حاشا يابن أخي، أما قولك أن أباك خير من أبيه، فيوم من عثمان خير من معاويـة ، وأما قولك أن أمك خير من أمه ففضل قرشية علي كلبية فضل بين، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 504 - 505؛ ونهاية الأرب، للنويري، ج 20، ص 348 - 351.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 225.

بأبيك، فإنما الملك يؤتيه الله من يشاء، قتل أبوك فتواكلته بنو العاص، وقامت فيها بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منّة عليك، وأما أن تكون خيرا من يزيد، فوالله ما أحب أن داري مملوئة مثلك بيزيد، ولكن دعني من هذا القول، وسلني أعطيك، ثم ولاه ولاية خراسان»(1).

وهكذا كان كبار بني أمية يمنون أنفسهم الخلافة بعد معاوية ، ما دامت الموازين قد تبدلت ، بعد أن لم يعد العلم والحكمة والعدالة مطلوبة لتولي الحكم، و إنما المساومات و«أنا أحق به لأنك عن طريقنا وصلت إلي الحكم»، وما شابه ذلك.

وعلي هـذا النحو ولـدت بيعـة يزيـد بين التوجس من كبار بني أمية والمساومة مع الولاة، والإكراه للناس، وبهذه الجفوة قوبلت القضـية بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء، وظاهر من اللحظات الأولي أن المغيرة بن شـعبة كان سـمسارا يصافق علي ما لا يملك، فقبض ولاية الكوفة ثمنا لسمسـرته هـذه ومنع الخلاف في غيرهما ، بينما الكوفـة أول من كره بيعة يزيد، والبصـرة تلكأت في الجواب، وواليها زياد ابن أبيه أرجأ الأمر وأوصـي بالتمهل. وأطراف الدولة من ناحية همدان سارت، والحجاز استعصت علي بني أمية سنوات، وفي اليمن لم يكن هنالك نصر للأمويّين(2) .

قال عبد الرحمن : ومع أن زياد لم يكن من رأيه استخلاف يزيد، إلا أن معاوية بقي مصرا علي أمره، أليس كذلك؟

قال عبد الله : هذا صحيح، ولكنه أخذ يبحث علي الأقل عن

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 213 و214؛ والأغاني، ج 18، ص 188.
2- (2) أبي الشهداء الحسين بن علي، لعباس محمود العقاد، ص 202 و 204.

الإجماع بين قومه علي أمر ولده، وأعتقد أنه كان ينتظر شيئا. نعم؛ هو ماض في ذلك، غير أنه يريد ترتيب الأمور أكثر.

*

بعـد أن أيّد أهل الشام معاويـة لاختيار يزيـد خليفة من بعده ، كتب بيعته إلي الآفاق، وكان أكثر ما يهمه أمر الحجاز، فكتب إلي مروان بن الحكم، عامله هناك، أن يجمع رؤساء القوم ويأخـذ البيعة منهم، لكن مروان كان يطمع في الخلافة من بعد معاوية ويعتبر نفسه أولي بها من إبنه، فتلكأ في ذلك، بل وأغري رؤوس قريش بالامتناع عن البيعة. فعزله معاوية، وولي سـعيد بن العاص مكانه، لكن الرجل أيضا فشل في أن يسـتطيع أخذ البيعة ليزيد من أهل الحل والعقد، فتدل معاوية شخصـية، وأخذ يكتب الرسائل إلي رؤوس القوم، وكان ممن كتب إليهم عبد الله بن عبـاس، وعبـد الله بن الزبير، وعبـد الله بن جعفر، والحسـين بن علي.. وأمر عـامله سـعيدا أن يوصـل كتبه هـذه إليهم، ويبعث إليه بجواباتهم.

وكان فيما قال لسـعيد: «فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس، وقـد كتبت إلي رؤسائهم كتبا فسـلمها إليهم، ولتشـتد عزيمتك، وتحسب نيتك، وعليك بالرفق، وانظر «حسـيناً» خاصة، فلا يناله منك مكروه، فإن له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسـلم ولا مسـلمة ، وهو ليث عرين، ولست آمنك إن ساورته أن لا تقع عليه . فأما من يرد مع السباع إذا وردت، ويكنس إذا كنست، فذلك عبد الله بن الزبير، فاحذره أشد الحذر»(1).

ص: 28

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ، ج 1، ص 154.

فأعيت سـعيد بن العاص كل حيلـة في إقناع وجهاء الناس وعامتهم بهـذه البيعـة البغيضة، فقرر معاوية أن يذهب بنفسه إلي مكة والمدينة ، ومعه الجنـد وحقائب الأموال. فقطع الطريق كله من الشام إلي الحجاز لتثبيت بيعة ابنه، وهناك دعا بأولئك النفر الذين كتب الرسائل إليهم، فقال لهم: «قـد علمتم سـيرتي فيكم، وصـلتي لأرحامكم، ويزيـد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقـدموا يزيـد باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون، وتجلبون المال وتقسّمونه» .

فتصدي له عبد الله بن الزبير، الذي كان هو الآخر يطمع في الخلافة، وخيره بين أن يصـنع كما صنع أبو بكر، إذ عهد إلي رجل ليس من بني أبيه، أو كما صنع عمر، إذ جعل الخلافة شوري في ستة نفر، ليس فيهم أحد من ولده، ولا من بني أبيه.

فقال معاوية مغضبا : وهل عندك غير هذا؟

قال ابن الزبير : لا.

فالتفت معاوية إلي الآخرين يسألهم قائلا : فأنتم؟

فكانوا بين من سكت، وبين من وافق ابن الزبير، وبين من خالف، فقال متوعدا : «لقد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إلي القائم منكم، فيكذبني علي رؤوس الناس، فأحلم عن ذلك وأصفح».

ثم أخبرهم أنه سوف يجمع النـاس ويقوم فيهم خطيبا، فلو ردوا عليه فسوف يقتلهم فورا، وقال: «إني قائم بمقالـة، ليس أقول قولا ، فأقسم بالله لأن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع

إليه كلمة غيرها حتي يسبقها السيف إلي رأسه، فلا يبقين رجل إلا علي نفسه »!

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم علي رأس كل واحد منهم رجلين بيدهما السيف، وقال لهما: «إن ذهب رجل منهم يرد علي بكلمة، سواء بتصديق، أو بتكذيب، فاضرباه بسيفكما».

ثم خرج بهم إلي المسجد ورقي المنبر، فحمد الله وأثني عليه وقال: «هؤلاء، سادة المسلمين وخيارهم، لا يبرم أمر دونهم، ولا يقضي إلا علي مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوه».

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز (1).

وكان معاوية لا يسمع بأحد يتوقع أن يرفض بيعة يزيد، أو يخالفه في ذلك إلا وأرسل له مبلغا من المال، أو يهدده بالقتل، حتي أن أحدهم وهو عقيبة الأسدي، وكان شاعر أهل البصرة، يكره بيعة يزيد ويبغضه، وأنشأ في ذلك يقول :

معاويُ إنّنا بشر فاسجع * فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا فجردتموها * فهل من قائم أو من حصيد

أتطمع في الخلود إذا هلكنا * وليس لنا ولا لك من خُلود

فهبها أمّة هلكت ضياعاً * يزيد يسوسها وأبو يزيد

دعوا حق الخلافة واستقيموا * وتأمير الأراذل والعبيد

وأعطونا السويّة لا تزركم * جنود مردفات بالجنود

1- (1) تاريخ خليفة، ص 131 - 133؛ والعقد الفريد، ج 5، ص 121؛ وتاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص 197.

فأرسل إليه معاوية بعشرة آلاف درهم ليكف لسانه، واشتري بذلك ضميره، فأنشأ له الأبيات التالية :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر * ومروان، أم ماذا يقول سعيد

بني خلفاء الله مهلا فإنما * يبوأها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلاه ربه * فإن أمير المؤمنين يزيد

علي الطائر الميون والجد صاعد * لكل أناس طائر وجدود

فلا زلت أعلي الناس كعبا ولم تزل * وفود تساميها إليك وفود

ولا زال بيت الملك فوقك عاليا * تشيّد أطناب له وعمود

ولم يزل معاوية يروض الناس علي بيعة يزيد، ويعطي المقارن ويداني المتباعد، حتي مالوا إليه، وأجابوه إلي ذلك(1).

واستمرّ بهذه السياسة بروِّض الناس في كل موسم، فلم يزل علي ذلك سبع سنين. وفي سنة خمس وخمسين كتب إلي أهل الأمصار أن يقدموا عليه،فقدم عليه قوم من أهل الكوفة، وأهل البصرة، وأهل مكة والمدينة، وأهل مصر، والجزيرة، ومن جميع البلاد، فاستشارهم في البيعة ليزيد.

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 228.

فقام إليه رجل من أهل المدينة يقال له محمد بن عمرو بن حزم، فقال: «يا معاوية ؛ إن يزيد أهل لما تريد أن ترسمه له، وهو لعمري غني في المال، ووسيط في النسب، غير أن الله سبحانه سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله يا معاوية، وانظر من تولي أمر أمة محمد صلي الله عليه و آله و سلم » .

و فتنفس معاوية الصعداء ثم قال: «يابن عمرو، أنت رجل ناصح، وإنما قلت برأيك، ولم يكن عليك إلا ذلك، غير أنه لم يبق من أولاد الصحابة إلا ابني وأبناؤهم، وابني أحب إلي من أبنائهم» .

فسكت الناس وانصرفوا يومهم(1).

*

واستمر الحوار فيما بين الصديقين عبد الله وعبد الرحمن بخصوص ما تواجه الأمة من مصير خطير ..

وما برحا علي هذا الحال حتي أقفل عبد الرحمن راجعا إلي المدينة المنورة بعد أن أنهي زيارته للكوفة. *

ولم تمض فترة طويلة علي افتراق هذين الصديقين، حتي حان موسم الحج، فشد عبد الله رحاله، قاصدا مكة المكرمة لأداء المناسك.

وفي سفره هذا قصد المدينة المنورة ليزور رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ويصلي في مسجده .. وهناك توجه إلي صديقه عبد الرحمن ونزل عنده .

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 229.

وما إن استراح قليلا من وعثاء السفر، حتي بادره عبد الرحمن بالسؤال: ما الذي ورائك يا عبد الله؟

قال عبد الله : إنّ الصالحين من عباد الله، خاصة أهل الكوفة ، ضاقوا ذرعا بمعاوية، ورغبوا بعد وفاة الحسن في أن ينهض الحسين بالأمر ويغير ما هم عليه ، فقد اجتمع المؤمنون ومعهم بني جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، في دار سليمان بن صرد الخزاعي، وكتبوا إلي الحسين عليه السلام يعزونه علي مصابه بأخيه. وكان مما جاء في الكتاب :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

«إلي الحسين بن علي بن أبي طالب، من شيعته وشيعة أبيه .

أما بعد، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي علي محمد وآل محمد، وقد بلغنا وفاة أخيك الحسن عليه السلام ، فرحمه الله يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حيا ، وغفر الله له وضاعف حسناته، وألحقه بدرجة جده وأبيه ، وضاعف لك الأجر بالمصاب، وجبر مصيبتك من بعده، فعند الله نحتسبه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أصيبت به هذه الأمة عامة، وما رزيت به خاصّة .

«ولقد رزئت بالرزء العظيم، وأصبت بالمصاب الجليل، فاصبر يا أبا عبد الله علي ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور، وإنك والحمد لله خلف لمن كان قبلك، والله تعالي يعطي رشده لمن سلك سبيلك ويهتدي بهدايتك، ونحن شيعتك المصابون بمصيبتك ، المحزونون بحزنك، المسرورون بسرورك، المنتظرون لأمرك. شرح

الله صدرك، وأعلي شأنك، ورفع قدرك، ورد عليك حقك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فكتب الإمام الحسين عليه السلام في جوابهم: «إني لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشدا وسدادا ، فألصقوا بالأرض وأكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام ابن هند (معاوية)حيا، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتيكم رأيي إن شاء الله»(1)

وهكذا فقد كانت هنالك ضغوط علي الحسين عليه السلام لكي ينهض في زمن معاوية، إلا أنه كان يمتنع ويقول لمن يصر عليه: «إن بيني وبين معاوية عهدة وعقدة لا يجوز لي نقضه، حتي تمضي المدة، فإذا مات معاوية نظرنا في ذلك»(2).

كما أن كثيرين كانوا يأتون إلي الحسين عليه السلام وهو في المدينة يطلبون منه النهضة ويبدون استعدادهم لنصرته، ولكنه كان يأمرهم بالتوقف عن القيام بأي عمل، فكان فيما قال لبعضهم: «ليكن كل امريء منكم حلسا من أحلاس بيته ما دام هذا الرجل حيا، فإن يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يخير الله لنا، ويأتينا رشدنا، ولا يكلنا إلي أنفسنا، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

وقال للمسيّب بن نجبة الذي جاء علي رأس وفد من رجال الكوفة يطالبونه بخلع بيعة معاوية قائلين: «لقد علمنا رأيك ورأي أخيك من قبل».

1- (1) مقتل أبي مخنف المشهور، ص 5 و 6.

2- (2) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 30.

فأجابهم الحسين: «إني لأرجو أن يعطي الله أخي علي نيته في حبه الكف، وأن يعطيني علي نيتي في حبي جهاد الظالمين»(1).

ومع أن رأي الحسين في عهد معاوية لم يكن في النهضة ضده ، كما بين ذلك لكثيرين، سواء في رسائله الجوابية أو في كلماته المباشرة، إلا أن اختلاف الناس إليه، وزيارتهم له وإجلالهم المقامه، وتعظيمهم لفضله، ودعواتهم له بالنهوض أثارت مخاوف بني أمية، ليس فقط لأنهم كانوا يخشون استجابة الحسين لهم، بل لأن مخاوف بعضهم كانت تمتد إلي ما بعد معاوية .

فأشخاص، مثل مروان بن الحكم كان له هوي في الخلافة بعد معاوية، ولم يكن يخفي ذلك، كان يخشي أن يكون إذا مات معاوية أن يعدل الناس بالحسين أحدا.

ولقد حدث أن عمرو بن عثمان بن عفان جاء إلي مروان بن الحكم في أيام ولايته من قبل معاوية علي المدينة، وقال له : قد كثر اختلاف الناس إلي الحسين، وإني لأري أن لكم منه يوما عصيباً .

فكتب مروان ذلك إلي معاوية، وكان ممّا ذكره في كتابه : «إنّي لست آمن أن يكون الحسين مرصدا للفتنة، وأظن يومكم من الحسين طويلاً»(2).

وأمثال هؤلاء في الحقيقة كانوا يرغبون في أن يقدم معاوية علي اغتيال الحسين عليه السلام بطريقة أو بأخري، كما فعل بأخيه

1- (1) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 197؛ البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص 162.
2- (2) مختصر ابن منظور، ج 7، ص 137؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 198.

الحسن عليه السلام ، حتي لا يكون الحسين غدا عقبة أمام سلطتهم وطغيانهم. لكن معاوية لم يكن يري خطرا علي سلطانه آنذاك، لأنّ الحسين لم يكن فعلا ينوي القيام بشيء، كما ذكرنا . فكتب معاوية إلي مروان: «أترك حسينا ما تركك، ولم يظهر لك عداوة، وما لم يبد لك صفحته ، واكمن عنه كمون الثري إن شاء الله، والسّلام»(1).

*

قال عبد الرحمن الصالح لعبد الله بن مسلم : أظنُّ إنّ نفوس الناس تغلي في صدورهم مما يجري، فكم من قتل فظيع في صفوف الصالحين، وكم من استئثار لما الناس فيه أسوة، وكم من تهجير لمن هم مع أهل البيت عليهم السلام ، لكن أري أن معاوية استعمل الحكمة حينما لم يستجب لدعوات بعض المتزلفين في قتل الحسين أو نفيه أو سجنه .

فقال عبد الله بن مسلم : لم تكن تلك حكمة منه، وإنما كان مجبراً علي ذلك .

قال عبد الرحمن : ومن الذي أجبره؟

قال عبد الله بن مسلم : مقام الحسين وموقعه في نفوس الناس، خاصة وأنه لم يفعل شيئا، فلم يعطي عذرا لمعاوية في ذلك.

قال عبد الرحمن : أتري أن الحسين عليه السلام يري لمعاوية حقا في سلطانه ؟

1- (1) أنساب الأشراف، ج 3، ص 152؛ جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 367.

قال عبد الله بن مسـلـم : ليس هنالك من المؤمنين حتي شخص واحد يري حقا لمعاوية في الحكم، فلا هو وصي رسول الله صلي الله عليه و آله و سـلم، ولا هو ممن بايعه الناس، إنما اسـتعمال السـيف، والمال، والخديعة، وتخلي الناس عن الدفاع عن الحق هو الذي جاء به إلي السلطان.

فقال عبد الرحمن: هل تظن أن معاوية يخاف الحسين؟

قال عبد الله بن مسـلـم : نعم؛ لأن الحسـين عليه السـلام سـيّد بني هاشم، ولا يخفي علي أحد فضله ومنزلته.. وهو أولي الناس برسول الله صلي الله عليه و آله و سـلم. ولم يقم بالنهضـة ضد معاوية وبطشه، إلا لالتزامه بمعاهدة الصـلح التي وقعها مع الحسن عليه السـلام ، وإلا فالوضع بالتأكيد سيكون غير الذي نحن عليه اليوم.

فقال عبد الرحمن : ولكن ما هي تفاصيل أخذ البيعة من قبل معاوية لابنه يزيد؟

قال عبد الله بن مسـلـم: إنّ معاوية بن أبي سفيان بعث إلي الضّحاك بن قيس، فدعاه وقال : «إني قد عزمت علي الكلام لبيعة يزيد، فإذا غص المجلس بأهله، ورأيتني ساكتا فكنت أنت الذي تدعوني إلي أمر بيعته، وحضّني علي ذلك».

فلما كـان من الغـد أرسـل معاويـة إلي وجوه من الناس، فأحضـرهم بمجلسه، فلما اجتمعوا بـدأ بالكلام، فحمـد الله وأثني عليه، ثم عظم الإسلام وعظم حرمته، وذكر ما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله في قريش وعلمه بالسياسة.

فقام الضحاك بن قيس وقال: «يا أمير المؤمنين، إنه لابد

للناس من وال بعـدك وولي عهـدك، فإنا قـد بلونا الجماعـة والفرقة ، فوجدنا الجماعة والألفة أحقن للدماء، وآمن للسـبل، وخيرا في العاجلة والآجلـة، والأيام عوج رواجع، ولله في كل يوم أمر وشأن، ولا تـدري ما يختلف به العصـران، وينقلب به الحدثان، ويزيد ابن أمير المؤمنين في هديه وقصد سـيرته، وهو من أفضـلنا حلما وأكرمنا علما ، فوله عهدك، واجعله لنا علما بعدك، يكون مفزعا نلجأ إليه، وخليفة نعول عليه، تسكن به القلوب وتأمن به الفتن».

ولمّا سكت الضحاك ، قام عمرو بن سعيد الأشدق وقال :« أيها الناس، إن يزيد الطويل الباع، وسيع الصدر، رفيع الذكر، إنّ صرتم إلي عدله وسعكم، وإن لجأتم إلي جوده أغناكم، وهو خلف الأمير المؤمنين ولا خلف منه».

فقال له معاوية : اجلس أبا أمنية، فقد أوسعت و أحسنت .

ولمّا جلس الرجل، قام يزيـد بن المقنع الكنـدي وبيده سـيف، فقال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين هذا . وأشار بيده إلي معاوية – فإذا مات فهذا – وأشار بيده إلي يزيد – فمن أبي فهذا – وأشار بيده إلي السيف ـ.

فقال له معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء .

ثم قام الحسين بن نمير السكوني، فقال : يا معاوية ، والله لأن لقيت الله ، ولم تبايع ليزيد فتكوننّ مضيعاً للأمّة!

فالتفت معاوية إلي الأحنف بن قيس وقال : يا أبا بحر، ما يمنعك من الكلام؟

قال الأحنف: «أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره، ومدخله

ومخرجه، وسرّه وعلانيته ، فإن كنت تعلمه الله عزّ وجلّ ولهذه الأمة رضا، فلا تشاورنّ فيه أحدا من الناس، وإن كنت تعلم الله غير ذلك فلا تزوده الدنيا ، وأنت ماض إلي الآخرة، فإن قلنا ما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا .

فقال معاوية : «أحسنت يا أبا بحر، جزاك الله عن السمع والطاعة خيراً».

ثم أمر الناس أن يبايعوا يزيد، فبايعوه، وانصرفوا إلي منازلهم (1).

فلما انفضّ المجلس، وخرج الضحاك، الرجل الذي حث معاوية علي أن يولي يزيد أمور المسلمين، لقيه الأحنف بالباب، فقال الرجل وهو يبرر كلامه : «يا أبا بحر، إني لأعلم أن شـر من خلق الله هو هذا وابنه - يقصد معاوية ويزيد - ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت».

فقال له الأحنف : «يا هذا، أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها»(2).

*

قال عبـد الله بن مسـلم لصاحبه: ألا تري يا عبـد الرحمن كيف أن معاويـة يقلد الأباطرة وملوك الهند والرومان والفرس الذين كانوا يأخذون البيعة لأولادهم في حياتهم من دون أن يكون للدين وقيمه ،

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 230 و232.
2- (2) الكامل، للمبرد، ج 1، ص 30.

وما جاء به رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وما اشترطه رب العالمين، فيمن يتولي أمور الناس أي دخل في ذلك؟

إنه حاكم بيده المال والسلطان، فمن أطاعه أعطاه، ومن امتنع عليه ضرب عنقه، وبهذه الطريقة يأخذ البيعة لابنه يزيد طوعا أو كرها .

ولقد بين هذا المعني عبد الرحمن بن همام السلولي في أبيات له يخاطب بني أمية، يقول:

فإن تأتوا برملة أو بهند * نبايعها أميرة مؤمنينا

إذا ما مات كسري، قام كسري * نعد ثلاثة متناسقينا

فيا لهفالو أن لنا ألوفاً * ولكن لا نعود كما عنينا

إذن لضربتم حتّي تعودوا * بمكّة تلعقون بها السخينا

حشينا الغيظ حتّي لو شربنا * دماء بني أمية ما روينا

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم * تصيدون الأرانب غافلينا(1).

ثم إنّ معاوية لم يكتف لتثبيت ولاية العهد ليزيد بإصدار الأوامر إلي الولاة في البلدان بأخذ البيعة لولده، وإنما أشغل الدولة كلها بهذه القضية، فكان هو شخصيا يعقد بين فترة وأخري مجالس يتفق سلفا مع بعض المتكلمين حتي يمدحوه، ويمدحوا ولده، ويحثوا الناس علي إطاعة يزيد.

فكان أحيانا يجلس جلسة عامة ويأذن للوفود بالدخول عليه ، ويتقدم إلي أصحابه أن يقولوا في يزيد ما ليس فيه. فانعقدت

1- (1) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 37.

المجالس في كلّ مكان، وكلها مسخّرة لمدح الرجل، وكأنّ الأمة عجزت عن أن تلد مثله ..

وممّا قاله بعضـهم في إحدي المجالس: «إنّ يزيد أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلي عدله وسعكم، وإن طلبتم رفده أغناكم، جذع قارح.. سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، خلف من أمير المؤمنين، ولا خلف منه»(1)

*

قال عبد الله بن مسـلم : غريب، أن القوم اسـتكثروا علي رسول الله صـلي الله عليه و آله و سلم أن يعين خليفة من بعده، وحرفوا معاني كل الكلمـات الـتي قالهـا في حق عليّ عليه السـلام مثـل من قوله: «من كنت مولاـه فعليٌّ مولاـه»(2). وقوله: «أقضـاكم عليّ (3)، وأعلمكم عليّ»(4).. ومئات من أمثالها، وأنكروا أخذ البيعة له في غدير خم، ولكن اعتبروا تعيين معاوية لخليفته أمرا شرعياً.

أليس ذلك هو التلاعب بالدين؟

ألم أقـل لـك إننا إذا أردنا أن نوزن الأمور بالموازين التي جاء بها رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم و لكنّا نحن في واد، والـدين في وادٍ آخر؟

ص: 41

1- (1) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج 4، ص 369.

2- (2) الكافي، الشيخ الكليني، ج 1، ص 287.

3- (3) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج 2، ص 163.

4- (4) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج 6، ص 306.

قال عبد الرحمن : هذا صحيح، ولكنّه الملك والسلطان كما تعرف، ولكلّ متطلّباته .

قال عبد الله بن مسلم : وهذا ما أردت أن أقوله، أنه هو الملك والسلطان لا الدين والبرهان، فلا يجوز لنا أن نعتبر ما يجري دينا، وهذا معني كلام رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم الذي قال لقومه ذات يوم : «ألا وإن السلطان والقرآن لمجتمعان، ألا وإنّهما سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم».

قالوا : فكيف نصنع يا رسول الله؟

قال: «كما صنع أصحاب عيسي ابن مريم، حملوا علي الخشب ونشروا بالمناشير. موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله»(1).

فقال عبد الرحمن : لكن أخبرني هل قبل كل رجال بني أمية بيعة يزيد؟ وماذا عمن كان يطمح في الخلافة؟

قال عبد الله بن مسلم : تقصد مروان بن الحكم؟

قال عبد الرحمن : نعم، وأمثاله .

قال عبد الله بن مسلم : سبق وأن قلت لك إن هذا الرجل كان يريد الخلافة لنفسه، وكان يخطط لها، ولذلك حينما أرسل معاوية الكتب ببيعة يزيد إلي الأمصار كتب إلي مروان وهو واليه علي المدينة يعلمه باختياره يزيد خليفة له ومبايعته إياه بولاية العهد،

1- (1) سبيل الهدي والرشاد، الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ج 10، ص 136.

ويأمره بمبايعته وأخذ البيعة له من الناس، فخرج مروان مغضبا في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتي أتي دمشق فنزلها، ودخل علي معاوية يمشي بين السماطين، حتي إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته، سلم، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية .

وكان ممّا قال: «أقم الأمور يابن أبي سفيان، وأعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراء، وأن لك علي منازلهم وزراء».

فغضب معاوية من كلامه غضبا شديدا، لكنّه كظم غيظه، وأخذ بيد مروان وبدأ يمدحه وقال: «أنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وعدّته في كل شدّة وعضده، والثاني بعد وليّ عهده، فقد ولّيتك قومك، وأعظمت في الخراج سهمك، وأنا مجيز وفدك، ومحسن رفدك ، وعلي أمير المؤمنين غناك، والنزول عند رضاك».

وبذلك فقد عيّن مروان مستشاره الثاني بعد ولي عهد يزيد، لحمله علي قبول البيعة ليزيد، ورده إلي المدينة(1).

وكعادته، فقد أغدق عليه أموالا كثيرة، حتي قيل إن أول ما رُزق ألف دينار في كل هلال، وفرض له في أهل بيته مائة مائة.

ولمّا رجع مروان إلي المدينة أرسل إلي وجوه أهلها، فجمعهم في المسجد الأعظم، ثمّ صعد المنبر، فحمد الله وأثني عليه، وذكر الطاعة وحض عليها، وذكر الفتنة وحذّر منها .

ثم قال: «أيّها الناس؛ إنّ أمير المؤمنين قد كبر سنّه، ورقّ جلده وعظمه، وخشي الفتنة من بعده، وقد أراه الله رأياً حسناً، وقد

1- (1) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 37 و 38.

أراد أن يختار لكم وليّ عهد يكون من بعده لكم مفزعاً، يجمع الله به الألفة، ويحقن به الدماء، وأراد أن يكون ذلك عن مشورة منكم وتراض، فماذا تقولون؟

فقال الناس من كل جانب: إنا لا نكره ذلك، إذا كان لله فيه رضي.

فقال مروان: «إنه قد اختار لكم الرضي الذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، وهو ابنه يزيد».

فسكت الناس وتعجّبوا، ولكن عبد الرحمن بن أبي بكر قام وقال: «كذبت والله يا مروان، وكذب من أمرك بهذا، والله ما يزيد برضي، ولكنكم تريدونها هرقلية».

فقال مروان : أيها الناس؛ إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : (والذي قال لوالديه أفّ لّكما) (1).

فغضب عبد الرحمن بن أبي بكر، فرفع صوته قائلا : يابن الزرقاء، فينا تتأول القرآن، وأنت الطريد ابن الطريد؟

ثم تكلّم كلّ من الحسين بن علي عليه السلام ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر، وأنكروا بيعة يزيد. فضجّ بنو أميّة في المسجد، وتكلّموا ضد عبد الرحمن، وبلغ ذلك عائشة، فخرجت من منزلها ملتفّة بملائة لها ومعها نسوة من قريش، حتّي دخلت المسجد. فلمّا نظر إليها مروان كأنّه فزع منها، فقال : نشدتك الله يا أمّ المؤمنين إن قلت إلا حقّاً.

1- (1) سورة الأحقاف، آية 17.

فقالت عائشة: «لا قلت إلا حقّا، أشهد لقد لعن رسول الله أباك، ولعنك معه، وأنت الطريد ابن الطريد، أنت تكلّم أخي عبد الرحمن بما تكلّمه»؟

فسكت مروان، ولم يرد عليها، ورجعت عائشة إلي منزلها، وتفرق الناس.

فكتب مروان إلي معاوية رسالة يخبره بذلك، وبما كان من عبد الرحمن بن أبي بكر، فلما قرأ معاوية الكتاب أقبل علي جلسائه فقال: «عبد الرحمن شيخ قد خرف، وذهب عقله ويجب أن نكف عنه، ونتحمل ما يكون منه، فليس هذا من رأيه، ولكن من رأي غيره»(1).

قال عبد الله بن مسلم: يا عبد الرحمن ؛ إن تثبيت خلافة يزيد لم يكن سهلا، لأن معاوية ساعدته الظروف، بعد أن تخاذل الناس عن حقّ عليّ والحسن، ولكن يزيد خلاصة أبي سفيان، ويمثل في الإسلام دور جدّه في الجاهليّة، ومعني ذلك عودة الجاهلية وانتصارها علي الدين في ظاهر الأمر وباطنه، خاصّة وأنّ الكل يعرف من هو هذا الشاب المغرور الذي لا يحافظ حتّي علي ظواهر الدين، فيشرب الخمور علنا، ويلعب القمار، ومشغول دائما بالصّيد، وأمه غير مسلمة، بالإضافة إلي رعونته في التعامل مع الناس، ولذلك فإن الدولة كما قلت انشغلت كلّها، من رأسها إلي آخر موظف فيها، بتثبيت خلافة يزيد وأخذ البيعة له.

فقد بدأ معاوية يكتب رسائل شخصية إلي مختلف الرجال،

ص: 45

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 235.

مستغلا قوّة سلطانه، كحاكم مطلق لم يكن يتقي الله في يوم من الأيام في إراقة دم من يخالفه، غيلة أو علنا أو أي شيء.

ألم يكن هو الذي أرسل بسر بن أرطأة لغزو بلاد المسلمين علي الطريقة الجاهلية، في قتل الرجال وسبي الذراري والنساء؟

ألم يكن هو الذي قتل عمار بن ياسر، الذي قال عنه رسول الله : «تقلتك الفئة الباغية»؟(1) .

ألم يكن هو الذي قتل محمد بن أبي بكر، ووضع جثمانه في جلد حمار وأحرقه؟

وبهذه الأعمال زرع الرعب في قلوب الناس وخافوا سلطانه ، ومن جهة أخري فإن الرجل فتح أبواب بيت المال علي مصراعيها الشراء الضمائر.

ومن جملة من كتب إليهم سعيد بن العاص وهو واليه علي المدينة، يأمره أن يدعو الناس إلي البيعة، ويكتب إليه بمن سارع ومن أبطأ. فلمّا أتي سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلي مبايعة يزيد وأظهر الغلظة، وأخذهم بالعزم والشّدّة، وسطا بكلّ من أبطأ عن ذلك. فأبطأ الناس عنها إلّا اليسير، ولا سيّما بنو هاشم، فإنّه لم يجبه منهم أحد. وكان من أشدّ الناس إنكاراً لذلك عبد الله بن الزبير وردّاً له.

فكتب سعيد بن العاص إلي معاوية : «أما بعد، فإنّك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين، وأن أكتب إليك بمن سارع ممّن أبطأ، وإني أخبرك أنّ الناس عن ذلك بطّاء، لا سيّما

1- (1) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج 1، ص 392.

أهل البيت من بني هاشم، فإنّه لم يجبني منهم أحد، وبلغني عنهم ما أكره، وأمّا الذي جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فهو عبد الله بن الزبير، ولست أقوي عليهم إلا بالخيل والرجال، أو تقدم بنفسك فتري رأيك في ذلك، والسّلام» .

فكتب معاوية رسائل إلي عبد اللّه بن عبّاس، وإلي عبد اللّه بن الزبير، وإلي عبد اللّه بن جعفر، وإلي الحسين بن عليّ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها .

*

قال عبد الرحمن لعبد الله بن مسلم: وماذا كانت في رسائل معاوية إلي رؤساء القوم وزعماء الأمة، وماذا كانت جواباتهم، هل تعلم شيئا من ذلك؟

قال عبد الله بن مسلم : نعم؛ أمّا رسالة معاوية إلي ابن عباس فكانت كما يلي: «أمّا بعد، فقد بلغني إبطائك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين، وإنّي لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليّ، لأنك ممّن ألب عليه وأجلب، وما معك من أمان فتطمئنّ به، ولا عهد فتسكن إليه، فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلي المسجد، والعن قتلة عثمان، وبايع عاملي، فقد أعذر من أنذر، وأنت بنفسك أبصر، والسّلام».

فقال عبد الرحمن: رسالة شديدة، وفيها تهديد؟

قال عبد الله : نعم؛ ولكن جواب عبد اللّه بن عبّاس كان أشدّ من الرسالة وفيها تحدّي.

قال عبد الرحمن : وماذا كتب فيها؟

قال عبد الله : كتب ابن عبّاس إلي معاوية يقول: «أمّا بعد،

فقـد جاءني كتابك و فهمت ما ذكرت، وأنّ ليس معي منك أمان، وإنّه والله ما منك يطلب الأمان يا معاوية، وإنّما يطلب الأمان من اللّه ربّ العالمين».

«وأمّا قولك في قتلي، فوالله لو فعلت للقيت الله ومحمد خصـمك، فما أخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم خصمه» .

«وأمّا ما ذكرت من أنّي من ألّب في عثمان و أجلب فذلك أمر غبت عنه، ولو حضـرته ما نسبت إليّ شيئا من التأليب عليه . و أيم الله ما أري أحداً غضب لعثمان غضبي، ولا أعظم أحد قتله إعظامي، ولو شـهدت لنصـرته أو أموت دونه، ولقد قلت وتمنّيت يوم قتل عثمان ليت الذي قتل عثمان لقيني فقتلني معه ولا أبقي بعده».

«وأمّا قولك لي: العن قتلـة عثمان، فلعثمان ولـد وخاصّة وقرابـة هـم أحقّ باللّعن منّي، فإن شاؤوا أن يلعنوا فليلعنوا، وإن شاؤوا أن يمسـكوا فليمسكوا، والسّلام»(1).

*

أما رسالـة معاويـة إلي عبـد الله بن جعفر فكانت تنصّ علي ما يلي: «أمّا بعد، فقد عرفت إثرتي إيّاك علي من سواك، وحسن رأيي فيك و في أهل بيتك، وقد أتاني عنك ما أكره، فإن بايعت تشكر، وإن تأبي دبر، والسّلام».

فكتب إليه عبد الله بن جعفر : «أمّا بعد، فقد جاءني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إثرتك إياي علي من سواي، فإن تفعل

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 154 و 155.

فبحطك أصبت، وإن تأبي فبنفسك قرت. وأما ما ذكرت من جبرك إياي علي البيعة ليزيد، فلعمري لئن أجبرتني عليها، لقد أجبرناك وأباك علي الإسلام، حتي أدخلناكما كارهين غير طائعين، والسلام»(1).

*

ثمّ إن عبد الله بن مسلم سكت هنيئة وتنهد قبل أن يقول الصحابه : أنظر، إن أهل البيت هم الذين حملوا راية هذا الدين يوم كان بنو أمية، وعلي رأسهم أبو سفيان وولده معاوية، يحملون راية الكفر والضلال فيمواجهة راية التوحيد، فكان أهل البيت مع رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وتحملوا في سبيل ذلك كل المصائب والمصاعب والموت والشهادة، فقتل منهم من قتل مع النبي، وبعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم كانوا هم الأمناء علي هذا الدين، يردون عنه كيد المنافقين، كما ردوا عنه من قبل كيد الكافرين، وكان المؤمنون الصالحون يعرفون أنهم هم الملجأ من الضلال، والمنجي من الهلاك بعد بيعة يزيد القسرية القيصرية التي اعتبرها الصالحون بمثابة بداية النهاية الإسلام، وكان هذا هو رأي الحسين بن علي عليهماالسلام ، حيث قال لمروان فيما بعد: «إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلي الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد»(2).

ولقد اكتشف الناس أنهم خدعوا، وأن بني أمية يريدون إعادة الجاهلية ، وقلع جذور الدين، وإتمام الانقلاب علي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، فأخذوا يختلفون إلي الحسين، ويلتجأون إليه. فأوجس معاوية خيفة

ص: 49

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ، ج 1، ص 155.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج5، ص17.

من الحسين عليه السلام وهو زعيم أهل البيت وسيدهم، وهو من لا يدانيه أحد، لا في الفضل ولا في العلم ولا في الأخلاق، وقد شبهه معاوية نفسه بالأسد الذي إذا نهض لا يقوم له أحد.

من هنا فقد كتب إلي الحسين قائلا : «أمّا بعد، فقد انتهت إلي منك أمور أرغب بك عنها، فإن كانت حقا لم أقارك عليها، وإن كانت باطلا فأنت أسعد الناس بذلك، وبحظ نفسك تبدأ وبعهد الله توفي. فلا تحملني علي قطيعتك والإساءة إليك، فإني متي تنكرني أنكرك، ومتي تكدني أكدك ، فاتق شق عصي هذه الأمة، وأن يرجعوا علي يدك إلي الفتنة ، فقد جربت الناس وبلوتهم، وأبوك كان أفضل منك، وقد كان اجتمع عليه رأي الذين يلوذون بك، ولا أظنه يصلح لك منهم ما كان فسد عليه، فانظر لنفسك ودينك ولأمّة محمد صلي الله عليه و آله و سلم، ولا يستخفكالسفهاء والذين لا يعلمون». .

فلما وصل الكتاب إلي الحسين عليه السلام كتب إليه : «أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر أنه قد بلغك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، فإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يستند إليها إلا الله» .

«وأما ما ذكرت أنّه انتهي إليك عني، فإنه إنما رؤاه إليك المقون المشاؤون بالنميمة، وما أريد لك حربا ولا عليك خلافا . «وأيم الله أنّي لخائف من الله في ترك ذلك، وما أظن الله راضية عي بترك محاكمتك إليه، ولا عاذري دون الإعذار إليه فيك، وفي أوليائك القاسطين الملحدين، حزب الظالمين وأولياء الشياطين».

وأضاف عليه السلام في رسالته:

«ألست أنت القاتل لحجر بن عدي، أخا كندة، والمصلين

العابـدين الـذين كانوا ينكرون الظلم، ويسـتعظمون البـدع، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ فقتلتهم ظلما وعدوانا، من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة، أن لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بأحنّة تجدها في نفسك، جرأة منك علي الله ، واستخفافا بعهده»؟

«أولست أنت قاتل عمرو بن الحمق، صاحب رسول الله صـلي الله عليه و آله و سلم، العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه، وصفر لونه، فقتلته بعدما أنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثمّ قتلته جرأة علي ربّك، واستخفافاً بذلك العهد»؟

«أولست المـدعي زياد بن سـميّة المولود، علي فراش عبيـد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك، وقـد قال رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». فتركت سـنّة رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم تعتمداً ، وتبعت هواك بغير هدي من الله، ثم سلّطته علي أهل الإسـلام، يقطع أيـدي المسـلمين وأرجلهم، ويسـمّل أعينهم، ويصـلّبهم علي جذوع النخل، كأنّك لست من هذه الأمّة، وليسوا منك»؟

«أولست صاحب الحضـرميين، الذين كتب فيهم ابن سـميّة : إنّهم علي دين عليّ صـلوات الله عليه ، فكتبت إليه أن أقتل كل من كان علي دين علي عليه السلام فقتلهم ومثّل بهم بأمرك.

فكتبت إليه : الـذي كان يبغض عليه أباك، والذي انتحالك إيّاه هو ما أجلسك مجلسك هذا؟ ولولا ذلك كان أفضل شـرفك تجشّم الرحلتين (الشتاء والصيف) في طلب الخمور».

«وقلت فيما قلت في كتابك : «انظر لنفسك ولدينك ولأمّة محمد صـلي الله عليه و آله و سـلم ، واتق شقّ عصـي هذه الأمّة، وأن ترد الناس إلي الفتنة» .

«وإنّي لا أعلم فتنة أعظم علي هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظرة لنفسي ولديني ولأمة محمد صلي الله عليه و آله و سلم أفضل من أن أجاهدك .. فإن فعل فإنه قربة إلي الله، وإن تركته فإني أستغفر الله لديني، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري».

«وقلت فيما قلت لي: «أني إن أنكرتني أنكرك وإن كدتني أكدك»، فكدني مابدا لك، فإني أرجو أن لا يضرني كيدك في، وأن لا يكون علي أحد أضر منه علي نفسك، علي أنك قد ركبت جهلك وتحرصت علي نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط».

«ولقد نقضت عهدك بقتلك هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتليك، ولا نقضوا عهدك، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقنا، فقتلتهم مخافة أمر لعلّك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا . فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالي كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لك أخذك بالظنّة، وقتلك أولياء علي عليه السلام علي الشّبهة والتهمة، ونفيك أوليائهم من دورهم إلي دار الغربة، ثم وليت ابنك وهو غلام سفيه، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، فخنت أمانتك، وأخربت رعيّتك، ولم تؤدّ نصيحة ربك». .

«فكيف تُولّي علي أمة محمد صلي الله عليه و آله و سلم من يشرب المسكر، وشارب المسكر في الفاسقين، وليس شارب المسكر بأمين علي درهم، فكيف علي الأمّة، فعن قليل ترد علي عملك حين تقرأ صحائف الاستغفار، وتبوّأت مقعدك من النار، فبعدة للقوم الظالمين».

ص: 52

وكتب في آخر الكتاب: والسلام علي من اتبع الهدي»(1).

فقال عبد الرحمن لصاحبه: لا أري أشد من هذه الرسالة، ففيها اتّهم الحسين عليه السلام معاوية بالإلحاد، وأنّه من حزب الظلمة و أولياء الشياطين، و كشف عن جرائمه بحقّ رجال صالحين كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، والحضرميين، ونقضه للعهود والمواثيق، كما أنه عليه السلام قام بتقريعه لتعيين يزيد خليفة علي المسلمين من بعده، فماذا كان جواب معاوية؟

قال عبد الله بن مسلم: لما قرأ معاوية كتاب الحسين عليه السلام قال : لقد كان في نفسه ضب ما أشعر به.

فقال يزيد: «يا أمير المؤمنين، أجبه جواباً تصغر إليه نفسه ، وتذكّره فيه بشيء فعله».

فقال معاوية : «أخطأت، أرأيت لو أني ذهبت لعيب علي عليه السلام محقّا ما عسيت أن أقول فيه، ومثلي لا يحسن أن يعيب بالباطل وما لا يعرف، ومتي ماعبت به رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به صاحبه وكذّبوه، وما عسيت أن أعيب حسينا عليه السلام، واللّه ما أري للعيب فيه موضعا، وقد رأيت أن أكتب إليه أتوعّده وأتهدّده، ثم رأيت أن لا أفعل، ولن أفعله»(2).

قال عبد الرحمن : غريب أمر هذه الأمّة، لقد استطاع بنو أميّة أن يزيحوا أهل البيت من سدة الحكم، وأن يثبّتوا سلطانهم، ثمّ ها

1- (1) تاريخ الإمام الحسين علي ، ج 44، ص 214؛ دعائم الإسلام، للقاضي النعمان ، ج 2، ص 131.
2- (2) العوالم، لعبد الله البحراني، ج17، ص 90 - 93؛ دعائم الإسلام، للقاضي النعمان، ج 2، ص 131.

هم ينصبون أحد الصبيان، بحسب تعبير مروان بن الحكم، خليفة علي الأمّة.

قال عبد اللّه بن مسلم : لقد صدق علي عليه السلام الذي قال : «ألا وإنه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل»(1).

وأضاف: إنّ أمراً كخلافة يزيد لم يكن ليتم إلّا بالعنف والإكراه، وشراء الضمائر وتهديد الناس .. وكما قلنا فقد تدخّلت الدولة كلها بقضّها وقضيضها لأجل ذلك، ومن هنا فإنّ معاوية لم يكتف بإصدار الأوامر وكتابة الرسائل، وإنّما قرّر أن يذهب إلي مكّة والمدينة بنفسه.

فخرج من الشام بكلّ جبروته وسلطانه، ومعه ألف من الرجال، حتّي إذا وصل إلي المدينة لقيه الحسين بن علي عليهماالسلام ، وكان أوّل من يلقاه، فلمّا نظر إليه معاوية، قال: «لا مرحباً ولا أهلاً ، بدنة يترقرق دمها، واللّه مهريقه».

فقال الحسين : مهلا يا معاوية، فإني لست بأهل بهذه المقالة .

قال معاوية : بلي؛ وأشد من هذا، فإنكم تريدون أمرة، واللّه يأبي ما تريدون.

ثمّ مشي عنه ولم ينتظر ليسمع جواب الإمام عليه السلام .

ثمّ لقيه عبد الله بن الزبير، فقال له معاوية : «لا مرحباً ولا أهلاً، خبٌّ ضب، تلعة يدخل رأسه، فيضرب بذنبه، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه، ويدقّ ظهره، نحيّاه عنّي».

ص: 54

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 28.

فضرب جلاوزة معاوية وجه حلة ابن الزبير ، وأبعدوه.

ثمّ لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية : «لا مرحباً ولا أهلاً، شيخ قد خرف وذهب عقله . ثمّ أمر بضرب وجه راحلته ، وفعل بعبد اللّه بن عمر نحو ذلك» (1) نهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 355 - 356 - 359..

هكذا فعل معاوية بكبار القوم، لكي ينكّل بهم غيرهم، ويبيّن أنّه ماضٍ في تصميمه بتسليط ولده يزيد علي رقاب المسلمين.

ثمّ إنّه أتي لزيارة عائشة، فاستأذن عليها، فأذنت له وحده ، علي أن لا يدخل معه أحد آخر، وكان عندها مولاها ذكوان، ولمّا استقرّ به المجلس، قالت له عائشة : يا معاوية، أكنت تأمن أن أقود لك رجلاً فأقتلك، كما قتلت أخي محمّد بن أبي بكر؟

فقال معاوية : ما كنت لتفعلي ذلك.

قالت : ولم؟

قال : لأنّي في بيت آمن، بيت رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم(1) .

فسكتت عائشة، فبدأ معاوية يبرّر تعيين يزيد خليفة من بعده ،فنسب ذلك - كما يفعل جميع الملوك والحكّام - إلي قضاء اللّه وقدره.

فقالت له عائشة: «يا معاوية، ما كفاك أنّك قتلت أخي، وأحرقته بالنار، حتّي قدمت المدينة، وأخذت بالوقيعة في أبناء

1- (2) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ، ج 1، ص 158.

الصحابة ، وأنت من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، وكان أبوك من الأحزاب؟

فقال معاوية: «أنت يا أمّ المؤمنين، العالمة باللّه وبرسوله، دللتينا علي الحقّ، وحضضتينا علي حضّ أنفسنا، وأنت أهل لأن يطاع أمرك، ويسمع قول، وإنّ أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم، وقد أكّد الناس بيعتهم في أعناقهم، وأعطوا عهودهم علي ذلك ومواثيقهم. أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم؟

فقالت عائشة : بلغني عنك أنّك هدّدت أخي عبد الرحمن، وابن عمر، وابن أختي عبد الله بن الزبير، والحسين بن فاطمة، وليس مثلك من يتهدّد مثل هؤلاء. وأمّا ما ذكرت من عهود ومواثيق، فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجّل فيهم.

فقام معاوية ليذهب، فقالت له عائشة : يا معاوية؛ إنك قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين.

فقال معاوية : دعي هذا ، كيف أنا في الذي بيني وبينك من حوائج؟(1).

فعرفت عائشة بأنّه ماضٍ لأمره، لكنّه مستعدّ أن يدفع لها ما تريد ثمناً لذلك، فسكتت .

وبالطبع، فإنّ معاوية حينما كان يطلب من كبار القوم أن يبايعوا يزيداً، أوعلي الأقل أن لا يجاهروا بمخالفتهم له، كان

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 158؛ والفتوح، لابن اعثم، ج4، ص 235.

يشفع ذلك بالتهديد. فقد قال لعبد الرحمن بن أبي بكر بعد أن خلا به: «بأية يد، أو رجل، تقدم علي معصيتي؟

فقال عبد الرحمن : أرجو أن يكون ذلك خيراً لي.

فقال معاوية : واللّه لقد هممت أن أقتلك.

فقال عبد الرحمن: لو فعلت لأتبعك اللّه به لعنة في الدّنيا ، وأدخلك به في الآخرة النار»(1).

*

وفي يوم آخر من أيام وجوده في المدينـة، أمر معاوية بفراش، فوضع له في مجلسه، وسويت مقاعد خاصّة حوله، ثمّ خرج بعد أن تعطّر وعليه حلّـة يمانية، فقعد علي سـريره وأجلس كتّابه إلي جنبه ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب، ثمّ أرسل رسولاً إلي الحسـين بن علي، وعبد الله بن عبّاس. فجاء ابن عباس أوّلاً ، فلمّا دخل وسلّم أقعده في الفراش عن يساره، وقال له: يابن عبّاس، لقد وفّر اللّه حظّكم من مجاورة هذا القبر الشريف، ودار الرّسول عليه الصّلاة والسّلام.

فقال ابن عبّاس : نعم؛ وحظّنا، من القناعة بالبعض، و التجافي عن الكلّ، أوفر.

فجعل معاوية يحدّثه، ويحيد به عن طريق المجاوية، ويعدل إلي ذكر الأعمار علي اختلاف الغرائز والطبائع، حتي أقبل الحسين عليه السلام ، فلمّا رآه معاوية جمع له و سادة كانت عن يمينه ، فدخل الحسين، فأشار إليه، فأجلسه مكان الوسادة .

1- (1) المنتظم، لابن الجوزي، ج 4، ص 105.

ثمّ قال لهما: «إنّ رسول اللّه مضـي وقـد ترك من الـدّنيا ما بـذل له، واختار منها الترك لما سـخّر له، زهادة واختياراً للّه، وأنفـة ، واقتداراً علي الصبر، ثمّ خلّفه رجلان محفوظان، وثالث مشكور، وبين ذلك خوض طالما عالجناه ، مشاهدةً ومكافحةً ومعاينة وسماعاً».

. ثمّ بدأ يمدح ابنه يزيد، وقال في ذلك : «قد كان من أمر يزيد ما سـبقتم إليه وإلي تجويزه، وقد علـم اللّه ما أحاول به في أمر الرعيّة، من سدّ الخلل، ولمّ الصـدع بولايـة يزيـد بما أيقر العين، وأحمـد الفعل، هذا معناي في يزيد. و فيكما فضل القرابة، وحظوة العلم، وكمال المروءة. وقد أصـبت من ذلك عند يزيد علي المناظرة والمقابلة، ما أعياني مثله عندكما، و عند غيركما، مع علمه بالسنّة ، وقراءة القرآن، والحلم الذي يرجح بالصمّ الصلاب». .

«وقد علمتما أنّ الرسول المحفوظ بعصـمة الرسالة قدّم علي الصدّيق والفاروق، ومن دونهما من أكابر الصحابة و أوائل المهاجرين يوم غزوة السـلاسل، من لـم يقارب القوم برتبـة في قرابة موصولة، ولا سـنّة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره، وجمع بهم صـلاتهم، وحفظ عليهم فيئهم. وفي رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم أسوة حسـنة، فمهلاً بني عبـد المطّلب، فأنا وأنتم شـعبا نفع وجدّ، وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما ، فما يقول القائل إلّا بفضل قولكما، فردّا علي ذي رحم مستعتب، ما يحمد به البصير في عتابكما» .

فأراد ابن عبّاس أن يجيبه، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين عليه السلام قائلا : «علي رسلك، فأنا المراد، ونصيبي في التهمة أوفر».

فسكت ابن عبّاس .

فقال الحسين عليه السلام بعد أن حمد الله وصلّي علي جدّه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم: «أمّا بعد يا معاوية، فلن يؤدّ القائل، و إن أطنب في صفة الرّسول، من جميع جزءاً، وقد فهمت ما لبّست به الخلف بعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم من إيجاز الصفة والتنب عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبح فحمة الدّجي، وبهرت الشّمس أنوار السراج، ولقد فضّلت حتّي أفرطت، واستأثرت حتّي أجحفت، ومنعت حتّي بخلت، وجرت حتّي جاوزت، ما بذلت لذي حقّ من أتمّ حقّه بنصيب، حتّي أخذ الشيطان حظّه الأوفر ونصيبه الأكمل».

«وفهمت ما ذكرته عن يزيد، من اكتماله وسياسته لأمّة محمّد صلي الله عليه و آله و سلم، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص».

«وقد دلّ يزيد من نفسه علي موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده باصراً. ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقي اللّه من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه . فواللّه ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتّي ملئت الأسقية، وما بينك و بين الموت إلا غمضة، فتقدم علي عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص».

وأضاف عليه السلام :

«ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً ،

ولقد أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بها ما حججتم به، فركبتم الأعاليل و فعلتم الأفاعيل، وقلتم: كان ويكون، حتّي أتاك الأمر يا معاوية عن طريق كان قصدها لغيرك. فاعتبروا يا أولي الأبصار».

«وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلي الله عليه و آله وسلم وتأميره له، تقصد عمرو بن العاص، وما صار – لعمرو اللّه – يومئذٍ مبعثهم حتي أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال النبي صلي الله عليه و آله و سلم: «لا جرم معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

«فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول صلي الله عليه و آله وسلم في أوكد الأحكام وأولاها بالمجمع عليه من الصواب، أم كيف صاحبت بصاحب تابعاً، وحولك من لا يؤمن في صحبته ولا يعتمد في دينه وقرابته؟ وتتخطّاهم إلي مسرف مفتون، تريد أن تلبّس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه، وتشقي بها أنت في آخرتك، إنّ هذا لهو الخسران المبين».

فنظر معاوية إلي ابن عباس وقال : ما هذا يابن عباس؟

فقال ابن عباس: لعمرو الله، إنها لذرية الرسول صلي الله عليه و آله وسلم ، وأحد أصحاب الكساء ، ومن البيت المطهّر، فاسأله عمّا تريد، فإنّ لك في الناس مقنعاً، حتّي يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين (1).

*

وهكذا فإنّ معاوية كان يعمل لتثبيت يزيد خلفاً له، ليلاً

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 159 و 161.

ونهاراً، سـرّاً وعلانيـة، ويجتمع لـذلك بالزعماء، ويحتـج، ويخاطب ، ويهدّد. فلم يكن يكتفي بالاجتماعات التي غالباً ما كانت غير علنيّة ، خوفاً من أن يعرف الناس حجـج هؤلاء الرجال ضـدّ بيعـة ابنه، بل كان يعقـد اجتماعات علنيـة أيضا. ومنها أنّه، حين كان في المدينـة ، أمر المنادي أن ينادي في الناس أن يجتمعوا لأمر مهم. فاجتمع الناس بالمسـجد، وكان ممّن حضر أيضاً الحسين بن عليّ، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد اللّه بن عمر وغيرهم، وقد قعد هؤلاء حول المنبر . فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن .

ثمّ قال: «يا أهل المدينـة ؛ لقـد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلّا بعثت إليها في بيعته ، فبايع الناس جميعاً وسـلّموا، وأخّرت المدينة بيعته، وقلت : المدينة بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه . وكان الذين أبوا البيعة منهم من كانوا أجدر أن يوصلوه، فواللّه لو علمت من هو خير من المسلمين من يزيد لبايعت له». .

فقام الحسين عليه السلام وقال : والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونفسة.

فقال معاوية : كأنّك تريد نفسك؟

قال الحسين عليه السلام : نعم.

فقـال معاويـة : «إذن أخبرك، أمّـا قولـك خير منه أمّـاً، فلعمري أمّك خيرمن أمّ يزيـد، ولو لم تكن إلّا أنّها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن، فكيف و هي ابنة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، فأمّك - لعمرو اللّه - خير من أمّه.

«وأمّا أبوك، فقد حاكم أباه إلي اللّه، فقضي لأبيه علي أبيك .

بأنّ اللّه قضي لمعاوية ضدّ عليّ - يقصد بذلك أنّ عليّا قتل بينما معاوية أصبح الخليفة علي المسلمين -.

قال الحسين عليه السلام : حسبك جهلك، وآثرت العاجل علي الأجل.

فقال معاوية : أمّا ما ذكرت أنّك خير من يزيد نفساً، فيزيد واللّه خير لأمّة محمّد منك.

قال الحسين عليه السلام : هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللهو، أهو خير منّي؟

فقال معاوية : مهلاّ عن شتم ابن عمّك، فإنّك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك (1).

فقال الحسين : إنّ علم يزيد منّي ما أعلمه منه أنا، فليقل فيّ ما أقول فيه .

وهنا استخدم معاوية من جديد منطق التهديد، فقال : «أبا عبد الله ؛ انصرف إلي أهلك راشداً، واتق اللّه في نفسك، واحذر أهل الشام أن يسمعوا منك ما قد سمعته، فإنّهم أعداؤك وأعداء أبيك (2).

وهكذا نري أنّ الحسين عليه السلام وأشخاصاً آخرين ردّوا علي معاوية بيعة يزيد، وفضحوا محاولات تسويقه للناس، إلّا أنّ الرجل كان قد صمّم علي أخذ البيعة، وكان بيده التاج والصولجان، وأموال بيت المال، لذلك فكلّما كان ينقصه المنطق يستخدم التهديد، وإذا

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 162.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 240.

لم ينفع التهديد استخدم الترغيب. وهذا ما فعله أيضاً مع عبد الرحمن بن أبي بكر، فقد قال له عبد الرحمن ذات يوم : «واللّه يا معاوية لعلّ ودّك أنّا قد وكّلناك إلي اللّه في أمر ابنك يزيد - يعني تركناك، لتفعل ما تريد، وتفعل ما تشاء - لا واللّه لا نفعل ذلك أبداً، أو لتردنّ الأمر شوري بين المسلمين».

فقال معاوية : أما واللّه إنّي لأعرف بك وبسفهك، ولقد هممت أن أفعل كذا وكذا .

فقال له عبد الرحمن : إذن واللّه يا معاوية يدركك اللّه به في الدّنيا ، ويدخّر لك العقوبة في الآخرة.

فقال معاوية : اللّهمّ اكفني أمر هذا الشيخ. يا هذا؛ اتق اللّه في نفسك، ولا تقل ما يسمعك أهل الشام.

فقال عبد الرحمن : أمّا نحن فقد اتقينا اللّه ، فذرنا نقعد في منازلنا، ولا تدعونا إلي بيعة يزيد الخمور، ويزيد الفهود، ويزيد القرود(1).

*

ثمّ إنّ معاوية قبيل رحيله عن المدينة المنورة متجهاً إلي مكّة ، أعطي الناس أعطياتهم وأجزل العطاء، وأخرج إلي كلّ قبيلة جوائز كثيرة، لكنّه جفي بني هاشم، فلقيه عبد الله بن عباس وقال له: ما بالك جفوتنا؟

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 242.

فقال معاوية : لأنّ صاحبكم الحسين بن عليّ لم يبايع ليزيد، فلم تنكروا عليه.

فقال ابن عبّاس : يا معاوية؛ إنّي لخليق أن أنحاز إلي بعض السواحل فأقيم به، ثمّ انطلق بما تعلم حتّي أدع الناس كلّهم خوارج عليك(1).

ثمّ تفرّقا .

أمّا في مكّة فإنّ معاوية استخدم أسلوباً جديداً، وهو أنّه أشاع بين الناس بأنّ عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي عليهماالسلام قد بايعوا يزيد سراً، فقد دعي بالفعل هؤلاء النفر، واجتمع بهم، وجلس معهم زمناً معيّناً من دون أن يتبادلوا الحديث في أيّ شيء.

وحينما خرجوا إلي منازلهم، صعد معاوية المنبر وحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس؛ إنّا قد وجدنا أحاديث الناس ذات عوارض، وإنّهم قد زعموا أنّ الحسين بن عليّ، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير لم يبايعوا يزيد، وهؤلاء الأربعة هم عندي سادة المسلمين وخيارهم، وقد دعوتهم إلي البيعة، فوجدتهم سامعين مطيعين، وقد سلّموا وبايعوا، وسمعوا، وأجابوا، وأطاعوا».

وكان قد أمر جلاوزته، الذين جاء بهم من الشام من حملة السيوف، أن يهدّدوا هؤلاء بقطع رقابهم إن لم يبايعوا علناً، وكان

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 252.

ذلك بالاتفاق المسبق معهم، حيث ضرب هؤلاء بأيديهم إلي سيوفهم فسلّوها، ثمّ قالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما هذا الذي تعظّمه من أمر هؤلاء الأربعة، إئذن لنا أن نضرب أعناقهم، فإنّا لا نرضي أن يبايعوا سرّا، ولكن يبايعوا جهراً حتّي يسمع الناس أجمعون.

فقال معاوية : «سبحان اللّه ؛ ما أسرع الناس بالشرّ، وما أحلي بقائهم عندهم. اتقوا الله يا أهل الشام، ولا تسرعوا إلي الفتنة، فإن القتل هو مطالبة وقصاص»(1).

وأقبل أهل مكّة إلي هؤلاء الأربعة، فقالوا لهم: «يا هؤلاء، إنّكم قد دعيتم إلي بيعة يزيد في المدينة، فلم تبايعوا وأبيتم ذلك، ثمّ دعيتم إلي ذلك في مكّة فرضيتم و بايعتم؟».

فقال الحسين : «لا واللّه ما بايعناه ، ولكن معاوية خدعنا وكادنا ببعض ما كادكم به»(2).

قال عبد الله بن مسلم لعبد الرحمن الصالح: تري، كيف ترك معاوية الحسين عليه السلام ولم يمسّه بسوء مع شدّة رفضه في مسألة بيعة يزيد؟

قال عبد الرحمن : كما وصلني الخبر، فإنّ معاوية دعا مروان بن الحكم، فقال له: أشر عليّ في الحسين؟

فقال مروان : أري أن تخرجه معك إلي الشام، فتقطعه عن أهل العراق، وتقطعهم عنه .

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 246.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 249.

فقال معاوية : «إنّك أردت واللّه أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبر عليه صبرت علي ما أكره، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحمه .

ولم يكن خوف معاويـة من قطيعـة الرحم، بل من احتمال توجّه الناس إلي الحسـين أكثر، ومعرفتهم للحقّ .. تماماً مثلما حدث مع أبي ذرّ الغفاري حينما تفي إلي بلاد الشام، فبـدأ هناك ينشـر فضائل علي وأهل البيت، فخاف معاويـة من أحاديثه، وكتب إلي الخليفة يطلب منه أن يعيده إلي المدينة.

وعلي كلّ حال فإنّ رفض الحسـين عليه السلام البيعة كان هاجس معاوية الأوّل، ولذلك فإنّه لم يكتف باستشارة مروان في أمره، وإنما بعث إلي سعيد بن العاص وقال له: يا أبا عثمان، أشرّ عليَّ في الحسين؟

فقال سـعيد: «واللّه إنّك لا تخاف الحسين، إلّا علي من بعدك يعني أنّك لا تخاف الحسين علي نفسك بل علي يزيد)، وإنّك لتخلّف له قرناً – يقصد يزيد – إن صارعه ليصـرعنّه، وإن سابقه ليسـبقنّه . فذر الحسـين بمنبت النخلة، يشـرب من الماء، ويصـعد في الهواء، ولا يبلغ إلي السّماء»(1).

قال عبد الله بن مسلم لصاحبه: وماذا فعل معاوية في النهاية؟

قال عبد الرحمن : إنّه أمر الوليد بن عتبة، والي المدينة، أن يمنع أهل العراق من الاجتماع مع الحسين، ولذلك فقد قال له

1- (1) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج 4، ص 22 و 23؛ والبحار، ج 44، ص 210.

الحسين: «يا ظالماً لنفسه، ويا عاصيا لربّه ، علام تحول بيني وبين قوم عرفوا من حقي ما جهلته أنت، وعمّك معاوية؟»».

فقال الوليد: «ليت حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك، فجناية لسانك مغفورة لك، ما سكنت يدك، فلا تخطر بها، فتخطر بك»(1).

وهكذا فإنّ بني أميّة أكملوا الدائرة علي أهل البيت عليهم السلام ، فمنعوا الناس ممّن يعرف قدر الحسين وأهل البيت من اللقاء به، بالإضافة إلي منع حقوقهم من بيت المـال، وقتـل من كان يتظاهر بحبّه لعليّ وأهل بيته، وتهجير عوائل بأكملها من بلادها، حتّي أنّ الفتنـة والبلاء لم تزل تعظمـان وتشتدّان علي كـل من له هوي في أهل البيت، فلم يبق ولي للّه إلا خائفاً علي دمه، ولـم يبق عـدوّ اللّه إلا مظهراً الحجّ ة، غير مستتر ببدعته وضلالته(2) .

قال عبد الرحمن : يبدو بذلك أنّ موقف الحسين وأهل البيت أصبح موقفاً صعباً، أليس كذلك؟

قال عبد الله بن مسـلم : لقد عادت الأمور إلي ما حدث في عهد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، حيث تقابل النبيّ مع قريش بقيادة أبي سفيان فمنعوا الناس من التلاقي مع النّبيّ والتعامل معه. فها هو الحسين في مقابل معاوية.

قال عبد الرحمن : لكن الأمر الآن مختلف، لأنّ أبا سفيان في ذلك الوقت كان يرفع راية الكفر، أمّا معاوية فهو يرفع راية الدّين؟

1- (1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 157.
2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 13، ص 181.

قال عبد اللّه : صحيح أنّ كلاًّ من الحسين ومعاوية يتحدّثان عن الدّين نفسه، إلّا أنّهما قطبان متناقضان، كما كان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم و وأبو سفيان قطبين متناقضين، وكان عليّ ومعاوية قطبين متناقضين .

وكما أنّ أبا سفيان كان يتحدّث باسم دين الآباء والأجداد، ومن ثمّ فهو كان ينصب نفسه مدافعاً عن دينهم، وكان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم يتحدّث عن التوحيد، وهو أيضا كان يتحدّث عن الدّين. التغيير الذي حدث أنّ بني أميّة دخلوا في الإسلام تحت بريق السيوف، ورفعوا شعار لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، وهم يحجّون إلي البيت ويأمّون الصلاة، ليحقنوا دمائهم ويحصلوا علي المكاسب والمغانم فالشعار هو الإسلام، لكن الجوهر ليس كذلك .

لقد كان بنو أميّة، وعلي رأسهم أبو سفيان يقولون قبل إعلان إسلامهم: أعل هبل، أمّا الآن فمعاوية لا يقول ذلك، إنّما يقول : اللّه أكبر.

لكن هؤلاء هم المنافقون الذين قال عنهم اللّه عز وجلّ :(هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم اللّه أنّي يؤفكون)(1).

فهم جعلوا الصلاة ضدّ الصلاة، والأذان ضدّ الأذان، والحجّ ضد الحجّ.. بعد أن أفرغوا الدّين من محتواه. ومن ثمّ فإنّ هدف الحسين بن عليّ ليس أن يتبوّأ سدّة الحكم، فما قيمة ذلك عند أهل البيت الذي ضحّوا بكل ما يملكون للّه؟ فلم يمرّ علي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وعلي عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يوم لم يضحّوا في سبيل

1- (1) سورة المنافقون، آية 4.

دين الله . فالحسين يتحمّل كل العنت، وكل العذاب، وكل الصعاب ، وكل التهم، وكل التهديد.. ليبيّن للناس جوهر الدّين .

ومخالفـة الحسـين عليه السـلام مع بيعـة يزيد ليست من أجل سـلطان الدّنيا ، ولا التماس شـيء من حطامها، وإنّما هي للدفاع عن جوهر الـدّين . فالحسـين يريـد تصـحيح النظام الـدّيني والاجتماعي والسياسـي حيث أنّ الحاكم لا يري نفسه مجرّد رئيس دولـة، مثل الأكاسـرة والأباطرة والقياصرة، وإنما يتحدّث بصفته خليفة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم .

إنّ هذه الحكومة أصبحت حكومة زمنيّة لا ارتباط لها بالدّين، ولا يجوز أن يتخذ الناس أعمال هؤلاء ومواقفهم ديناً يتقرّبون به إلي اللّه ، هذا هو الخطر الذي يشعر به الحسين، وكل ما يقوله إنّما هو البيان هذه الحقيقة.

فلاـ يمكن أن يكون وليّـا للعهـد من لـم يعيّنه اللّه ، ولـم ينتخبه الناس، وبالإضافـة إلي ذلك فهو يجاهر بالفسق والفجور ومخالفـة الـدّين في أموره الشخصيّة، فكيف بالأمور العامّة .

فقال عبد الرحمن الصالح: أتري أنّ الحسين سوف يكتفي بما قال في مجلس معاوية، وصرّح به؟

قال عبـد الله بن مسـلم : لا أعتقـد ذلك، لأنّ موقف الحسـين وكلامه، وإن كان حجّـة كافيـة لعامّـة الناس لمعرفة أنّ القرآن أصـبح في واد والسـلطان في واد آخر، وإنّهما قد افترقا، ولكن هنالك شريحة من العلماء وكبار القوم، لم يتحرّكوا بعد، ولم يتحمّلوا مسؤولياتهم، ولذلك لا أعتقد أنّ الحسين سيكتفي بذلك.

قال عبد الله : عذراً، حان وقت الرحيل، ولابدّ لي أن أغادر

المدينـة المنوّرة وألحق بركب الحجّاج، وقـد بقيت أمور لـم نتحـدّث عنها بعد، وهي لا تقل أهميّة مما تحدّثنا عنها . فكلّي أمل أن ألقاك مرّة أخري لنتحدّث مليّا.

فتوادع الصديقان، علي أمل لقاء آخر.

*

بعد شـهور من ذاك اللقاء ذهب عبد الرحمن إلي البصـرة للقاء بعض أقاربه، وكان قد سـبقه إلي هناك عبد اللّه بن مسـلم في تجارة له. وعلي غير موعد التقيا في زقاق من أزقّة البصرة، فدعا عبد اللّه صاحبه إلي بيت أخته علي شاطيء النهر، فاستجاب له.

ومن جديد بدءا يتحدّثان، فقال عبد اللّه بن مسلم : ألـم أقل لك إن الحسين عليه السلام لا يكتفي بما قاله لمعاوية؟

قال عبد الرحمن : ما الذي حدث؟

قـال عبـد الله : كان موسم الحـج قبل شـهرين، وكان الحسـين عليه السـلام يحـجّ إلي بيت اللّه الحرام، فجمع بني هاشم رجالهم ونسائهم ومواليهم، ومن الأنصار ممّن يعرفهم، بالإضافة إلي أهل بيته. ثمّ أرسل رسلاً وقال لهم: «لا تدعوا أحداً ممّن حجّ العام، من أصحاب رسول اللّه المعروفين بالصلاة والنسك، إلّا وجمعتموهم لي.

فاجتمع إليه بمني أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادقه ، عامّتهم كانوا من التابعين، ونحو مائتي رجل من أصحاب النبي صلي الله عليه و آله و سلم .

فقام فيهم الحسين عليه السلام خطيباً، فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال: «أمّا بعد؛ فإنّ هذا الطاغية – ويقصد معاوية – قد فعل بنا

وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإنّي أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدّقت فصدّقوني وإن كذبت فكذّبوني، وأسألكم بحقّ اللّه عليكم، وحقّ رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم ، وقرابتي من نبيّكم لمّا سيّرتم مقامي هذا. (إلّا وذكرتم ما يجري بيني وبينكم، وما أقوله لكم ولجميع الناس) و وصفتم مقالتي، ودعوتم أجمعين في أنصاركم من قبائلكم من أمنتم من الناس، ووثقتم به، فادعوهم إلي ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أتخوّف أن يدرس هذا الأمر، ويذهب الحق ويغلب، واللّه متمّ نوره ولو كره الكافرون».

ولم يترك الحسين شيئاً ممّا أنزل اللّه في أهل البيت من القرآن إلّا تلاه وفسّره، ولا شيئاً ممّا قاله رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم في أبيه وأخيه وأمّه وفي نفسه وأهل بيته إلّا رواه.

وفي كلّ ذلك كان الحضور يقولون: «اللّهمّ نعم، قد سمعنا وشهدنا». ويقول التابعي: «اللّهمّ قد حدّثني به من أصدّقه وأئتمنه من الصحابة».

وكان ممّا قاله الحسين أيضاً: «أنشدكم اللّه ؛ أتعلمون أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان أخا رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، حين آخي بين أصحابه، فآخي بينه وبين نفسه ، وقال : أنت أخي وأنا أخوك في الدّنيا والآخرة»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: «أنشدكم اللّه ؛ هل تعلمون أنّ رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم اشتري موضع مسجده ومنازله، فابتناه ثمّ ابتني فيه عشرة منازل، تسعة له، وجعل عاشرها في وسطها لأبي، ثمّ سدّ كلّ باب شارع إلي المسجد غير باب عليّ عليه السلام ، فتكلّم في ذلك من تكلّم. فقال رسول اللّه : «ما

أنا سددت أبوابكم وفتحت بابه ، ولكن اللّه أمرني بسدّ أبوابكم وفتح بابه». ثمّ نهي النبي صلي الله عليه و آله و سلم أن ينام في المسجد غيره، وكان يجنب في المسجد ومنزله في منزل رسول الله، فولد لرسول الله وله فيه أولاد»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام : «أفتعلمون أنّ عمر بن الخطّاب حرص علي كوّة بقدر عينه يدعها في منزل المسجد»؟ (لكي ينظر منها إلي داخل المسجد) فأبي رسول الله عليه ، ثمّ خطب فقال صلي الله عليه و آله و سلم : «إنّ الله أمرني أن أبني مسجدة طاهراً لا يسكنه غيري وغير أخي وبنيه».

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أنشدكم الله ؛ أتعلمون أن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم نصب عليّا يوم غدير خم، فنادي له بالولاية وقال : ليبلّغ الشاهد الغائب»؟

قالوا: اللهم نعم.

قال الحسين عليه السلام : «أنشدكم اللّه ؛ أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قال له في غزوة تبوك: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسي، وأنت وليّ كلّ مؤمن بعدي»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال عليه السلام : «أنشدكم اللّه ؛ أتعلمون أنّ رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم حين دعا النصاري من آل نجران إلي المباهلة، لم يأت إلّا بأبي وبصاحبته وابنيه - أي الحسن والحسين -»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال عليه السلام : «أنشدكم اللّه ؛ أتعلمون أنّ النبي صلي الله عليه و آله و سلم دفع إلي أبي

اللّواء يوم خيبر ثمّ قال: «لأدفعنّه إلي رجل يحبّه اللّه ورسوله، ويحبّ اللّه ورسوله، كرّار غير فرّار، يفتحها اللّه علي يديه»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام : «أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم بعثه بسورة البراءة وقال: لا يبلغ عنّي إلّا أنا، أو رجل منّي»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنّ رسول الله لم تنزل به شدّة قطّ، إلّا قدّم أبي لها ثقة به، وأنّه لم يدعه باسمه قطّ إلّا يقول : يا أخي عليّ، أو: أدعوا لي أخي»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قضي بينه وبين جعفر و زيد، فقال: «يا عليّ أنت مني وأنا منك، وأنت وليّ كلّ مؤمن بعدي»؟

قالوا: اللّهمّ نعم .

قال الحسين عليه السلام : «أتعلمون أنّه كانت له من رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم كلّ يوم خلوة، وكلّ ليلة دخلة ، إذا سأله أعطاه، و إذا سكت ابتداه» ؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم فضّله علي جعفر وحمزة حين قال لفاطمة عليهاالسلام: «زوّجتك خير أهل بيتي ، أقدمهم سلماً، وأعظمهم حلماً، وأكثرهم علماً»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام : «أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قال: «أنا سيّد ولد بني آدم، وأخي علي عليه السلام سيّد العرب، وفاطمة عليهاالسلام سيّدة نساء أهل الجنّة، والحسن والحسين عليهماالسلام إبناي، سيّدا شباب أهل الجنّة»»؟

قال الحاضرون : اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم أمر أبي بغسله، وأخبره أنّ جبرائيل يعينه عليه»؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام : «أتعلمون أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قال في آخر خطبة خطبها : «إنّي تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وقد أنبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض»»؟

قال الحاضرون : اللّهمّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قال : «من زعم أنّه يحبني ويبغض عليّا فقد كذب، ليس يحبّني من يبغض عليّاً»»؟ فقال له من حضر النبيّ : يا رسول الله، وكيف ذلك؟

قال صلي الله عليه و آله و سلم : «لأنّه منّي وأنا منه، من أحبّه فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ اللّه، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض اللّه»»؟

فقال الحاضرون : اللّهمّ نعم، قد سمعنا .

فلم يدع شيئاً أنزله اللّه في عليّ بن أبي طالب عليه السلام خاصّة،

وفي أهل بيته من القرآن، ولا علي لسان نبيّه إلا ناشدهم فيه، فيقول الصحابة : اللّهمّ نعم، قد سمعنا، ويقول التابعي : اللّهمّ قد حدّثني من أثق به فلان وفلان(1).

*

قال عبد الرحمن : يا عبد اللّه ؛ هل مخالفة القوم مع عليّ عليه السلام كانت مخالفة شخصيّة ، أو من أجل السلطان، حيث لم يكن هؤلاء يريدون لعليّ عليه السلام أن يتبوّأ مقعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، فكانوا هم يرغبون في السلطة، ولذلك أبعدوا عليّاً عن مقامه؟

قال عبد اللّه : القضيّة أكبر من ذلك، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ للدّين جوهراً ومظهراً، وأنّ الجوهر هو الأساس والمقصود، وأنّ المظهر لا قيمة له إلّا إذا كان يؤدّي إلي الجوهر، وأخذنا بعين الاعتبار أنّ أهل البيت كانوا أمناء علي رسالة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، أي علي جوهر الدين ومحتواه، وأصوله، وفروعه .. وليس علي المظاهر وحدها، وأنّ عليّاً كان باب علم رسول اللّه، وأعلم صحابته، وأقضاهم بنصّ حديث النبيّ، وما جاء علي لسان رسول اللّه في حقّ عليّ، وهو كثير، لم يقل مثله في حقّ أحد من البشر. فلم يقل في حقّ أحد من صحابته أنّه بمنزلة رأسه من جسده مثلما قال في عليّ : علي منّي بمنزلة رأسي من بدني»(2) .

ولم يقل في حقّ أحد: أنا وفلان من شجرة واحدة، كما قال

1- (1) بحار الأنوار : الشيخ محمد باقر المجلسي، ج 33، ص 181 - 185.
2- (2) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص 353.

في حقّ عليّ: «أنا وعليّ من شجرة واحدة، وسائر الناس من شجر شتّي»(1).

ولم يقل في حقّ أحد أنّ ذكره عبادة، كما قال في حقّ علي : ذكر عليّ عبادة»(2).

ولم يقل في حقّ أحـد مثلما قال في حقّ عليّ: «أنا مدينة الجنّة وعليٌّ بابها(3)، أنا مدينة الحكمة وعليٌّ بابها(4)، أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها »(5).

هـذه روايات لم ينكرها أحـد، وهي تدلّ صـراحة أنّه لا يمكن الوصول إلي علم رسول اللّه إلّا عن طريق عليّ، ولا علي حكمة رسول اللّه إلّا عن طريق عليّ، ولا الدخول إلي الجنّة إلّا عن طريق عليّ، وقد قالها النّبي صراحة: «لا يجوز أحد الصراط إلّا من كتب له عليّ الجواز»(6). (صكّ من عليّ). وقال: «أنت أخي ووزيري وصاحب لوائي في الدّنيا والآخرة، وأنت صاحب حوضي»(7).

فمعني ذلك أنّ الذين خالفوا عليّاً عليه السلام كانوا يريدون من الدّين مجرّد مظهره لا جوهره، وهذا هو سبب المخالفة مع عليّ ،

1- (1) إقبال الأعمال، السيد ابن طاوس، ج 1، ص 506.

2- (2) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج 3، ص 6.

3- (3) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص 577.

4- (4) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص 483.

5- (5) عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج 2، ص 21.

6- (6) ذخائر العقبي، الشيخ أحمد بن عبد الله الطبري، ص 71.

7- (7) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج39، ص 211.

ثمّ مع الحسن، والآن مع الحسـين، وإلّا فلماذا ينصب معاويـة العداء لعليّ بعد مقتله، ويصدر أمراً إلي جميع الولاة يقول فيه : «انظروا إلي من روي حديثاً في أبي تراب فألغوه من الديوان». أو يقول: «خذوهم بالتهمة واقتلوهم بالظنّة». ويمنع الحديث عن عليّ، أو في عليّ. لماذا؟ وعليّ عليه السلام لم يكن موجوداً حتّي ينافسه في السلطان؟

فالقضيّة أكبر من مجردّ صراع علي السلطة، بين طلّابها والطامعين فيها، ولذلك فإنّ حديث أهل البيت عليهم السلام عن فضائل الإمام عليّ وفاطمة والحسن، وحديث الحسـين حتّي عن فضائل نفسه، ليس من باب أنّه يريد المديح الشخصـي للحصول علي مقام لدي الناس، وإنّما هو لأنّ علم رسول اللّه بالـدّين عنـدهم، وكـذلك حكمـة رسول اللّه ، وكما أنّ اللّه عز وجلّ لا يقبل من أحد أنّ الإيمان به من دون أن يؤمن برسوله، لأنّه تعالي حين يبعث نبيّاً يريـد أن يطاع بإذنه، ويريد اللّه دينه عن طريقه وليس عن طريق آخر. كذلك فيما يرتبط بما بعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وقد صرّح النّبي صلي الله عليه و آله و سلم بذلك عندما قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي»(1).

فقال عبد الرحمن : هل اكتفي الحسين في ذلك الاجتماع الهام بأن بيّن فضائل عليّ وفاطمة والحسن، وفضائل نفسه؟

قال عبد الله : لا، وهنا القضيّة الأساسية التي من أجلها جمعهم. فبعد أن بيّن لهم فضائل أهل البيت، وأخذ الاعتراف من

1- (1) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج 1، ص 28.

أصحاب النّبي بأنّهم سمعوا منه ذلك، وأيضاً شهد التابعون بأنّهم سمعوا ممّن يثقون به، وضعهم أمام مسؤولياتهم، فقال عليه السلام :

اعتبروا أيّهـا الناس بما وعظ اللّه به أولياءه من سوء ثنائه علي الأحبار، إذ يقول: (ولولا ينهنهم ألربنيون والأحبار عن قولهم الإثم)(1)، وقال : (لعن الّذين كفروا من بني إسـرائيل علي لسان داود وعيسـي أبن مريـم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (2).

«وإنّما عاب اللّه ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظلمـة الـذين بين أظهرهـم المنكر والفساد، فلا ينهونهم عن ذلك، رغبةً فيما كانوا ينالون منهـم ورهبـة ممّـا يحـذرون، واللّه يقول : (فلا تخشوا النّاس واخشون) (3)، ويقول : (والمؤمنون والمؤمنـات بعضـهـم أولياء بعض يأمرون بـالمعروف وينهون عن المنكر) (4). فبـدأ اللّه بالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر فريضـة منه، لعلمه بأنّهـا إذا أدّيت وأقيمت اسـتقامت الفرائض كلّها، هيّنها وصـعبها، وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلي الإسـلام، مع ردّ المظالم، ومخالفـة الظالم، وقسـمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها، ووضعها في حقّها».

وأضاف الحسين (سلام الله عليه) قائلاً : «ثمّ أنتم أيتها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة

ص: 78

1- (1) سورة المائدة، آية 63.

2- (2) سورة المائدة، آيتان 78 - 79.

3- (3) سورة المائدة، آية 44.

4- (4) سورة التوبة، آية 71.

معروفة، وباللّه في أنفس الناس مهابة ، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده ، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلّابها، وتمشون في الطريق بهيئة الملوك، وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك بما نلتموه، وما يرجي عندكم من القيام بحقّ اللّه؟ وإن كنتم عن أكثر حقّه تقصّرون، فاستخففتم بحقّ الأئمّة، فأمّا حقّ الضعفاء فضيّعتم، وأمّا حقّكم بزعمكم فطلبتم، فلا مالا بذلتموه، ولا نفسا خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات اللّه، وأنتم تتمنّون

علي اللّه جنّته ، ومجاورة رسله، وأماناً من عذابه»؟!

وأضاف عليه السلام : «لقد خشيت عليكم، أيّها المتمنّون علي اللّه ، أن تحلّ بكم نقمة من نقماته، لأنّكم بلغتم من كرامة اللّه منزلة فضّلتم بها، ومن يعرف باللّه لا تكرمون، وأنتم باللّه في عباده تكرمون، وقد ترون عهود اللّه منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمّة رسول اللّه صلي الله عليه وآله محقورة، والعمي والبكم والزمني في المدائن مهملة، لا ـ ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعينون، وبالإدّهان والمصانعة عندالظلمة تأمنون، كلّ ذلك ممّا أمركم اللّه به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون».

«وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء، لو كنتم تشعرون، ذلك بأنّ مجار الأمور والأحكام علي أيدي العلماء باللّه ، الأمناء علي حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلّا بتفرّقكم عن الحق، واختلافكم في السّنّة بعد البيّنة الواضحة».

«ولو صبرتم علي الأذي، وتحمّلتم المؤونة في ذات اللّه كانت أمور اللّه عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع».

ولكنّكم مكّنتم الظلمة من منزلتكم، وأسلمتم أمور اللّه في أيديهم، يعملون بالشّ بهات، ويسيرون في الشهوات، سلّطهم علي ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة، التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم. فمن بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف علي معيشته مغلوب».

يتقلّبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم، اقتداء بالأشرار، وجرأة علي الجبّار، في كلّ بلد منهم علي منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول، لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبّار عنيد، وذي سطوة علي الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبديء المعيد» .

«فيا عجباً، وما لي لا أعجب، والأرض من غاشم غشوم، ومتصدّق ظلوم، وعامل علي المؤمنين بهم غير رحيم»؟!

فاللّه الحاكم فيما فيه تنازعنا، والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا».

ثمّ رفع الحسين عليه السلام يديه قائلا : «اللّهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن منّا كان ما تنافساً في سلطان، ولا التماسا من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وشنك وأحكامك.

«فإنّكم إن لا تنصرونا ولا تنصفونا قوي الظلمة عليكم،

وعملوا في إطفاء نور نبيّكم، وحسبنا اللّه وعليه توكّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير »(1).

*

قال عبد الرحمن : إنّ كلام الحسين هذا كلام خطير، ألا تظنّ أنّ بني أميّة سيعتبرون ذلك تحريضا عليهم، ودعوة للنهضة ضدّهم؟

قال عبد اللّه بن مسلم : باستطاعتهم أن يفسّروا ذلك بأيّ تفسير يريدون، لكن الحسين يريد من العلماء وأصحاب رسول الله صلي الله عليه و آله وسلم والتابعين، أن يؤدّوا أمانتهم في الدعوة إلي الحقّ، وأن يتحمّلوا مسؤولياتهم في الدفاع عن المظلومين، وذلك بعد أن آيس الحسين عليه السلام من استجابة معاوية وجماعته النصائح الناصحين، وهذا ديدن الأنبياء والأوصياء دائماً، فهم أوّلا يأتون إلي الحاكمين وينصحونهم، ويدافعون عن حقوق المستضعفين، فإذا لم ينفع معهم ذلك توجّهوا إلي الأمّة. وطالبوا في الدرجة الأولي أولئك الذين يستجيب الناس لهم من العلماء الذين يأكلون رزقهم باسم الدفاع عن الدّين، وهذا ما قاله الإمام الحسين عليه السلام لهم.

فباعتبارهم ينطقون باسم الدّين أصبح لهم مقام كريم بين الناس، وآن الأوان أن ينطقوا فعلا باسم الدّين، وأن لا يكتفوا ببيان الأحكام الشخصيّة وما يرتبط بالطهارة والنجاسة وما شابه ذلك. هنا مربض الغنم، وهنا النقطة المركزية في كلام الإمام، ويشبه ما قاله

1- (1) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص 237 - 239.

الإمام كلام أبيه حينما قال : «وما أخذ اللّه علي العلماء أن لا يقارّوا علي كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم»(1).

قال عبد الرحمن : يبدو أنّنا في زمن عنود، وظروف صعبة للغاية .

قال عبد اللّه : هذا صحيح، نحن علي مفترق طرق، فإذا استطاع بنو أميّة أن يشلّوا إرادة الأمّة ويضلّوا الناس، ومن ثمّ يرفعوا الأشرار ويضعوا الأخيار فإنّهم سيفعلون كما فعلت الأمم السابقة، حيث انحرفوا عن موازين الأنبياء ومبادئهم وقيمهم، ثمّ قاموا بتحريف الدّين نفسه، وفرّغوا جوهره من محتواه وجعلوه مجرّد مظاهر.

فقال عبد الرحمن : ولكن اللّه بالنسبة إلي هذا الدّين وعد بأن يحفظه، حيث يقول تعالي في كتابه الكريم : (إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحفظون)(2)، فلا خشية عليه، أليس كذلك؟

قال عبد اللّه بن مسلم : نعم؛ إلا أنّ اللّه أبي أن يجري الأمور إلّا بأسبابها، فربّنا سيحفظ هذا الدّين بأهل بيت نبيّه، كما أنّ اللّه تعالي قال في معركة الأحزاب: (وكفي اللّه المؤمنين القتال)(3)، لأنّه تعالي لم ينزل ملائكة لكي يقتلوا عمرو بن ودّ، ويحاربوا المشركين ، ويهزموهم وإنّما بعث عليّاً عليه السلام و وفّقه لقتل عمرو بن ودّ، فكفي اللّه المؤمنين القتال بعليّ. فهو حينما يقول : (وإنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 3.

2- (2) سورة الحجر، آية 9.

3- (3) سورة الأحزاب، آية 25.

لحفظون) ، يستعمل صيغة الجمع، ويقصد نفسه وملائكته وأوليائه . كما يقول في كتابه الكريم: (إنّا أنذرنكم عذاباً قريباً)(1) ، ويقصد أنّه تعالي أنذر الناس عبر إنزال جبرائيل علي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وإنذاره القومه.

قال عبد الرحمن : أحياناً أتساءل مع نفسي: هل هؤلاء الذين يحكمون باسم رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم ، ويتبوّأون مقعده، ويدّعون خلافته ، هم في دواخل نفوسهم مؤمنين باللّه ورسوله، ولكنّهم فسقة يخالفون بعض بنود الشريعة؟، أم أنّهم ألغوا ما يرتبط بآخرتهم، ومن ثمّ فهم مثل جميع الظلمة في التاريخ الذين استخدموا الدّين، وما فيه من المباديء والقيم، غطاءاً لسلطتهم وأعمالهم؟

قال عبد الله بن مسلم : لا يعرف ما في القلوب إلّا اللّه، ولكن من ظواهر أعمال هؤلاء يتبيّن أنّ الدّنيا عندهم هو كل شيء. أمّا الآخرة فقد تركوها لأهل البيت عليهم السلام ، وما حديثهم عن اللّه تعالي ورسوله صلي الله عليه و آله و سلم إلّا من أجل استغلاله لمآربهم وخداع الناس به، تماما كما أنّ كثيرا من الحكّام في التاريخ كانوا يقولون للناس ما يرضيهم ، ويعملون ما فيه مصلحة أنفسهم. ألا تري مثلا أن معاوية، وهو يعيش أيامه الأخيرة لمّا زاد مرضه وتحدّث الناس أنّه الموت، قال لأهله : «أحشوا عيني إسمداً، وأوسعوا رأسي دهناً». ففعلوا وبرّقوا وجهه بالدهن، ثمّ مهّدوا له في فراش، فجلس، وقال : أسندوني . حتّي لا يتبيّن ضعفه .

ثمّ قال : «ائذنوا للناس فليسلّموا عليّ قياماً ، ولا يجلس أحد.

ص: 83

1- (1) سورة النبأ، آية 40.

فجعل الرجل يدخل فيسلّم قائماً، فيراه مكتحلاً مدهّناً، فلمّا يخرج من عنده يقول : هذا أصحّ الناس (1).

يريد بذلك أن يبيّن للناس أنّ صحّته كأفضل ما يكون .

ثمّ حينما كان يخرج الناس، يقول لأهل بيته :

وتجلدي للشامتين أريهموا * أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنيّة أنشبت أضفارها * ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

وقال لابنتيه، في مرضه الـذي ثقل عليه وهما تقلّبانه، قال لهما : تقلّبان حوّلاً قلّبا. (أي رجلاً كثير الحيلة والقدرة)، جمع المال من شبّ إلي دبّ، ثم تمثّل بقول الشاعر:

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب * وقد كفيتكم التطواف والرّحلا(2)

قال عبد الرحمن : ما الذي يقصد بقوله من شبّ إلي دبّ؟

قال: أي جمعت لكم المال من لدن شببت، إلي أن دببت علي العصي.

فلو كان هؤلاء يحسبون حساب الآخرة، ولو بمقدار قليل، لفكّروا فيما يقدمون عليه، لا فيما يتركونه خلفهم.

فتري أنّ معاوية حينما يشتدّ عليه المرض ويري الشائلات صرّه، يقول وكأنّه يري شيئاً : أسقوني أسقوني، فيشرب الماء كثيرة فلا يروي، ويغشي عليه اليوم واليومين، فإذا أفاق من غشوته ينادي

1- (1) التاريخ، الطبري، ج 5، ص 226.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 327.

بأعلي صوته: «ما لي وما لك يا حجر بن عدي؟ ما لي وما لك يا عمرو بن الحمق؟ ما لي وما لك يابن أبي طالب»؟

فيقول له يزيد: «يا أمير المؤمنين، عجّل لي بالبيعة قبل موتك، فقد أزف الأمر، فإنّك إن لم تذكر البيعة لي خشـيت أن ألقي من آل أبي تراب مثل ما لقيت»(1).

فأخذ معاوية يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر طويل(2).

قال عبد الرحمن : ألم يكن لهؤلاء ضمير يؤنّبهم علي ما يفعلون؟

قال عبد اللّه : نعم؛ ولذلك كانت تخرج منهم أحياناً كلمات لمصـلحة الحقّ، لكن الشـهوات والرغبات وحبّ السـلطان تدفعهم مرّة أخري إلي أحضان الباطل. فمثلا أنشأ معاوية ذات مرّة يقول:

فيا ليتني لم أعن في الملك ساعة * ولم أك في اللذّات أعشي النواظر

وكنت كذي طمرين عاش ببلغة * من الدهر حتّي زار أهل المقابر (3)

قال عبد الرحمن : ألم يكن معاوية يخشي ما بعد الموت؟

قال عبد اللّه : أحيانا كان يخشي ذلك، ولكنّه كان يظن أنّ بإمكانه أن يكسب الجنّة بالحيلة، كما كسب الدّنيا بها. فمعاوية هو

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 252؛ وشرح النهج، لابن أبي الحديد، ج8، ص 52.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 257.
3- (3) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 58.

الذي قاتل عليّاً ابن عمّ رسول اللّه ، وأخاه، ووصيّه، وتسبّب في مقتل قرابة مائة ألف شخص في معركة صفّين، وظلم أهل البيت (سلام الله عليهم) وقتل الحسن بن علي عليهماالسلام بالسّم، وظلم الحسين عليه السلام ، وفي عروقهما كانت تجري دماء رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم .. تراه عند موته يوصي بأن يوضع في عينيه قلامة أظفار رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ويقول لهم: «إنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم كساني قميصاً فحفظته ، وقلّم أظفاره يوما فأخذت قلامته، فجعلتها في قارورة، فإذا متّ فألبسوني ذلك القميص، واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني و فمي، فعسي اللّه أن يرحمني ببركتها !

ثمّ يتمثّل بشعر الأشهب :

إذا متّ مات الجود وانقطع النّدي * من الناس إلّا من قليل مصرّد

وردّت أكفّ السائرين وأمسكوا * من الدّين والدّنيا بخلف مجدّد(1)

وأحيانا كان يخاطب ربه قائلا :

إن تناقش يكن نقاشك يا ربّ * عذاباً، ولا طوق لي بالعذاب

أو تجاوز فأنت ربّ * صفوحٌ عن مسيء ذنوبه كالتّراب (2)

فهو يعيش بين عذابات الضمير من جهة، وحب الدّنيا

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 260.

2- (2) نهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 366.

والسلطان من جهة أخري، لكن حبّ الدّنيا هو الذي يغلب عليه في نهاية المطاف، ولذلك فكلّما كان يثقل عليه المرض ويفيق ويخاف الرحيل عن الدّنيا، يؤكّد علي بيعة يزيد من جديد.

يقول له الضحّاك : «يا أمير المؤمنين؛ إنّ الناس قد اضطربوا وضجّوا واختلفوا بسرعة وأنت حيّ، فكيف إن حدث بك أمر؟ فماذا تري أن يكون حال الناس؟

ويقول له مسلم بن عقبة: «إنّا نري الناس ونسمع كلامهم، ونري أنّ الأمر في يزيد، وهو أهمّ له (أقدر عليه بهمّته، وهو لهم رضي، فبادر إلي بيعته من قبل أن يعتقل لسانك.

فيقول : صدقت يا مسلم، إنّه لم يزل رأيي في يزيد، وهل تستقيم الناس لغير يزيد؟ ليتها في ولدي وذرّيّتي إلي يوم الدّين، وأن لا تعلو ذرّيّة أبي تراب علي ذرّيّة آل أبي سفيان(1) .

وهكذا ينظر إلي المسألة نظرة قبليّة بحتة، كعهد الجاهليين من آل أبي سفيان، فهم لا يزالون ينظرون إلي هذا الدّين باعتباره ملكاً ، ومن ثمّ فهو وراثة لأبنائهم في مقابل آل أبي تراب وبني هاشم، ونعرف أنّ بني هاشم هم أحفاد جدّ النبيّ وذرّيّة رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم .

ثم أنظر إلي وصيّته إلي يزيد، يقول فيها: «يا بنيّ؛ إنّي قد وطأت لك الأشياء، وأذللت لك الأعداء، وأخضعت أعناق الناس ببيعتك – أي بالإجبار – فانظر أهل مكّة والمدينة فأكرمهم، فإنّهم أصلك ومنصبك، فمن ورد عليك منهم فأكرمه، ومن لم يأتك فابعث إليه بصلته .

امجموعه

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 4، ص 346.

«وأنظر أهل العراق، فإنّهم أهل طعن علي الأمراء، وملالة لهم، فإن يسألوك أن تبدّل لهم كلّ يوم عاملاً فافعل.

«وأنظر أهـل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك وحصـنك، فمن رابك أمره فارمه بهم، (أي إذا خالفك قوم فحشـد أهل الشام لمواجهتهم). فإذا فرغوا – أي فرغ أهـل الشـام من أولئك . فأقفلهم إليك فإنّي لا آمن الناس علي إفسادهم،(فهو يريـد إبقاء أهل الشام في داخل الشام حتّي لا يفهموا شيئاً من الحق، ويستطيع أن يقاتـل بهم أهـل الصـلاح، لأنّه يخاف عليهم من الصـلاح ويسـمّي ذلك فساداً)، وقـد كفاك اللّه عبد الرحمن بن أبي بكر، لأنّه مات، فلست أخاف عليك إلّا حسيناً، وابن عمر، وابن الزبير. فأمّا الحسين فلست أشكّ في وثوبه عليك، فسيكفيك من قتل أباه وجرح أخاه، إنّ آل أبي طالب قـد مدّوا أعناقهم إلي غاية أبت العرب أن تعطيهم المقادة فيها. (فحديث معاوية لا يرتبط بدين ولا بقيم الرسالة، وإنما ينطق باسم العرب، وباسم عائلته والملك).

«وأمّا ابن عمر فقد وقذه الإسلام وشغله عن منازعتك. وأمّا ابن الزبير فخبٌّ خدع، فإذا شخص إليك فألبد له، فإنّه ينفسخ عن المطاولة(1).

ويقول له: «يا بنيّ؛ إنّي من أجلك آثرت الدّنيا علي الآخرة ، و دفعت حقّ علي بن أبي طالب، وحملت الوزر علي ظهري .

ويضيف: «إنّي جعلت هذا مطمعاً لك، ولولدك من بعدك ،

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص 108.

وإنّي موصيك بوصيّة فاقبلها فإنّك تحمد عاقبتها، وإنّك بحمد اللّه حازم صارم.

«أنظر، إن تأتيك نائبة فثبّ وثوب الشهم البطل، ولا تجبن جبن ضعيف النكل، فإنّي قد كفيتك الحلّ، والترحال، وجوامع الكلم، والمنطق، ونهاية البلاغة، ودفع المؤونة، وسهولة الحفظ . ولقد وطأت لك يا بنيّ البلاد، وذلّلت لك رقاب العرب الصعاب، وأقمت لك المنار، وسهّلت لك السّبل، وجمّعت لك اللجين والعقيان، ومهّدت لك الملك من بعدي تمهيداً، فعليك يا بنيّ من الأمور ما قرب مأخذه، وسهل مطلبه، وذرعاً كما تعصي عليك»(1).

ألا تري أنّ الحديث كلّه عن الملك، وتوطيد الأمر، وإذلال الرقاب، وتجميع الذهب والعقيان، لا عن القيم والمثل،، ومن ثمّ لا تجد حديثاً في داخل بيوت بني أميّة عمّا يريده اللّه، وما أمر به النبي صلي الله عليه و آله و سلم . وإنّما هو الحديث الطبيعي الذي يدور بين الملوك وأولادهم، وبين الأمراء والزعماء وورّاثهم. وهذا هو ما كان يريد أهل البيت أن يكشفوه للناس، حتي يعرفوا أنّ أعدائهم لا يمتّون إلي الدّين بصلة، وليس لهم من هم إلّا هم الملك والدّنيا .

*

بعد هذا الحديث ودّع كلّ من عبد الرحمن وعبد اللّه صاحبه وتفرّقا، ولم يلتقيا إلّا بعد موت معاوية. عندما ذهب عبد الله بن

1- (1) التفوح، لابن اعثم، ج 4، ص 256 و 257.

مسلم لأداء العمرة في أواخر شهر رجب، وكان معاوية قد مات في النصف منه سنة ستّين، وهو ابن سبع وسبعين سنة (1).

فقال عبد الرحمن لصاحبه: ها إنّ معاوية قد هلك، فهل تري أنّه قد يحدث شيء؟

قال عبد الله : ستحدث أشياء.

قال عبد الرحمن مبتسمة : وهل تعرف الغيب؟

قال عبد الله : لا، ولكن هذا هو منطق الأحداث. فالحسين (سلام اللّه عليه) لن يسكت علي باطل، وليست بينه وبين يزيد معاهدة ، مثل ما كانت بينه و بين معاوية. وكان من بنود المعاهدة أن يكون الحسـين هو من يتسلّم الأمر ويقود الأمّة بعد معاوية، إن لم يكن الحسن بن عليّ حيّاً، لكن معاوية لم يعمل بهذه المعاهدة، بينما بقي الحسين عليه السلام ملتزماً بما عاهده عليه أخوه الحسن .

فقال عبد الرحمن : أتري، كان يجب علي الحسين عليه السلام أن يبقي ملتزماً بتلك المعاهدة، في الوقت الذي لم يلتزم بها الطرف الآخر؟

قال عبد الله : هذا هو الفارق بين أهل الحقّ وأهل الباطل، فالنبيّ صـلي الله عليه و آله و سـلم بقي وفيّاً لمعاهدة الحديبيّة، فقد التزم بأنّ من فرّ من المشركين إليه يسلّمه لأهل مكّة، بينما لو فرّ أحد المسلمين إلي أهل مكّة لا يسلّمه المشركون إلي النبي صلي الله عليه و آله و سلم . ومع أنّ أهل مكّة لم يلتزموا بهذا البند من صلح الحديبيّة، لكنّ النبيّ التزم به، وقد

1- (1) التاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 213.

سلّم صلي الله عليه و آله و سلم بالفعل أحد المسلمين الذين فرّوا من جور قريش، سلّمه إليهم بعد أن قال له: إنّ اللّه سيجعل لك من أمرك فرجاً ومخرجاً .

فالآن وقد مات معاوية، فإنّ الحسين بن عليّ لن يبايع يزيد ، ولا تلزمه أية معاهدة بالهدنة معه.

فقال عبد الرحمن : وهل تري أنّ يزيد سيحاول فرض البيعة عليه؟

فضحك عبد اللّه بن مسلم وقال : يبدو أنّك لا تعرف هذا الرجل، نعم، لا شكّ أنّه سيفعل، بل ولا مانع لديه أن يضرب عنق الحسين إن لم يبايع، فهو صبيّ - كما قال مروان بن الحكم - وأرعن، وحوله رجال يحثّونه علي ذلك من أمثال الضحّاك بن قيس، ومسلم بن عقبة .. والأخطر من كلّ ذلك مستشار أبيه السير جون، والذي لا يهمّه أمر الأمّة، لأنّه لا ينتمي إليها أساساً، وربّما يعمل بناء علي خطّة من أعداء الدّين والأمّة.

يا هذا، إنّ يزيد رجل طروب، نزق، لا يهمّه من أمر الدّين إلّا الملك واللعب. فمن أغرب ما شوهد منه أنّه في الوقت الذي كان أبوه بين الحياة والموت، وكان يغشي عليه بين فترة وأخري ويهذي ويقول: كم بيننا وبين الغوطة،فتقول له ابنته : واحزناه . فيقول: إن تنفريه فقد رأيت منفّراً(1).

في نفس الوقت كان يزيد ذاهباً للصيد إلي منطقة حوران،

ص: 91

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 261.

وهو موضع بالشام، ليتصيّد هناك، ويقول للضحّاك ، وكان رئيس شرطة معاوية : انظر لا تخفي عليّ شيئاً من أمر أمير المؤمنين (1).

قال عبد اللّه بن مسلم لصاحبه : أنت أعرف بشؤون الشام، فما الذي حدث بعد موت معاوية؟

قال عبد الرحمن : إنّ الضحّاك بن قيس جاء بعد موت معاوية إلي المسجد الأعظم، فصعد المنبر ومعه أكفان معاوية، فقال: «أيّها الناس؛ إنّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد اللّه، ملّكه علي عباده، فعاش بقدر، ومات بأجل، وهذه أكفانه كما ترون، نحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلون بينه وبين ربّه، فمن أحبّ منكم أن يشهد جنازته فليحضر بعد صلاة الظهر .

ثمّ نزل وتفرّق الناس، ولمّا صلّوا الظهر اجتمعوا وأصلحوا جهازه، وحملوه حتي دفنوه (2).

ثمّ كتب الضحّاك رسالة إلي يزيد يقول له فيها: «لعبد اللّه يزيد أمير المؤمنين، من الضحّاك بن القيس، سلام عليك. أمّا بعد فكتابي إلي أمير المؤمنين كتاب تهنئة ومصيبة، فأمّا الخلافة التي جاءتك فهي تهنئة، وأمّا المصيبة فموت أمير المؤمنين معاوية ، إنّا لله وإنا إليه راجعون، فإذا قرأت كتابي هذا فالعجل العجل، لتأخذ الناس بيعة أخري مجدّدة، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته(3) .

1- (1) راجع مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 177.
2- (2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 228.
3- (3) الفتوح، لابن اعثم، ج5، ص 1 و2.

فقصد يزيد دمشق، ووصلها بعد ثلاثة أيّام من مدفن أبيه ،فذهب إلي قبره، فجلس وانتحب ساعة، ثمّ أنشأ يقول:

جاء البريد بقرطاس يحثّ به * فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا : لك الويل ماذا في كتابكم * قال : الخليفة أمسا مدنفاً وجعا

مادت بنا الأرض أو كادت تميد بنا * كأنّما العزّ من أركانها انقلعا

أودي ابن هند وأودي المجد يتبعه * كذاك كانا جميعاً قاطنين معا

أغرّ أبلج يستسقي الغمام به * لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا

لا يرقع الناس ما أوحي ولو جهدوا * أن يرقعوه، ولا يوهون ما رقعا(1)

فقال عبد اللّه بن مسلم : أتدري أنّ هذين البيتين الأخيرين هي للشاعر الجاهلي المعروف الأعشي، وقد قالهما في مدح رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم؟

ولكن، ليس غريباً ممّن يسرق الخلافة أن يسرق أوصاف رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم بيتين من الشعر في مدح النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم ويمدح به أباه .

ثمّ التفت إلي عبد الرحمن وسأله: ما الذي فعل يزيد بعد ذلك؟

قال عبد الرحمن : إنّه قام من قبر أبيه، وسار حتّي جاء إلي قصر الخضراء، حيث وضعت له الفرش، فجلس علي الأريكة، وطلب من الناس أن يبايعوه، فبايعوه مجدّداً .

بعد ذلك خطب في الناس، وأخذ يمدح أباه قائلاً: «إنّ أمير المؤمنين معاوية كان لكم كالأب البارّ بالولد، وكان من

1- (1) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج 4، ص 373 و 374؛ والفتوح، لابناعثم، ج 5، ص 2 و6.

العرب أمجدها، و أحمدها، و أعظمها خطراً، و أرفعها ذكراً ، و أنداها أنامل، و أوسعها فواضل، و أسماها إلي الفرع الباسق، لا يعتريها الفهاهة في بلاغته ، ولا تدخله اللكنة في منطقه، حتّي انقطع من الدّنيا أثره، وصار إلي رحمة الله تعالي ورضوانه» .

فقام رجل من أقصي الناس، فصاح قائلاً: «كذبت واللّه ، ما كان معاوية بهذه الصفة، وإنّما كانت هذه صفة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وهذه أخلاقه، لا أخلاق معاوية ولا أنت».

فاضطرب الناس، فطلب الرجل، فلم يقدروا عليه. وأنّ رجلاً يقال له عطاء بن أبي صيفي، من جماعة معاوية، التفت إلي يزيد قائلاً : «يا أمير المؤمنين ؛ لا تلتفت إلي ما يقول الأعداء، وقد أعطيت خلافة الله من بعد أبيك، فأنت خليفتنا، وابنك معاوية ولي العهد بعدك، لا نريد به بدلاً، ولا نبغي عنه حولاً»(1).

***

1- (1) الفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 6 - 9.

الحاكم الجديد وأزمة الشرعية

تماماً كما يحدث بعد موت كلّ حاكم مستبد برأيه، مطلق اليد، طال به الزمن، وكانت الأمور كلّها تجري بناء علي أوامره ونواهيه . فقد اضطربت الأحوال في العالم الإسلامي كلّه، فضحايا الحكم السابق وجدوها فرصة لرفع الرؤوس والمطالبة بالحقوق، وعاد الهاربون من البطش والبغي والطغيان، إلي بيوتهم.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ أزمة الشرعيّة كانت تعصف بحكم معاوية ، نعرف لماذا استمرّت الأوضاع متوتّرة من جميع النواحي، وخاصّة في العراق، حيث كانت عاصمة دولة الإمام علي عليه السلام فيه .

فانتقال الحكم من الإمام إلي خصمه معاوية، إنّما تمّ بسبب اغتيال الإمام، فالشرعيّة كانت لا تزال عند عليّ وبنيه، وأهل العراق خاضوا معركة شرسة مع جيش الشام، فكان خضوعهم لمعاوية قسرياً ولم يكن عن إيمان منهم ورغبة واختيار. أمّا بالنسبة للحاكم الجديد، فإنّ حكمه مرفوض من قبل أغلب أهل الحلّ والعقد وأغلب الناس، ماعدا قلّة من أصحاب النّفوس الوضيعة من بني أميّة ، وجلاوزتهم، ومن لهم هوي في ملكهم.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بالحجاز .

ومن هنا فإنّ الحاكم الجديـد الذي تمّت له البيعة أكثر من مرّة في زمن أبيه، كان يشـعر في قرارة نفسه أنّ خلافته غير شـرعيّة، ولذلك بمجرّد موت أبيه أخذ يكتب رسائل إلي جميع الولاة يطالبهم بأخذ البيعة له من جديد، وكان يخصّ بالذّكر أولئك الذين لهم مكانة خاصّة في قلوب الناس .

فكتب رسائل إلي كلّ من نعمان بن البشـير الأنصاري والي الكوفة، وإلي عبيد اللّه بن زياد والي البصـرة، وإلي الوليد بن عتبة بن أبي سـفيان والي المدينة، وإلي عمرو بن سعيد الأشدق والي مكّة، يطالبهم بأخذ البيعة له.

وكانت رسالته إلي الوليـد بن عتبـة ، والتي أرسـلها مع عبـد اللّه بن عمر بن أويس، هي من جملـة الرسائل الغريبـة حقّاً، ذلك أنّها كانت في الظاهر رسالة عادية، فقد جاء فيها: «أمّا بعد، فإنّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عبيد اللّه ، أكرمه اللّه واستخلفه وخوّله ومكّن له، فعاش بقـدر ومات بأجل، فرحمـة اللّه عليه، فقـد عاش محموداً، ومات برّاً تقيّاً . فنعم الخليفة كان، ولا أزكّيه علي اللّه، وهو أعلم به منّي، وقد كان عهد إليّ عهداً، وجعلني له خليفة من بعده، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة علي أهل المدينة، والسّلام»(1).

وكما يبدو فإنّ هذه الرسالة عادية، ربّما لم تكن تؤدّي إلي حدث خاص لولا أنّه أضاف إليها رسالة أخري كتبها في صحيفة صغيرة، جاء فيها: «أمّا بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر،

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 10 و11؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص 313.

وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً، ليست فيها رخصة ولا هوادة، حتّي يبايعوا، فمن أبي منهم فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه»(1)

والغريب هنا هو أن يطلب من الوالي قطع رأس من يمتنع عن مجرّد البيعة، وليس بقطع رأس من يعلن المخالفة أو ينهض بثورة أو يرفع راية المعارضة، وإنّما بمجرّد عدم البيعة، فلابدّ من قطع رأسه، مع أنّ ذلك لم يكن لرسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وقد قال ربّنا في كتابه الكريم: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(2) ، وقال : (لا إكراه في الدّين) (3) وأمر اللّه نبيّه بأن يترك اليهود والنصاري علي ما هم عليه، إذا لم يمنعوا الناس عن الالتزام بهذا الدّين .

وأساساً ربّ العالمين لا يقطع رأس من لا يؤمن بذاته

المقدّسة، وقد عاقب اللّه نبيّاً عظيماً من أنبيائه وهو يونس بن متّي لأنّه استعجل في الدّعاء علي قومه بالعذاب، مع أنّه لم يفعل ذلك إلّا أنّهم امتنعوا عن الإيمان باللّه ، فقال ربّنا : (وذا النون إذ ذهب مغضباً فظنّ أن لّن نقدر عليه فنادي في الظّلمات أن لّا إله إلا أنت سبحنك إنّي كنت من الظلمين (4) .

فكيف يسمح حاكم يدّعي أنّه يمثّل رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ولم يمض

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 11؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري ، ج5، ص 313؛ والتاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 215.
2- (2) سورة الكهف، آية 29.
3- (3) سورة البقرة، آية 256.
4- (4) سورة الأنبياء، آية 87.

علي وفاة النبيّ إلّا أقلّ من أربعين عاماً، كيف يسمح لنفسه بإجبار الناس علي البيعة، وقطع الرؤوس إذا امتنع منهم أحد؟

ثمّ إنّ من ذكرهم بالاسم لم يكونوا من عامّة الناس، وإنّما كان كلّ واحد منهم يمثّل تيّاراً في الأمّة، وعلي الخصوص سيّد شباب أهل الجنّة الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ابن فاطمة ، سبط رسول اللّه ، وهو الذي سمع الصحابة من النبي صلي الله عليه و آله و سلم الكثير من الأحاديث في فضله، منها : «حسين منّي وأنا من حسين»(1)، ومنها : «الحسن و الحسين سيّدا شباب أهل الجنة»(2)، ومنها: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً» (3)، ومنها: «إن الحسين بن عليّ في السّماء أكبر منه في الأرض، وإنّه لمكتوب عن يمين عرش اللّه عزّ وجلّ: الحسين مصباح هدي وسفينة نجاة» (4).

ولقد رأي الناس كيف أنّ النّبي صلي الله عليه و آله و سلم كان يتعامل مع الحسين ، إذ يضعه هو وأخاه الحسن علي كتفيه ويمشي بهما في الأسواق ويقول: «نعم المطيّ مطيّكما، ونعم الراكبان أنتما »(5).

علي كلّ حال فإنّ محبّة الناس لرسول اللّه ولأهل بيته كانت في ذلك الوقت تتركّز في الحسين، فكيف يطلب شابّ مغرور البيعة من الحسين، ويأمر بقطع عنقه إذا رفض؟!

حقّاً لقد كان الزمن الذي عاشه الناس في ظلّ معاوية

1- (1) ذخائر العقبي، للطبري، ص 133.

2- (2) الأمالي، للصدوق، ص 112.

3- (3) ذخائر العقبي، للطبري، ص 133.

4- (4) عيون أخبار الرضا، للصدوق، ج 2، ص 62.

5- (5) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 43، ص 286.

زمناً كنوداً، فقد تمّ فيه إلغاء الأمّة، بينما أعطيت كلّ القيمة للحاكم، حتي أنّك عند تقرأ عن ذلك الزمن لا تجد أية أخبار عن الناس، وإنّما فقط عن معاوية، وعمّا فعل، وعمّا أمر، وعمّا نهي، وليس أكثر من ذلك. مع أنّ حكمه امتدّ طويلا ، ولو أنّ الأمّة كانت حاضرة لفعلت الأفاعيل، لكن الرجل كان قد ألغي الأمّة، بينما رفع من شأن عشيرته ، وكان كلّ اهتمامه منصبّاً في تثبيت حكمه، كأيّ واحد من القياصرة والأباطرة والأكاسرة .

فكان الظلام مخيّماً علي الناس، وكان الرجال الصالحون مغيّبين عن الساحة تماماً، إلّا أنّ الأمّة أصبحت بعده علي وشك أن تدخل في نفق أظلم، وفي ظلّ طغيان لا مثيل له.

*

في مثل هذه الظروف قام عبد الرحمن الصالح بزيارة الكوفة ، فدخل علي عبد الله بن مسلم، وكالعادة أخذا يتجاذبان الحديث عمّا يجري.

كان الوقت بعد موت معاوية بأسبوع، وقد شحت بين الناس أخبار ما يجري في مراكز الحكم، خاصّة عند والي المدينة .

فسأل عبد الرحمن، صاحبه عمّا يحدث.

فقال عبد الله بن مسلم : بلغني أنّ يزيد أرسل رسالة إلي الوليد بن عتبة ينعي فيه معاوية، ويأمره بأخذ البيعة من الناس عامّة ، ومن الحسين بن عليّ، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد اللّه بن عمر خاصة، ويطالبه بأن يقطع رأس كلّ من يمتنع ولا يبايع .

فقال عبد الرحمن : وماذا فعل الوليد؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ الوليد ظع برسالة يزيد(1).

وبما أنّ الرجل لم تكن له خبرة في التعامل مع أوامر كهذه ، فقد دعا مروان بن الحكم، وكان من قبل والياً علي المدينة من قبل معاوية، وكان بينهما زعل، ولا يأتي مروان إلي الوليد إلّا متكارهاً . فلمّا جاء كتاب يزيد إلي الوليد اضطرّ لاستشارة مروان، فدعاه إلي دار الإمارة وأبلغه خبر موت معاوية، وأعطاه كتاب يزيد، وقال له : ما الرأي؟

فقال مروان: «أري أن تبعث الساعة إلي هؤلاء النفر، فتدعوهم إلي البيعة، فإنّهم إن بايعوا لم يختلف علي يزيد أحد من أهل الإسلام، فعجّل عليهم قبل أن يفشي الخبر فيمتنعوا » (2).

فقال الوليد: وإن أبوا؟

فقال مروان: «قدّمتهم فضربت أعناقهم، قبل أن يعلموا بوفاة معاوية، فإنّهم إن علموا بها وثب كلّ امريء منهم في ناحية، فأظهر الخلاف والمنابذة، ودعي إلي نفسه»(3).

قال عبد الرحمن الصالح: أبهذه السهولة، يأمره أن يضرب رؤوس هؤلاء إذا امتنعوا عن البيعة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : كما ذكرت لك، لقد كانت لمروان هوي في الخلافة، وكان يخطّط بعيداً للوصول إليها، وكانت مصلحته

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ، ج 1، ص 175.
2- (2) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 175.
3- (3) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص 314.

أن يرتكب يزيـد عملاً شـنيعاً، لتضـطرب عليه الأوضاع حتّي يثب هو إلي الحكم. فالرجل لم يكن مخلصا ليزيد، وهو من خالف بيعته في بدايـة الأمر، ولولا تهديـد معاويـة له بالعزل وإغرائه بالأموال،لم يأخـذ البيعـة من الناس ليزيد في زمن أبيه . بالإضافة إلي أنّه كان عدوّاً لبني هاشم، وهو من ألّب الجيوش من قبل لمقاتلة الإمام عليّ.

فقال عبد الرحمن : معني ذلك أنّ مروان بن الحكم لم يكن يفكّر، في آخرة نفسه، ولا في دنيا يزيد.

قال عبد اللّه بن مسـلم : هذا صـحيح، ولذلك لم يكتف بأن يطلب من الوليد أن يضرب عنق الحسين، بل أصرّ عليه، وقال فيما قال : «إنّ آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر (ويقصد بذلك من زمن رسول اللّه، حيث كان هو ومعاوية وأبو سفيان في جبهة الكفر) ولا يزالون»!

وأضاف: «إنّي لست آمن أيّها الأمير، إن لم تعاجل الحسين بن علي خاصّة، أن تسقط منزلتك عند أمير المؤمنين يزيد».

فقال له الوليد: «مهلاً، ويحك، دعني من كلامك هذا ، وأحسن القول في ابن فاطمة، فإنّه بقيّة ولد النّبيّين»(1).

وأضاف: «سبحان اللّه ، أأقتل الحسين إن لم يبايع»؟ (2).

***

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 181.
2- (2) الأمالي،للشجري، ج 1، ص 170.

في دار الامارة الحسين علي تحت التهديد

بالرغم من أنّ الوليـد بن عتبـة كان يتجنّب مواجهـة الحسـين ، نظراً لمقامه الكريم عنـد جميع أبناء الأمّة، خاصّة في الحجاز والعراق، إلّا أنّ الرجل كان والياً لمعاوية ويزيد، ومن رجال بني أميّة، فكان يعيش في حالة برزخيّة بين مصالحه مع السلطة، بالإضافة إلي جذوره التي نبتت علي بغض أهل البيت، وبين عقله وضـميره اللـذان يأمرانه بأن يحترم الحسـين، ولا ينفّذ أمر يزيد. وعلي كلّ حال كان عليه أن يفعل شـيئاً، فاسـتجاب لرأي مروان بن الحكم، وأرسل من ساعته في منتصف الليل إلي حفيد عثمان بن عفّان، واسمه عبد اللّه بن عمرو، وقال له: انطلق إلي الحسين، وعبد اللّه بن الزبير وادعوهما إليّ.

فجاء الرجل يبحث عنهما ، فوجـدهما في المسـجد النبويّ عند قبر النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم، فقال لهما : أجيبا الأمير الوليد، فإنّه يدعوكما إليه.

فقالا له: انصرف، الآن نأتيه .

وحينما خرج من المسـجد، قال عبد اللّه بن الزبير للحسين عليه السلام : ما الذي تراه دفعه لكي يبعث إلينا في هذه الساعة ، وهو لا يجلس فيها؟

ص: 102

لقد كان استدعاء الرجلين في ذلك الوقت المتأخر إلي دار الإمارة غريباً حقّاً، ويكشف عن أنّ حدثا كبيرة قد وقع.. .

فقال الحسين : أظنّ أنّ طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذ بالبيعة، قبل أن يفشو الخبر في الناس .

فقال ابن الزبير : وأنا ما أظنّ غيره، فما تريد أن تصنع، يا أبا عبد اللّه ؟

قال الحسين : سوف أمشي إليه.

فقال عبد اللّه : إنّي أخاف عليك إذا دخلت عليه .

فقال الحسين : لا آتيه إلّا وأنا اقدر علي الامتناع (1) .

ولكي لا يستطيع الوالي قتل الحسين، فإنّه لم يذهب مباشرة إلي الوليد، كما دعاه، وإنّما ذهب إلي داره أوّلاً، وجمع تسعة عشر من الرجال، من أمثال أخيه العبّاس وولده عليّ الأكبر، وأمرهم بأن يحملوا معهم سيوفهم تحت ثيابهم، وقال لهم فيما قال: «إنّي داخل علي هذا الرجل، فإن سمعتم صوتي قد علا فاهجموه، وإلّا لا تبرحوا حتّي أخرج إليكم(2).

كان الوقت متأخراً وكانت طرقات المدينة خالية من المارّة، وكان الحسين عليه السلام ومن معه يمشون الهوينا، حتّي وصلوا إلي دار الإمارة، فتقدّم الحسين عليه السلام وحده وأوقف الرجال في مكان يسمعون كلامه إذا علا صوته، ودخل وجلس عند الوليد، فرأي مروان بن

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 264.
2- (2) مقتل ابن مخنف المشهور، ص 11 - 12؛ والفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 182.

الحكم عنـده، وكان بين مروان والوليد قطيعة، فعرف الحسـين عليه السـلام أن ما تنبّأ به من موت معاوية هو صـحيح، وإلّا فإنّ أركان البيت الأموي – مع القطيعـة بينهم – لم يكونوا يجتمعون في مثل تلك الساعة من اللّيل إلّا لحدث عظيم، خوفاً من أن تنفلت الخلافة من أيديهم، خاصّـة وأنّ الأكثريّـة في حاضـرة العالم الإسـلامي ذلك الوقت كانوا يتحيّنون الفرصـة للخلاص ممّن حوّل الخلافة إلي بسـتان لبني أميّة ، يحتكر أموال الناس، ويصادر حقوقهم، ويسمّل عيون المخالفين، ويقتل من يعترض عليه .

ولمّا استقرّ المجلس بالحسين نعي إليه الوليد موت معاوية، ثمّ أقرأه كتاب يزيد الذي يأمر بأخذ البيعة من الناس .

فقال الحسن : «إنّ مثلي لا يبايع سرّاً، فإذا دعوت الناس إلي البيعة دعوتنا معهم، فكان أمراً واحداً». .

ويبـدو أنّ الوليد اقتنع بهذا الكلام، إلّا أنّ مروان بن الحكم التفت إليه قائلاً: «أيها الأمير! لئن فارقك الحسـين الساعة ولم يبايع، لم تقدر منه علي مثلها حتّي تكثر القتلي بينكم، ولكن احبس الرجل حتّي يبايع، أو تضرب عنقه» .

فبان الغضب في وجه الحسـين، وهو سـبط رسول الله وابن عليّ وفاطمة، لجرأة رجل مثل مروان بن الحكم الذي وصفه الإمام عليّ من قبل بقوله: الوزغ ابن الوزغ، أن يأمر بحبس الحسين، وإجباره علي البيعة، أو ضرب عنقه.

فوثب الحسين قائمة ورفع صوته قائلا :

«أيها الأمير! إنّا أهل بيت النّبوّة، ومعدن الرّسالة، ومختلف

الملائكة، ومهبط الوحي، بنا فتح اللّه ، وبنا يختم، ويزيد راكب الفجور، وشارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، ومعلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرو أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة».

وسمع رجال الحسين الذين أقامهم خلف الباب صوته، فاقتحموا المجلس،وأحاطوا بالحسين عليه السلام وبان الذعر في وجه كلّ من الوليد ومروان، وخرج الحسين معهم، ولم يصب بأذي.

فقال مروان للوليد: «عصيتني، فواللّه لا يمكنك علي مثلها أبدا، إن الحسين لا يمكّنك من نفسه».

فقال الوليـد – وكان لا يزال فيه بعض بقايا ضـمير، ويعرف قـدر الحسـين ومقامه عنـد الناس –: «ويح غيرك يا مروان، لقد اخترت لي ما فيه هلاك ديني ودنياي، أأقتل حسـينا إن قال : لا أبايع؟ واللّه لا أظنّ أمرءاً يحاسب بدم الحسين إلّا خفيف الميزان يوم القيامة، ولا ينظر اللّه إليه ولا يزكّيه، وله عذاب أليم»(1).

وهكذا انتهت تلك الجلسة بعتاب متبادل بين مروان بن الحكم، ووالي المدينة .

أما الحسين فإنه ذهب إلي بيته سالماً، وأمر رجاله بأن يذهبوا إلي بيوتهم.

لقد كانت كلمة الحسين عليه السلام الموجزة القصيرة في حضور

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 144؛ والتاريخ، لابن خلدون، ج 3، ص 20؛ ومقتل أبي مخنف المشهور، ص 13.

اثنين من أركان النظام : الوالي السابق علي المدينة المنوّرة، والوالي الفعلي والمعتمد من قبل معاوية ويزيد، كانت الكلمة : «إنّا أهل بيت النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي، بنا فتح الله و بنا يختم، ويزيد شارب الخمور، و راكب الفجور، وقاتل النفس المحترمة، ومثلي لا يبايع مثله». كانت هذه الكلمة بمثابة البيان الأوّل لنهضته التي حمل فيها راية الأنبياء والأولياء، و التي بموجب إمامته و نهضته سيكون وارث آدم عليه السلام و هابيل عليه السلام و نوح عليه السلام و إبراهيم عليه السلام و موسي عليه السلام و عيسي عليه السلام و رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم و علي عليه السلام .

كما أنّ رفضه للبيعة، حتّي قسراً، كان أمراً مهمّاً جدّاً، لأنّ أولياء اللّه در جوا علي أنّهم إذا بايعوا و لو مجبرين، فإنّهم يلتزمون بمستلزماتها، وكذلك الأمر لو أنّهم صالحوا مكرهين، فهم يلتزمون بالصلح وشروطه. وهذا ما فعله رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم في صلح الحديبيّة التي جاءت في ظروف قاهرة اضطرّه إلي القبول ببنود الصلح، فاستمرّ ملتزماً بها رغم أنّ قريش نقضته مراراً و تكراراً .

وكذلك الإمام علي عليه السلام، الذي قبل بالهدنة مع معاوية في معركة صفّين، وظلّ مستمرّاً علي الالتزام بها، بالرغم من أنّ قسماً كثيراً من أصحابه طالبوه بأن يجدّد الحرب علي معاوية، فرفض ذلك، لأنّه كان في حالة الهدنة معه.

كذلك فعل ابنه الحسن بن علي عليهماالسلام في صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، والذي هو الآخر اضطرّ إلي ذلك، وبقي الحسين ملتزماً بما صالح عليه أخوه، حتي بعد وفاته. ولهذا كلّه فقد رفض الحسين عليه السلام البيعة كرهاً أو طاعة، ولو سرّاً.

وهذا ما يميّز الأولياء عن غيرهم، من الذين لا مانع لديهم أن يفعلوا في السرّ ما لا يفعلونه في العلن، بأن يبايعوا مثلاً سرّاً، ثمّ يخالفوا ذلك علناً، أو العكس، وأن يقولوا للناس ما يقبلونه، ثمّ يفعلون بخلاف ذلك.

إنّ أولياء اللّه صادقون مع أنفسهم، لأنّهم صادقون مع ربّهم، ولذلك فهم صادقون مع الناس، لا يملكون شيئاً يخفونه عن أحد. وهذا ما قاله الحسين: «مثلي لا يبايع سرّاً». فإذا كان يبايع في السرّ فلا مانع لديه أن يبايع في العلن، وإذا كان لا يبايع في السرّ فهو لا يبايع في العلن.

بالإضافة إلي أنّ المطلوب من الحسين هو القيام بنهضة تصحيحيّة، يعيد الاعتبار إلي جوهر الدّين، بالإضافة إلي مظاهره التي أخذت تهتزّ في عهد يزيد، الذي كان يتظاهر بالفسوق والفجور إلي جنب إمامته للصلاة والتي أصبحت هي الأخري جزءاً من جلال السلطان، وليس من مظاهر الخشوع للّه. فهو إذا كان يقيم الصلاة فلتأكيد سلطانه وإبراز أبهّته وجلاله، وهو إذا كان يذهب إلي الحجّ فليس لإظهار العبوديّة للّه والخضوع والخشوع له، وإنّما لكي يظهر جلاله هو، وأبهّته هو، وسلطانه هو.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بجوهر الدّين الذي يأمر بالحفاظ علي حقوق الناس، والعدل في الرعيّة، ورفع الحيف عن المستضعفين، إلّا أنّ الوضع في عهد يزيد أخذ ينقلب رأسا علي عقب، وحتّي السيف الذي كان بأيدي السلطات، وهو سيف رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم الذي شهره في مواجهة الطغاة والظلمة من المشركين والكفّار، هذا السيف

تحوّل من الدفاع عن المظلومين إلي مواجهة المظلومين، ومظاهر الإيمان أصبحت ضدّ جوهر الإيمان .ولأنّ الإمام الحسين عليه السلام كان ملتزماً بالطهر التزاماً مطلقاً ، ولم يكن طالب سلطان، بل كان طالب حقّ، فإنّه كان مستعدّاً لكي يموت دون هذا الحقّ، وكانت السلطة تعرف ذلك في الحسين، وتعرف أنّه لن يساوم علي مبادئه وقيمه، ولا يمكن أن يشتروه بأيّ ثمن، وهو لن يتنازل عمّا يؤمن به.

لقد كان الحسين يشعر في قرارة نفسه، بأنّ الراية التي حملها الأنبياء علي مرّ التاريخ أصبحت في يده، وإنّ المهمّة التي أدّاها الأنبياء لأممهم أصبحت مهمّته، وأنّ الفرصة قد حانت لكي يعظ الأمّة بما وعظ به الأنبياء أممهم، وأنّ من واجبه أن يدخل مع قلّة من قرابته و أصحابه في مواجهة إمبراطورية الشرّ التي كان علي رأسها يزيد بن معاوية ، ذلك الشاب المغرور، الذي لم يكن يرقب للّه إلّا ولا ذمّة، منذ أن كان وليّا للعهد وإلي يوم مات أبيه، حتّي أنّه لم يكن يهتم حتّي بمجرّد التظاهر بالعدل والابتعاد عن قتل الأبرياء في العلن. وكان الحسين عليه السلام يعرف أنّ عليه أن يتحمّل من العنت ما تحمّل الأنبياء، وكان عارفاً أنّ كل أنواع المصائب التي تعرّض لها الأنبياء سوف يتعرّض لها .

فإذا كان هنالك نبي قد هجّر في سبيل اللّه فإنّ علي الحسين أن يتحمّل الهجرة في سبيل اللّه ، وإذا كان نبيّ آخر قد تعرّض للاتهام فإنّ الحسين سيتعرّض للاتهام أيضا، وإذا كان هنالك نبيّ آخر قد تعرّض لمحاولة القتل فإنّ الحسين سيتعرّض لمحاولة القتل، وإذا كان هنالك نبيّ قدّم ولده شهيداً في سبيل اللّه فإنّ علي الحسين أن

يقدّم ولده شهداء في سبيل اللّه، وإذا كان هنالك نبي تعرّض أهله للأسر في سبيل اللّه، فإنّ أهله سيتعرّضون للأسر أيضاً.

*

في مكّة المكرّمة التقي عبد الرحمن الصالح صاحبه عبد اللّه بن مسلم، حيث كانا يقومان بأداء العمرة، وكان الحديث قد انتشر عمّا حدث بين الحسين و بين اثنين من أركان النظام، وأنّ الحسين قد أعلنها بصراحة لا لبس فيها أنّه لن يبايع يزيد بن معاوية، وأنّ السلطة غاضبة عليه، لأنّ رجالها يعلمون أنّها إنّما تعود إلي أهل الحقّ، وليس أهل الحقّ إلّا أهل بيت رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم .

فقال عبد الرحمن لصاحبه: أتري أن القضيّة تنتهي إلي المواجهة؟

قال عبد الله : العلم عند الله ، ولكن من المؤكّد أنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قد أخبر من قبل أنّ الحسين مقتول، ولا أظنّه يقتل إلّا علي يد أبغض الخلق إلي اللّه، ذلك أنّ التقابل بين الحقّ والباطل عادة ما يكون بتناسب الحقّ والباطل، فكلّما كان صاحب الحقّ أعلي درجة، كان الذي يقابله أكثر انحطاطاً . ألا تري أنّ عليّ بن أبي طالب، وهو من هو، قتله رجل خامل الذّكر، وهو عبد الرحمن بن ملجم، مدفوعا بشهوة امرأة، في مقابل ألف دينار أخذه منها، لتنفيذ جريمته الخطيرة تلك؟

وألم تسمع ما قاله رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم و حينما خرج عليّ عليه السلام المواجهة عمر بن ودّ: «برز الإيمان كلّه إلي الشّرك كلّه»(1)؟ فبمقدار

1- (1) بحار الأنوار : للمجلسي، ج 20، ص 215.

ما كان علي عليه السلام يمثّل الإيمان، كان عمرو بن ودّ يمثّل الكفر والشّرك. ولا أشكّ في أنّ يزيد بن معاوية مقدم علي قتل الحسين .

قال عبد الرحمن : ألا يحسب الرجل حساباً لمقام الحسين عند الناس؟

فقال عبد اللّه : لو كان يحسب الرجل حسابا لمقام الحسين عند اللّه، لكنّا نتوقّع أن يحسب حسابا لمقامه عند الناس أيضا. ثمّ إنّ يزيد يريد أن يكمّل المهمّة، مهمّة تغيير مسار هذا الدّين إلي الأبد، وتفريغه من محتواه، بالإضافة إلي أنّه مغرور إلي أبعد الحدود.

ألا تري كيف أنّه يطلب في رسالته الأولي إلي الوليد بن عتبة بأخذ البيعة من الحسين، فإن أبي فإنّ عليه أن يضرب عنقه؟

قال عبد الرحمن : من جهته ألا تظنّ أنّ الحسين سيتجنّب المواجهة، حتي لا يقتل علي يد يزيد؟

قال عبد الله : الحسين مشروع شهادة، وقد بشّر الأنبياء أوصيائهم بشهادته ، وبشّر بها النبيّ أهل بيته .

قال عبد الرحمن : ومتي حدث ذلك؟

قال عبد اللّه بن مسلم : عندما بكي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم و عند ولادة الحسين، ولمّا سئل عن ذلك قال: «إنّ ولدي هذا مقتول مخذول».

ثمّ رفع يديه بالدّعاء قائلا: «اللّهمّ بارك له في مقتله، واجعله من سادات الشّهداء، ولا تبارك في قاتله وخاذله»(1).

ص: 110

1- (1) مقتل الحسين، للشيخ جعفر الشوشتري، ص. 51

فقال عبد الرحمن : إذا كان الأمر كذلك، وإنّك تري أنّ يزيد سيقدم علي قتل الحسين لا محالة، فلماذا لم يحدث ذلك منذ البداية، وأقصد لماذا لم تقدم السلطة علي قتله حتي الآن؟

قال عبد اللّه بن مسلم : بسببين، الأوّل أنّ الوليد بن عتبة كان متردّدا في تنفيذ أمر يزيد منذ بداية البدايات، خاصّة وأنّ بعض من كان معه لم يكن رأيهم أن يمسّ الحسين بسوء، بما في ذلك زوجته أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فلقد عاتبته علي التلاسن الذي وقع بينه وبين الحسين، وقالت له : أسببت حسيناً؟

فقال الوليد: هو بدأ فسبني.

قال عبد الرحمن : وهل أنّ الحسين سبّ الوليد؟

قال عبد الله : لا، ولكن حينما أوصي مروان بن الحكم الوليد بأن يضرب عنق الحسين إن لم يبايع، قال الحسين: «يابن الزرقاء، أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت واللّه، وأثمت».

قال عبد الرحمن : وماذا كان جواب زوجة الوليد له؟

قال عبد اللّه : إنّها قالت: وإن سبّك الحسين، أتسبّه؟ وإن سبّ أباك، أتسبّ أباه؟(1).

قال عبد الرحمن : وما هو السبب الثاني؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّهم انشغلوا بعبد اللّه بن الزبير، فإنّهم كانوا يخشون عبد اللّه بن الزبير أكثر ممّا يخشون الحسين عليه السلام ، من حيث أنّ الرجل كان شبيهاً لهم، فلم يكن لديه أي مانع أن يخادع

1- (1) مختصر ابن منظور، ج7، ص 138.

الجماعـة، وحتّي أن يقوم بعمليّات الاغتيال كما يفعلون، وأن يساوم بعض الولاة هنا وهناك، فاهتموا به، وانشـغلوا بذلك عن الحسـين، حتّي أنّ الوليد وجّه عدّة رسل إلي عبد اللّه بن الزبير يطلبه إلي قصر

الإمارة.

ففي الليلـة التي ذهب فيها الحسـين إليه، رفض عبـد اللّه بن الزبير أن يذهب، وإنّما بقي في داره، وكان كلّما جاء رسول الوليد إليه، يقول: لا تعجّلوا فإنّي آتيكم. حتّي أنّ الوليد وجّه موالي له، فشتموه وقالوا : يابن الكاهليّة، إن أتيت الأمير، وإلّا قتلناك .

فجعل يقول : الآن أجيء، والآن أجيء.

ثمّ أرسل أخاه جعفر بن الزبير إلي الوليـد ليقول له: «كفّ رحمك اللّه ، عن عبد اللّه، فقد أفزعته وذعرته بكثرة رسـلك، وهو سـيأتيك غدا إن شاءاللّه» .

فصـرف الوليـد رسـله عنه، وهكـذا خادعهم عبد اللّه بن الزبير، وخرج من المدينة في ليلة السـبت الثلاث ليال بقين من رجب، سـنة ستّين للهجرة، وأخذ الطرق الفرعيّة ومعه أخوه، وتجنّبا الطريق الأعظم. فلمّا أصبح الوليد طلبه، فلم يجده. فقال له مروان : أظنّ أنّه توجّه إلي مكّة. فوجّه الوليد في طلبه حبيب بن كوين في ثلاثين فارساً من موالي بني أميّة، ولكنّهم لم يجدوه في الطريق، لأنّه لم يكن يسـلك الطريق العام، وتشاغلوا عن الحسين بطلب ابن الزبير(1).

قال عبد الرحمن : وماذا عن نهاية أمر الحسين والوليد بن عتبة؟

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص314 و 315.

قال عبـد اللّه : إنّ الوليد كتب إلي يزيد بن معاوية يخبره بما كان من أمر أهل المدينة، وما حدث مع عبد اللّه بن الزبير . ثمّ ذكر له بعد ذلك أمر الحسين عليه السلام وقال في رسالته : إنّ الحسين ليس يري لنا عليه طاعة ولا بيعة .

فلمّا ورد الكتاب علي يزيد غضب لذلك غضباً شديداً، وكان إذا غضب انقلبت عيناه، فعاد أحول. فكتب إلي الوليد رسالة يقول له فيها: «من عبـد اللّه يزيـد أمير المؤمنين، إلي الوليد بن عتبة، أمّا بعد، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة ثانية علي أهل المدينة ، توكيداً منك عليهم، وذر عبـد اللّه بن الزبير فإنّه لن يفوتنا، ولن ينجو منّا أبـدا ما دمنا أحياء، وليكن مع جواب كتابي هـذا رأس الحسـين بن عليّ، فإن فعلت ذلك جعلت لك أعنّة الخيل، ولك عندي الحظ الأوفر، والجائزة العظمي، والسّلام»(1).

فقال عبد الرحمن : ولماذا لم ينفذ الوليد أمر يزيد هذا، مع شدّة صرامته وصراحته؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : إنّ الوليد بن عتبة لم يكن يري نفسه أقلّ من يزيد مقاماً وشأناً في بني أميّة، كما أنّ الرجل لم يكن يري أيّ داع لقتل الحسـين ما دام أنّه رفض البيعة فقط، ولم يقم بعد بأي عمل آخر، ويبدو أنّ بقايا ضميره منعته من تنفيذ ذلك. فقد علّق علي رسالة يزيد قائلاً : «واللّه لا يراني اللّه، وأنا قاتل الحسين ابن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، ولو جعل لي يزيد الدّنيا وما فيها»(2).

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 168؛ والتفوح، لابن اعثم، ج 5، ص 26.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 186.

قال عبد الرحمن الصالح: كيف تقول إنّ السلطة انشغلت بعبد اللّه بن الزبير عن الحسين، ما دام أنّ الرجل قد فلت من أيديهم وذهب إلي مكّة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : كان لعبد اللّه بن الزبير الكثير ممّن هواهم معه من أهل المدينة، فانشغل الوليد بتعقّبهم وسجنهم، وكان فيمن حبسهم يومئذٍ ابن عمّ لعمر بن الخطّاب يقال له عبد اللّه بن مطيع العدوي، وحبس أيضا مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وغيرهما كثير، حتّي أنّ رجالا من بني عدي ذهبوا إلي عبد اللّه بن عمر، و وسّطوه لخلاص صاحبهم.

ويقال إنّ بعضهم هدّد بالقتال من أجل خلاص عبد اللّه بن مطيع، وقالوا لعبد اللّه بن عمر: إنّ صاحبنا عبد اللّه بن مطيع قد حبس مظلوماً لا ذنب له، واللّه لتخرجنّه أو لنموتنّ من دونه.

فقال لهم عبد اللّه بن عمر: لا تعجّلوا بالفتنة ولا تسارعوا إليها . ثمّ أرسل إلي مروان بن الحكم، فدعاه إليه، وطالبه بالكفّ عن عبد اللّه بن مطيع و إخلاء سبيله. وكان فيما قاله لمروان: «إنّا لا نعلم أنّ لكم علي صاحبنا سبيل، ولا حقّ تحبسونه به، فإن زعمتم أنّكم إنّما حبستموه بالحقّ فافعلوا ذلك، وإن كنتم إنّما حبستموه علي الظن، فإنّا لا ندع صاحبنا يحبس مظلوماً».

فقال مروان: إنّما نحن حبسناه بأمر أمير المؤمنين يزيد، وعليكم أن تكتبوا في ذلك إليه، و نحن نكتب أيضاً، فإنّه لا يكون إلّا ما تحبّون.

ولم يصبر بنو عدي حتّي يكتبوا إلي يزيد ويأتي الجواب ،

ص: 114

وإنّما اقتحموا السجن وأخرجوا صاحبهم، وأخرجوا كلّ من كان معه(1)

فمثل هذه المواجهات الصغيرة، والتوتّرات شغلت السلطة عن تعقّب الحسين عليه السلام .

قال عبد الرحمن : أخبرني يا عبد اللّه ما الذي فعل الحسين بعد تلك اللّيلة؟

قال عبد اللّه : إنّ الحسين أصبح من غده، فخرج من بيته، فإذا هو بمروان بن الحكم يعترضه في طريقه، فقال مروان : أبا عبد اللّه ؛ إنّي لك ناصح، فأطعني ترشد وتسدّد.

فقال الحسين : ما ذلك، قل حتّي أسمع؟

فقال مروان : أقول إنّي أرشدك ببيعة يزيد، فإنّها خير لك في دينك وفي دنياك .

فاسترجع الحسين قائلاً : «إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. وعلي الإسلام السّلام إذا بليت الأمّة براع مثل يزيد».

ثمّ قال: «يا مروان؛ أترشدني لبيعة يزيد وهو رجل فاسق؟ لقد قلت شططاً من القول وزللاً، ولا ألومك، فإنّ من لعنه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم لا ينكر من أن يدعو لبيعة يزيد»..

وأضاف: «إليك عنّي يا مروان، فإنّا أهل بيت رسول الله ، والحقّ فينا، وينطق علي ألستنا، وقد سمعت جدي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم يقول : الخلافة محرّمة علي آل أبي سفيان، الطلقاء وأبناء

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 21 و 23.

الطلقاء، فإذا رأيتم معاويـة علي منبري فابقروا بطنه . ولقـد رآه أهل المدينة علي منبر رسول اللّه ، فلم يفعلوا به ما أمروا به، فابتلاهم اللّه بابنه يزيد».

فغضب مروان من كلام الحسين وقال : لتبايعينّ يزيد بن معاوية صاغراً.

فقال الحسـين : إليك عنّي، فإنّا من أهل بيت الطهارة، قـد أنزل اللّه فينا: (إنّما يريـد اللّه ليـذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا)(1).

فنكّس مروان رأسه ولم ينطق .

فقال الحسين وهو يبتعد عنه : «أبشر يا مروان بكلّ ما تكره من رسول اللّه يوم تقدم علي ربّك، فيسألك جدّي عن حقّي وحقّ يزيد».

فمضي الرجل مغضباً إلي الوليد وأخبره بما قاله الحسين(2).

قال عبد الرحمن الصالح: في نظرك يا عبد اللّه ، هل تعرف كيف يري الحسين نهاية أمره معهم؟

فقال عبد اللّه : لا أشكّ أنّه يعرف أنّه مقتول، وأنّه قربان اللّه في هذه الأرض، وأنّه المعني بقوله تعالي في قصّة إسماعيل : (وفدينه بذبح عظيم) (3). فحاشي للّه أن يسمّي كبشاً بصفة العظيم،

1- (1) سورة الأحزاب، آية 33.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص 185.
3- (3) سورة الصافات، آية 107.

فإذا كان إبراهيم الخليل، رأي في منامه بأنّه يذبح ولده إسماعيل، ولكن امتنع عليه السكّين فلم يذبح، فإن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وهو سيّد الأنبياء وخاتم الرّسل هو الذي سيقدّم القربان.

قال عبد الرحمن : وهل أنّ الحسين يصرّح لأحد بمثل ذلك؟

قال عبد اللّه : إنّ أهل البيت جميعاً يعرفون ما أقول، أمّا الحسين نفسه فنعم، إنّه يتحدّث عن شهادته، بل أحياناً يبيّن أين يكون مصرعه.

قال عبد الرحمن : لمن تحدّث؟

قال عبد اللّه : لقد تحدّث أخوه من أبيه عمر بن عليّ بن أبي طالب، فقال : إنّ الحسين لمّا امتنع عن البيعة ليزيد بالمدينة دخلت عليه، فوجدته خالياً؛ أي وحده، فقلت له : جعلت فداك يا أبا عبد اللّه ، حدّثني أخوك أبو محمّد الحسن عن أبيه .. ثمّ سبقتني الدّمعة وعلا شهيقي.

فضمّني إليه وقال : أعرف، حدّثك أنّي مقتول .

فقلت : حوشيت يابن رسول اللّه .

فقال : سألتك بحقّ أبيك أبقتلي خبّرك؟

فقلت: نعم، وطلبت منه أن يبايع .

فقال الحسين : حدّثني أبي أنّ رسول اللّه أخبره بقتله وقتلي، وأنّ تربته – أي تربة الإمام عليّ – تكون بقرب تربتي، أتظن أنّك علمت ما لم أعلمه؟

ثمّ قال: وإنّي لا أعطي الدنيّة من نفسي أبداً، ولتلقينّ

فاطمة عليهاالسلام أباها شاكية ممّا لقيت ذرّيتها من أمّته، ولا يدخل الجنّة من آذاها في ذرّيّتها(1).

هنا تأوّه عبد الرحمن الصالح، وقال : آسي لما آل إليه أمر هذه الأمّة، فمثل الحسين بن عليّ ابن فاطمة سبط رسول اللّه يضيّق عليه ويطالب بالبيعة لمثل يزيد، ولكن ما دامت القضيّة محسومة سلفاً بالنسبة إلي الحسين، فهل هذا يعني أنّه سوف يخوض مواجهة لا هوادة فيها معشرطة بني أميّة في المدينة، أو في أيّ مكان حتّي يتمّ قتله؟

قال عبد اللّه بن مسلم: لا، ليس الأمر كما تظن، فالحسين لن يعين أحداً علي نفسه، فهو قربان اللّه الذي سيقتل، ولكن بالطريقة التي يختارها اللّه له، وليس كما يريد بنو أميّة، خاصّة و أنّ المقصود ليس هو أن يعلّق رأس الحسين علي الرمح لكي يفتدي ذنوب العباد، كما يعتقد النصاري في المسيح. فما يريده الحسين هو إخراج العباد من حيرة الضلالة، وإنقاذ الدّين من الذين يريدون تحويله من دين اللّه إلي دين الحاكمين، ومن شريعة سيّد المرسلين إلي شريعة الطغاة الفاسدين. وأعتقد أنّ قتل الحسين سيكون هو الزلزال العظيم الذي يهزّ، ليس فقط هذه الأمّة، وإنّما تاريخ البشرية جميعاً.

فالحسين سيكون بما يقدم عليه حجّة اللّه العظمي علي الناس جميعا في كلّ زمان ومكان، فيومه سيكون يوماً مشهوداً، وهذا ما قاله أخو الحسن له: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله»(2).

ص: 118

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 26 و 27؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 148.
2- (2) الأمالي، للصدوق، ص 177.

وهذا أمر طبيعي، فاللّه عزّ وجلّ يقف مع عباده الذين يقفون معه، ولما كان الحسين مع اللّه، كان اللّه معه.

وإذا كان ربّنا قد تحدّث عن أصحاب الأخدود، والشّهداء الذين قتلوا حرقا لأنّهم رفضوا الكفر باللّه، وهم مؤمنون مثل بقيّة المؤمنين، فكيف بالنسبة إلي سيّد شباب أهل الجنّة، و سبط رسول اللّه، و ابن عليّ و فاطمة، و أخ الحسن؟

قال عبد الرحمن الصالح: أتقصد أنّ ما أنزله اللّه في سورة البروج، حيث يقول: (والسـماء ذات البروج * و اليوم الموعود * و شاهد و مشهود * قتل أصـحب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم علي ما يفعلون بالمؤمنين شـهود * وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد * الذي له ملك السموت والأرض واللّه علي كل شيء شهيد)(1). هذا أيضاً ينطبق علي الحسين وعلي أعدائه؟

قال عبد اللّه : هو كذلك، فالقوم سـيقتلون حسـيناً، ولكن اللّه حينئذ سوف يفي بوعده الذي ذكره في هذه السورة، حيث قال : (إنّ بطش ربك لشديد) (2). ففراعنـة هـذه الأمّـة سـيجدون ما وجـده أسـلافهم من قبل. فاللّه هو اللّه، وليست له قرابـة مع أحد، وسـنّته لا تبديل فيها ولا تحويل، من يعمل سوءاً يجز به ومن يرتكب جريمة يؤخذ بها (إنّ ربّك لبالمرصاد) (3).

1- (1) سورة البروج، الآيات 1. 9.
2- (2) سورة البروج، آية 12.
3- (3) سورة الفجر، آية 14.

قرار الهجرة من المدينة

قرر الحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة المنوّرة إلي مكّة المكرّمة، ولكنّه قبل ذلك استخار اللّه في أمره، فأتي مسجد رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم، فصلّي ركعتي صلاة.

فلمّا فرغ منهما رفع يديه بالدّعاء قائلاً : «اللّهمّ إنّ هذا قبر نبيّك محمّد صلي الله عليه و آله و سلم ، وأنا ابن بنت نبيّك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللّهمّ وإنّي أحبّ المعروف، وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر ومن فيه، إلّا ما اخترت لي من أمري هذا ما هو لك رضي، و لرسولك رضي».

ثمّ جعل يدعو ويبكي، حتّي إذا كان قريباً من الصبح وضع رأسه علي القبر فأغفي، فإذا به يري رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه و شماله و بين يديه، فجاء حتّي ضمّ الحسين إلي صدره وقبّل بين عينيه وقال له: «يا بنيّ، كأنّي أراك عن قريب مرمّلا بدمائك، مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، بين عصابة من أمّتي، و أنت في ذلك عطشان لا تسقي، وظمآن لا تروي، وهم في ذلك يبغون شفاعتي، ما لهم، لا أنالهم اللّه شفاعتي يوم القيامة».

ثمّ قال : «حبيبي يا حسين، إنّ أباك وأمّك وأخاك قد قدموا عليّ، وهم إليك مشتاقون» .

ص: 120

فقال الحسين : يا جدّاه ، لا حاجة لي في الرجوع إلي الدّنيا ، فخذني إليك واجعلني معك في منزلك .

فقال له النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم : «إنّ لك في الجنّة درجات لا تنالها إلّا بالشهادة، وما كتب اللّه لك من الثواب العظيم، فإنّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تحشرون في زمرة واحدة حتّي تدخلوا الجنّة»(1).

فانتبه الحسين عليه السلام من نومه، و رجع إلي منزله وجمع أهل بيته، فقصّ عليهم رؤياه، فلم يكن في ذلك اليوم، في مشرق و لا مغرب، قوم أشدّ غمّاً من أهل بيت رسول اللّه، ولا أكثر باك ولا باكية منهم(2) .

وبهذه الرؤيا، اكتملت الصورة. فكما أنّ إبراهيم الخليل رأي في المنام أنّه يذبح ولده إسماعيل، واعتبر ذلك أمراً ربانياً له بالذبح، فإنّ الحسين رأي رسول الله في عالم الغيب، وقد تلقّي منه الأمر بما يجب عليه أن يفعل، كما تلقي البشارة بأنّه ذبيح اللّه في هذه الأرض، ولم يكن إخباره لأهل بيته إلّا ليهيأهم لما هو مقدم عليه، وما سيحدث بالنسبة إليه، وإليهم.

*

كان عبد الرحمن يريد معرفة تفاصيل ما يجري للحسين، ولأنّ عبد اللّه بن مسلم كان من الموالين لأهل البيت، المدافعين عنهم، فإنّ عبد الرحمن كان يسأله عن أخبار الحسين وأهل البيت، كما أنّ

ص: 121

1- (1) الفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 25 - 29؛ والأمالي، للصدوق، ص 152؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 187.
2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 327.

عبـد اللّه بن مسـلم كان يسأل عبـد الرحمن عن أخبار الجبهـة الأخري وهي جماعـة يزيـد بن معاوية باعتباره مقيماً في المدينة، وله ارتباط برجال الدولة.

فقال عبد الرحمن : ما الذي جري خلال الفترة الماضية؟

قال عبد اللّه بن مسـلم : إنّ أخبار ليلة القطيعة بين الحسين وبين السلطة الأموية انتشرت بسرعة في أوساط الناس، ذلك أنّ موت معاوية كان متوقعاً خلال الفترة الماضـية نظراً لكبر سـنّه، كما أنّ خلافـة يزيـد من بعـده كانت محسومـة سـلفاً، وكما ذكرت لك فإنّ الدولة كلّها كانت مشـغولة خلال السـنوات السـبع قبل رحيل معاويـة بتثبيت سـلطة يزيد. ومن هنا فإنّ الأنظار كانت تتجه نحو موقف أهل البيت، خاصة مع رفض الحسـين البيعة، وكلامه الصـريح بأنّ يزيد لا يصلح بأية حال للخلافة، وأصبح الأمر في نظر الناس للحسين، ليس فقط لأنّ ذلك كان بنـدة من بنود الصـلح بين معاوية والإمام الحسن، بل لاختلاف شخصـيّته عن شخصـيّة خصـمه، وحرص الحسـين علي الحفاظ علي هذا الدّين، والدفاع عن حقوق الناس.

من جانبهـا فإنّ السـلطة الأمويّـة كانت تريـد إجبار الحسـين علي البيعـة، أو القضاء عليه إذا امتنع، وبما أنّ الحسـين كان يعرف هـذا القرار المتخـذ من قبلهم فإنّه كان حريصاً علي أن لا يتمّ قتله بشـكل يضـيع به دمه، فهو يعرف قيمـة هذا الدم، كما أنّ هدفه لـم يكن التنافس علي سلطان، بل الحفاظ علي الدّين .

وهكـذا فإنّ الحسـين ويزيد اختلفا، ولكن ليس علي أمر واحد؛ فمورد النزاع لم يكن واحداً، بل كان علي هدفين مختلفين . فالحسـين يريد الآخرة ويزيد يريد الدّنيا، والحسين يريد الحفاظ علي الدّين،

ويزيد يريد الحفاظ علي السلطة. وهذا ظاهر من طريقة الرجلين في اتخاذ المواقف، ومن كلامهما أيضا.

قال عبد الرحمن : ما دام الاختلاف كان علي أمرين مختلفين ، فلماذا يقع الصدام بينهما؟

فقال عبد اللّه : إنّ السلطة التي تتحدّث باسم الدين، وتستمد شرعيتها من خلافة رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم يمكن أن تصبح نموذجا يقتدي به الناس ويتبعونه باعتباره دين اللّه، وليس باعتباره سلطة زمنية، وهذا ما حدث بعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم . فالنبيّ كان يشرّع بناءً علي ما كان يوحي إليه، وليس باعتباره نجح في تأسيس سلطة وإقامة دولة. أمّا بعد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم فكلّ من أصبح خليفة، صار مقدّساً في نظر كثيرين، وأصبح ما يفعله شرعاً وديناً، وأخذ الناس يتبعونه باعتباره وسيلة للتقّرب إلي اللّه .

قال عبد الرحمن : هل لك أن تضرب مثالا علي ذلك؟

قال عبد اللّه : خذ صلاة التراويح التي شرّعها الخليفة الثاني، والتي قال عنها: نعمت البدعة هذه(1). كيف أصبحت شريعة مقدّسة، مع أنّها ليست سنّة نبويّة، والبدعة محرّمة في الدين بنص كلام النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم ، وبنصوص الآيات القرآنية الكريمة، وحينما أراد الإمام علي عليه السلام أن يحذف هذه البدعة، خرجت مظاهرة تقول: وآسنّة عمراه .

وهناك أمور كثيرة اختلفت فيها طريقة رسول اللّه، مع طريقة

1- (1) النهاية، ج1، ص 106.

الخلفاء، لكن طريقة الخلفاء هي التي غلبت علي طريقة النبيّ، واعتبره بعض المسلمين ديناً يدان به.

من هنا تجد أنّ كثيرا من القضاة أخذوا يستشـهدون بما فعله الحاكمون من الخلفاء؛ أي بصفتهم حاكمين علي الأمّة، كأنّ للحكّام الحق في تشـريع الأحكام وابتـداع واجبات دينيـة، وتحليل الحرام وتحريم الحلال، وكأنّ كل من جلس علي كرسـي الحكم فهو وليّ اللّه ، بحيث إنّ غير هؤلاء لو كان هو الذي يحكم لكانت القدسيّة قد انتقلت إليه . وهذا أمر لـم ينزل الله به من سلطان.

فإذا كانت تصـرّفات الحاكم هي التي تحدّد الشريعة، وليست القيم والمباديء والمثل والأحكام التي جاء بها الأنبياء، فلابدّ من قراءة الفاتحة علي الدّين كله.

ثمّ إنّ يزيـد ليس ملتزماً بالدّين لا واقعاً ولا ظاهراً، ويقوم بأعمال مخالفة لصـريح الدّين، والخطورة هنا أن تصـبح تصـرّفاته شـريعة مقدّسة، فيضل الناس في هذه الحياة باتباعهم له، واعتقادهم بأنّه يمثّل الدّين .

وهكذا فإنّ هدف الحسين عليه السلام الأساسي هو أن يفصل بين الأمرين، حتي يعرف الناس أنّ الحاكم، مع قطع النظر عن ادعاءاته، ليس فقط لا يمثّل الدّين إذا خالف المباديء والقيم والمثل التي جاء بها الدّين، و إنّما قد يمثّل الكفر، ويكون الرشد في خلافه .

أليس أوّل ما يصدع به الدّين هو أنّ علي الناس أن يتبعوا أولياء اللّه ، وليس الحكّام؟

ص: 124

فلا قيمة عند ربّ العالمين لموقع السلطة باعتباره سلطة، وإلّا كان لابدّ من تقديس فرعون، وهامان، ومن هم علي شاكلتهم.

قال عبد الرحمن : تريد أن تقول إنّ علينا أن لا ننظر إلي الحاكم باعتباره شخصاً مقدّساً، بل أن نحاكمه إذا خالف مباديء العدل والحقّ والإيمان، ومن ثمّ فليست سيرته شريعة مقدّسة حتي يكون علي الناس اتباعها؟

قال عبد اللّه : تماماً ؛ وأريد إضافة شيء آخر، وهو أنّ سلوك الرجلين يدلّ علي أنّهما سبيلان مختلفان، هدفاً، وطريقةً، وأخلاقاً . إن الحسين عليه السلام يمثّل كلّ الفضائل، بينما يزيد يمثّل كل الرذائل ، وأوّلها الخيانة .

قال عبد الرحمن: خيانة من؟

قال عبد اللّه بن مسلم: خيانة الأمّة، وهي أعظم وأخطر أنواع الخيانات.

قال عبد الرحمن : ماذا عن الوفاء عند الحسين؟ ما هي مظاهره؟

قال عبد الله : الحسين أساساً وليٌّ من أولياء اللّه ، فمواقفه و أعماله عين القيم والمثل، فإذا كنت تريد أن تري الوفاء يمشي علي قدمين فانظر إلي الحسين، وإذا كنت تريد أن تنظر إلي الشجاعة ، والإيمان، والصدق، والصفاء، والإخلاص، والعدل، والإحسان، والعبادة، والخضوع والخشوع للّه ، والتواضع للناس فانظر إلي الحسين .

*

قال عبد الرحمن : أخبرني، ما هي تفاصيل خروج الحسين من المدينة؟

قال عبد اللّه : حينما عزم الحسين علي الخروج من المدينة إلي مكّة مضي في جوف اللّيل، إلي قبر أمّه، فصلّي عند قبرها وودّعها . ثمّ قام من قبرها وصار إلي قبر أخيه الحسن، ففعل مثل ذلك، ثمّ رجع إلي منزله وقت الصبح(1).

قال عبد الرحمن : لماذا قرّر الحسين عليه السلام الهجرة إلي مكّة وليس إلي أيّ مكان آخر ؟

قال عبد اللّه : الأسباب كثيرة، منها أنّ مكّة هي مدينة الحسين، ففيها ولد كلّ من جده، وأبيه، وأمّه، وفيها بيت اللّه الحرام، الذي من دخله كان آمناً، بالإضافة إلي أنّ مكّة ملتقي القوافل ومجمع الرجال، كما أنّ أقرب الناس إلي الإمام أوصاه بأن يذهب إلي مكّة.

قال عبد الرحمن الصالح : ومن تقصد؟

قال عبد اللّه : محمّد ابن الحنفيّة . فقد جاء إلي الحسين وقال :

«يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ، ولست أدّخر نصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحّ بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأنصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلي الناس، فادعوهم إلي نفسك، فإن بايعوا لك حمدت اللّه علي ذلك، وإن أجمع الناس علي غيرك لم ينقص اللّه بذلك دينك ولا عقلك، ولا

1- (1) العوالم، للبحراني، ج 17، ص 178؛ والنفس المهموم، للقمي، ص73؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 187.

يـذهب به مروئتك ولا فضـلك. إنّي أخاف أن تـدخل مصـراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك وأخري عليك فيقتتلون، فتكون أنت الأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأمّة كلّها ، نفساً وأباً وأمّاً، أضيعها دماً، وأذلّها أهلاً(1).

فقال له الحسين : إلي أين أذهب يا أخي؟

قال محمّد ابن الحنفيّة : «أخرج إلي مكّة، فإن اطمأنت بك الدار فذاك الذي تحبّ، وإن تكن الأخري خرجت إلي ما تريد، مثل بلاد اليمن، فإنّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك، وهم أوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقلاً، وإلّا لحقت بالرمال وشعوب الجبال، وصـرت من بلـد إلي بلد لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم اللّه بينك وبين القوم الفاسقين».

فقال له الحسـين عليه السـلام : «يا أخي، واللّه لو لم يكن في الدّنيا ملجأ ولا مأوي لما بايعت يزيد بن معاوية أبدا، وقد قال النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم: «اللّهمّ لا تبارك في يزيد». فجزاك اللّه عنّي خيراً، ولقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا أرجو أن يكون رأيك موفّقا مسدّداً، وإنّي قد عزمت علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي».

. ثم دعا الحسين عليه السـلام بـدواة وبياض وكتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصـي به الحسـين بن عليّ بن أبي طالب أخاه محمّد المعروف بابن الحنفيّة، ولد عليّ بن أبي طالب، أنّ الحسين بن عليّ يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 341.

محمّداً عبده و رسوله، جاء بالحق من عنده، وأنّ الجنّة حقّ والنّار حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ اللّه يبعث من في القبور».

«ألا وإنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا ظالماً، ولا مفسداً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمّد، أريد أن آمر بالمعروف و أنهي عن المنكر، و أسير بسيرة جدّي محمد وسيرة أبي عليّ بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحقّ فاللّه أولي بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّي يقضي اللّه بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين .

«هذه هي وصيّتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلا باللّه ، عليه توكّلت وإليه أنيب، والسّلام عليك وعلي من اتبع الهدي، ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم» .

ثمّ طوي الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إليه، ثم ودّعه(1).

*

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ الحسين – كما قلت – كان مثالاً للوفاء والمروءة والرجولة والشجاعة. فهو لا يخرج من مدينة رسول اللّه إلّا بعد أن يودع قراباته الأحياء والأموات معاً، كما أنّه لا يفعل ما فعله عبد اللّه بن الزبير، حيث سلك الطريق الملتوي من المدينة باتجاه مكّة.

فلقد شوهد الحسين يمشي بين رجلين ويدخل مسجد رسول اللّه وهو يتمثّل بقول الشاعر يزيد بن مفزع الحميري:

ص: 128

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 29 و34؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 189.

الا ذعرت السوّام في فلق الصبح * مغيراً ولا دعيت يزيداً

يوم أعطي مخافة الموت ضيماً * والمنايا يرصدنني أن أحيدا(1)

فعرف كلّ من سمع هذا الكلام منه أنّه لن يعط الدنيّة من نفسه، لا تحت التهديد بالموت، ولا تحت ضغط الترغيب بالمال والجاه .

قال عبد الرحمن الصالح: أريد أن أسألك عن شيء سمعته ، وهو أنّ أمّ سلمة قد علمت بمقتل الحسين من رسول اللّه ، فهل هذا صحيح؟

قال عبد اللّه بن مسلم : هو كذلك، فقد قالت أمّ سلمة : «دخلت علي النبيّ ذات يوم وعيناه تفيضان، فقلت له: يا نبيّ اللّه ، هل أغضبك أحد»؟

قال : لا.

قلت : ما شأن عينيك تفيضان؟

فقال النبي صلي الله عليه و آله و سلم : «لقد قام من عندي جبرائيل قبل أمد، فحدّثني أنّ الحسين يقتل بشطّ الفرات».

ثمّ قال صلي الله عليه و آله و سلم : «هل لك أن أشمك من تربته»؟

فقلت : نعم.

فمدّ النبي صلي الله عليه و آله و سلم يده، فقبض قبضة من تراب، فأعطاها لي، فلم تملك عيناي أن فاضتا(2)

1- (1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 144

2- (2) مسندأحمد بن حنبل، ص 85.

وأضـاف عبـد اللّه قائلاـً : لمّا عزم الحسـين عليه السـلام علي الخروج من المدينـة أتته أمّ سـلمة، فقالت: «يا بنيّ؛ لا تحزنّي بخروجك إلي العراق، فإنّي سمعت جدّك يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق، في أرض يقال لها كربلاء».

فقال لها الحسين عليه السلام : «يا أمّاه؛ وأنا واللّه أعلم بذلك، وإنّي مقتول لا محالة، وليس لي من هذا بدّ، وإنّي لأعرف اليوم الذي أقتل فيه، وأعرف من يقتلني، وأعرف البقعـة التي أدفن فيهـا، وإني أعرف من يقتـل من أهـل بيتي وقرابتي وشـيعتي، وإن أردت يـا أمّـاه أريتك حفرتي ومضجعي».

ثمّ أشار إلي جهـة كربلاء، فانخفضت الأرض حتّي أراها مضـجعه ومـدفنه وموضع عسـكره وموقفه ومشـهده. فبكت أمّ سـلمة بكاءً شديـداً وسـلّمت أمرها إلي اللّه. فقال لها الحسين عليه السلام :«يا أمّاه؛ قد شاء اللّه عزّ وجلّ أن يراني مقتولاً مذبوحاً، ظلماً وعدواناً ، وشاء أن يري حرمي ورهطي ونسائي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مظلومين مأسورين مقيّدين، وهـم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً».

ثم أخذ تربة فجعلها في قارورة وأعطاها إيّاها وقال : اجعليها مع قارورة جدّي، فإذا فاضتا دماً فاعلمي أنّي قد قتلت» (1).

وهكذا فإنّ الحسين عليه السلام كان يعلم أنّه قربان أهل البيت العظيم في هذه الأرض، وذبيح الله الأعظم في السّماء، ولا محيص عن يوم

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 331 و332؛ العوالم، للبحراني، ج 17، ص181؛ لواعج الأشجان، للأمين، ص 31.

خطّ بالقلم، وكان يعلم أنّ هجرته من المدينة إلي مكّة لا عودة فيها ، ومن هنا فقد أخبر نساء بني عبد المطّلب بخروجه إلي هناك، فاجتمعن عنده و أخذن بالنياحة عليه ، فقال لهنّ : أنشدكنّ اللّه أن لا تبدين في هذا الأمر معصية للّه ولرسوله.

فقالت نساء بني عبد المطّلب : «فلمن نستبقي النياحة والبكاء، فهذا اليوم عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وعليّ وفاطمة والحسن وزينب وأمّ كلثوم، فننشدك اللّه ، جعلنا اللّه فداك، من الموت ياحبيب الأبرار».

فأقبلت إليه أمّ هاني عمّة الحسين – وكانت كبيرة السن – فلمّا رآها قال: يا عمّة؛ ما الذي جاء بك، وأنت علي هذه الحالة؟

فقالت: وكيف لا آتي، ولقد بلغني أنّ كفيل الأرامل ذاهب عنّي؟

ثمّ إنّها انتحبت باكية وتمثّلت بأبيات أبيها أبي طالب في حقّ النبي صلي الله عليه و آله و سلم:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه * ثمال اليتامي عصمة للأرامل

تطوف به الأفلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة و فواضل

ثمّ قالت : سيّدي ؛ لقد سمعت البارحة هاتفا يقول:

وإنّ قتيل الطّفّ من آل هاشم * أذلّ رقاباً من قريش فذّلت

حبيب رسول الله لم يك فاحشاً * أبانت رزاياه الأنوف وجلّت

فقال لها الحسين: «يا عمّة؛ لا تقولي من قريش، ولكن قولي : أذلّ رقاب المسلمين فذّلت».

«يا عمّة ؛ كل الذي مقدّر فهو كائن لا محالة» .

ص: 131

وأضاف :

وما هم بقوم يغلبون ابن غالب * ولكن بعلم الغيب قد قدّر الأمر

فخرجت أمّ هاني من عنده باكية وهي تقول :

وما أمّ هاني وحدها ساء حالها * خروج حسين عن مدينة جدّه

ولكنّما القبر الشريف ومن به * ومنبره يبكون من أجل فقده(1)

*

خرج الحسين من المدينة في ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب، سنة ستّين للهجرة النبوية الشريفة .

وهكذا فإنّه بعد نصف قرن من وفاة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم و كان أهل بيته لا يزالون يعيشون ظروفاً صعبة، وهم الذين أسّسوا الدولة ، وأقاموا النظام، وأخرجوا الناس من الظّلمات إلي النّور، وعلي أيديهم اهتدي الناس إلي دين اللّه، إلّا أنّ الأحداث غيّرت الموازين، فأبعدت أهل البيت من سدّة الحكم، واستطاع أحفاد أولئك الذين قاوموا رسول اللّه، ونصبوا له العداء، وحاولواالقضاء عليه وعلي دينه مراراً وتكراراً، أصبحوا حاكمين علي بلاد المسلمين، وأصبح سبط رسول اللّه مهدّداً في مدينة جدّه !

*

كان مع الحسين في هجرته من المدينة أختاه أم كلثوم وزينب، وولد أخيه، وإخوته : أبو بكر، وجعفر، والعبّاس، وعامّة من كان

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 153؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 215؛ وكامل الزيارات، لابن قولويه، ص 97.

في المدينة من أهل البيت، إلّا محمّد ابن الحنفيّة الذي بقي في مكّة(1).

وكان في الطريق يتلو قوله تعالي : (فخرج منها خائفا يترقّب قال ربّ

نجّني من القوم الظّلمين) (2).

لقد صار التاريخ يعيد نفسه، فوارث الأنبياء في المدينة، أصبح مثل موسي بن عمران عليه السلام الذي اضطرّ للخروج من مصر خوفاً من الفراعنة، وهو أيضا يخرج حتي لا يضطرّ لبيعة فرعون زمانه، وكما أنّ موسي عليه السلام خرج منها خائفاً يترقّب، كذلك الحسين، وكما دعا موسي ربّه أن ينجّيه من القوم الظالمين، فقد دعا الحسين بذلك.

وهذه واحدة من التماثل بين الحسين وبين الأنبياء.

من جانبه فإنّ الوليد بن عتبة حاول بعد ذلك جلب الحسين لإجباره علي البيعة، فلمّا لم يجده في منزله، قال: الحمد لله الذي خرج، ولم يبتلني بدمه(3).

ولزم الحسين الطريق الطبيعي الذي كان يسلكه الناس عادة بين المدينة ومكة، فقال له بعض أهله : لو تنكّبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير، لكي لا يلحقك الطلب؟

فقال: لا واللّه، لا أفارقه حتّي يقضي اللّه ما هو أحبّ إليه.

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 230؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 341.

2- (2) سورة القصص، آية 21.

3- (3) البحار، للمجلسي، ج 44، ص 328. (4) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 351؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 33.

وكان في الطريق يقرأ القرآن ويتلوه، وأحياناً يتحـدّث مع بنيه حول ماعليهم أن يفعلوه ويعظهـم، ويذكر لهم أحاديث رسول اللّه ، وكان أحياناً يقرأ هذه الأبيات من الشعر :

إذا المرؤ لا يحمي بنيه وعرضه * وعترته كان اللئيم المسيّبا

ومن دون ما يبغي يزيد بنا غداً * نخوض حياض الموت شرقاً ومغربا

ونضرب ضرباً كالحريق مقدماً * إذا ما رآه ضيغم فرّ مهربا(1)

*

مرّة أخري التقي الصـديقان عبـد الرحمن الصالـح، وعبـد اللّه بن مسـلم وفي لقائهما هذا سأل عبد الرحمن صاحبه : هل حدث شـيء غير طبيعي في طريق الحسين من المدينة إلي مكّة؟

قال عبد اللّه : إنّك تعرف أنّ الحسين وليّ من أولياء اللّه، وهو يحمل راية التوحيد التي حملها الأنبياء، وأقل ما يقال في موقفه هو ما قاله النبي صلي الله عليه و آله و سلم في أبيه في معركة الأحزاب: أنّه «برز الإيمان له إلي الشّرك كلّه»(2).

ولاـ شـكّ أنّ لأوليـاء اللّه مع ربّهم شأنـا غير شـأن بقيّـة الناس، فهم لا يعملون عملاً إلّا في سبيل اللّه . فمن أجل ربهم يأكلون ويشـربون، ويتحرّكون، ويتحـدّثون، ولـذلك فـإنّ ربّ العـالمين يهـديهم سواء السبيـل، وهو القائل:(وجعلنهم أئمّـة يهـدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرت وإقام الصّلوة وإيتاء الزكوة و كانوا لنا عبدين(3)،

1- (1) مقتل أبي مخنف المشهور، ص 15 و16.
2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 20، ص 215.
3- (3) سورة الأنبياء، آية 73.

والقائـل : (ومن يتّق اللّه يجعل لّه مخرجاً)(1). وكما أنّ ربّ العالمين أمرالملائكة بأن يعرضوا علي إبراهيم الخليل عليه السـلام خدماتهم، عندما ألقوه في داخل النار، فرفض، فقال جبرئيل: فاسأل اللّه . فقال : حسبي من سؤالي، علمه بحالي (2).

وليس بعزيز علي اللّه أن يأمر الملائكة والجنّ أن يعرضوا علي الحسـين عليه السـلام خدماتهم ودفاعهم عنه، مع فارق واحد وهو أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن قد تقرّر له في علم اللّه أن يحرق ويموت، أمّا الحسين فهو قربان اللّه في هذه الحياة، وهو مقتول لا محالة.

فقال عبد الرحمن : لم أفهم، فهل حدث أن عرضت الملائكة شيئاً علي الحسين عليه السلام؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : لمّا سار الحسـين عليه السـلام من المدينـة نحو مكّة، لقيته أفواج من الملائكة المسوّمين، في أيديهم الحراب علي نجب من نجب الجنّة، فسـلّموا عليه وقالوا: «يا حجّة اللّه علي خلقه، إنّ اللّه عزّ وجلّ أمدّ جدّك رسول اللّه صـلي الله عليه و آله و سلم و بنا في مواطن كثيرة، وإنّ اللّه أمدّك بنا».

فقال لهم الحسين : «الموعد حفرتي وبقعتي التي أستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني».

فقالوا: «يا حجّة اللّه، إنّ اللّه أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشي من عدوّ يلقاك فنكون معك»؟

1- (1) سورة الطلاق، آية 2.

2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 68، ص 156.

فقال: «لا سبيل لهم عليّ، ولا يلقوني بكريهة، أو أصل إلي بقعتي».

وأتاه أفواج من مؤمني الجنّ، فقالوا: «يا مولانا، نحن أنصارك، فمرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كلّ عدوّ لك، وأنت بمكانك لكفيناك ذلك».

فقال لهم الحسين عليه السلام : «جزاكم اللّه خيراً، أما قرأتم كتاب الله المنزل علي رسول اللّه في قوله : (لوكنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلي مضاجعهم) ؟ فإذا قمت في مكان فبم يمتحن هذا الخلق وبماذا يختبرون؟ ومن ذا سيكون ساكن حفرتي، وقد اختاره اللّه تعالي يوم دحي الأرض، وجعلها معقلا لمحبّينا، تقبل أعمالهم وصلواتهم، ويجاب دعاؤهم، فتكون لهم أماناً في الدّنيا وفي الآخرة».

. فقالوا: «لولا أنّ أمرك طاعة، ولا يجوز لنا مخالفتك لخالفناك، وقتلنا أعدائك، قبل أن يصلوا إليك».

فقال لهم الحسين: «نحن واللّه أقدر عليهم منكم، ولكن ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بيّنة»(1).

لقد كان الحسين ماضياً في طريقه الذي حدّد له ربّه، ولم يكن يتحرّك من دون أن يعرف ماذا يعمل، وهو أمين اللّه في أرضه، وحجّته علي عباده، كان ثقل الرسالة النبويّة علي كاهله، وكان عليه أن يصحّح المسير والمسار. وكان يعرف أنّ مهمّته تستدعي التضحية بكلّ ما يملك، وأنّ يتقبل حير السيوف وضربات الرماح وغرزات

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 66 و 69؛ والبحار، للمجلسي، ج 44، ص 331.

السهام في سبيل اللّه عزّ وجلّ، معتبراً الشهادة من أجل الحفاظ علي دين اللّه من مواطن الشكر لا من مواطن الصبر، كما كان شأن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو يذكر ذلك قائلا : «قلت لرسول اللّه : يا رسول اللّه ؛ أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عنّي الشهادة، فشقّ علي ذلك، فقلت لي: أبشر فإنّ الشهادة من ورائك؟

فقال صلي الله عليه و آله و سلم لي: إنّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟

فقلت : «يا رسول اللّه ؛ ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشري والشكر»(1).

كانت عين الحسين علي الآخرة، وما أعدّه اللّه للمستشهدين في سبيله، أمّا الآخرون فكانت عيونهم علي الدّنيا، وكلّ الذين نصحوه بأن لا يخرج ولا ينهض، وأن يذهب إلي جبل من الجبال، كانوا حريصين علي حياته الدّنيويّة، بينما الحسين عليه السلام كان يريد دنياه الآخرته، وحياته لرسالته.

قال عبد الرحمن الصالح لصاحبه: هل التقي الحسين عليه السلام بأحد في الطريق، ونصحه بخلاف ما كان عازماً عليه؟

قال عبد الله : نعم، فالحسين مرّ علي عبد اللّه بن مطيع القرشي، وهو عند بئرٍ له، فقال له عبد اللّه : أين تريد؟

قال الحسين : أمّا الآن فأريد مكّة، وأمّا بعدها فإنّي أستخير الله .

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 156.

فقال عبد اللّه بن مطيع : خار اللّه لك، يابن رسول اللّه ، غير أنّي أحبّ أن أشير عليك برأيي.

قال الحسين : وما هو؟

فقال: إذا أتيت مكّـة فأردت الخروج منها إلي بلـد من البلـدان، فإيّاك والكوفـة فإنّها بلـدة مشؤومـة، فقد قتل فيها أبوك، و خذل أخوك واغتيل بطعنـة كـادت أن تـأتي علي نفسه، بـل الزم الحرم فإنّك سـيّد العرب، لا يعـدل بك واللّه أهل الحجاز أحـداً، ويتـداعي إليك الناس من كلّ جانب، فواللّه تفارق الحرم، فواللّه لئن قتلوك ليتخذنا هؤلاء القوم عبيداً(1).

قال عبـد الرحمن الصالـح: وهل كان خروج الحسـين من المدينة ، وكذلك ابن الزبير من قبل ذلك صدمة للسـلطات في الشام، لأنّهم كانا يتوقّعون من الوليد بن عتبة إجبارهما علي البيعة؟ أم اعتبر ذلك أمرا طبيعيّاً؟

قال عبـد اللّه : لا، لم يكن أمرا طبيعيّاً أبدا، فالأوامر صدرت من يزيد إلي الوليد بأخذ البيعة من أهل المدينة عامّة، ومن الحسـين وابن الزبير خاصّـة. وبما أنّهما قـد خرجا فإنّ يزيد اسـتاء من ذلك، وكان مروان بن الحكم قد أخبره بذلك في رسالة بعثها إليه، وبيّن فيها تسامح الوليد، واستضعافه في أمر الحسين، فعزله يزيد مع قرابته منه، لأنّ التكبّر من عادة الطغاة، فإذا لـم تنفّذ أوامرهـم فإنّهم يأخذون العاملين تحت أيديهم بأشدّ ما يكون، ولهذا فإنّ يزيد عزل

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 230؛ والطبقات، لابن سعد، ج 5، ص 107؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 351.

الوليد من ولاية المدينة، ونصب مكانه عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وكان رجلا علي مقاس يزيد، عظيم التكبّر(1).

وفي أوّل فعل قام به هذا الرجل أنّه صعد المنبر في مسجد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، فلمّا استوي عليه أصيب بالرعاف، وكان في المجلس أعرابي يتوسّم من الحوادث، فقال: «مه، جاءنا واللّه بالدّم.

فقام رجل وتلقّي دم عمرو بن سعيد بعمامته .

فقال ذلك الأعرابي: «مه، عم الدّم الناس، واللّه .»

ثمّ قام فخطب، فناولوه عصي له شربتان .

فقال الأعرابي : تشعّب الناس واللّه - أي اختلفوا -.

وكان ممّا قاله عمرو بن سعيد في خطبته تلك : إنّ ابن الزبير تعوّذ بمكّة، (يعني عاذ ببيت الله وحرمه)، فواللّه لنغزونّه، ثمّ لأن دخل الكعبة لنحرقنّها عليه، رغم أنف من رغم (2).

***

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 265.
2- (2) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج 2، ص 268.

ابن البيت، في جوار البيت

بعد رحلة دامت خمسة أيّام بلياليها، وصل الحسين عليه السلام مع أهل بيته وعياله إلي مكّة المكرّمة، وكان ذلك ليلة الجمعة لثلاث ليال خلون من شعبان، في عام ستين للهجرة. فنزل في شعب عليّ، في دار العبّاس بن عبد المطّلب(1) .

فأخذ الناس، سواء من أهل مكّة أو من المعتمرين وأهل الآفاق، يختلفون إليه، ويجتمعون عنده حلقاً حلقاً، يستمعون إلي أحاديثه، ويسألونه ما أهمّهم من أمر دينهم ودنياهم.

أمّا عبد اللّه بن الزبير فلم يكن مرتاحا لوصول الحسين إلي مكة، بل ساءه ذلك، لأنّه علم أنّ الناس لا يحفلون به ما دام الحسين مقيماً بالبلد، غير أنّه لم يظهر استيائه، فكان يأتي إليه بين يوم وآخر، وكان الحسين أثقل الناس عليه، لأنه كان يطمع في أن يبايعه الناس، وهو يعلم أنّ لا أحد يبايعه ما دام الحسين موجودا ، فالحسين أعظم في أنفسهم وأطوع عندهم(2).

ومع دخول الحسين مكّة انقلبت المعادلات علي السلطة، فلا

1- (1) مختصر ابن منظور، ج7، ص139؛ والبداية والنهاية، ج8، ص 162.
2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص 315؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 230؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 351.

هم قـادرون علي قتله هناك ، لالتفاف الناس حوله واختلافهم إليه ، والحضور إلي مجلسه، ولوجود البيت هناك، ولا أحـد يسـتطيع أن يمنع الناس من المجيء إلي بيت اللّه والطواف حوله، خاصـّـة وأنّ ربّنا يقول : (سواء العكف فيه والباد)(1)، ويقول : (ومن أظلم ممّن مّنع مسجد اللّه أن يذكر فيها اسمهه)(2) . وهذا ما صرّح به الحسين عليه السلام حينما سأله والي يزيد علي مكّة، قائلاً : ما أقدمك؟

فقال الحسين : عائذ باللّه ، وبهذا البيت (3).

بالإضافة إلي أنّ مكّة هي مدينة الحسـين، وهو ابن البيت الذي بناه جدّه إبراهيم الخليل عليه السلام ، وطهّره رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سـلم من الأصـنام بيد أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السـلام في فتح مكّة، وكانت بيوت الهاشميين لا تزال هناك، فكان وصول الحسين عليه السلام إلي مكّة، ورفضه لبيعة يزيد قد أثار نخوة الإيمان في نفوس الناس في مختلف الأمصار.

وكان الحسـين يقضـي أيّامه في مكـّـة بين أمور ثلاث: إمّا اسـتقبال الناس والتحـدّث معهم وإلقاء المواعظ عليهم، وإمّا القيام بالطواف حول البيت والصـّـلاة في فناء المسـجد، وإمّا زيارة قبور آبائه وأجداده ، خاصّة السـيّدة خديجة جدّته ، حيث كان يقوم بزيارة قبرها ، ويصلي هناك ويبتهل إلي اللّه تعالي كثيراً(4) .

*

1- (1) سورة الحج، آية 25.

2- (2) سورة البقرة، آية 114.

3- (3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 135.

4- (4) مقتل الحسين، للمقرم، ص 158.

مع وصول الحسـين إلي مكّة قرّر كلّ من عبد اللّه بن مسـلم وعبد الرحمن الإقامة أيضا في مكّة من دون اتفاق مسبق بينهما علي ذلك، فكانا يلتقيـان بين فترة وأخري ويتـدارسان الأوضـاع، وفي يوم من الأيـام قـال عبـد الرحمن لصاحبه، وهما في فناء الكعبـة : إلي أين سـيؤول أمر الحسين مع يزيد بن معاوية؟

قال عبد الله بن مسـلم : ما أعرفه الآن أنّ المؤمنين في كل مكان بدأوا يتجمّعون حول بعضـهم البعض، ويتدارسون أمر الحسين، بالرغم من أنّهم لا زالوا في دوّامـة حكم بني أميّـة، إذ لـم يمض إلّا وقت قصـير علي موت معاويـة، ولا تزال سـلطته قائمة، ولا يزال ولاته في كلّ مكان، والدولة مبنيّة بطريقة كسـرويّة وقيصـريّة، فهو نظام يقوم علي الاستبداد، واستخدام العنف والقتل، والنفي والتشريد، وضرب كلّ من يخالف، بالرغم من ذلك فإنّ كثيرا من المؤمنين أثارتهم شجاعة الحسين، ورفضه البيعة، ووصوله إلي مكّة، وكان من أكثر البلدان التي تأثّرت بموقف الحسـين عاصمة العراق، الكوفة، وهي المدينة التي حكمها عليّ بن أبي طالب، وكان الحسين ساكناً فيها مع أبيه، إلي أن قتل أبوه في محراب العبادة بيد عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

فقال عبد الرحمن : علي ذكر الكوفة، ما هي أخبارها؟

قال عبد اللّه : لقد اجتمع المؤمنون، ممّن لهم هوي في أهل البيت ، في دار سليمان بن صرد الخزاعي، وهو من صحابة النبي صلي الله عليه و آله و سـلم ، وقـد شارك معه في بعض الغزوات كالخندق، وقد امتلأت داره بكبار القوم، فقام سـليمان خطيباً فيهم، فحمد اللّه وأثني عليه، وصلّي علي النبيّ وعلي أهل بيته، ثمّ ذكر أمير المؤمنين

عليّ بن أبي طالب، فترحّم عليه، وذكر مناقبه الشريفة، وكلّنا نعرف أنّ معاوية كان قد منع الحديث عن عليّ وذكر فضائله، وسنّ سبّه علي المنابر، وسمّي عمله هذا «سنّة».. وكان فيما قال سليمان :

«إنّكم قد علمتم بأنّ معاوية قد سار إلي ربّه وقدم علي عمله، وسيجزيه اللّه تبارك وتعالي بما قدّم، وقد قعد في موضعه ابنه يزيد، وهذا الحسين بن عليّ قد امتنع من بيعته وقد خرج إلي مكّة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدوا عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغرّوا الرجل من نفسه .

فقال القوم: بل ننصره، ونقاتل عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه .

فأخذ عليهم سليمان بذلك ميثاقاً وعهداً، ثمّ قال: «اكتبوا إليه الآن كتاباً من جماعتكم أنّكم له كما ذكرتم، وسلوه القدوم عليكم» .

فقالوا : أفلا تكفينا أنت الكتاب إليه؟

قال سليمان: لا، بل يكتب جماعتكم(1).

قال عبد الرحمن : وهل الناس أحرار في أن يجتمعوا فيما بينهم، ويتدارسوا في مثل هذا الأمر علنا وصراحة، ويتحدّثوا عن فضائل عليّ؟

قال عبد اللّه : الآن يمكنهم ذلك، لأنّ معاوية مات، ويزيد لم يسيطر تماما علي الأمور بعد، والنعمان بن بشير، بالرغم من أنّه عثماني مجاهر ببغض عليّ وسيّيء القول فيه، إلّا أنّه ليس مثل بسر بن أرطأة، أو مسلم بن عقبة، من الذين يبادرون إلي إراقة الدماء،

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 38 - 45؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 352.

بالإضافة إلي أنّ المؤمنين علي كلّ حال يشكّلون قوّة في الكوفة لا يستهان بها .

قال عبد الرحمن : وهل كتب أهل الكوفة الكتاب إلي الحسين بذلك، كما طالبهم بذلك سليمان؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ كتب أهل الكوفة ورسلهم بدأت تنهال علي الحسين، ففي كلّ يوم نسمع عن مجموعة جديدة جاءت من هناك، وهي رسائل من مختلف طبقات الناس، يطلبون من الحسين الذهاب إليهم.

قال عبد الرحمن : وهل يقتصر الأمر علي أهل الكوفة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لا، وإنّما الرسائل تأتي من كلّ مكان، بما في ذلك من البصرة، واليمن، والرّي وغير ذلك، ولكنّها من الكوفة أكثر(1).

قال عبد الرحمن : وما هو مضمون هذه الكتب؟

قال عبد اللّه : سأقرأ عليك الرسالة التي كتبها جماعة سليمان بن صرد، ومن معه، فقد جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ، من سليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

«أمّا بعد، فالحمد للّه الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد، الذي

1- (1) بغية الطلب، لابن العديم، ج 6، ص 2612؛ وتاريخ الإسلام، للذهبي، ج 2، ص 343.

اعتدي علي هذه الأمّة، فانتزعها حقوقها، واغتصـبها أمورها، وغلبها علي فيئها، وتأمّر عليها علي غير رضـي منها، ثمّ قتل خيارها، واسـتبقي شرارها، وجعل مال اللّه دولة بين أغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود»...

إنّه ليس علينا إمام، فأقدم علينا لعلّ اللّه أن يجمعنا بك علي الهدي، فإنّ النعمان بن بشـير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلي عيد، ولو بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة، وألحقناه بالشام، والسّلام»(1).

لقد كانت الرسائل التي تأتي إلي الإمام الحسين تتوالي وتزداد يوماً بعد يوم، وأحياناً كان من يأتي من الكوفة يحمل معه نحو خمسين رسالة، وهي موقعة من قبل الاثنين والثلاثة والأربعة، وكلّها تطالبه أن يستعجل الذهاب إليهم.

فمن جملـة الكتابـات التي وصـلت، رسالـة تقول: «أمّا بعـد، فحيّ أهلاً، فإنّ الناس منتظرون لك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثمّ العجل، والسّلام».

وفي بعضها كتب أهل الكوفة: «إنا معك ومعنا مائة ألف سيف»(2).

كما أنّه وصلت إلي الحسين رسالة موقّعة من قبل التالية أسماؤهم: شبث بن ربعي اليربوعي، وحجّار بن أبجر العجلي،

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج 2، ص 4؛ وأنساب الأشراف، ج 3، ص.
2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 422.

وعمرو بن الحجّاج الزبيدي، وعذرة بن قيس الأحمسي، ويزيد بن الحارث الشيباني، ومحمّد بن عمير التميمي، ونصّ الرسالة كالتالي :

«أمّا بعد، فقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام، فإذا شئت فأقدم علينا، فإنّما تقدم علي جند لك مجنّد، والسّلام»(1).

وفي بعض تلك الرسائل كانت العبارة التالية : إنّا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا(2) .

وفي نصّ آخر قال أصحاب الرسالة: إنّا نموت دونك، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك (3).

وفي نصّ رسالة أخري كتب أصحابها : إنّا قد اعتزلنا الناس، فلسنا نصلّي بصلاتهم ولا إمام لنا، فلو أقبلت إلينا رجونا أن يجمعنا اللّه بك علي الإيمان(4) .

وفي رسالة أخري كتب بعضـهم يقول : إنّا قد حبسـنا أنفسنا عليك، فأقدم علينا فنحن في مائة ألف قد فشي فينا الجور، وعمل فينا بغير كتاب اللّه وسـنّة نبيّه ، ونرجوا أن يجمعنا اللّه بك علي الحقّ، وينفي عنّا بك الظلم، فأنت أحقّ بهـذا الأمر من يزيـد وأبيه الذي غصب الأمّة فيئها، وشرب الخمور، ولعب بالقرود والطنابير، وتلاعب بالدّين(5).

ص: 146

1- (1) أنساب الأشراف، ج 3، ص 159؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 38.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 347.
3- (3) مروج الذهب، للمسعود ج 3، ص 64.
4- (4) تجارب الأمم، لأبي علي مسكويه، ج 2، ص 41.
5- (5) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 136.

وكانت الرسائل تأتي تباعا، حتّي ورد عليه في يوم واحد ستمائة رسالة، واجتمع عنده في فترات متفرّقة اثنا عشر ألف كتاب (1).

قال عبد الرحمن الصالح: وهل الحسين يجيب علي كلّ رسالة ترد إليه؟

قال عبد اللّه بن مسلم : حتّي الآن يكتفي الحسين بتلقّي الرسائل، ولم يكتب جواباً علي أية رسالة من رسائلهم.

قال عبد الرحمن : ألا تري أنّ مثل هذه الرسائل والكتب، وما فيها من المضامين تحمّل الحسين مسؤولية كبري في أن يستجيب لهم؟

قال عبد الله : هذا صحيح، فإنّ مضامين هذه الرسائل ليست عادية .

فأوّلاً، أنّهم يصرّحون باعتزالهم الجمعة والجماعة، لأنّهم لا يرون الوالي وأتباع بني أميّة أهلا لكي يجتمعوا إليهم، ويصلّوا خلفهم.

ثانياً، أنّهم يعلنون عن إجماعهم علي إمامة الحسين، وأنّه لا إمام لهم غيره.

وثالثاً، أنّهم يطلبون الحسين لكي يدفع عنهم الضيم والظلم والطغيان .

1- (1) مقتل الحسين، البحر العلوم، ص 152.

ورابعاً، أنّهم يطلبون الحسين لكي يهديهم سبيل الهدي ويجمعهم علي الحقّ.

وخامساً، أنّهم يعلنون استعدادهم لتحمّل مسؤولياتهم معه ، حتّي لو تطلّب ذلك الموت في سبيل ذلك، وأنت تعرف أنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يقم بالأمر إلّا لما ذكره في خطبته الشقشقيّة، قائلاً :

«أما والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ اللّه علي العلماء أن لا يقارّوا علي كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها علي غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها»(1).

وكلّ هذه أمور اجتمعت الآن، فهنالك حضور في الساحة من الذين يبدون استعدادهم لنصرة الحقّ، وهذه الرسائل، التي تؤكّد أنّ أصحابها مستعدّون للنصرة، مع انتشار الظلم والطغيان، ومخالفة الدّين، وما أخذ اللّه علي العلماء أن لا يقارّوا علي كظّة ظالم ولا سغب مظلوم؛ كلّ هذه تحمّل الحسين مسؤولية كبري.

فقال عبد الرحمن : إذن لماذا لا يستجيب الحسين؟

قال عبد اللّه : أعتقد أنّه ينتظر، ليس فقط لإتمام الحجّة أكثر، والتثبّت من الأمر، وإنّما ينتظر أيضا أمرا من الغيب.

قال عبد الرحمن : ألم تقل أنّ الحسين يعرف سلفا أنّه قربان

آل محمّد، وأنّه شهيد هذه الأمّة وذبيحها؟

قال عبد اللّه بن مسلم : نعم؛ ولكن الحسين ليس يريد أن يقدم

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 3.

علي القتل للقتل، الحسين يتحرّك بناءً علي مشروع واضح، ومن أجل أهداف ربّانية محدّدة .

قال عبد الرحمن : وما هي تلك الأهداف؟

قال عبد اللّه بن مسلم : هي نفسها، أهداف الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم في قوله : (لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنت وأنزلنا معهم الكتب والميزان ليقوم النّاس بالقسط)(1). فبسط العدل، ودفع الظلم، وإنصاف المظلومين، وهداية الضالّين، وإقامة حدود اللّه ، والإصلاح بين الناس، وعمارة الأرض .. هي أهداف الحسين، كما كانت هي أهداف الأنبياء.

قال عبد الرحمن : تريد أن تقول إنّ أهداف الحسين هي خليط من أمور الدنيا والآخرة؟

قال عبد اللّه : نعم، هي كذلك.

قال عبد الرحمن : ألم تقل أنّ الحسين يريد الآخرة، ولا يريد الدّنيا؟

قال عبد اللّه : هذا صحيح؛ ولكن ليس بمعني أنّه لا يريد الدّنيا للآخرين، أو أنّه لا يريد الإصلاح بين الناس، ولا يريد العدالة لهم في هذه الحياة، لكنّه يريد الدّنيا كمزرعة للآخرة، بأنّ يعمل فيها بما يرضي اللّه عزّ وجلّ، وينفع العباد، ويمنع الظلم والطغيان... ولكن هدفه من ذلك ليس أن يحصل هو علي مغانم الدنيا، فإذا خالف عليّ معاوية فإنّ من الواضح أنّ معاوية كان يريد الدّنيا للدّنيا، بينما عليّ عليه السلام كان يحارب معاوية ولكن ليس لكي

1- (1) سورة الحديد، آية 25.

يحصل علي أية مصلحة لنفسه، وإنّما لكي يمنع معاوية من أن يجعل الأموال دولة بين الأغنياء، ويمنع من ظلم العباد والفساد في الأرض.

قال عبد الرحمن : يبدو أنّ بني أميّة مصمّمون علي الوقوف بوجه بني هاشم في كلّ مراحل التاريخ، فأبو سفيان في مواجهة رسول اللّه، ومعاوية في مواجهة عليّ، ويزيد في مواجهة الحسين؟

قال عبد اللّه بن مسلم : سبحان اللّه ؛ إنّ ربّنا هكذا يمتحن العباد، فيمتحن الأخيار بالأشرار، والأشرار بالأخيار. فقد خلق التقابل بين اللّيل والنّهار، وبين الظلمة والنّور، وبين الخير والشرّ، وإذا لم يكن الأمر كذلك «فبم يمتحن هذا الخلق؟ كما يقول الإمام الحسين عليه السلام»(1).

قال عبد الرحمن : أتري أنّ انجذاب الحسين نحو الخير وانجذاب يزيد نحو الشرّ، ومن قبل انجذاب رسول اللّه وعليّ إلي الخير، وانجذاب أبي سفيان ومعاوية إلي الشرّ، هل ذلك يرجع إلي اختلاف مزاج الطرفين؛ بمعني أنّ مزاج أبي سفيان ومعاوية يعمل من أجل المنفعة الدنيويّة والغنيمة الآنيّة، بينما مزاج رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وعليّ وأهل البيت عليهم السلام يعمل من أجل الخير والنبل والأخلاق؟

قال عبد اللّه : بل يرجع الأمر إلي اختلاف الأهداف، واستجابة كلّ طرف للكوامن المودعة فيه ؛ فأهل البيت يستجيبون للكوامن الخيّرة في نفوسهم، بينما أعدائهم يستجيبون للكوامن الشرّيرة فيهم.

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 42.

وكلّ طرف يجمع حوله من يشاكله؛ فالحسين لا يبحث عن النفعيين والأشرار وعبدة الدّنيا ، وأمثال هؤلاء أيضاً لا يميلون إلي الحسين، بينما يزيد لا يجمع حوله إلّا من فيه صفات تماثله مثل الطمع في الدّنيا، والجشع لحطامه، والخسّة، وعدم الالتزام بالمثل والقيم.

وأضاف عبد اللّه : الحسين عليه السلام لا يريد المنافع لنفسه، بل حتي ما يملكه إنّما يريده للناس، والعكس هو في عدوّه. فيزيد، وجميع السلاطين الذين علي شاكلته، يريدون مصالح الأمّة لأنفسهم، ولذلك نجد أنّ أمثال الحسين مستعدّون للتضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ العباد، بينما أمثال يزيد مستعدّون للتضحية بالعباد لمصالح أنفسهم. فالحسين بتمسّكه بمبادئه يتناسي نفسه في سبيل تلك المباديء والقيم، لأنّه يريد الخير للناس، أمّا يزيد فليس مستعدّاً أن يتنازل عن أصغر منفعة ذاتية لمصلحة الناس.

قال عبد الرحمن : وهل كان الأمر كذلك بين عليّ ومعاوية؟

قال عبد اللّه : تماماً؛ فالحسين امتداد لعليّ، ويزيد امتداد لمعاوية، ومنهج الحسين هو منهج عليّ، كما أنّ منهج يزيد هو منهج معاوية. وكان الاختلاف بين عليّ ومعاوية اختلافاً بين مشروع الإمامة ومشروع السلطة.فعليّ عليه السلام كان يريد أن يقود الناس إلي ما فيه خير دنياهم وآخرتهم، ومعاوية كان يريد استغلال الناس والتأمّر عليهم، وقد صرّح بذلك عندما دخل الكوفة، بعد مقتل عليّ عليه السلام وتوقيع معاهدة الصلح مع الحسن، فقد صعد المنبر وقال : إنّي واللّه ما قاتلتكم لتصلّوا ولا تصوموا، ولا تحجّوا ولا تزكّوا، إنّكم تفعلون

ذلك. وإنّما قاتلتكم لأتأمرّ عليكم، وقد أعطاني اللّه ذلك وأنتم كارهون(1).

فصراع عليّ : مع معاوية كان صراعاً بين منهجين، أكثر ممّا كان صراعاً بين شخصين، كما أنّ الاختلاف بينهما واضح فيما ارتبط بسلوك الطرفين وطريقتهما في الأمور الشخصيّة والعامّة . فالحسين بريء من العيب، كما قال معاوية لابنه يزيد: «واللّه ما أري للعيب فيه موضعاً »(2).

فإذا كان معاوية لا يري في الحسين عيباً، فإنّ كل العيوب موجودة في يزيد، ولذلك فإنّ الأمويّين الكبار تردّدوا كثيراً في قبول خلافته في زمن معاوية، وبعضهم خالفه جهراً، حتّي أنّ معاوية اضطرّ إلي أن يزيح بعض أقرب المقرّبين إليه، ويقتل أكثر من شخصيّة منهم لكي يثبت خلافة يزيد.

قال عبد الرحمن : ومن هو الذي قتله معاوية لتثبيت خلافة ابنه؟

قال عبد اللّه : إنّ معاوية قتل كثيرين، أمّا من الأخيار فقد قتل بالسّم الحسن بن عليّ، علي يد زوجته جعدة بنت الأشعث التي وعدها بأن يزوّجها يزيد، ويعطيها مائة ألف درهم إن فعلت ذلك، فوفي بوعد المال، ولم يف بوعد الزواج(3) .

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي فرج الأصفهاني، ص 45.

2- (2) أنساب الأشراف، ج 3، ص 155.

3- (3) التاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 225؛ وتذكرة الخواص، ص 211؛ ومروج الذهب، ج 3، ص 5.

أمّا من غيرهم، فقد قتل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، وكان من فرسانه، وكان من أعداء الإمام عليّ وبني هاشم، واستعمله معاوية في غزو الرّوم، وقد اختاره أهل الشام ليكون الخليفة بعده، وذلك عندما خطبهم طالباً منهم تعيين الخليفة بعده ، فأشار الناس إلي عبد الرحمن بن خالد واختاروه، فشقّ ذلك علي معاوية وأسرّها في نفسه، فأمر طبيباً عنده يعرف بابن آثال اليهودي أن يسقيه السّم، فسقاه ، فمات في عام ستّ وأربعين(1).

بينما أنت تري أنّ الحسين تأتيه الرسائل تطالبه بأن يذهب إليهم، ولكنّه يتريّث، فهو لا يريد أن يقتل أحد من الناس من أجل وصوله إلي السلطة، لأنّه أساسا لا يريد السلطة. والفرق بين الرجلين ليس من باب أنّ أحدهما أفضل من الآخر، وإنّما هو كالفرق بين الظلمة والنّور، والخير والشرّ، والصلاح والفساد، والإيمان والنفاق، والجنّة والنّار.

هذا هو التقابل القائم بين الطرفين .

قال عبد الرحمن : إذن النتيجة أيضاً ستكون معروفة في الصراع بين الحسين ويزيد، لأنّ الحسين سيستجيب لكوامنه الخيّرة، ومن ثمّ يضحّي بنفسه في سبيل ما يؤمن به، ويزيد لا يتورّع عن ارتكاب كلّ ما هو حرام لتثبيت سلطانه في سبيل دنياه، واستخدم معاوية كلّ ما يملك من الحيلة و المكر، وشراء النّفوس، والقتل بطريقة الاغتيال .. لتثبيت ملكه .

1- (1) التاريخ الكبير ، ج 5، ص 277؛ وأسد الغابة ، ج 3، ص 289؛ والإصابة، ج5، ص 69.

قال عبـد اللّه : مع فارق كبير وهو أن الأمور هنا الآن أوضـح، فالحسـين يمثّل رسالة النبي صـلي الله عليه و آله و سـلم بكلّ ما فيها من نبل وخير وإيمان وصدق وصفاء وعدل وحبّ الخير للناس، ويزيد يمثّل السلطة بكلّ ما فيها من جشع ونفاق، وأرذل ما في النفس من الصفات.

و بمقدار ما عند الحسـين من العلم والفضـيلة، فإنّ عدوه لا هو من أهل الصلاح، ولا من أهل الفضل، ولا من أهل الرأي، ولكنّه فتيً عربيد يقضـي ليله ونهـاره بين الطنـابير والخمور، ولاـ يفرغ من مجـالس النسـاء، إلّا ليركض إلي مجالس صـيد اللّهو، ويقضـي فيه الأسـبوع بعد الأسبوع، بين الأديرة والبوادي والآجام(1) .

وبمقدار ما أنّ الحسين جبل أشم في الفضائل، فإنّ يزيد مستنقع سحيق مليء بالرذائل .

قال عبد الرحمن : تري من باب الافتراض فقط، لو أنّ الحسين بايع يزيد لأيّام ما ضيره في ذلك؟

قال عبد اللّه : وهل أنّ موسي بن عمران عليه السلام قبل أن يعبد فرعون لأيّام؟

وهل بايع رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم أبا سفيان لأيّام؟ وهل قبل النبيّ عبادة الأصنام لأيّام؟

قال عبد الرحمن : هل القضيّة بهذه الحدّة بين الطرفين ؟

قال عبد اللّه : وأكثر من ذلك، وهذا ما ستثبته الأيّام .

1- (1) مروج الذب، ج 3، ص 77؛ وتذكرة الخواص، ص 288؛ والبداية والنهاية ، ج8، ص 230.

واتخذ الحسين عليه السلام القرار

بعد أيّام من لقائهما السابق، التقي كلّ من عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم في فناء المسجد الحرام مرّة أخري.

فسأل عبد الرحمن صاحبه : ما هي أخبارك عن الحسين، هل تري أنّه سيبقي هكذا لا يجيب أهل الكوفة، وقد تجاوزت الرسائل التي أرسلت إليه اثني عشر ألف رسالة ودعوة، وبعضها كان من أكثر من شخص واحد، وهذا عدد لم نسمع بمثله من قبل، فهل يجيبهم إلي شيء؟

قال عبد اللّه : نعم؛ لم نسمع قط أنّ هذا العدد من الرسائل والدعوات تأتي إلي شخص واحد تطالبه بأن ينهض بالأمر، وأن يذهب إليهم ليؤمّهم، ويقيم جماعتهم بعد أن خلا هذا الموقع فيهم، ومن هنا فإنّ الحسين قد استجاب.

قال عبد الرحمن : وما الذي فعل؟

قال عبد اللّه بن مسلم : كان من أواخر من أتي إلي الحسين هما كلّ من «هاني بن هاني السبيعي» و«سعيد بن عبد اللّه الحنفي»، وهما من رجال الكوفة . فقد سألهم الإمام عمّا يجري هناك، وعمّن اجتمع علي الدعوة إليه، والانقطاع عن والي يزيد في تلك المدينة ، فقالا : اجتمع علي هذا الأمر أعيان الكوفة، وذكرا له أسماء مثل

شبث بن ربعي الذي كان يعتبر فقيه أهل الكوفة، وحجّار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن روين، وعروة بن قيس، وعمرو بن الحجّاج، ومحمّد بن عمير بن عطارد.

وبعد ذلك قام الحسين وتوضّأ وذهب إلي المسجد الحرام، وصلّي ركعتين بين الركن والمقام، ولمّا انفتل من صلاته سأل ربّه الخيرة فيما كتب إليه أهل الكوفة (1).

قال عبد الرحمن : وماذا تعني بأنّه سأل ربّه الخيرة في ذلك؟

قال عبد اللّه : هذه هي الخيرة التي ذكرها رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، أنّ من يريد أمراً فليسأل في ذلك الخيرة من ربّه، بأن يصلّي ركعتين، ويطلب منه تعالي أن يختار له ما هو الخير .

قال عبد الرحمن : ثمّ ماذا قرّر الحسين؟

قال عبد اللّه : إنّ آخر من آتي إلي الحسين بقوا ينتظرون جوابه ، وقد جاؤوه بعد أيّام من استخارته، فخرج إليهم، فقال: «إنّي رأيت جدّي رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم في منامي وقد أمرني بأمر، وأنا ماضٍ لأمره، فعزم اللّه لي بالخير إنّه وليّ ذلك، والقادر عليه إن شاء اللّه تعالي»(2).

ثم إنّه دعي بدواة وقلم وكتب رسالة إلي أهل الكوفة هذا نصّها:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ، إلي الملأ من المؤمنين والمسلمين».

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 36؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 195.
2- (2) التفوح، لابن اعثم، ج 5، ص 50 و51.

«أمّا بعد، فإنّ هانياً وسـعيداً قدما عليّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليّ من رسـلكم، وقد فهمت كلّ الذي قصصـتم وذكرتم، ومقالة جلّكم: إنّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ اللّه يجمعنا بك علي الهدي والحقّ.

«وإنّي باعث إليكم أخي، وابن عمّي، وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كتب إليّ أنّه قـد اجتمع رأي ملأكم، وذوي والفضل والحجي منكم، علي مثلما قـدمت عليّ رسـلكم وقرأت في كتبكم، فإنّي أقـدم عليكم وشيكاً إن شاء اللّه . فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والقائم بالقسط، والدائن بالحقّ، الحابس نفسه علي ذات اللّه، والسّلام»(1).

ثمّ دعا مسـلم بن عقيل وقال له فيما قال : «إنّي موجهك إلي أهل الكوفـة وهـذه كتبهم إليّ، وسيقضـي اللّه من أمرك ما يحبّ ويرضـي، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجـة الشّ هداء، فامض علي بركـة اللّه حتّي تـدخل الكوفـة، فإذا دخلتها فأنزل عند أوثق أهلها، فإن رأيت الناس مجتمعين فعجّل لي بالخبر، حتّي أعمل حسب ذلك إن شاء اللّه»(2).

ثمّ أوصاه بوصايا، منها أمره بتقوي الله وكتمان أمره، واللّطف (3) .

*

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 353؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 232.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 53.
3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 354.

في لقائهما اليومي في فناء الكعبة سأل عبد الرحمن الصالح من صاحبه عمّا يدور في بيت الحسين، وعمّا هو مقدم عليه .

فقال عبد اللّه بن مسلم : تعرف أنّ الحسين أصبح الآن محوراً لحركة الناس وموئلاً لآمالهم، فالمظلومون والمضطهدون من المؤمنين وجدوا فيه راية مرفوعة للحقّ، ودعوة واضحة لاسترداد الحقوق، وهم يعرفون أنّ الحقّ كان مع أهل البيت ولا يزال، و سيّد أهل البيت هو الحسين. و إذا كان الناس في السابق سكتوا وخضعوا فلأنّهم أيسوا من الانتصار علي أعدائهم، أمّا اليوم فقد اجتمعت في الحسين الآمال في تحصيل حقوق أبناء الأمّة ورفع الظلم عن كواهلهم، والإيمان باللّه الحسين يمثّل جدّه رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم في هذا الزمن . من هنا فإنّك تجد أنّ أهل الحجاز يذهبون فرادي وجماعات إلي بيت الحسين يلتقون به، ليظهروا موقفهم منه، ومودّتهم له و وقوفهم معه. والحسين، وإن كان لا ـ يقول الكثير من الكلام كعادته، إلّا أنّ مجرّد رفضه للبيعة، وانتقاله إلي بيت اللّه الحرام يكفي لبيان سخطه علي السلطة، ولذلك فما من مرّة يخرج من بيته إلي المسجد الحرام، من أجل الطواف والصلاة، إلّا وتجد المئات من الناس يمشون معه. وحينما يزيد عدد الطائفين والركّع السجود، فإنّ أيّ شخص يراه هنا في المسجد الحرام سيعرف أنّه السيّد المطلق علي قلوب الناس .

أمّا في الكوفة فقد علمت أمرها، إنّما الجديد أنّ الحسين عليه السلام مع رسالته إلي أهل الكوفة، بعث أيضاً رسائل أخري إلي كلّ من البصرة والرّي.

قال عبد الرحمن : وماذا في رسائله؟

قال عبد اللّه : مضـمونها الدّعوة إلي التمسّك بالحقّ، والعودة إلي العمل بكتاب اللّه وسنّة رسوله، والابتعاد عن البدع التي ما أنزل اللّه بها من سلطان، مثل تحويل الخلافة إلي ملك عضوض، والحكم بالأهواء، وإبعاد الأخبار من كل مراكز الدولة، وتقريب الأشرار بدلاً عنهم، الأمر الذي يعني الابتعاد عن الدّين، وما فيه من قيم ومثل وشريعة.

هذا ما حدث خلال الفترة الماضية، حيث كانت الأمور تسير بعيداً عمّا أمر به اللّه ورسوله.

قال عبد الرحمن : وإلي من كتب الحسين رسائله تلك؟

قال عبـد اللّه : بالنسـبة إلي البصـرة أرسل رسالة إلي زعماء القوم، مثل الأحنف بن قيس، ومالك بن مسـمع، والمنذر بن الجارود، وقيس بن الهيثم، ومسعود بن عمرو، وعمرو بن عبيد اللّه بن

معمّر.

فقال عبد الرحمن: هل حصلت علي نصّ لهذه الرسائل أو بعضها؟

قال عبد اللّه : نعم؛ في رسالته إلي زعماء أهل البصرة كتب الحسين يقول:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من الحسـين بن عليّ، أمّا بعـد، فإن اللّه اصـطفي محمّـداً علي جميع خلقه، وأكرمه بنبوّته، وحباه برسالته ، وقد نصح العباد وبلّغ رسالات ربّه، ثمّ قبضه اللّه إليه مكرمّاً، وكان أهله وأولیائه أحقّ بمقامه من بعده، فاسـتأثر علينا قوم، فسـلّمنا ورضـينا كراهة الفتنة وطلب العافية، وقد بعثت إليكم بكتابي هذا وأنا

أدعوكم إلي كتاب الله و سنّة نبيّه، فإنّ السنّة قد أميتت وإنّ البدعة قد أحييت، فإن سمعتم قولي واتبعتم أمري، أهدكم سبيل الرشاد، والسّلام عليكم ورحمة اللّه»(1) .

*

أصبح التململ في العالم الإسلامي مشهوداً في كلّ مكان، والأخبار التي كانت تأتي من مختلف الأماكن تدلّ علي أنّ هنالك بداية انتفاضة في داخل الأمّة، ضدّ الانحراف عن منهج رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، وضد الظلم، والطغيان، ومحاولات إفراغ الدّين من محتواه، وتجاهل أصوله، مع الحفاظ علي بعض مظاهره .

وكان اتخاذ الحسين عليه السلام قراره بنهضته قد أسرع في وتيرة الأحداث، ومن ثمّ بدأت الأخبار تتوارد بما يدلّ علي أنّ هنالك حوادث كبري علي وشك الوقوع.

*

كان الزمان منتصف شهر شوّال، وكان كلّ من عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم يجتمعان بين فترة و أخري بعد صلاة العشاء في فناء الكعبة .

قال عبد الرحمن لعبد اللّه : ما هي أخبار مسلم بن عقيل و رحلته إلي الكوفة؟

قال عبد اللّه : نعم؛ إنّ مسلم بن عقيل خرج من مكّة نحو

1- (1) أنساب الأشراف، ج 2، ص 78؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص357؛ ومقتل أبي مخنف، ص 24.

المدينة في النصف من شهر رمضان متخفّياً ، لئلّا يعلم به أحد من بني أميّة (1).

وذهب عن طريق المدينـة باتجاه الكوفة، وذلك ليرتّب أموره هناك ويلمّ بأهله، ثمّ اسـتأجر دليلين من قبيلة قيس وسار بهما، ولكنّهما ضـيّعا الطريق ذات ليلـة، وأصبحا وقد اشـتدّ بهم العطش والحرّ، فانقطعا ولم يسـتطيع المشـي، فقالا لمسـلم: عليك بهذا السـمت (هذا الطريق والاتجاه)، فألزمه لعلّك أن تنجو، وبقيا هما في الصحراء.

فمضـي «مسـلم» بـذاك الاتجاه، ولولا قوّة في بـدنه لما نجي من الموت، كما أنّ الـدليلان ما لبثا أن ماتا، لكنّ مسـلم ومعه قيس بن مسـهّر الصـيداويّ نجيا بحشاشة الأنفس حتّي وردوا الماء ووجدوا الطريق، فأقام مسـلم هناك، وكتب رسالة إلي الحسين عليه السلام وقد تطيّر من الوجه الذي توجّه إليه، وأرسله مع قيس بن مسهّر وكتب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ، من مسلم بن عقيل».

أمّا بعـد، فإنّي خرجت من المدينة مع دليلين اسـتأجرتهما، فضـلّا عن الطريق وماتا عطشاً، ثمّ إنّا صـرنا إلي الماء بعد ذلك وكدنا أن نهلك، فنجونا بحشاشة أنفسنا. وأخبرك يابن رسول اللّه إنّا أصبنا الماء بموضع يقال له المضيق، وقد، تطيّرت من وجهي هذا ، فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري، والسّلام(2).

1- (1) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 64؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 196.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 354؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 54.

فكتب الحسين عليه السلام في الجواب :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ، إلي مسلم بن عقيل».

«أمّا بعد، فإنّي سمعت رسول اللّه يقول : ما منّا أهل البيت من يتطيّر ولا يتطيّر به، فإذا قرأت كتابي فامض علي ما أمرتك به، والسّلام.

ولمّا وصل الجواب إلي مسلم سار من وقته، ولم يتأخّر(1).

فقال عبد الرحمن : وفي الكوفة أين نزل ومتي وصل إليها؟

قال عبد اللّه : وصل مسـلم بن عقيل إلي الكوفة لخمس خلون من شوّال، وتنقّل من مكان إلي مكان. ففي البداية نزل في دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، ثمّ انتقل بعد ذلك إلي دار مسـلم بن عوسجة، ومع وصول مسلم إلي هناك بدأ المؤمنون ينهالون عليه ، مرحّبين به، وكان كلّما جاءه جمع منهم يقرأ لهم كتاب الحسين عليه السلام إلي أهل الكوفة، فيبادرون إلي بيعته جماعات وأفراداً .

فأحياناً كان يأتيه رئيس القبيلة ويبايعه نيابة عن قبيلته، وفي أكثر الأحيان كان الناس يبايعون عن أنفسهم.

سأل عبد الرحمن : وهل كل ذلك كان يجري في العلن، أم في الخفاء؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لم يكن في العلن بشكل مطلق، ولا

1- (1) مقتل أبي مخنف، ص 20.

في الخفاء بشكل كامل، وإنّما كان بين العلن والخفية، حيث كان يأتي إليه من يوثق به .

قال عبد الرحمن : كيف كانت الجموع ترحّب به، وماذا كانوا يقولون؟

قال عبد اللّه بن مسلم : في بداية وصول مسلم إلي الكوفة كان عندما يقرأ علي الناس كتاب الحسين يبكون وينتحبون شوقاً .

وكان عابس بن شبيب الشاكري من أوائل من التقي بمسلم، وقال في جمع من الناس، بعد حمد اللّه وثنائه والصّلاة علي النبيّ وآله:

«أمّا بعد، فإنّي لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسـهم، ولا أغرّك منهم، واللّه لأحدّثنّك عمّا أنا موطّن نفسـي عليه ، واللّه لأجيبنّكم إذا دعوتم، ولأقاتلنّ معكم عدوّكم، ولأضربنّ بسيفي دونكم حتّي ألقي اللّه ، لا أريد بذلك إلّا ما عند اللّه» .

وكان لعابس بن شبيب صديق قديم يجتمعان معاً، ولهما

مواقف متشابهـة، وهو حبيب بن مظـاهر الأسـدي. فلمّا تكلّم عابس بكلامه هـذا التفت إليه حبيب وقال: «رحمك اللّه، قـد قضـيت ما في نفسك بواجز من قولك.

ثمّ التفت إلي مسلم بن عقيل وقال: «وأنا، واللّه الذي لا إله إلّا هو، علي مثل ما هذا عليه»(1).

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 355.

فقال عبد الرحمن الصالح: وهل بقي خبر مسلم مستوراً عن رجال الدولة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لا، فلكثرة اختلاف المؤمنين إليه ذاع خبره، وعرفه الجميع، فانتقل إلي دار هاني بن عروة، وهناك بايعه ثمانية عشر ألف رجل(1).

قال عبد الرحمن : وماذا عن موقف السلطة منه، أليس للكوفة والي من قبل يزيد؟

قال عبد اللّه بن مسلم : بلي؛ إنّه نعمان بن بشير الأنصاري، وهو أساساً ممّن يكره عليّاً عليه السلام ، ويبغض أهل الكوفة لأنّهم يوالون عليّاً . وكان ممّن شهد مع معاوية معركة صفّين، وكان مقرّباً إليه، وهو الآن والٍ من قبل يزيد، إلّا أنّ الرجل يبحث عن الجاه والسلطان، وليس من أهل القتل والقتال، ويحاول تهدئة الأوضاع لمصلحة يزيد بالكلام اللطيف والتودّد إلي الناس تارة، وبتهديدهم تارة أخري، وإغرائهم بالأموال تارة ثالثة وكلّ الموقف الذي اتخذه بعد انتشار خبر وصول مسلم إلي الكوفة وبيعة الناس له، هو أنّه دعي إلي الصلاة جامعة، وخطب في المسجد وقال فيما قال : «أمّا بعد، فاتقوا اللّه .. عباد اللّه ، ولا تسارعوا للفتنة والفرقة، فإنّ فيهما يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، ألا ـ وإنّي لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب علي من لم يثب عليّ، ولا أشاتمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف، ولا الظنّة ولا التهمة، ولكنّكم إن

ص: 164

1- (1) السيرة النبوية، لابن حبان، ج 2، ص 307؛ ومروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 64.

أبديتم صـفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالذي لا إله غيره لأضـربنّكم بسـيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر. أما إنّي أرجو أن يكون من يعرف الحقّ منكم أكثر ممّن يرديه الباطل».

. فقام إليه عبد اللّه بن مسلم الحضرمي وهو من حلفاء بني أميّة ، فقال : إنّه لا يصلح ما تري إلّا الغشم، إنّ هذا الذي أنت عليه ما بينك وبين عدوّك رأي المستضعفين .

فقال النعمان : أن أكون من المستضـعفين في طاعـة اللّه، أحبّ إليّ من أن أكون من الأعزّين في معصـية اللّه ، وما كنت لأهتك ستراً ستره اللّه(1).

*

قال عبد الرحمن الصالح: يبدو ممّا ذكرت أنّ حلفاء بني أميّة في الكوفة منقسـمين علي أنفسـهم فيما يرتبط بمسـلم بن عقيل، و أنّ بعضـهم يطالب بالشّدّة وسفك الدماء، وبينما البعض الآخر لا يري ذلك حتّي الآن.

قال عبـد اللّه : هو كـذلك، وأساساً من هم مع بني أميّـة إنّما يطلبون العافية والمغانم والجاه والسـلطان، فليس أحد منهم مقتنعاً بأنّ بني أميّة يمثّلون الحقّ، ولكن هنالـك أشـخاص يـدفعهم الحقـد علي أهـل الـبيت عليهم السـلام لكي يتخـذوا موقفـاً متشـدّداً ويقضوا عليهم؛ أي يستخدموا السيف بلا تأخير.

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 348 و 355؛ والأمالي، للشجري، ج 1، ص 190؛ وتهذيب الكمال، للمزي، ج 6، ص 423.

قال عبد الرحمن : وهل تري أنّ المتشدّدين هم الذين سيغلبون علي أمثال نعمان بن بشير ؟

قال عبـد الله : بالنسـبة إلي نعمان هو لا يختلف عن غيره في أنّه ضـدّ أهل البيت، إنّما يختلف في أنّه يطلب العافية ، كما ذكرت لك، ويريد السـلطان والبهجـة والراحة والمغانم.. ولا أعتقد أنّه سـيتخذ موقفا متشدداً، خاصّة وأنّه كان قد قال لأحد المتشدّدين : إنّ ابن بنت رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم أحبّ إليّ من ابن بنت بحدل (1).

فقال عبد الرحمن : وماذا يقصد بقوله ابن بنت بحدل؟

قال عبد اللّه : يقصد يزيد بن معاوية، فإنّ أمّه ميسون هي بنت بحدل الكلبيّة .

قال عبد الرحمن : وهل يجرأ النعمان علي أن يقول مثل هذا الكلام بالنسبة إلي يزيد؟

قال عبـد اللّه : أنت تعرف أنّ كبار بني أميّة، من ولاة معاوية ، لـم يكونوا راضـين عن بيعة يزيد، وكثير منهم يرون أنفسـهم أولي بالخلافة منه، وبعضـهم لا يرجو خيراً في خلافته، ولذلك فهم في الوقت الذي لا يرغبون في أهل البيت، وقد سـلبتهم معصـية اللّه ، وظلمهم وطغيانهم، توفيق التمسّك بأهل البيت، فإنّهم مع يزيد بن معاوية ليس حبّا له، وإنّما بغضا لعليّ وآل عليّ. وقد يصدر منهم كلام مثل هذا في لحظة من لحظات الغضب.

قال عبد الرحمن : وهل يمكن أن يصل خبر ما قاله النعمان إلي يزيد؟

:تمهيد

ص: 166

1- (1) نهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 388.

قال عبد الله بن مسلم : قطعاً؛ فإنّ لبني أميّة عيونهم

و جواسيسهم ومرتزقتهم، الذين علي أيديهم يظلمون الناس اعتماداً علي سلطانهم، بل إنّ هذا الكلام بالذات قد وصل إلي يزيد، ولذلك فإنه قال : قد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيّيء(1).

قال عبد الرحمن : كيف تري الموقف الآن في الكوفة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لو استمرّ الأمر علي ما هو عليه الآن، فإنّ مسلم بن عقيل سوف يحكمها، لأنّ المعادلة هي لمصلحته ، فالناس يريدون التغيير، والمؤمنون حصلوا علي قائد لحركتهم، والحاكم هناك لا ـ يرغب في اتخاذ قرار بالقمع، وأنت تعرف أنّه في الصراع بين المنطق والمنطق فإنّ الحقّ يغلب، وأهل البيت هم أهل الحقّ، وكلامهم نور، وأمرهم رشد، ووصيّتهم التقوي، وجبلت النّفوس علي حب الخير .

لكن إذا تغيّرت المعادلة واستخدم أولياء بني أميّة السيف، وباشروا القتل والقتال، وعملوا بسياسة معاوية في استخدام الحيلة والمكر والخداع، والاغتيال وسفك الدماء والتنكيل، فلربّما تنقلب الآية، ومن ثمّ فلا تصبح الكوفة قاعدة آمنة لأهل الحقّ.

قال عبد الرحمن : وهل تعني أنّ الناس يمكن أن ينقلبوا علي أنفسهم، بعد بيعة هذا العدد الكبير لمسلم بن عقيل؟

قال عبد اللّه : لا يزال هذا العدد قليلاً بالقياس إلي نفوس أهل الكوفة، الذين يتجاوز عددهم هناك أربعة آلاف ألف نسمة، وهو لا يشكّل نسبة كبيرة. نعم؛ لو كان الذين بايعوا مسلماً كلّهم من

1- (1) نفس المهموم، للقمي، ص 86.

السيّافين وعلي شاكلة عابس بن شبيب، وحبيب بن مظاهر، فهذا العدد يكفي، غير أنّ الأمر ليس كذلك.

ثمّ إنّ بعضـهم ربّما ينقلب علي نفسه، لأنّ الهمـج الرعاع هم أتباع كل ناعق، يميلون مع كلّ ريح. ولكن أن يغلب أهل الباطل، لا يعني أنّ أهل الحقّ ينقلبون علي أنفسـهم، فإذا كان المؤمنون هـم الذين نشـطوا وتحرّكوا الآن، فإذا استخدم بنو أميّة ما كان يستخدمه معاوية، ومن ثمّ دفعوا المنـافقين إلي العمل والنشاط وأغروهم بالمال والسّـلاح، ورتّبوا أمورهم، فربّما تنقلب الآيـة. ولا يعني ذلك أنّ المؤمنين انقلبوا علي أنفسهم، بل يعني أنّ المعادلة تغيّرت هناك.

قال عبد الرحمن الصالح: إذن أنت لست متفائلاً حتّي الآن؟

قـال عبـد اللّه بن مسـلم : لاـ نعرف النتيجـة حتي اللحظـة، فالأمور مرهونـة بتطوّراتها، ولا زال الناس يعيشون في دوّامـة بني أميّـة وفي ظلّ سلطتهم، وموارد الدولة كلّها بأيديهم، وجيوشـهم وشـرطتهم لا تزال مسيطرة علي الأوضاع، والتغيير في ظلّ الوضع القائم ليس أمراً سهلاً، خاصّة وأنّ الناس افتتنوا بالدّنيا، ولم يعودوا كما كانوا في عهد رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم .

ألم نجـد كيف أنّ بعض صـحابة النبيّ صـلي الله عليه و آله و سـلم ، الذين عاشوا في شـظف من العيش، حينما فتحت عليهم أبواب الدّنيا واستغنوا، تغيّروا، وتكالبوا علي الدّنيا وتقاتلوا علي المغانم؟

ألـم تسـمع ما قاله عليّ عليه السـلام حينما خطب ذات يوم وشـكي مواقف الآخرين منه، فقال: «فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفـة ، ومرقت أخري، وقسط آخرون، كأنّهم لـم يسمعوا كلام اللّه حيث يقول : وتلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادًا

والعقبة للمتّقين) . بلي؛ واللّه لقد سمعوها ووعودها، ولكن ليث الدنيا في أعينهم، وراقهم زبر جها»(1)؟

ولا أعتقـد أنّ من السـهولة أن تتبـدّل النّفوس، بحيث يتوب عبـدة الـدّنيا في ليلـة وضـحاها، ويبدأوا البحث عن ما يقرّبهم إلي اللّه ، ويقبلوا بالتضـحية بالمغانم التي عنـدهم. فليست الأكثريـة من الناس مثل أهل البيت عليهم السـلام الـذين زهدوا في الدّنيا، ولا يريدون إلّا الخير للآخرين، ولا يطلبون لأنفسهم شيئا.

فالأمور لا تعرف عاقبتها بعد.

***

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 3.

انقلاب الكوفة

عندما شعر رجال بني أميّة في الكوفة، أنّ الأرض أخذت تميد من تحت أقدامهم، بعد التفاف رجال كبار، من أمثال المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وهاني بن عروة المذحجي، وعابس بن شبيب الشاكري، وحبيب بن مظاهر الأسدي وغيرهم، حول مسلم بن عقيل، مع احتمال أن يهاجر الحسين عليه السلام إليهم، أخذوا يكاتبون يزيد، ويطلبون منه أن يقوم بانقلاب في أعلي هرم السلطة في الكوفة.

فقد كتب كلّ من عبد اللّه بن مسلم الباهلي، وعمر بن سعيد بن أبي وقّاص الزهري، ومحمّد بن الأشعث الكندي، ومسلم بن سعيد الحضرمي، وهم من رجال بني أميّة، كتبوا رسالة إلي يزيد بن معاوية هذا نصّها: «لعبد اللّه يزيد أمير المؤمنين، من شيعته من أهل الكوفة ، أمّا بعد، فإنّ مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة و بايعته الشيعة للحسين بن عليّ، وهم خلق كثير، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويّا ينفّذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوّك، فإنّ نعمان بن البشير رجل ضعيف، أو هو يتضعّف، والسّلام(1).

1- (1) التاريخ للطبري، ج 5، ص 356؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 198؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 233.

فلمّا وصلت الرسالة إلي يزيد دعي رجلا كان يعمل مستشاراً عند أبيه، وهو من أهل الروم واسمه السير جون، دعاه وقال له: «إنّ مسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان بن البشير ضعف وقول سيّيء فما تري؟ ومن أستعمل علي الكوفة؟(1).

ولم يكن مستغرباً أن يستشير يزيد هذا الرجل، فقد كان صاحب نفوذ حقيقي يعمل في دولة المسلمين لصالح الرومان، ويعزل وينصب الولاة بناء علي هواه، وهذا ديدن كل حاكم يبتعد عن مصالح المسلمين، فيلتمس العون من الأجانب، وهؤلاء يشيرون عليه بما ليس في مصلحة دين الناس، لأنّهم أساسا أعداء ذلك الدّين.

فقال السيرجون: أشير عليك بما تكره؟

قال يزيد: وإن كرهت!

قال السيرجون: استعمل عبيد اللّه بن زياد علي الكوفة .

وكان يزيد يكره عبيد اللّه بن زياد، ويريد أن يعزله عن ولاية البصرة.

فقال يزيد: إنّه لا خير فيه، فأشر عليّ بغيره .

قال سيرجون : تري، لو كان معاوية حيّا أكنت تقبل قوله، و تعمل بما يشير عليك؟

قال يزيد: نعم.

قال سيرجون: فهذا عهد عبيد اللّه علي الكوفة، أمرني معاوية أن أكتبه، وخاتمه عليه، فمات وبقي العهد عندي، ولم يمنعني أن أعلمك به إلّا معرفتي ببغضك له .

1- (1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 356.

فقال يزيد: إذن أمضه .

وأخذ برأيه وضمّ البصرة والكوفة إلي سلطة عبيد اللّه، وبعث إليه بعهده علي الكوفة.

فكتب له: «من عبد اللّه يزيد أمير المؤمنين، إلي عبيد اللّه بن زياد، سلام عليك، أمّا بعد، فإنّ الممدوح مسبوب يوماً، وإنّ المسبوب يوما ممدوح، ولك ما لك، وعليك ما عليك، ولقد سمّي بك إلي غاية أنت فيها كما قال الأوّل:

رفعت فجاوزت السحاب وفوقه * فما لك إلّا مقعد الشمس مقعد

«وقد ابتلي بالحسين زمانك من بين الأزمان، وابتلي به بلدك من بين البلدان، وابتليت به أنت من بين العمّال، وفي هذه تعتق، أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد، وقد أخبرني شيعتي من أهل الكوفة أنّ مسلم بن عقيل فيها يجمع الجموع ويشقّ عصي المسلمين، وقد اجتمع إليه خلق كثير من شيعة أبي تراب، فإذا أتاك كتابي هذا فسر حتّي تقدم الكوفة فتكفيني أمرها، فقد ضممتها إليك، وجعلتها زيادة في عملك، وأنظر أن تطلب مسلم بن عقيل، كطلب الخرزة حتّي تثقفه، فتوثقه أو تقتلهأو تنفيه، واعلم أنّه لا عذر لك عندي وما أمرتك به، فالعجل العجل، والسّلام»(1).

ثمّ دفع بهذه الرسالة إلي مسلم بن عمرو الباهلي، وأمره أن يسرع السير إلي البصرة، ليسلّمها إلي عبيد اللّه (2).

*

ص: 172

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 199؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 357.

2- (2) المصدر نفسه .

من جديد التقي عبد الرحمن الصالح مع عبد اللّه بن مسلم وتذاكرا ما يجري في الكوفة، فقال عبد اللّه : هل سمعت بما جري في البصرة؟

قال عبد الرحمن : لا.

قال عبد اللّه : إنّ رسائل الحسين عليه السلام وصلت إلي من كتب إليهم، وهم زعماء القوم .

فقال عبد الرحمن : وما كانت ردّة فعلهم؟

قال عبد اللّه : إنّ بعضـهم قام بالواجب؛ فمثلاً حينما وصلت رسالة الحسين إلي يزيد بن مسعود النهشلي، قام بجمع كلّ من بني تميم وبني حنظلة وبني سعد في داره ، فلمّا حضروا قال لهم: يا بني تميم، كيف ترون موضعي منكم، وحسبي فيكم؟

فقالوا: بخ بخ، أنت واللّه فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً، وتقدّمت به فرطاً.

فقال ابن مسعود: فإنّي قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه، وأستعين بكم عليه.

فقالوا : إنّا واللّه نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتّي نسمع.

فقال: «إنّ معاوية هلك، فأهون به هالكاً ومفقوداً، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم، وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً، ظنّ أنّه قـد أحكمه، اجتهد واللّه ففشل، وشاور فخذل، وقد قام يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور يدّعي الخلافة علي المسـلمين، ويتأمّر عليهم بغير رضيً

منهم، مع قصر حلم، وقلّة علم، لا يعرف من الحقّ موطيء قدميه، فأقسم باللّه قسماً مبروراً لجهاده علي الدّين أفضل من جهاد المشركين .

«وهذا الحسين بن عليّ ابن بنت رسول اللّه ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولي بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف علي الصغير ويحنو علي الكبير، فأكرم به راعي رعيّة، وإمام قوم، وجبت للّه به الحجّة، وبلّغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحقّ، ولا تسكّعوا في وهدة الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلي ابن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ونصرته» .

«واللّه لا يقصّر أحد عن نصرته إلّا أورثه الله الذلّ في ولده ، والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها .. من لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم اللّه ردّ الجواب».

فتكلّم بنو حنظلة وقالوا : «يا أبا خالد؛ نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض واللّه غمرةً إلّا خضناها، ولا تلقي واللّه شدّة إلّا لقيناها، ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا، إذا شئت فافعل.

وتكلّم بنو سعد بن يزيد، فقالوا: «يا أبا خالد؛ إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج من رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال، فحمدنا أمرنا وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع الرأي ونأتيك به .

وتكلّم بنو عامر بن تميم، فقالوا: «يا أبا خالد؛ نحن بنو

أبيك وخلفاؤك ، لا نرضي إن غضبت، ولا نوطن إن طعنت ، والأمر إليك، فادعنا نجبك، ومرنا نطعك، والأمر لك إذا شئت .

ثمّ إنّ يزيد بن مسعود، بعدما سمع منهم مقالتهم، كتب إلي الحسين رسالة يقول فيها:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

«أمّا بعد، فقد وصل إليّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه ، ودعوتني له من الأخذ بحظّي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنّ اللّه لا يخلي الأرض قطّ من عامل عليها بخير أو دليل علي سبيل نجاة، وأنتم حجّة اللّه علي خلقه، ووديعته في أرضه ، تفرّعتم من زيتونة أحمديّة هو أصلها، وأنتم فرعها، فأقدم سعد بأسعد طالع، فقد ذلّلت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشدّ تتابع في طاعتك من الإبل الظمّاء لورود الماء، وقد ذلّلت لك بني سعد وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع».

فلمّا قرأ الحسين رسالته، قال: «ما لك، آمنك اللّه يوم الخوف، وأعزّك، وأرواك يوم العطش الأكبر(1).

*

قال عبد الرحمن : إنّك قلت أنّ ردود أفعال الذين وصلت إليهم الرسائل مختلفة، فهل هنالك من لم يستجب لرسالة الحسين؟

قال عبد اللّه بن مسلم : نعم؛ فالمنذر بن الجارود، وهو من

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 160؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص189.

الـذين كتب له الحسـين، قام بإفشاء رسالة الحسـين إلي عبيد اللّه بن زياد، وكان لا يزال في البصـرة، والسـبب في ذلك أنّ ابنة الرجل كانت زوجـة العبيـد اللّه بن زياد، بالإضافـة إلي أنّه خشـي أن يكون ما وصل إليه من الرسالـة دسـيسة له من عبيد اللّه ليمتحنه، فجاء بالرسالة إليه، فغضب ابن زياد وقال : من رسول الحسين إلي أهل البصرة؟

قال المنذر : إنّ رسوله إليهم موليً يقال له سليمان .

فقال عبيد اللّه : عليّ به .

وكان الرجل مختفياً عند بعض الموالي بالبصـرة، فجاء به المنذر إلي عبيد اللّه، فلم يكلّمه في شـيء، وإنّما قدّمه وضـرب عنقه صبراً، ثمّ أمر بصلبه، وكان أوّل رسول قتل في الإسلام(1).

أمّا الأحنف بن قيس فإنّه لم يفعل شـيئاً، إلّا أنّه كتب رسالة إلي الحسـين يقول له فيها: أمّا بعد (فاصبر إنّ وعد اللّه حقّ و لا يستخفنّك الّذين لا يوقنون)(2).

وكان هنالك أيضاً جماعة من الموالين في البصـرة تحرّكوا باتجاه الحسـين، ومنهم امرأة مؤمنة صالحة تسمّي مارية بنت سعد العبدية، كانت توالي أهل البيت، فإنّها حوّلت منزلها إلي محل تجمّع للمؤمنين، وكانوا يتـذاكرون فيه أمر الأمّة والإمامة، وما آل إليه أمر الناس، فأجمع رأي البعض علي الخروج إلي مكّة للالتحاق

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 199؛ ومقتل أبي مخنف، ص24؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 358.
2- (2) سورة الروم، الآية الأخيرة؛ انظر : سيرة أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 200.

بالحسين عليه السلام . وبالفعل فقد خرج بعضهم، وكتب بعضهم رسائل إلي الحسين يطلبون منه القدوم إليهم(1).

كما أنّ أحد الصالحين في البصرة واسمه يزيد بن نبيط العبدي، جمع أبنائه وكانوا عشرة، فقال لهم: أيّكم يخرج معي، فإنّني خارج إلي الحسين؟

فانتدب معه ابنان له اسمهما عبد اللّه وعبيد اللّه، فقال لأصحابه : إنّي قد أزمعت علي الخروج إلي الحسين، و أنا خارج.

فقالوا له: إنّا نخاف عليك أصحاب ابن زياد.

فقال : إنّي واللّه لو قد استوت أخفافها بالجدد، لهان عليّ طلب من طلبني(2).

وهكذا يتبيّن أنّ عدوي حوادث الكوفة، والتململ الواسع هناك، وتحرّك المؤمنين، قد انتقل إلي البصرة أيضا، فأخذ الصالحون ينشطون فيها، وقرّر بعضهم الخروج إلي الحسين، وبعض آخر طلب منه القدوم إلي البصرة، كما فعل بعض أهل الكوفة.

قال عبد الرحمن الصالح: في مواجهة كلّ ذلك، ألم تتحرّك السلطة هناك؟

قال عبد اللّه بن مسلم : بل إنّها تحرّكت بأوسع ما يكون، فعندما وصلت رسالة يزيد بن معاوية إلي عبيد اللّه بن زياد يأمره بالتوجّه إلي الكوفة، وجعلها تحت سلطته مع البصرة، والذي كان يعني أنّ العراق وإيران أصبحت تحت سلطة الرجل الذي

1- (1) إبصار العين، للسماوي، ص 4؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 353.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 353.

تأصّـلت فيه أحقاد بني أميّـة، وهو ابن زياد ابن أبيه المقرّب من الأمويّين، هـذا الطاغوت عنـدما أراد أن يخرج من البصـرة، جمع الناس في المسجد وخطب فيهم، فأرعد وأبرق وتهدّد وتوعّد (1).

ثمّ قال : «أمّا بعد، فواللّه ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنآن، وإنّي لنكل لمن عاداني، وسمّ لمن حاربني، أنصف القارة من رماها .

ثم سكت هنيئة، قال بعدها: «يا أهل البصرة؛ إنّ أمير المؤمنين قد ولّاني مع البصرة الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد بن أبي سـفيان، فإيّاكم والخلاف والإرجاف، فوالـذي لا إله غيره لئن بلغني أنّ رجلا منكم خالف لأقتلنّه، وأقتل عريفه و وليّه، ولآخذنّ الأدني بالأقصـي حتّي تسـتقيموا لي، فلا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ . أنا ابن زياد، أشبهه من بين من وطأ الحصي، فلم ينتزعني شبه خال ولا عمّ»(2).

قال عبد الرحمن الصالح: هل كان ذلك مجرّد تهديد للتخويف، أم أنّ الرجل كان جادّاً فيما يقول؟

قال عبد اللّه بن مسـلم : لم يكن الأمر مجرّد تهديد، وإنّما قرن الرجل القول بالفعل، بل سـبقه الفعل، فقد زاد من أعطيات الشـرطة ، وجمع رجاله وأمرهم بالعودة إلي سياسة معاوية بن أبي سفيان :

1- (1) أنساب الأشراف، ج 2، ص 78.

2- (2) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 268؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 199.

خـذوهم بالتهمـة واقتلوهـم بالظنّـة، وبثّ الجواسـيس في كلّ مكان ، ووضع الحراسات علي مداخل البصـرة ومخارجها ، كما أمر أخاه بأن ينكّل بالناس، وأن يقوم بتفتيش عقائدهم ويأخذ البريء منهم بالمتّهم، وبذلك فقد نشر رعباً لا مثيل له علي مدينة البصرة.

فقال عبد الرحمن : بعد رسالة يزيد إليه، هل أبطأ عبيد اللّه في الشخوص إلي الكوفة، أم أسرع؟

قال عبد اللّه : ما إن وصلت إليه رسالة يزيد حتي أمر بالتجهيز، ليخرج إلي الكوفة من غد(1) .

قال عبد الرحمن: إنّ سياسة عبيد اللّه في البصرة تشبه سياسة فرعون: (و لأصلّبنّكم في جذوع النخل)(2) ، أليس كذلك؟

قال عبـد الله : معلّم جميع الطغاة واحد، وهو إبليس، ولذلك فإنّ سـياسة الطغاة واحدة علي مرّ التاريخ، إمّا أن تكون معنا أو أنت ضدّنا، فلا حياد في نظرهـم، فما يرونه لابدّ أن يراه الناس، كما قال فرعون: (ما أريكم إلّا ما أري وما أهديكم إلّا سبيل الرّشاد)(3).

قال عبد الرحمن: لكن هؤلاء يتحدّثون عن اللّه وكأنّهم وكلاؤه، والناطقون باسـمه وأمنائه في أرضه، فما يقدمون عليه ينسـبونه إلي إرادة اللّه، وما من كلمة وأخري إلّا ويحلفون باللّه عزّ وجلّ، كما أنّهم أحياناً ينطقون باسم الناس، ويعتبرون يزيد الذي

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 268.

2- (2) سورة طه، آية 71.

3- (3) سورة غافر، آية 29.

عيّنه أبوه واستخدم السيف والذهب لتثبيت حكمه أميراً للمؤمنين، والمؤمنون لم يعيّنوه ولا انتخبوه، أليس ذلك ما فعله فرعون؟

قال عبد اللّه : فرعون كان يعتبر نفسه ربهم الأعلي. فالطاغوت إمّا أن يري نفسه ربّا، أو علي الأقل ناطقاً باسم الرّبّ، ولو كان باستطاعة هؤلاء أن يصرّحوا بما صرّح به فرعون لفعلوا، لكنّهم منافقون يضمرون ما أظهره فرعون، ويظهرون ما نطق به الأنبياء، فهم في قلوبهم يقولون للناس نحن ربّكم الأعلي، وبالفعل يتصرّفون كأنّهم كذلك، ولكنّهم في الظاهر يلهجون بذكر اللّه .. إنّهم يقتلون أولياء اللّه ويتحدّثون بكلام الأنبياء .

قال عبد الرحمن : إذن خطر هؤلاء علي الدّين أكثر من خطر المشركين والكفّار؟

قال عبد اللّه : لم يكن اعتباطاً أنّ ربّنا أنزل سورة كاملة في القرآن حول المنافقين، وقال عنهم : (هم العدوّ فاحذرهم قتلهم الله) (1) لأنّ خطر المنافقين خطر مزدوج، فأنت تري أنّ الدولة يديرها رجل أجنبي يعمل كمستشار لدي يزيد، ومن قبله لدي أبيه، وهو السيرجون الرومانيّ الأصل، الذي لا يدين بدين اللّه، ويزيد لا ينصب ولا يعزل إلّا باستشارته وأمره، ألم تر أنّه حينما رفض في البداية أن ينصب عبيد اللّه بن زياد والياً علي الكوفة، قال له : أشر عليّ بغيره، يعني إمّا هذا، وإمّا من ترشّحه أنت.

المهم أنّ الخيار علي كلّ حال كان بيد هذا المستشار الأجنبي، فإذا لم يكن راضياً عن هذا فله أن يختار شخصاً آخر.

ص: 180

1- (1) سورة المنافقون، آية 4.

والخطورة هنا هو أن هؤلاء يحاولون القضاء علي كل ما بناه رسول اللّه، ولذلك فقد ظهرت البدعة وأميتت السنّة .

إنّ البدعة الحقيقيّة هي أن تتحوّل خلافة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم إلي ملك عضوض، وأن يكون أهواء الحاكم في موازين الحقّ والباطل، لا ما جاء به الأنبياء. إذن الخطورة مزدوجة بمعني أنّهم من جهة يبدّلون الدّين من داخل الدّين، ومن جهة أخري فهم يحاولون القضاء علي كلّ ما تبقّي ممّا بناه رسول اللّه .

قال عبد الرحمن: هل أنّ هؤلاء يريدون الانتهاء بالدّين إلي إنكاره، أم سيستمر وضعهم علي التظاهر بالدّين، ثمّ تخريبه من الداخل؟

قال عبد اللّه : لا أشكّ أنّهم يبغون القضاء عليه، وعلي كلّ ما يمتّ إليه بصلة صغيراً كان أم كبيراً، وهذا ما صرّح به معاوية ذات يوم.

قال عبد الرحمن : ومتي؟

قال عبد اللّه : اسمع؛ لقد ذكر مطرف بن المغيرة بن شعبة ، قال: «وفدت مع أبي إلي معاوية، وكان أبي يأتي ويتحدّث معه ثمّ ينصرف، وجاء أبي ذات ليلة من عنده فأمسك عن العشاء، فرأيته مغتمّاً، فظننت أنّه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت لأبي : ما لي أراك مغتمّاً هذه الليلة؟

فقال يا بنيّ؛ إنّي جئت من عند أخبث الناس .

قلت له: ومن هو؟

قال : معاوية.

ص: 181

قلت : وما ذاك، أي ما الذي حدث؟

قال أبي: «لقد قلت لمعاوية، بعد أن خلوت به، إنّك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلي إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فواللّه ما عندهم اليوم شيءتخافه منهم.

فقال لي: «هيهات هيهات، ملك أخو تيم - يقصد أبا بكر - وفعل ما فعل، فواللّه ماعدا أن هلك، فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائل : أبوبكر .. ثمّ ملك أخو عدي - يقصد عمر - فاجتهد وشمّر عشر سنين، فواللّه ما عدا أن هلك، فهلك ذكره إلّا أن يقول قائل : عمر.. ثم ملك أخونا عثمان، فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل وعمل به، فواللّه ما غدا أن هلك، فهلك ذكره وذكر ما فعل به. وإنّ أخا هاشم - يقصد رسول اللّه - يصرّح به في كلّ يوم خمس مرّات : أشهد أنّ محمّدا رسول اللّه ، فأيّ عمل يبقي مع هذا؟!

ثمّ قال : لا واللّه، إلّا دفناً دفناً، (أي دفناً لذكر رسول اللّه)(1).

قال عبد الرحمن الصالح: الآن أفهم عمق الجراح الذي يحمله الحسين، وشعوره بأنّ عليه مسؤولية إحياء دين الإسلام، وإقامة شرعة اللّه، وبعث الرسالة من جديد، فهل أنّ هدف الحسين من رفض البيعة هو إسقاط حكومة بني أميّة، وإقامة حكومة أهل البيت؟

1- (1) مروج الذهب، للمسعودي، ج 4، ص 49.

قال عبد اللّه بن مسلم : القضيّة أكبر من مسألة إقامة حكومة . من الطبيعي أنّ الحسين يريد إقامة الحقّ، وبسط العدل ، ولكن ذلك لا يعني تحقيق ذلك فقط من خلال الحكومة. فأنبياء اللّه جميعا كانوا يريدون إقامة الحقّ، وبسط العدل ، وتنفيذ حكم اللّه في الأرض، ولكن ليس عبر إقامة سلطة يكونوا هم علي رأسها، وإنّما عبر هداية الناس، ودفعهم لتحمّل مسؤولياتهم، وأداء دورهم بأنفسهم، ومنع الظالم من ظلمه، ومواجهة الأشرار ومساعدة الأخيار .. وبالطبع فإنّ هذا لا يتم إلّا من خلال الناس .

قال عبد الرحمن : ولكن في النهاية لابدّ أن تتبلور حركة الناس في سلطة مّا؟

قال عبد اللّه : نعم؛ لابدّ أن تتبلور حركتهم في إقامة نظام عادل، وليس بالضرورة في إقامة سلطة، أو تبديل رئيس بآخر.

فلم يكن أبداً هدف رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم أن يسلب أبا سفيان سلطته في مكّة، ليعيّن نفسه، أو واحداً ممّن يرضاه، في مكانه، إنّما كان هدف رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم هدايةالناس، ومن ثمّ تغيير حياتهم في جميع أبعادها.

إنّ الفرق بين الحسين وبين يزيد هو أنّ يزيد لا يريد إلّا السلطة وليس غير ذلك، أمّا الحسين فإنّه يريد هداية الناس.

قال عبد الرحمن : أتريد أن تقول إنّ يزيد ليس له أيّ مشروع؟

قال عبد اللّه : لا أقصد ذلك، فيزيد عنده مشروع محدّد ومشروعه هو نفسه، ولا يملك رسالة إلّا رسالة النفاق، فهو يريد السلطة فقط.

فقال عبد الرحمن : ألم تقل إنّهم يريدون القضاء علي الدّين ، فإذن هذا هو مشروعهم؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ يزيد، وكلّ الطغاة في التاريخ يريدون السلطة المطلقة، وهذه السلطة المطلقة تتناقض بالطبع مع الخضوع لسلطة اللّه التي هي جوهر رسالة الأنبياء، كما تتناقض مع حقوق الناس، ولأنّهم يريدون سلطة مطلقة فإنّ مشروعهم هو القضاء علي الرأي الآخر، وسحق كلّ من ينادي بشيء مختلف عن آرائهم .

ففرعون كان ضدّ موسي، لماذا؟ لأنّه كان يريد أن تكون سلطته هي سلطة الرّبّ الأعلي، ولأنّ بني إسرائيل لم يقبلوا به كربّ، فقد عذّبهم، ولمّا قال له موسي: (إنّا رسولا ربّك فارسل معنا بني إسرءيل ولا تعذبهم)(1) ، فقد صمّم علي قتله.

إنّ فرعون كان يريد بني إسرائيل عبيداً له، وأن لا يروا إلّا ما يراه، وأن يقبلوا منه كلّ ما يدّعي، بما في ذلك أنّه ربّهم الأعلي . هذه هي رسالة جميع الطغاة في التاريخ، وهذا هو مشروعهم.

أما مشروع الأنبياء والأولياء فهو مشروع كامل شامل، وليس الحكومة الصالحة إلّا جزءاً من ذلك المشروع، وليس ذلك هو الهدف النهائي لهم ولا المقصود، كما قال الحسين نفسه في وصيّته إلي محمّد ابن الحنفيّة : «وأنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلي الله عليه و آله و سلم»(2). فلا هو «أشر» يريد إثارة الفتن، ولا هو «بطر» يبحث

1- (1) سورة طه، آية 47.

2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 329.

عن السلطة والمقام والجاه، إنّما يريد الإصلاح في أمّة جدّه . وهذا الإصلاح له معني شامل، جزء منه يرتبط بإيمانهم وتقواهم وتهذيب نفوسهم، وجزء منه يرتبط بمنع الظلم والطغيان وإقامة نظام عادل .

أمّا حصر القضيّة في تغيير الحكومة القائمة واستبدالها بأخري، فهذا ليس من أهداف الحسين، كما لم يكن ذلك هدفاً لجدّه وأبيه وجميع الأنبياء والأولياء. إنّ هؤلاء لم يكونوا يرغبون في السلطة، ونهضتهم إذا كانت تنتهي إلي سلطتهم، فهم كانوا يقيمون الحقّ بالسلطة، وإذا لم تكن تنتهي إلي الانتصار السياسي والعسكري علي العدوّ فكانوا يكتفون بما يحقّقونه من هداية الناس وإصلاحهم.

من هنا فإنّ الأنبياء في الوقت الذي بعثوا: (ليقوم ألنّاس بالقسط)(1)، كما يقول القرآن الكريم فإنّهم كانوا مستعدّين في ذات الوقت أن يقتلوا في سبيل اللّه ، كما يقول القرآن الكريم : (قل هل

تربّصون بنا إلّا إحدي الحسنيين)(2) ، فبالنسبة إليهم الأمر سيّان: أن ينتصروا، أو يقتلوا.

قال عبد الرحمن : أتريد أن تقول إنّ الأمر الآن بالنسبة إلي الحسين سيّان أيضاً، وأنّ رفضه البيعة حاليا واستجابته لأهل الكوفة ، وإرساله الرسائل إلي زعماء المؤمنين، لا يعني أنّه يبحث بالضرورة عن النصر علي بني أميّة وإسقاط سلطتهم؟

قال عبد اللّه : تماما؛ فالحسين يريد ما أراده الأنبياء، وهدفه هو أهدافهم في إحقاق الحقّ، وإماتة الباطل، والعمل بالعدل،

1- (1) سورة الحديد، آية 25.

2- (2) سورة التوبة، آية 52.

وإحيـاء النّفـوس، وهدايـة النـاس، ورفـع الأخيـار، ودفع الأشـرار، وحمـل المؤمنين علي أداء واجبـاتهم في الـدفاع عن الحقّ، ومساعـدة المظلومين والمضطهدين، ومعاقبة الظالمين .

فعلي عكس الطغاة الذين يتصـرّفون بدلاً عن الناس، ويقرّرون نيابة عنهم، بل ونيابة عنهم يفكّرون، ونيابة عنهم يأكلون ويشـربون ويتمتّعون في الحيـاة، من دون أن يكون أي خيـار للنـاس، فـإنّ أولياء اللّه بالعكس من ذلك لا يريـدون أن يكونوا بـدائل عن الناس . فحينما يقول لهم البعض بـأن تعـالوا واسـتلموا السـلطة وقرّروا مـا تريـدون، وافعلوا مـا ترغبون، فإنّهم يطلبون منهم أن يشاركوهم في العمل، ومن ثمّ فإنّهم يحرّمون علي أنفسـهم متاع الدّنيا لكي يتمتّع به الناس، وشـعارهـم هو:(قل لا أسئلكم عليه أجراً ، لأنّ اللّه اشترط عليهم الزهد في درجات هذه الدّنيا الدنيّة، فشرطوا له ذلك.

فإذا بويع أحدهم إمامة للأمّة، وأصـبحت السـلطة كلّها في يده ، فإنّه لا يكتفي بإصدار القرارات، ولا يجبر أحداً علي إطاعته، بل يفرض علي نفسه أن يتساوي مع ضـعفة خلق اللّه ، لكي لا يتبيّغ بالفقير فقره. وهذا يشـمل كلّ مناحي الحياة بما في ذلك السلطة ؛ أي أنّهم لن يستغنوا حتّي يبتلوا بالطغيـان، حيث : كلّا إنّ الإنسن ليطغي * أن رّءاه اسـتغني) (1). وفي سـلطهم يبقي القرار هو قرار الجميع، وليس قرار الفرد، والمال مال الجميع وليس الفرد، والسـلطة سلطة الجميع وليس الفرد، والحقّ حقّ الجميع وليس حقّ الفرد، ولذلك لا يسمح أحد من أولياء اللّه لنفسه أن يظلم إنساناً واحداً، بل ولا نملة، كما

1- (1) سورة العلق، الآيتان 6. 7.

قال عليّ عليه السلام من قبل : «واللّه لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، علي أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»(1).

***

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 224.

حاكم العراقين يصل الكوفة متعطشاً للدّم والانتقام

تعيين ابن زياد حاكماً علي الكوفة والبصرة كان يعني أمراً واحداً، وهو عزم السلطة علي استخدام العنف و إراقة الدم الحرام.

وكـان ابن زيـاد يعرف مهمّته تماماً، فالمطلوب منه أن يشنّ حرباً لا هوادة فيها علي أهل بيت رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم، ولعلّ أركان السـلطة كلّها كانوا يرونها اللحظة المناسبة للقضاء علي أهل بيت النبيّ، جسديّاً واجتماعياً وسياسياً . فرسول الله صلي الله عليه و آله و سـلم كـان قـد ارتحـل عن هـذه الحياة قبل نصف قرن، والإمام علي عليه السـلام كان قـد قتل، وعـدوّه معاويـة عمل علي تغيير النسـيج الاجتماعي خلال عشـرين عاماً، بما يتلاءم مع مشـروع بني أميّة في إفراغ هذا الدّين من محتواه، وجعل الصـلاة ضدّ الصـلاة، والصوم ضدّ الصوم، والحجّ ضدّ الحجّ، من خلال التظاهر بشـعاراته والعمل ضدّ قراراته ، ولـم يبق من أهل البيت إلّا الحسين عليه السلام وعدد قليل من إخوته وأولاده و أبناء عمومته، ولـذلك فإنّ القضاء عليهم، عبر اسـتغلال رفضه للبيعة، بعد أن خيّروه بين السـلّة والذلّة، ذريعة لقتله وقتل من معه، كان ذلك يعني إتمام الفصل الأخير من مشروع بني أميّة، وهو

القضاء علي رسالة النّبي صلي الله عليه و آله و سلم من خلال القضاء علي أهل بيته المدافعين عنها، ثمّ بعد ذلك القضاء علي الدّين كلّه.

وكما نعرف فإنّ قيام أيّة سلطة ظالمة بتصفية خصم من الخصوم جسديّاً لن يقتصر علي إراقة دمه وقتله، وإنّما يمتد ليشمل شن حرب إعلاميّة واسعة ضد أهدافه أيضاً، ومن ثمّ القضاء علي مشروعه .. وهذا ما كان يفعله معاوية بن أبي سفيان. فبعد مقتل الإمام عليّ سنّ سبّ الإمام علي المنابر، ومنع الحديث عنه ومنه ، وكان مجرّد التسمية باسمه يعدّ جريمة كبري يعاقب عليها صاحبها ، ولذلك فإنّ الإمام الحسين سلام الله عليه سمّي كلّ أولاده عليّا : عليّ الأكبر، وعليّ الأوسط، وعليّ الأصغر، لأنّ الإمام هو وحده الذي كان قادراً علي أن يسمّي أولاده باسم عليّ، وإلّا فإنّ الدولة قد منعت هذا الاسم من التداول.

وهكذا فإنّ القضاء علي الحسين لم يكن ليقتصر علي قتله وإراقة دمه، وإنّما سيشمل القضاء علي هذه البصيرة في الدّين والرؤية للرسالة، ومن ثمّ القضاء علي امتداد الرسالات السماوية بكلّ ما تعني الكلمة.

*

في لقائهما اليومي تداول عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم الأخبار عمّا يجري في الساحة، بعد أن بدأت السلطة تتحرّك علي طريقة الطغاة في ردّ الكلمة بالسيف، واستخدام البطش بمن يخالفهم والتنكيل بهم، فجري الحديث عمّا يجري في البصرة والكوفة.

فقال عبد الرحمن لصاحبه: ما هي أخبارك من هناك ؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ ابن زياد بعد أن عيّن أخاه عثمان بن زياد نائباً له علي البصرة، خرج هو ومعه إثنا عشر من كبار القوم، منهم المنذر بن الجارود العبدي، وشريك بن الأعور الحارثي، ومسلم بن عمر الباهلي، ومعه مئات من الحراس والخدم والحشم والغلمان والحرّاس، حتّي قيل أنّ عددهم تجاوز خمسمائة شخص (1).

وأخذ يجدّ السير حتّي يصل في أقرب وقت ممكن إلي الكوفة، ويصفّي ما فيها من جيوب الموالين لأهل البيت سلام الله عليهم، ومن ثمّ يستعد لمواجهة الحسين عليه السلام من هناك .

وبما أنّ الجبهات لم تكن قد فرزت بعد، فإنّ بعض من خرج مع عبيد اللّه بن زياد لم يكن في الحقيقة موالياً لبني أميّة، بل العكس من ذلك. فمثلاً كان شريك بن الأعور الحارثي، ممّن يرجو أن يصل الحسين إلي الكوفة قبل ابن زياد، وأن يستتب الأمر له.

قال عبد الرحمن الصالح: أليس هذا أمراً غريباً، أن يكون حول عبيد اللّه بن زياد رجال يوالون أهل البيت؟

قال عبد اللّه : ليس هذا بغريب، فقد جبلت النّفوس علي حبّ الخير وبغض الشرّ، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ مواقف الرجال تتبع ما جبلت عليه نفوسهم، فربّما يكون حول الطاغوت من يكرهه أشدّ الكره، ويحبّ أعدائه، لكنّه يتصرّف بخلاف ما يحبّ ويكره .

وعلي كلّ حال، فإنّ الذين خرجوا مع عبيد اللّه بن زياد لم يكونوا مثله يحثّون السير إلي الكوفة، بل إنّ بعضهم كان - كما قلت ـ

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 359.

يتمنّي أن يتأخّر ابن زياد حتّي يصل الحسين أوّلاً إلي هناك، وتستتب له الأمور.

ولشدّة السعي من قبل ابن زياد، الذي كان يتمتّع بصحّة جيّدة حينئذ، فإنّ كثيرين من الذين كانوا معه سقطوا في الطريق، وأوّل من سقط هو شريك بن الأعور، وكان هؤلاء يتوقّعون أن يقف ابن زياد عليهم، وينتظرهم حتّي يصحو صاحبهم ويتحرّكوا معه، رغبة منهم في أن يسبقه الحسين إلي الكوفة، لكن ابن زياد لم يقف علي أحد منهم(1).

ويقال أنّ بعض من كانوا معه من الرجال كان ربّما يتمارض في الطريق، ليحبس ابن زياد عن الجدّ في المسير، ولكنّه لم يكن يأبه بمن معه. وحتّي الذين كان يعتمد عليهم عندما سقطوا لم يتوقّف، فهذا مولاه «مهران» سقط في منطقة القادسيّة، فقال له ابن زياد : «إن أمسكت علي هذه الحال، وجئت معنا فتنظر في القصر - أي تستريح هناك - فلك مائة ألف.

قال مهران : واللّه لا أستطيع، فتركه عبيد اللّه في مكانه، وتأخّر مهران عنه هناك (2).

*

قال عبد الرحمن : وماذا عن وصول عبيد اللّه بن زياد إلي الكوفة؟

قال عبد اللّه بن مسلم : وصلتنا أخباره، فإنّه تحايل علي

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 268.

2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 170؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 389.

الناس، فقد دخل الكوفة بطريقة توحي وكأنّه هو الحسـين بن علي عليهماالسـلام الذي ينتظره المؤمنون، إذ دخلها ممّا يلي البرّ، وهو الطرف الـذي يأتي منه أهل الحجاز، وكانت عليه ثياب بيض وعمامـة سوداء، وكان متلثّماً علي طريقـة أهل الحجاز. وكان يركب بغلة شـهباء وبيده قضـيب من خيزران، وكان أصـحابه الخمسـمائة من خلفه، واختار أن يكون دخوله الكوفة عند العشـيّة، كما دخل إخوة يوسف عليه السـلام علي أبيهم عشاءاً يبكون، حتّي لا تعرف ملا محمهم إن كانوا يبكون أو يتباكون، فصار ابن زياد لا يمرّ علي ملا من الناس إلّا ويسـلّم عليهم بقضبيه وهم يظنّون أنّه الحسين، فيقولون له:قدمت خير مقدم يابن بنت رسول الله(1) .

وكان بعض الناس يقبّلون يده ورجله(2) .

ولمّا رأي ابن زياد استبشار الناس بالحسين ساءه ذلك، وقال

لمن حوله : ما أشدّ ما فسد هؤلاء.

فلمّا قرب من قصر الإمارة التفت مسلم بن عمرو الباهلي إلي الناس الذين جاؤوا إليه ظنّاً منهم أنّه الحسين، وقال لهم: تأخّروا، يا ويلكم عن وجه الأمير، فليس هو ظنّكم ولا طلبتكم - أي أنّه ليس هو الحسين الذي تطلبون -.

فتوجّه ابن زياد إلي قصر الإمارة، وكانت الأخبار قد وصلت

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 348؛ وتهذيب التهذيب، لابن حجر، ج 2، ص 349.
2- (2) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 201.

إلي النعمان بن البشير، والي الكوفة، بأنّ الحسين قد قدم ومعه خلق كثير .

فلمّا انتهي إلي باب القصر ظنّه النعمان أنّه الحسين، فأغلق باب القصر وقال : ما أنّا بمسلّم إليك أمانتي، وما لي في قتالك من حاجة(1).

فأسفر ابن زياد عن وجهه وقال : يا نعمان؛ حصّنت قصرك، وتركت مصرك. افتح الباب، لا فتحت، فقد طال ليلك (2).

فتأكّد الناس الذين ظنّوه الحسين أنّه ابن زياد، ونادوا: إنّه ابن مرجانة، والذي لا إله غيره.

فقال بعض الحاضرين: ويحك ؛ إنّما هو الحسين .

قال: لا؛ إنّه ابن مرجانة.

ففتح له النعمان ابن بشير باب القصر، فدخل وضربوا الباب في وجوه الناس فانفضوا (3).

*

قال عبد الرحمن : وما الذي جري للناس؟

قال عبد الله بن مسلم : خيبة أمل، فقد دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد(4).

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 269.

2- (2) مقتل أبي مخنف، ص 25.

3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 360.

4- (4) التاريخ للطبري، ج 5، ص 358.

فقال عبد الرحمن ما عدا إظهار الحزن، هل قام أحد منهم بأي فعل؟

قال عبد اللّه : نعم، فإنّ بعض الذين ظنّوه الحسين في البداية ثمّ اكتشفوا أنّه ابن مرجانة حصبوه بالحصباء(1).

لكنّه لم يصب بأذيً كبير .

أمّا في داخل القصر فقد جري التبديل والتبادل بهدوء، حيث استلم عبيد اللّه بن زياد الولاية من نعمان بن بشير، بعد أن عاتبه عتاباً شديداً علي عدم أخذ الناس بالعنف والشّدّة، كما كان يتوقّع يزيد بن معاوية منه.

وفي اليوم التالي نادوا في الناس، حتّي يحضروا في المسجد الأعظم، وحينما امتلأ المكان بهم خرج عبيد اللّه بن زياد إلي المنبر، فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال: «أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين ولّا ني مصركم وثغركم، وأمرني بقسم فيئكم فيكم، وإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلي سامعكم ومطيعكم، وبالشّدّة علي مريبكم وعاصيكم، وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفّذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي علي من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبق امريء علي نفسه، الصدق ينبأ عنك لا الوعيد»، ثمّ نزل (2).

وبهذه الخطبة كشف للناس أنّ يده مفتوحة لاستخدام السيف والمال، فهو سيقسّم الفيء فيهم، ويحسن إلي مطيعهم، ويأخذ

1- (1) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 67.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 358.

مريبهم بشدّة، وفي كلامه «ليبق امريء علي نفسه»، تهديد صريح بالقتل والموت لكلّ من يخالف سلطة بني أميّة .

أمّا النعمان بن البشير فقد ارتحل نحو وطنه بالشام(1) .

*

من جانبه، لم يكتف ابن زياد بإلقاء الخطاب في المسجد الكبير، وتهديد الناس بالموت، وتطميعهم بالمال، وإنّما قام بمجموعة من الخطوات العمليّة، فأوّلاً أخذ العرفاء أخذاً شديداً واجتمع بهم وقال: «اكتبوا إليّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الخوارج، وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتب منهم لنا فبريء، ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمّة، وحلال لنا ماله، وسفك دمه، وأيّما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد، لم يرفعه إلينا صلب علي باب داره،وألغيت تلك العرافة من العطاء، وسيّر إلي موضع بعمّان الزارة»(2).

وثانياً، زاد من أعطيات الشرطة، وزاد من عدد الجنود والحرس أكثر بكثير ممّا كانوا موجودين في الدولة، وبثّ الكثير منهم التفتيش البيوت، ومن ثمّ بسط الرعب في النّفوس، كما بدأ حرباً نفسيّة من خلال بثّ الدعايات يومياً بأنّ جيش الشام قادم، حيث كان يأمر مناديه أن ينادي في قبائل العرب : أن أثبتوا علي بيعة يزيد ،

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 234.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 359.

قبل أن يبعث إليكم من الشام رجالاً يقتلون رجالكم، ويسبون حريمكم(1) .

وهكـذا فإنّ عبيد اللّه بن زياد بدأ الهجوم علي كلّ من يعارض بيعة يزيد، أو يؤيد مسـلم بن عقيل، أو كتب رسالة إلي الحسـين ، وأمر بزيادة الأعطيات لرؤساء القبائل وزعماء الجند، وشـكّل بالإضافة إلي ذلك مجموعات صغيرة، وأمرهـم بأن يذهبوا إلي القبائل ويتظاهروا بأنّهم مع الحسـين بن عليّ، ويطلبوا منهم البيعة للحسـين، فمن بايع منهـم كتبوا إلي ابن زياد باسمه واسم من معه، ومن رفض البيعة قتلوا منهـم واحداً أو اثنين ليزيد حقدهم علي أهل البيت عليه السلام .

***

1- (1) مقتل أبي مخنف، ص 25.

بداية المواجهة بين مبعوث الحسين ال ووالي يزيد

اضـطرب أمر الناس في الكوفـة بعد نشـر الرعب فيها بقيام عبيد اللّه بن زياد بإعلان الأحكام العرفيّة ، حيث نصب علي مفارق الأزقّة رجالاً يفتشون النـاس، ومعهم قوائم بأسـماء من تطلبهم السـلطة، كما أمر بأخـذ الغرباء ووضع حراسات علي مـداخل المدينـة ومخارجها، وكان يجتمع علي مـدار اليوم بمن له هوي في بني أميّـة ، ويصـدّر لهم الأـوامر بمـا يجب عليهم أن يفعلوه، كما عمـد إلي بيت المال وفرّغه علي الزعماء ورؤساء القبائل وكبار القوم، وزاد من عدد السجون.

وكانت أوامره الأوليّة تقضي باعتقال كلّ من يظن فيه الخطر، فأخذت البيوت تمتلأ واحدة بعد أخري بالمسجونين .

من جانبه سـمع مسـلم بن عقيل بكلّ ما كان يجري، فخرج من الدار التي كان فيها في جوف اللّيل، حتّي أتي دار هاني بن عروة المذحجي، وكان من أشراف أهل الكوفة، وشيخ قبيلة مراد وزعيمها، فدخل عليه ، فلمّا رآه هاني قام إليه وقال : ما ورائك؟

قال مسلم: ورائي ما علمت، هذا عبيد اللّه بن زياد قد قدم الكوفة، وقد أقبلت إليك لتجيرني، وتأويني حتّي أنظر إلي ما يكون .

ص: 197

فقال هاني بن عروة : «رحمك اللّه ؛ لولا دخولك داري وثقتك لأحببت أن تخرج عنّي، غير أنّه يأخـذني من ذلك ذمام، فأنزل علي بركة اللّه»
.

فـدخل مسـلم واسـتقرّ به الـدار، لكنّه لم يكتف بانتقاله إلي هناك، فلم يكن قـد اختفي في دار هاني بن عروة حفاظاً علي نفسه ، بل جاء إلي هناك لكي يستمرّ في عمله، فكان يأتي إليه من يوثّقه أصحابه المقرّبون إليه، فيبايع الحسين من خلاله(1).

وبلغ مجموع من بايع مسلم منذ دخوله الكوفة أكثر من ثمانية عشر ألفا(2).

ومع بيعة هذا العدد الكبير من الناس الذين أتوه فرادي وجماعات، والإعلان عن ولائهم للحسـين عليه السلام واستعدادهم للدفاع عن أهل البيت، فإنّ مسلم بن عقيل كتب رسالة أرسلها مع عابس بن شبيب الشاكري إلي الحسين يقول له فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

«أمّا بعـد، فإنّ الرائـد لا يكـذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشـر ألفاً، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإنّ الناس معك، ليس لهم في آل أبي سفيان رأي، والسّلام»(3).

*

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 68؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 200.

2- (2) العوالم، للبحراني، ج17، ص 192؛ والسيرة النبوية، لابن حبان، ج2، ص 307.

3- (3) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 243؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 375.

في فناء الكعبة التقي عبد الرحمن الصالح بعبد اللّه بن مسلم وأخذا يتدارسان الأوضاع، فقال عبد اللّه : هل تعرف ماذا يحدث الآن في الكوفة؟

قال عبد الرحمن : لا.

قال عبد اللّه بن مسلم: لقد أصبحت هنالك حكومتان في الكوفة، واحدة ظاهرة يرأسها عبيد اللّه بن زياد، ويسخّر فيها كلّ موارد الدولة لمواجهة حركة أهل البيت، والأخري هي المسلم بن عقيل، بعد بيعة عدد كبير له، ففي الخفاء هناك حركة نشطة من المؤمنين في جمع أكبر عدد ممكن من البيعة للإمام الحسين من خلال مسلم بن عقيل .

قال عبد الرحمن: وهل ستقع المواجهة بين هاتين الحكومتين؟

قال عبد اللّه بن مسلم : بحسب ظاهر الأمور، فإنّ مسلم بن عقيل لا يعد العدّة للمواجهة بالسلاح مع عبيد اللّه بن زياد، إنّما مهمّته أن يستطلع الأوضاع، وأن يكتب إلي الإمام الحسين ما يجري هناك، فلم يكلّف، بحسب رسالة الحسين له ولأهل الكوفة، بالقيام بالمواجهة .

قال عبد الرحمن : ماذا لو أنّ عبيد اللّه بن زياد هو الذي قرّر الهجوم علي مسلم؟

قال عبد اللّه : لكلّ حادثة حديث، وأظن أنّ مسلم سيدافع عن نفسه شخصيّاً ، فهو لم يذهب إلي هناك ليجمع المال والسلاح، ولم يرشح أيّ خبر بأنّه يهيّأ رجاله لمواجهة مسلّحة مع السلطة القائمة، لأنّ أهل البيت سلام اللّه عليهم، مثل الأنبياء لا يجعلون الحرب في

أولويات عملهم، ولا القتال وسيلة لهداية الناس، إنّما السيف عندهم في مواجهة السيف، والقوة لمواجهة القوّة .

قال عبد الرحمن : ولكن رسول اللّه حارب أعدائه، وكذلك فعل الإمام علي؟

قال عبد اللّه : ومن قبلهما فإنّ الأنبياء أيضاً قاتلوا.(و كأيّن مّن نّبيّ قتل معه ربّيّون كثير)(1)، لكنّهم لم يقاتلوا الناس لكي يؤمنوا باللّه وشرائعه. وحتّي رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم لم يفرض علي أهل المدينة حينما هاجر إليها أن يؤمنوا به، ولا فرض علي أهل مكّة بعد أن فتحها أن يؤمنوا بدينه ، وحتّي أولئك الذين وقفوا علي الحياد وتركوا قتال رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم، فإنّ النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم اعتبرهم من المؤلّفة قلوبهم، ووزع عليهم الغنائم لكي يكسب قلوبهم، لعلّهم يميلوا إلي دين اللّه باختيارهم.

غير أنّ هذا لا يعني أنّ الأنبياء والأولياء يخضعون لمنطق القوّة من قبل أعدائهم، بل أنّهم يدفعون الشرّ بمثله، (فمن أعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم)(2). فكما يقول الإمام عليّ عليه السلام : «ردّوا الحجر من حيث جاء، فإنّ الشرّ لا يدفعه إلّا الشرّ»(3). فهم يسالمون من يسالمهم، ويقاومون من يريد أن يفرض عليهم الكفر والشّرك والظلم والطغيان والعصيان. وليس مسلم بن عقيل مستثني منهم، فالأخبار التي تأتي من هناك تقول إنّ مسلم بن عقيل لم يستخدم السلاح في أفضل الحالات التي كان فيها، في الوقت الذي

1- (1) سورة آل عمران، آية 146.

2- (2) سورة البقرة، آية 194.

3- (3) نهج البلاغة، حكمة 314.

كانت السلطة في أضعف حالاتها؛ فلا هو حاول أن يقتحم دار الإمارة، ولا أعلن الحرب علي عبيد اللّه بن زياد في بداية دخوله الكوفة، مع أنّه كان يملك الكثير من السلاح والرجال، لأنّ أولياء اللّه يقاتلون في سبيل اللّه، والذين كفروا يقتلون في سبيل الطاغوت . وأولياء اللّه ملتزمون بقيمهم ومبادئهم حتي في أحلك الظروف، ويرفضون مبدأ «أنّ الغاية تبرّر الوسيلة»، بل يرون أنّ الغاية تحدّد الوسائل وتقيدها.

ألم تر كيف أنّ الإمام عليّ عليه السلام فوّت علي نفسه فرصاً كثيرة للانتصار، لأنّه رفض أوّلاً البدأ بالقتال، وثانياً التزم بالأخلاقيات في أشد الحالات، وقدم مبادئه وقيمه علي إحراز الانتصار، وكان يصرّح

قائلاً:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور»(1)؟ ويقول: «ما ظفر من ظفر الإثم به»(2) .

ففي معركة صفّين سنحت له فرصة أن يقضي علي واحد من أشدّ أعدائه، وأكثرهم حيلة ومكراً، وهو عمرو بن العاص ، لكنّ الرجل كشف عن عورته فالتزم الإمام عليّ عليه السلام بالحياء وترك عمرو بن العاص يهرب من تحت سيف ذي الفقار، بادياً سوأته للريح. ولو أنّ الإمام عليه السلام كان يبادره بضربة من سيفه ، الذي ما ضرب به أحداً إلّا وسقي الأرض من دمه، وشقّه من رأسه إلي عورته، لما كان عند أحد ملوماً، لكن عليّاً يختلف

1- (1) نهج البلاغه، خطبة رقم 126.
2- (2) نهج البلاغة، حكمة رقم 327.

عن غيره في أخلاقيّاته، ومناقبيّاته، والتزاماته، وكرمه ، وشجاعته ، وعطائه .

وعنـدما كـان يقول لأصـحابه أنّ ابن ملجم هو الـذي سوف يقتله، فيقولون له: فلم لاـ تقتله؟ يقول : إن اللّه لاـ يعـذّب العبـد حـتي تقع منه المعصية .

وتارة يقول: فمن يقتلني ؟(1) أو يقول : أقصاص قبل الجناية؟

وحينما قال له بعضـهم: يا أمير المؤمنين، أخبرنا بالذي يخضب هذه من هذه (أي قاتلكّ) نبيد عشيرته. فقال عليه السلام : إذاً واللّه تقتلون به غير قاتلي (2).

وهكذا هو مسلم بن عقيل، فهو يرفض أن يطلب النصر بالجور، فلا يبادر إلي قتال أحد، ولا يتوسّل بوسائل مثل الغدر والاغتيال.

وهذا بالفعل ما حدث عندما سـنحت له الفرصة، لكي يغتال ابن زياد ولم يفعل.. فقد تعرّض شريك بن الأعور البصري، الذي صحب عبيد اللّه بن زياد في طريقه من البصـرة إلي الكوفـة، للمرض فنزل عند هاني بن عروة، وكان متوقّعاً أن يقوم عبيد اللّه بن زياد بزيارته في دار هاني، حيث كان مسلم بن عقيل نازلاً عنده متخفّياً .

وعندما أرسل ابن زياد من يذكر له أنّه سـيأتيه عائداً ، قال شـريك بن الأعور لمسـلم بن عقيل : «إنّما غايتك هلاك هذا الطاغية ، وقد أمكنك اللّه منه، فهو يأتي إليّ ليعودني، فقم، فادخل الخزانة

1- (1) مدينة المعاجز، للسيد هاشم البحراني، ج 3، ص 42.
2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 42، ص 196.

حتّي إذا اطمأن عندي فاخرج إليه فاقتله ، ثمّ اذهب إلي قصر الإمارة فاجلس فيه، فإنّه لا ينازعك فيها أحد من الناس، فإن رزقني اللّه العافية ذهبت إلي البصرة فكفيتك أمرها، وبايع لك أهلها».

فقال هاني بن عروة : ما أحبّ أن يقتل ابن زياد في داري .

فقال له شريك بن الأعور: ولماذا؟ فواللّه إنّ قتله لقربان إلي اللّه .

ثمّ التفت إلي مسلم وقال : لا تقصّرنّ في ذلك.

فبينما كانوا هم يتحدّثون في هذا الموضوع، إذ قيل لهم: إنّ الأمير بالباب.

فدخل مسلم بن عقيل الخزانة، وجاء عبيد اللّه بن زياد ودخل علي شريك، فسلّم عليه، وبدأ يسأله عمّا يشتكي منه.

فلمّا طال سؤاله إيّاه استبطأ شريك بن الأعور خروج مسلم بن عقيل لقتله، فجعل يقرأ أبياتاً من الشعر يقول فيها :

ما الانتظار بسلمي لا تحيّيها * حيّوا سليمي وحيّوا من يحيّيها

هل شربة عذبة تسقي علي ظمأ * ولو تلفت وكانت منيّتي فيها

فإن أحسّت سليمي منك داهية * فلست تأمن يوما من دواهيها

وجعل يردّد هذه الأبيات، ويخلع عمامته ويضعها علي الأرض، ثمّ يضعها علي رأسه، ثمّ يضعها علي الأرض، ويقول : «إسقنيها وإن كانت فيها نفسي»، وكرّر ذلك مرّتين أو ثلاثة .

فقال عبيد الله لهاني بن عروة : أترونه يهجر؟

فقال له هاني: نعم، أصلحك اللّه ، ما زال هذا ديدنه منذ الصباح.

ثمّ إنّ عبيد اللّه قام وانصرف، فخرج مسلم من الخزانة، فقال له شريك معاتباً : ما منعك من قتله؟

قال مسـلم : «منعني من ذلك خلّتان، إحـداهما قول رسول الله : «إنّ الإيمان قيـد الفتك ولا يفتك مؤمن».. والثانيـة ، كراهـة هاني أن يقتل الرجل في داره .

فقال شريك بن الأعور: «أما واللّه، لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً غادراً، ولاستقام لك أمرك».

وأضاف: «ما رأيت أحداً أمكنته فرصة فتركها إلّا أخذته ندماً

وحسرة، وأنت أعلم»(1).

*

وهكذا فإنّ مسـلم بن عقيل رفض أن يقتل عدوّه بطريقة الفتك والاغتيال، مع أنّها كانت ضـربة سهلة بالنسبة إليه، وعظيمة التأثير بالنسبة إلي مصـيره. فعبيد اللّه بن زياد، كما قال شـريك بن الأعور، كان رجلا غادراً وفاسقاً، لا يرقب في اللّه إلّا ولا ذمّة، غير أنّ الأيمان قيد الفتك عند مسلم بن عقيل، ولا يطلب النصر بالجور.

قال عبد الرحمن الصالح: وما الذي حدث لشريك بن الأعور؟

قال عبد اللّه : إنّ الرجل مات بعد ذلك بثلاثة أيّام، فصلّي عليه عبيد اللّه بن زياد، ودفنه إلي جنب أبيه في المقبرة (2).

1- (1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 2، ص 79؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 236؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 65.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 364.

قال عبـد الرحمن : يوماً بعـد يوم يكتشف الناس فعلاً أنّ لهذا الدّين معركتين: معركة ضدّ الكفر والشـرك، والتي قادها رسول الله صـلي الله عليه و آله و سلم ، وأبت إرادة اللّه إلّا أن ينتصر فيها نبيّه الكريم . ومعركة أخري مع النفاق والكفر المبطّن، والتي يقودها أهل البيت منذ وفاة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم .

. قال عبـد اللّه : والمعركـة الأولي أيضاً كان أهل البيت هم الذين وقفوا فيها مع النبيّ، فكان علي عليه السـلام سـيف رسول الله المسـلول، وعضده المفتول، وسـنده الأوّل، وبه نجّاه اللّه في ليلة الهجرة، وبه دفع اللّه شرّ قريش في معركة بدر، وبه كفي الله المؤمنين القتال في معركة الأحزاب .. فأهل بيت النبي صـلي الله عليه و آله و سلم هم الذين يعرفون قدر نبيّهم وقدر هذا الدّين، ويقفون معه، ويضحّون من أجله، لا يريـدون أجراً علي ما يتحمّلون، فلم يحصـلوا في مقابل ما تحمّلوه إلا العنت والعـذاب والهجرة والقتل، هم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه ، صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، فمنهم من قضي نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً .

وبينما كان عبـد اللّه بن مسـلم وعبد الرحمن الصالح يتحدّثان عن ذلك، وإذا بشـخص كان يجلس ورائهم ويسـمع كلامهم التفت إليهما، وقال: باللّه عليكما، وبحقّ هذه الكعبة، عمّا تتحدّثان؟

فقال عبد اللّه بن مسلم : لا حاجة إلي الحلف، نتحدّث عن الحسين ويزيد، وعن أهل البيت وبني أميّة، وعن المؤمنين حقّا وعن المنافقين .

قال الرجل: يا هذا، إنّه خلاف في داخل الأمّة ما بين مسلم وآخر، فهذا من مصاديق ما قال عنه ربّنا في كتابه : (وإن طائفتان من

المؤمنين أقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحدهما علي الأخري فقتلوا ألّتي تبغي حتّي تفيء إلي أمر اللّه)(1)(1) سورة الحجرات، آية 9. (2).

قال عبد اللّه بن مسلم : ليس هذا من مصاديق الآية .

قال الرجل : ألا تعتبر أنّ أبا سفيان ومعاوية ويزيد هم من المؤمنين؟

قال عبد اللّه بن مسلم: انظر يا رجل، لو أخذنا تاريخ هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم، وتاريخ النبيّ وعليّ، ثمّ الحسن، والآن الحسين، فما الذي نري؟

حينما بعث اللّه نبيّه برسالة هذا الدّين وقف في وجهه أبو سفيان بن حرب، وكان هو شيخ المؤلّبين علي رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وزعيم المحاربين لدعوته، ولم تكن هنالك غزوة من الغزوات إلّا وكان لأبي سفيان دور أساسي في تأليب القبائل ضد النبي صلي الله عليه و آله و سلم ، وجمع الأموال لمحاربته.

وقد استمر في قيادة قريش في حربها للنبيّ، ومنازلة المهاجرين والأنصار، إلي أن فتح اللّه مكّة لنبيّه، وأعلن أبو سفيان إسلامه لكي يحقن دمه ، ومع ذلك حينما نظر إلي جيوش المسلمين قال لعبّاس بن عبد المطّلب : واللّه يا أبا الفضل؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً !

فقال له العبّاس: إنّها النّبوّة .

1-

2-

فهو حتي بعد إعلانه للإسلام يعتبره ملكاً لا نبوّة، ولذلك قال: نعم، إذن(1).

أمّا إسلام ابنه معاوية فكان كإسلام أبيه بعد فتح مكّة، وكان أقصر إسلام عرفه المسلمون بعد فتح مكّة، حتّي أنّ أمّ معاوية هند بنت عتبة كانت تصيح في القوم بعد إسلام أبي سفيان: «أقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قبح من طليعة قوم، هلّا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم»(2)؟

وبقي أبو سفيان إلي ما بعد إسلامه زمنا يعتبر غلبة الإسلام علي الجاهليّة يعتبرها غلبة علي نفسه، فقد نظر إلي النبي صلي الله عليه و آله و سلم مرّة وهو في المسجد، وقال : ليت شعري، بأيّ شيء غلبني؟

فلم يخف علي النبي صلي الله عليه و آله و سلم معني كلامه، فأقبل عليه حتّي ضرب بين كتفيه وقال له : باللّه غلبتك يا أبا سفيان(3).

وحتّي في غزوة حنين حينما انهزم المسلمون في البداية أخذ أبو سفيان يقول: ما أراهم يقفون دون البحر؟ متمنّياً هزيمة المسلمين (4).

وكان في حروب الشام يهتف كلّما تقدّم الرّوم: إيه يا بني الأصفر .. فإذا تراجعوا عاد فقال : ويل لبني الأصفر (5)

1- (1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج 2، ص 166؛ والسيرة النبوية، لابن هشام، ج4، ص 53.
2- (2) أعلام الوري، ج 2، ص 223؛ والبداية والنهاية، ج4، ص291.
3- (3) البداية والنهاية، ج 4، ص 304.
4- (4) التاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 62؛ والنصائح الكافية، ص110.
5- (5) الأغاني، لأبي الفرج، ج 6، ص 333.

قال الرجل : ولكن النبيّ في فتح مكّة قال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن(1) .

قال عبد الله بن مسلم : هذا فضل لرسول اللّه، وليس فضلا لأبي سفيان. فالنبي صلي الله عليه و آله و سلم لم يكن ينظر إلي خصومته مع أبي سفيان نظرة شخصيّة ولم يكن يدافع فيها عن مصالح قومه، بل كان يدافع عن دين اللّه، ومن ثمّ فاعتبر كلّ من يذهب إلي دار هذا الرجل، أو يغلق علي نفسه الدار، أو يذهب إلي بيت اللّه فهو آمن. لم يكن النبيّ يريد أن يقاتل أساساً، وقد أمر عليا عليه السلام أن ينادي : اليوم يوم المرحمة، اليوم تحمي الحرمة.

فأقام النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم أبا سفيان علي رأس المؤلّفة قلوبهم، الذين زاد لهم العطاء عسي أن يذهب ما في نفوسهم من كراهية لغلبة الإسلام، ومع هذا كان المسلمون يتوجّسون خيفة من أبي سفيان، فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه، حتّي برم من ذلك وتوسّل إلي النبي صلي الله عليه و آله و سلم أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه .

وبعد وفاة النبي صلي الله عليه و آله و سلم ومبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، كان أبو سفيان يحاول أن يدفع المسلمين إلي الاقتتال فيما بينهم، فقد جاء إلي عليّ والعبّاس وقال: «يا عليّ وأنت يا عبّاس، ما بال هذا الأمر في أذّل قبيلة من قريش وأقلّها؟ واللّه لو شئت لأملأنّها عليه . ويقصد أبا بكر - خيلاً ورجلاً، وآخذنّها عليه من أقطارها.

كان يريد أن تشبّ الحرب حتي ينفتح الباب لزعامة بني أميّة

1- (1) النزاع والتخاصم، ص 54.

من جديد، ولذلك فقد رفض علي عليه السلام هذا الأمر، وقال : لا واللّه ، لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلا.

وأضاف عليه السلام : «يا أبا سفيان، إنّ المؤمنين قوم نصحة بعضهم البعض، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم»(1).

وبعد أن قامت خلافة عثمان بن عفّان، وانتصر الأمويّون فيها ، باعتبار أنّ الخليفة كان منهم، وابن عمّ قريب لزعماء بيوتهم، أصبحت الدولة أمويّة لا يطمع فيها خيراتها ولا يأتها إلّا من كان من أميّة أو من حزبهم. فمروان بن الحكم كان وزير الخليفة الأوّل، يغدق العطاء علي الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس، وأقرّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان والياً علي بلاد الشام، وأضاف إلي سلطته مناطق أخري، فلم يكن يعمل إلّا علي اجتذاب الأقرباء والأولياء ، ومن يرجو منهم العون ويخشي منهم الخلاف.

ولمّا قتل عثمان تبيّن أنّ جميع المنتفعين بمناصب الدولة وأموالها هم من الأمويين أو من صنائعهم.

ثمّ حينما بايع الناس عليّ بن أبي طالب كانت الدولة بكلّ إمكانياتها في يد الأمويّين، فأخذ معاوية يستخدم كلّ ما تحت يديه من أموال، ويحشد من كان علي قرابة منه هنا وهناك لمواجهة عليّ ، وشنّ الحروب عليه، وانتهت القضيّة إلي مقتله .

ثمّ بايع الناس في العراق وفارس الحسن بن عليّ، لكن معاوية اغتال البعض واشتري ضمائر البعض الآخر، فلم يستقم

1- (1) التاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 126؛ والنصائح الكافية ، ص110.

للحسن أمره، وصالح معاوية علي شـروط أوّلها – تسليم الأمر إلي معاوية بشرط أن يعمل بالكتاب والسنّة وسيرة الخلفاء الصالحين . وثانيها – أن يكون الأمر للحسن من بعده، ومن بعد الحسن للحسـين، وليس لمعاوية العهد به لأحد. ثالثها – أن لا يذكر عليّاً إلّا بخير، وترك سـبّه والقنوت عليه بالصّلاة. رابعها – الأمان لأصحاب عليّ وشيعته، وأن لا يبري معاوية لأحد من أهل بيت رسول اللّه

غائلة .

لكن معاويـة لم يلتزم بأيّ شـيء من شـروط هذا الصلـح إلّا الشـرط الأوّل وهو تسـليم الأمر إليه، ثمّ زاد علي ذلك أنّه أغري امرأة الحسـن «جعـدة بنت الأشـعث» بإعطاء السّم لزوجها وقتله، ووعـدها بأن يزوّجها من يزيـد، ويعطيها مائـة ألف درهم، فوفّي بوعد المال، ولـم يوفّ بوعد الزواج(1).

وقد وصل بالأمويين الأمر أن منعوا دفن الحسن بن عليّ إلي جنب قبر جدّه ، كما أوصي، حيث قاد مروان بن الحكم لمّة من الغواة، ومنعوا مشـيعي الحسن من الاقتراب من قبر رسول اللّه ، ورموا جنازته بالسهام، ممّا اضطرّ الحسين إلي أن يدفن أخاه في البقيع. هكذا ضيّقوا الدّنيا علي أهل بيت رسول اللّه أحياءً وأمواتاً .

قال الرجل : إنّ الجميع قد ذهبوا إلي ربهم، فلنترك الحديث عنهم .

فقال عبد اللّه بن مسلم: الجميع ذهبوا إلي ربّهم، ولكن أليس

1- (1) التاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 225؛ وتاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج 13، ص 300؛ وتذكرة الخواص، ص 211؛ ودلائل الإمامة ، ص 61.

فرعـون وموسـي أيضـا ذهبـا إلي ربّهم؟ فلمـاذا علينـا أن نقرأ في القرآن الكريم حـديث الصـراع بينهمـا، وأن نعرف الحقّ لأـهله، وأن نلعن الظالمين .. ونمرود وإبراهيم أيضاً ذهبا إلي ربّهم، وهابيل و قابيل من قبل ذهبا إلي ربّهم.. فهل ترك اللّه أمر هؤلاء، لأنّهم ذهبوا إلي ربّهم؟

ثمّ إنّ المشـكلة ليست في الذين ذهبوا، وإنّما المشـكلة أنّ معاوية مهّد لبيعة ابنه يزيد منذ سبع سنوات، وتوصّل إلي ذلك باستخدام السيف تارة، والاغتيال تارة أخري، وإغداق الأموال وشـراء الضمائر في الأغلب، وهو يعرف ابنه، شابا نزق عربيداً سكّيراً، لا يصلح لكي يكون مجرّد شرطي، فكيف أن يكون خليفة المسلمين، ويتبوّأ مقعد رسول اللّه؟.

فالصراع الذي بدأ برسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، حينما أعلن الدعوة مع أبي سفيان، لا يزال ممتدّاً، وكما يقول الشاعر:

عبد شمس قد أضرمت لبني هاشم * حرباً يشيب منها الوليد

فابن حرب للمصطفي، وابن * هند لعليّ، وللحسين يزيد(1)

قال الرجل: أتريد أن تقول بأنّ الحق مع أهل البيت؟

قال عبد اللّه بن مسـلم : وأنت، أتريد أن تقول إنّ الحقّ مع أعدائهم؟ إنّني أسألك سؤالاً واحداً: ألم يوصّ رسول اللّه بأهل بيته خيراً؟ وهل أنّه أوصي بأن يؤخذ من فاطمة الزّهراء عليهاالسلام نحلتها التي نحلها أبوها؟

هل أوصي بأن يقتل علي في محرابه؟

ص: 211

1- (1) النزاع والتخاصم، ص 59.

هل أوصي بأن يسقي الحسن السّمّ؟

هل أوصي بأن يحاصر الحسين؟

ألم يقل : «فاطمة بضعة منّي، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذي اللّه»(1)

ألم يقل لعليّ: «حبّك تقوي وإيمان، وبغضك كفر ونفاق»(2)؟

ألم يقل : «الحسن والحسين ريحانتاي من الدّنيا»(3)؟

ألم يقل : «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»(4)

ألم يقل : «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ اللّه من أحبّ حسيناً » (5)

ألم يقل : «الأئمّة من أهل بيتي كالنّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم»(6)؟

ألم يقل: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»(7)؟

تري، لو كان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قد أوصي بالوقيعة في أهل بيته ، فهل كان من الممكن أن يفعلوا بهم أكثر مما فعلوا؟ وربّنا يقول في

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 30، ص 353.
2- (2) الأمالي، للصدوق، ص 77.
3- (3) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ج 3، ص 154.
4- (4) الأمالي، للصدوق، ص 187.
5- (5) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص. 28
6- (6) دعائم الإسلام، للقاضي النعمان المغربي، ج 1، ص 87.
7- (7) خاتمة المستدرك، للميرزا النوري، ج 1، ص 356.

كتـابه الكريم : (قل لا أسـئلكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربي) (1)، وجعل رسول الله صـلي الله عليه و آله و سـلم الصلاة علي أهل بيته جزءا من الصلاة الواجبة؟

قال الرجل: ومن المسؤول عن ذلك؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : إبحث أنت، عمّن هو المسؤول عن ذلك، فإذا كان رسول اللّه وأهل بيته هم موازين الحقّ والعدل، فمن تخلّف عن ذلك الميزان فهو مسؤول عن كلّ ما جري ويجري.

سكت الرجل وسكت عبد الله، وقاموا، وانفضّ المجلس .

***

1- (1) سورة الشوري، آية 23.

مسلم بن عقيل وحيدا في مواجهة إمبراطورية الشرّ

بعد أن نجي عبيد اللّه بن زياد من قتل محقّق بسبب التزام مسلم بن عقيل بشروط الإيمان، فلم يقبل أن يقضي عليه بالفتك ، بدأت الحوادث تأخذ منحي آخر. فبعد أن كان مسلم بن عقيل محوراً لحركة المؤمنين الذين نشطوا من عقال، في تنظيم أمورهم وجمع الموالين لهم، وأخذ البيعة منهم للحسين بن عليّ، أصبح الوضع مختلفاً بعد أن أفرغ عبيد اللّه بن زياد بيت المال في جيوب رؤساء القبائل والعشائر، وأرسل أنصاره إلي كلّ بيت في الكوفة يعدون ويتوعّدون، فانطلقوا يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من جيش الشام، وينذرون الناس بقطع العطاءات وأخذ البريء بالمذنب، والغائب بالشاهد، ويهدّدون بالموت كلّ من لم ينفع معه الرشاء بالمال، ويتوسّلون بكلّ وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل، حتّي أنّهم كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها، والأمّ وراء ولدها، والأخ وراء أخيه، فيتعلّقون بهم حتّي يقفلوا راجعين إلي دورهم، أو يدفعوهم للانخراط في زمرة عبيد اللّه ، وعلي أقل التقادير كانوا يقولون لبعض ضعاف النّفوس إنّ هذه معركة بين سلطتين، سلطة قائمة وسلطة تريد أن تقوم، فمن الأفضل أن

تكونوا أحلاس بيوتكم، فإذا انتصر هؤلاء علي أولئك فعندكم الفرصة لكي تتقرّبوا إليهم، وإذا كان العكس كنتم في سلامة ودعة ، وكان الشعار الذي رفع : «ما لنا والدخول بين السلاطين».

وهكذا تغيّر وضع مسلم بن عقيل، فأصبح من قائد للألوف، إلي مطلوب للسلطات، وكان عبيد اللّه بن زياد يزيد علي مدار الساعة من عدد جنوده وشرطته، ويصدّر لهم الأوامر فيما يجب عليهم أن يفعلوا . بينما كان في الجهة الأخري يتفتّت أصحاب مسلم وينقسمون علي أنفسهم، حتي ذهب أكثرهم إلي بيوتهم، أمّا الذين جاؤوا من أجل حطام الدنيا فقد انقلبوا علي أنفسهم، وانضمّوا إلي جبهة عبيد اللّه بن زياد. فاختفي مسلم بن عقيل عن الأنظار، وأصبح الشغل الشاغل لعبيد اللّه أن يعرف أين يختفي، وكان يعرف أنّ اعتقال مسلم أو قتله سوف يجعل الموالين لأهل البيت في وضع ضعيف، وربّما تتلاشي قوّتهم في مدينة الكوفة .

أمّا مسلم بن عقيل فقد اختفي في بيت هاني بن عروة، وكان هاني، بالإضافة إلي كبر سنّه وعظم مقامه، زعيم قبيلة مذحج الذين كان لهم أربعة آلاف مقاتل إذا تمّت تعبئتهم، وبما أنّ مسلم بن عقيل قد غيّر مكانه عدّة مرّات، فقد خفي علي عبيد اللّه مكان وجوده ، وقبل أن يقدم الرجل علي اقتحام أي بيت من البيوت، كان عليه أن يتأكّد أين يكون مسلم، هل هو في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، أم في بيت مختار بن أبي عبيدة الثقفي، أم في بيت مسلم بن عوسجة، أم في بيت هاني بن عروة أم في مكان آخر.

وهنا توسّل ابن زياد بالحيلة، كما كان يفعل طغاة بني أميّة ،

فلا هم كانوا في حروبهم يلتزمون بأصول المواجهة والحرب، ولا في حالة السلم والضعف كانوا يتركون الحيلة والمكر.

وكان في رجال ابن زياد رجل مغمور من أهل الشام يسمي ب«معقل»، لايعرفه أهل الكوفة، فطلبه ابن زياد وأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له: «خذ هذا المال وانطلق، فالتمس لي مسلم بن عقيل، وأوصاه بأن لا يستعجل في أمره، ويتحرّك بغاية التأنّي والحذر.

فجاء الرجل حتّي دخل المسجد الأعظم، ولكنّه لم يكن يعرف من أين يبدأ، فنظر إلي من هو حاضر هناك، فرأي رجلاـ عليه سيماء الصالحين، يكثر من الصّلاة بوقار و إخلاص، فقال لنفسه: «ربّما يكون هذا من موالي عليّ، فهم يكثرون الصّلاة، ويخلصون فيها، وأحسب أنّ هذا منهم».

فجلس إليه حتّي إذا انفتل من صلاته دني منه وقال: «جعلت فداك ؛ إنّي رجل من أهل الشام، وأنا مولي لذي الكلاب، وقد أنعم اللّه عليّ بحب أهل بيت رسول اللّه ، ومعي ثلاثة آلاف درهم أحبّ إيصالها إلي رجل منهم، وقد بلغني أنّ رجلاً قدم هذا المصر داعية للحسين بن عليّ، فهل لك أن تدلّني عليه ليوصل هذا المال إليه، ليستعين به علي بعض أموره، أويضعه حيث يحبّ»؟

فقال له الرجل : ولماذا قصدتني بالسؤال عن ذلك، دون غيري ممن هو في المسجد؟

قال معقل: لأنّي رأيت عليك سيماء الخير، فرجوت أن تكون ممّن يتولّي أهل بيت رسول اللّه .

فقال له الرجل: «لقد وقعت عليّ بعينك، أنا واحد من

إخوانك، واسـمي مسـلم بن عوسـجة، وقد سررت بك، وساءني ما دخلني من سوء الظنّ بك، فأنا رجل من محبّي أهل هذا البيت ، فأعطني ذمّة اللّه وعهده أن تكتم هذا الأمر من جميع الناس».

فأعطاه معقل من ذلك ما أراد.

فقال له مسـلم بن عوسـجة : انصـرف يومك هـذا، فإذا كان غد فاتني في منزلي، حتي أنطلق معك إلي صاحبنا - ويقصد مسـلم بن عقيل - فأوصلك إليه.

فمضـي معقل ليلته، فلمّا أصبح في غد جاء إلي مسلم بن عوسجة في منزله، فانطلق به حتّي أدخله علي مسلم بن عقيل، فأخبره بأمره، ودفع إليه ذلك المال وبايعه.

وبقي يغدو إلي مسـلم في كلّ يوم، فلا يحجب عنه أخباره، ويتعرّف علي من يأتي إليه، فإذا أمسي وأظلم دخل علي عبيد اللّه بن زياد فأخبره بجميع ما كان يري ويسمع، وبالطبع فإنّه أخبره بأنّ مسلماً في بيت هاني بن عروةولم يغيّر مكانه(1) .

ومع معرفة ابن زياد بمكان مسلم بن عقيل، وعلمه بالذين يختلفون إليه ويجتمعون به، قام بعملية مزدوجة، فمن جهة دعا هاني بن عروة إليه، ولكن من دون أن يبيّن قصـده من ذلك، ولم يخبر أحـداً بأنّه عرف مكان مسـلم بن عقيل، ومن جهـة ثانيـة جعل المراصد علي بيوت أولئك الذين يجتمعون معه، ليتمّ سجنهم في وقت واحد، بعد معالجته لقضيّة هاني.

أما كيف أتي بهاني بن عروة، فإنّه طلب محمّد بن الأشعث

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 237؛ التاريخ، للطبري، ج 5، ص 348.

وأسماء بن خارجة وقال لهما: ما لي أري أنّ هاني بن عروة لم يأتني فيمن أتي؟

فقالا : أيّها الأمير؛ إنّه عليل منذ أيّام.

فقال ابن زياد : كيف، وقد بلغني أنّه يجلس علي باب داره عامّة نهاره، فما يمنعه من إتياننا، وما يجب عليه من حقّ التسليم؟ فاذهبا إليه وقولا له أن لايدع ما عليه في ذلك من الحقّ، فإنّه لا أحبّ أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب.

فأتوه وأخبروه بأنّ ابن زياد قد ذكره، فقال لهما: إنّ الشكوة تمنعني.

فقالا له: يبلغه أنّك تجلس كلّ عشيّة علي باب دارك وقد استبطأك ، والجفاء لا يحتمله السلطان.

ثمّ أقسما عليه أن يركب معهما إليه، فدعا هاني بثيابه فلبسها ، ثمّ دعا ببغلة له فركبها، وكان يومئذ ابن بضع وتسعين سنة، وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً ويقف، حتّي ركب بغلته وذهب معهما إلي القصر، ولمّا صارا إلي الباب كأنّ نفسه أحسّت بالشرّ، فالتفت إلي حسّان بن أسماء بن خارجة وقال له: يابن أخي، إنّ نفسي تحدّثني بالشرّ.

فقال له حسّان : سبحان اللّه يا عمّ، لا أتخوّف عليك، فلا تحدّثك نفسك بشيء من هذا، وأنت بريء الساحة (1).

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص238، والإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص 15، والأمالي، للشجري، ج 1، ص 191؛ والتفوح، لابن اعثم، ج5، ص 80.

وما إن دخل علي ابن زياد، حتي أنشأ ابن زياد يقول متمثّلا : أريد حياته ويريد موتي * عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني : وما ذاك أيّها الأمير؟

قال ابن زياد: وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل، وإدخالك إيّاه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟

فقال هاني : ما فعلت، وما أعرف من هذا شيئاً .

فدعا ابن زياد غلاماً له وقال : يا غلام ادع لي معقلاً، فدخل عليه معقل، فقال ابن زياد لهاني بن عروة : أتعرف هذا؟

فلمّا رآه هاني، علم أنّه كان عيناً عليهم ويتجسّس لابن زياد .

فقال هاني: «أصدقك واللّه، إنّي ما دعوت مسلم بن عقيل، ولا علمت بشيء من أمره حتّي رأيته جالسا علي باب داري، فسألني النزول عليّ، فاستحييت من ربّه ودخلني من ذلك ذمام، فأدخلته داري وآويته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت آمره أن يخرج من داري إلي حيث شاء من الأرض، فأخرج من ذمامه وجواره».

فخاف ابن زياد إن ترك هاني بن عروة إن ينفلت مسلم بن عقيل من قبضته .

فقال له : لا واللّه، لا تفارقني أبدا حتّي تأتيني به .

فقال هاني: لا واللّه، لا أجيئك به أبداً، أأنا آتيك بضيفي لكي تقتله؟

فقال ابن زياد: واللّه لتأتينّي به .

فقال هاني : واللّه لا آتيك به .

وكان في المجلس كلّ من مسلم بن عمرو الباهلي، وشريح القاضي. فقال مسلم بن عمرو لعبيد اللّه : خلّني وإيّاه حتّي أكلّمه، ثمّ التفت إلي هاني وقال : قم إلي ههنا حتّي أكلّمك. فتخلّي به في ناحية من المنزل، وكانا قريبين منه بحيث يراهما ابن زياد، فإذا رفعا أصواتهما سمع ما يقولان، وإذا خفضا خفي عليه ما يقولان.

فقال الباهلي: يا هاني؛ إنّي أنشدك اللّه أن تقتل نفسك، وتدخل البلاء علي قومك وعشيرتك، وأنت تعلم أنّ مسلم بن عقيل ابن عمّ القوم، وهم ليسوا بقاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إلي ابن زياد، فإنّه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة، إنّما تدفع طلبة السلطان إلي السلطان.

فقال هاني بن عروة : «بلي؛ واللّه إنّ عليّ في ذلك الخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي، وأنا حيّ صحيح أسمع وأري، شديد الساعد، كثير الأعوان. واللّه لو لم أكن إلّا واحداً وليس لي ناصر، لم أدفعه حتّي أموت دونه».

فأخذ الباهلي يناشده وهو يقول: لا واللّه لا أدفعه إليه.

فسمع ابن زياد كلامه، فقال : أدنوه منّي، فأدنوه منه .

فقال : واللّه لتأتيني به، أو لأضربنّ عنقك.

قال هاني بن عروة : إذن تكثر البارقة حول دارك، (ويقصد أنّ

قبيلته مذحج ستتحرّك بسيوفها التي تبرق لتنتقم له).

فقال ابن زياد: والهفي عليك، أبالبارقة تخوّفني؟

ثمّ أمر جلاوزته بأن يكتّفوه ويشدوا يديه، فكتّفوه، ثمّ قرّبوه

إليه، فأخذ يضـرب وجهه بالقضـيب. فلم يزل يضـرب أنفه وجبينه وخدّه حتّي كسر أنفه، وسالت الدماء علي ثيابه، وانتثر لحم خدّيه وجبينه علي لحيته، إلي أن انكسر ذلك القضيب.

ورغم كبر سـنّه فإنّ هاني فكّ يده وقفز إلي شـرطي كان يقف هناك وبيده قائم سيفه، وحاول أن يأخذ السيف منه، لكن شرطة ابن زياد انهالوا عليه وأمسكوا به.

فقال ابن زياد لشرطته: خذوه ، فألقوه في بيت من بيوت الدار، وأغلقوا عليه الباب ، واجعلوا عليه حرساً.

ولمّا أخرجوا هانياً من غرفة ابن زياد قام أسـماء بن خارجة ، وهو الذي جاء به مع محمّد بن الأشـعث إلي ابن زياد، فقال لابن زياد: أرسـل غـدر كنّا نحن؟ أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتّي إذا جئناك به، وأدخلناه عليك هشّـمت وجهه، وسـيّلت دمه علي لحيته ، وزعمت أنّك تقتله، لأنّه رفض أن يسلّمك ضيفه؟

فقال له عبيد اللّه : وإنّك لهاهنا؟

فأمر به، فضربوه، ثمّ حبسه في ناحية من القصر، وهو يقول : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، إلي نفسي أنعاك يا هاني (1).

أمّا محمّد بن اشعث فقد انحاز إلي ذاته الخبيثة وقال : قد رضينا بما رأي الأمير، لنا كان أم علينا، إنّما الأمير مؤدّب(2) .

وانتشر خبر اعتقال هاني بن عروة، وسرت إشاعة بأنّ عبيد اللّه بن زياد قد قتله. فقام رجال من قبيلة مذحج، فحملوا

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 84؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 367.
2- (2) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 49.

سيوفهم، وأحاطوا بقصر الإمارة. فأمر عبيد اللّه شريح القاضي، وكان وجيها عند أهل الكوفة، أن يذهب ويري هاني بن عروة بنفسه ، ثمّ يخبر القوم بحياته، فدخل شريح عليه ، فقال له هاني: يا شريح، قد تري ما يصنع بي؟

فقال شريح: أراك حيا.

فقال هاني : أوحيّ أنا، مع ما تري؟

ثمّ طلب من شريح أن يخبر مذحج بأن لا ينصرفوا من حول القصر، لأنّهم إن انصرفوا فسوف يقتله ابن زياد.

لكن شريح خرج إلي عبيد اللّه وقال له: قد رأيت هاني حيّاً،

ولكنّي رأيت أثرا سيّئاً عليه .

فقال عبيد اللّه : أو تنكر أن يعاقب الوالي رعيّته؟ أخرج إلي هؤلاء القوم، فأخبرهم بأنّ صاحبهم حيّ ولا تخبرهم بغير ذلك.

وأطاع شريح أمر عبيد اللّه ، وخرج إلي مذحج وقال لهم : إنّ الأمير لمّا بلغه مكانكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدخول إليه ، فأتيته، فنظرت إليه . فأمرني هاني أن ألقاكم وأن أعلمكم أنّه حيّ، وأنّ الذي بلغكم من قتله كان باطلاً.

فقال له عمر وابن الحجّاج وأصحابه : أمّا إذا لم يقتل هاني فالحمد للّه، ثمّ انصرفوا(1).

وبعد وقوع هذه الحوادث و رجوع مذحج إلي بيوتهم نادي عبيد اللّه بن زياد الصلاة جامعة، وخرج ومعه الشرطة والحشم

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 361 و 368؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2،50.

ورجال من حرسه، فصـعد المنبر وقال: «أمّا بعد يا أهل الكوفة ، فاعتصموا بطاعة اللّه، وطاعة رسول اللّه، وطاعة أئمّتكم، ولا تختلفوا وتفرّقوا فتهلكوا، وتندموا، وتذلّوا، وتحرموا، ولا يجعلنّ أحد علي نفسه سبيلا، وقد أعذر من أنذر».

ولم يكمّل خطبته حتّي سمع هرجاً ومرجاً وصيحة، فقال : ماهذا؟

فقيل له : أيّها الأمير؛ الحذر الحذر، فهذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جمع ممّن بايعه. فنزل عبيد اللّه عن المنبر مسرعا وهرب من المسجد، ودخل قصر الإمارة، الواقع إلي جنب المسجد، وأغلق الأبواب (1).

*

مرّة أخري التقي عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسـلم في فناء الكعبة، وكان ذلك في أواخر شهر ذي القعدة ، فسأل عبد الرحمن صاحبه عن آخر الأخبار؟

قال عبد اللّه : إنّ الوضع في الكوفة بين بين.

قال عبد الرحمن : وماذا تقصد بقولك بين بين؟

قال عبـد اللّه : قـد تنقلب الكوفـة لمصـلحة ابن زياد في ساعـة أو أخري، وقد تتطوّر الأمور لمصـلحة أهل البيت، فلا زال عبيد اللّه بن زياد يمسك بالسلطة، ومعه من كلّ قبيلة مجموعة من الرجال، يمدّهم بالأموال والعتاد لساعة المواجهة، ولا زال الذين بايعوا

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصـفهاني، ص 66؛ والفتوح، لابـن اعثم، ج 5، ص 86؛ ومقتل الحسـين، للخوارزمي، ج 1، ص 206.

مسلم بن عقيل لم يظهروا ما يخالف بيعتهم، إلّا أنّ حبس هاني بن عروة لدي عبيد اللّه بن زياد، وعدم تحرّك مذحج لإنقاذ شيخهم لا يبشّر بخير. فإذا كانت قبيلة كبيرة كقبيلة مذحج ذات رجال مقاتلين لا تتحرّك لإنقاذ شيخها، وتتراجع أمام حيل ابن زياد وخدعه وأكاذيبه ، فهذا يعني أنّ الآخرين أيضا يمكن أن يفعلوا مثلهم.

قال عبد الرحمن: أتري أنّ من الممكن أن يتخلّف من بايعوا مسلم بن عقيل عن نصرته؟

قال عبد اللّه بن مسلم : نعم؛ هذا ممكن، لأنّ ابن زياد يتصرف بطريقة معاوية، يستخدم المال والسيف، ولا زالت عنده الشرطة والرجال، وقد وصلتنا أنباء بأنّه قد أودع سجونه أربعة آلاف ممّن يتوقع أن يساعدوا مسلم بن عقيل، ويعينوه في أمره.

قال عبد الرحمن : وماذا عن مسلم بن عقيل؟ لماذا لا يأخذ زمام المبادرة ويتحرك؟

قال عبد اللّه بن مسلم : أتقصد لماذا لا يجرّد السيف ويقاتل؟

قال عبد الرحمن: نعم.

قال عبد الله : إنّك لا تعرف أهل البيت، فهم علي شجاعتهم التي لا مثيل لها، إلّا أنّهم لا يبدأون أحداً، حتي من الكافرين، بقتال، فكيف بأن يبدأوا من يتظاهر بالإسلام بذلك، إلّا أنّني أري أنّ حبس هاني بن عروة هو حجّة شرعيّة لقيام المسلمين من أجل إنقاذه، تماماً كما أنّ إبراهيم الخليل قاتل لإنقاذ لوط النبيّ، ولكن لننتظر ونري.

*

بعد اعتقال هاني وما شاعت من الأخبار حوله، أمر مسلم بن عقيل أن ينادي في أصحابه، فاجتمع إليه أربعة آلاف رجل، وملأوا الدور التي حول بيته، فعبّأهم ثمّ زحف نحو القصر، وكان هدفه إنقاذ هاني بن عروة، فأغلق عبيد اللّه بن زياد أبوابه ، ولم يكن معه في القصر إلّا ثلاثون من الشرطة وعشرون من أهل الكوفة، فخامره اليأس، وظنّ أنّه هالك قبل أن يدركه الغوث من الشام، ولكنّه تحايل بما وسع المستميت من حيلة، فأرسل جماعته إلي كلّ صوب من المدينة يعدون الناس بالأموال والمناصب، ويتوعّدونهم بالخيل والرجال القادمين من الشام.

فوجّه محمّد بن الأشعث بن القيس، وكثير بن شهاب الحارثي، وعدّة من الوجوه ليخذلوا الناس عن مسلم بن عقيل، ويتوعّدونهم بقرب وصول خيولأهل الشام، ويمنع الأعطيات ، وأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب(1) .

وأمر من كان معه لكي يطلّوا من سور القصر، ويرموا القوم بالنبل والنشاب، ويمنعونهم من الدنوّ إلي باب القصر، فلم يزالوا بذلك حتّي حلّ المساء، فقال لمن كان عنده من الرجال : ليشرف كلّ رجل منكم في ناحية من السور، وليخوّف القوم.

فأشرف القعقاع بن شور، وشبث بن ربعي، وحجّار بن أبجر، وشمر بن ذي الجوشن، فأخذوا ينادون: «يا أهل الكوفة، اتقوا اللّه ، ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقّوا عصي هذه الأمّة، ولا توردوا علي أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموهم وجرّبتم شوكتهم» .

1- (1) مروج الذهب، ج 3، ص 67؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج 2، ص 81.

وقالوا أيضا : «أيّها الناس؛ إلحقوا بأهاليكم ولا تعجّلوا الشرّ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت من الشام، وقد أعطي اللّه للأمير عهداً لئن أنتم أقمتم علي حربه، ولم تنصرفوا من عشيّتكم، أن يحرم ذرّيّتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام، وأن يأخذ البريء منكم بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّي لا يبقي له فيكم بقيّة من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جرّت أيديها»(1).

فلمّا سمع أصحاب مسلم مقالتهم فتروا بعض الفتور(2) .

وكان الرجل من أهل الكوفة يأتي ابنه وأخاه وابن عمّه، فيقول: انصرف يا هذا، فإنّ الناس يكفونك.

وتجيء المرأة إلي ابنها وزوجها وأخيها، فتتعلّق به حتّي يرجع .

فلمّا غربت شمس ذلك اليوم نظر مسلم حوله، فإذا هو في خمسمائة، أمّا بقيّة الأربعة آلاف فقد تفرّقوا عنه تحت جنح الظلام. ثمّ صلّي المغرب فلم يكن ورائه في الصّلاة غير ثلاثين، أمّا البقيّة فقد تسلّلوا من حوله، فلمّا رأي ذلك ترك المسجد منصرف ماشياً، ومشوا معه، فأخذ نحو باب كندة، فلمّا مضي قليلا التفت، فلم يري منهم أحداً، ولم يجد شخصا واحداً يدلّه علي الطريق (3).

فوقف يلتفت يميناً ويسارا، وقد تخلّف عنه الناس، فقال :

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 232.

2- (2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 239.

3- (3) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج 13، ص 272.

يا سبحان اللّه ؛ غرّنا هؤلاء بكتبهم، ثمّ أسلمونا إلي أعدائنا هكذا(1).

كان ذلك في يوم الاثنين، اليوم السابع من ذي الحجّة، سنة ستّين للهجرة النبويّة الشريفة، وكان قبل يوم واحد من خروج الحسين من مكّة المكرّمة باتجاه الكوفة ؛ أي بعد ستّة وعشرين يوماً من كتابة مسلم للرسالة التي قال فيها للحسين : «أمّا بعد، فإنّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإنّ الناس كلّهم معك، ليس لهم في آل أبي سفيان رأي ولا هوي(2).

*

لمّا تفرّق الناس عن قصر عبيد اللّه بن زياد وخرج مسلم من المسجد وحيداً، تسمّع أصحاب عبيد اللّه ما يجري هناك، فوجدوا أنّ الجلبة قد سكنت، فأشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع، فلم يروا أحداً ولم يسمعوا صوتاً. وفي البداية ظنّوا أنّها مكيدة حرب، وأنّ القوم متخفّون وراء الجدران والأعمدة، فأدلوا بالقناديل والمشاعل حتّي اطمأنوا إلي خلوّ المسجد من مسلم وأتباعه، فبادر ابن زياد إلي الدّعاء إلي الصلاة جامعة، وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : ألا برئت الذّمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب، ورؤوس العرفاء والمقاتلة صلّ العشاء إلّا في المسجد(3).

1- (1) السيرة النبوية، لابن حبان، ج 2، ص 308؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 67.

2- (2) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 272.

3- (3) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 68؛ والكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج 3، ص 272.

وبالفعل استجاب رجال الشرطة والعرفاء وجماعة بني أميّة النداءه ، وتجمّعوا في المسجد حتّي امتلأ بهم، فأقبل ابن زياد ومعه حرّاسه، وصلّي بهم صلاة العشاء، ثمّ خطبهم بعد الفراغ قائلا : برئت ذمّة اللّه من رجل وجدنا ابن عقيل في داره.

ثمّ صاح في رئيس شرطته، وهو الحصين بن نمير، قائلاً: «يا حصين، ثكلتك أمّك، إن ضاع باب سكّة من سكك الكوفة، وخرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلّطتك علي دور أهل الكوفة، فابعث مراصدك علي أفواه السكك، وأصبح غدا فاستبريء الدور، وجسّ خلالها حتّي تأتيني به»(1).

ومع هذا الوعد والوعيد، وإصدار الأوامر بوضع العيون علي الأزقّة،وتفتيش البيوت، وانتشار الشائعات بقرب وصول جيش الشام، التزم الناس دورهم، وأصبحت الشوارع خالية تماما من المارّة.

أما مسلم بن عقيل فأخذ يمشي في ظلمة تلك الليلة هائماً علي وجهه، لا يدري إلي أين يذهب، ولم يكن يعرف سكك المدينة، ولا مكان بيت أحد من الرجال المخلصين لأهل البيت، لأنّ الكوفة كانت كبيرة، وقد دخلها متخفّيا منتقلا من بيت إلي بيت . فمضي علي وجهه يتلدّد في الأزقّة، وقيل كان مثخناً بالجراحات، حيث حدثت له مواجهة قصيرة مع أتباع عبيد اللّه بن زياد وشرطته، إلّا أنّ ذلك لم يثبت، ولكنّه حتما كان مثقلا بخيبة أمل، فبالأمس كان أميراً في هذه المدينة، واليوم غريب لا يدري إلي أين يذهب؟

1- (1) أبو الشهداء الحسين بن علي، لعباس محمود العقاد، ص 181.

فخرج إلي دور بني جبلـة من كندة، فمشـي حتّي انتهي إلي باب بيت، فوقف هناك ليستريح، وليفكّر في ما يجب عليه أن يفعل، وكان جائعاً، وعطشاناً، وتعباناً .

كانت صاحبة البيت امرأة تسـمّي «طوعة»، وهي أمّ ولد كانت للأشـعث بن قيس، فأعتقها، فتزوّجها أسـيد الحضـرمي، فولدت له ولداً سمّته بلالا، وكان بلال هذا شاباً فاسقاً، يشرب الخمر مع أصحابه(1).

ولأـنّ بلاـل كان في ذلك الوقت خارج البيت، فقـد خرجت أمّه تسـتطلع خبره، فسـلّم عليها ابن عقيل، فردّت عليه، فقال لها : يا أمـة اللّه ، إسقيني ماء.

فـدخلت البيت، وأخرجت له ظرف الماء وسـقته، ثمّ دخلت البيت لتضع الإناء، فجلس مسـلم عند الباب. ولمّا خرجت مرّة أخري، رأته لا يزال علي باب دارها، فقالت : يا عبد اللّه ؛ ألم تشرب الماء؟

فقال مسلم : بلي.

قالت طوعة : فاذهب إلي أهلك .

فسـكت مسلم : ثمّ عادت فقالت مثل ذلك، فسكت، ثمّ قالت له : سبحان اللّه ؛ يا عبد اللّه، قم واذهب إلي أهلك عافاك اللّه، فإنّه لا يصلح لك الجلوس علي باب داري، ولا أحلّه لك.

فقام مسلم من مكانه، وقال: يا أمة اللّه، ما لي في هذا

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 371.

المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك أن تستضيفني إلي أجل معروف، ولعلّي مكافئك به بعد اليوم؟

فقالت : يا عبد اللّه ، وما ذاك؟

قال: أنا مسلم بن عقيل، كذّبني هؤلاء القوم وغروني.

فأصيبت بالدهشة، فقالت: باللّه عليك أنت مسلم بن عقيل؟

قال : نعم.

قالت : أدخل علي الرحب والسّعة.

فأدخلته في غرفة في دارها، غير التي كانت تسكن فيها، وفرشت له وعرضت عليه العشاء، فلم يتعشّ. ولم تمرّ إلّا ساعة حتّي جاء ابنها بلال، فرآها تكثر الدخول في الغرفة التي فيها مسلم وتخرج منه، فقال لها : واللّه إنّه ليريبني كثرة دخول هذا البيت منذ الليلة، إنّ لك لشأناً؟

فقالت له طوعة : يا بنيّ، أعزب عن هذا ، فما عليك .

قال لها : والله لتخبريني.

قالت : إقبال علي شأنك، ولا تسألني عن شيء.

فألحّ عليها، فأخذت منه المواثيق وقالت: لا تحدثنّ أحداً من الناس ما أخبرك به.

فحلف لها أن لا يخبر أحداً. فأخبرته بأنّ مسلم بن عقيل نازل في تلك الغرفة (1).

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 67 و68؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 372.

وكان عبيد اللّه بن زياد قد أعلن عن جائزة كبري لمن يأتي له بخبر مسلم، وكان بلال يبحث عن المال لكي يشرب المزيد من الخمر مع زملائه ورفقته، فأخذ الشيطان يوسوس له في أن يخبر السلطة بأمر مسلم ويحصل علي الجائزة، وسرعان ما نام علي هذه الفكرة، وانتظر الصبح لكي يذهب إلي قصر الإمارة (1) .

أمّا مسلم بن عقيل فقد بات ليلته في تلك الدار وهو بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، يناجي ربّه ويتضرّع إليه حيناً ويتلو القرآن حيناً آخر، ولم يكن يفكّر في نفسه في تلك الحال، بل كان يفكّر في الحسين والرسالة التي كتبها إليه، وانقلاب الوضع في الكوفة، وتفرّق الكثير ممّن بايعوه، وخيانة بعضهم.

في تلك الليلة تذكّر ما آل إليه أمرعمّه علي عليه السلام مع أهل الكوفة، وما آل إليه أمر ابن عمّه الحسن عليه السلام ، سبط النبيّ الأكبر هناك، وكان جلّ تفكيره في الحسين، وكيف يمكنه إيصال رسالة إليه

ليبيّن له انقلاب الأوضاع في الكوفة.

وما أن أشرقت الشمس في اليوم الثامن من ذي الحجّة، أي قبل يوم واحد من يوم عرفة، إلّا وأسرع بلال إلي عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، وأخبره أنّ مسلم بن عقيل موجود في دار أمّه.

فقام عبد الرحمن ودخل علي أبيه محمّد بن الأشعث، وكان جالساً في مجلس ابن زياد، فأسرّ إليه بالخبر، فرأي ابن زياد المسرّة في وجه محمّد، فقال : ما الذي أخبرك به ابنك؟

1- (1) تجارب الأمم، لأبي علي مسكويه، ج 2، ص 50.

قال ابن الأشعث: أخبرني أنّ مسلم بن عقيل موجود في دورنا.

فلم يتأخّر ابن زياد في اتخاذ القرار، فقال له: انطلق الآن فأتني به الساعة .

ثمّ أرسل إلي عمرو بن هريس الذي كان ينوب عنه في إقامة الصلاة في المسجد، أرسل إليه يقول: ابعث مع ابن الأشعث ستّين أو سبعين رجلا، كلّهم من قبيلة قيس، حتّي لا يكون أحد منهم من قريش، خوفاً من العصبيّة أن تقع(1).

وكان أمره واضحاً، وهو أن يأتي ابن الأشعث بمسلم بن عقيل، قتيلاً أو أسيراً(2).

وهكذا فإنّ جيشاً من المسلّحين ركبوا خيولهم باتجاه بيت طوعة، وكان مسلم بن عقيل مستيقظاً في تلك الساعة، فلمّا سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنّهم علي وشك الهجوم عليه، فحمل سيفه ليخرج إليهم، ولكنّهم عاجلوه واقتحموا عليه الدار، فشدّ عليهم يضربهم بالسيف حتّي أخرجهم منها ، ثمّ عادوا إليه ودخلوا الدار، فشدّ عليهم كذلك، وكان في مقدّمة من هجم عليه بكير بن حمران الأحمري، حيث تبادل مع مسلم ضربتين، فضرب بكير فم مسلم، فقطع شفته العليا، وأشرع السيف في شفته السفلي، ونصلت لها ثنيتاه، فضربه مسلم وهو مجروح ضربة

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 373؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 241؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 69.
2- (2) مقتل أبي مخنف، ص 33.

منكرة في رأسه، وثنّي بأخري علي حبل عاتقه كادت تطلع علي جوفه .

فلمّا رأوا شدّة بأسه وضرباته المنكرات، أشرفوا عليه من فوق ظهر البيوت، وأخذوا يرمونه بالحجارة، ويشعلون النار في حزمات القصب، ثمّ يرمونها عليه من فوق السطوح، فخرج عليهم في السكّة، فقاتلهم كأنّه أسد مغضب، وبحسب شهود عيان فقد استطاع أن يصرع منهم جماعة(1).

فنادي محمّد بن الأشعث: يا مسلم لك الأمان، لا تقتل نفسك.

لكن مسلماً استمرّ يهاجمهم ويقاتلهم، ويتعقّب فلولهم في سكك الكوفة، وكان يرتجز ويقول:

أقسمت لا أقتل إلّا حرّا * وإن رأيت الموت شيئا نكرا

كلّ امريء يوماً ملاق شرّا * أو يخلط البارد سخناً مرّا

ردّ شعاع الشمس فاستقرّا * أخاف أن أخدع أو أغرّا

فقال محمّد بن الأشعث: إنّك لا تكذب، ولا تغرّ، إنّ القوم ليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، فلا تقتل نفسك.

فلم يلتفت إلي كلامه، وجعل يقاتلهم حتّي أثخن بالجراح، وضعف عن القتال، وجعلوا يرمونه بالنبل والحجارة. فقال لهم : «ويلكم، ما لكم ترمونني بالحجارة كما ترمي الكفّار، وأنا من أهل بيت الأنبياء الأبرار. ويلكم، أما ترعون حقّ رسول اللّه وذريّته»؟!

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 92.

وحمل عليهم علي ضعفه، فكسرهم وفرّقهم في الدروب، ثمّ رجع وأسند ظهره إلي باب إحدي الدور، فصاح بهم محمّد بن الأشعث: ذروه حتّي أكلّمه بما يريد. ثمّ دنا منه حتّي وقف قبالته ، وقال : يابن عقيل؛ لا تقتل نفسك، أنت آمن ودمك في عنقي.

فقال له مسلم : أتظنّ بابن الأشعث أنّي أعطي بيدي، وأنا أقدر علي القتال؟ لا واللّه لا كان ذلك أبداً .

ثمّ حمل عليه حتّي ألحقه بأصحابه، ثمّ رجع إلي موضعه ، وقال : اللّهمّ إنّ العطش قد بلغ منّي(1) .

ومع ثبات مسلم، وشدّة بأسه، وقوّته التي ذكّرتهم ببأس عمّه أمير المؤمنين، هرب الكثير من الذين جاء بهم محمّد بن الأشعث، فأرسل هذا الأخير إلي ابن زياد يطلب منه المدد، فأرسل ابن زياد إليه يلومه، قائلا له: «إنّما بعثناك لرجل واحد لتأتينا به، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة، فكيف إذا أرسلناك إلي غيره . ويقصد الحسين _؟

فأجابه ابن الأشعث: أيّها الأمير؛ أتظنّ أنّك بعثتني إلي بقّال من بقاقيل الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة، أولم تعلم أنّك بعثتني إلي سيف من أسياف محمّد بن عبد اللّه ، أسد ضرغام، وسيف حسام، في كفّ بطل همام(2).

ولمّا جاء المدد إلي محمّد بن الأشعث صرخ بأصحابه قائلا :

1- (1) الفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 94.

2- (2) المناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 93؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 184.

إنّ هذا لهو العار والشنار، أتجزعون من رجل واحد هذا الجزع، إحملوا عليه بأجمعكم حملة رجل واحد»(1).

فلمّا رأي مسلم ذلك قال متعجّبا : «أكلّ ما أري من الإجلاب لقتل مسلم بن عقيل؟ يا نفس أخرجي إلي الموت الذي ليس عنه محيص».

فحمل عليهم وهو يقول:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع * فأنت لكأس الموت لا شكّ جار

فصبراً لأمر اللّه جلّ جلاله * فحكم قضاء اللّه في الخلق ذائع

ولكنّهم هربوا من بين يديه، فجاء وأسند ظهره إلي الحائط ليستريح، فأرسل عبيد اللّه بن زياد إلي محمّد بن الأشعث من يقول له: يا ويلكم، أعطوه الأمان، وإلّا أفناكم عن آخركم.

فنادوه بالأمان، لكنّه رفض أمانهم، فاحتالوا عليه وحفروا له حفرة في وسط الطريق، وأخفوا رأسها بالدغل والتراب، ثمّ هربوا من بين يديه، ولما تعقبهم، وقع في تلك الحفرة وأحاطوا به، فضربه ابن الأشعث علي محاسن وجهه ومحاجر عينيه(2) .

فأعادوا عليه مسألة الأمان وقالوا له: لك الأمان. فأخذ منهم العهد علي ذلك، وقال للذين اجتمعوا حول الحفرة : هل لي الأمان؟

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 208.
2- (2) المنتخب، للطريحي، ج 2، ص 427.

قال القوم: نعم .

فلم يقاوم، فأخذوه وجاؤوا ببغلة وحملوه عليها(1).

وبمجرّد أن أصبح في أيديهم نزعوا منه سيفه ، فقال مسلم: هذا أوّل الغدر، أين أمانكم، إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

ثمّ دمعت عيناه، فقال له أحد جلاوزة ابن زياد واسمه عبيد اللّه بن العبّاس السلمي: إنّ الذي يطلب ما تطلب، لا يبكي إذا وقع فيما وقعت فيه؟

فقال مسلم: «واللّه إنّي ما لنفسي بكيت، ولا ـ لها من القتل أرثيت، وإن كنت لم أحبّ لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين عليكم، أبكي للحسين وآل الحسين».

ثمّ أقبل علي محمّد بن الأشعث، فقال: إنّي أراك واللّه ستعجز عن أماني، (أي لن تستطيع الوفاء بأمانك)، فإنّ عبيد اللّه بن زياد غدّار، فهل عندك من خير؟

قال محمّد بن الأشعث: وما هو؟

قال مسلم: «أن تبعث من عندك رجلا يبلّغ حسينا بما جري، فإنّي لا أراه إلّا وقد خرج اليوم أو هو خارج غدا ومعه أهل بيته ، ليقول له إنّ ابن عقيل بعثني إليك وهو أسير في يد القوم، لا يري أنّه يمسي حتّي يقتل، وهو يقول: إرجع، فداك أبي وأمّي مع أهل بيتك، لا يغرّك أهل الكوفة، فإنّهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنّي

1- (1) روضة الواعظين، للفال، ص 150.

وفراقهم بالموت. إنّ أهل الكوفة قد كذبوني، فكتبت إليك، وليس المكذوب رأي»(1).

فقال له محمّد بن الأشعث: واللّه لأفعلنّ، ولأعلمنّ ابن زياد أنّي قد أمّنتك (2).

كان مسلم بن عقيل في تلك الحالة يعاني من التعب والعطش، خاصّة وأنّ دمائه كانت تسيل من جروحه المتعدّدة والتي كان أشدّها في فكّه وشفتيه، وحينما أوصلوه إلي باب قصر الإمارة وجد هنالك شخصا بيده قلّة ماء باردة، وقد وضعها علي الباب، فقال مسلم : إسقوني من هذا الماء.

فقال له أحـد جلاوزة ابن زياد واسـمه مسـلم بن عمرو، وكأنّه وكيل اللّه علي الجنّة والنّار، قال : يابن عقيل؛ أتراها ما أبردها، لا واللّه لا تذوق منها قطرة أبداً، حتّي تذوق الحميم في نار جهنّم!.

فقال له مسلم بن عقيل : ويحك، من أنت؟

قال ابن عمرو : أنا من عرف الحقّ إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته و خالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

فقال مسلم بن عقيل : لأمّك الثكل، ما أجفاك، وما أفظّك

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 240؛ ومثير الأحزان، للجواهري، ص 426 ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 401.

2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم: ص 240.

وأقسي قلبك وأغلظك؟ أنت يابن باهلة أولي بالحميم والخلود في نار جهنّم منّي(1)، إذ آثرت طاعة بني سفيان علي طاعة آل محمّد(2).

ويبدو أنّ حالة مسلم بن عقيل أثارت بقايا ضمير كانت عند واحد منهم واسمه عمرو بن حريث، فبعث غلاماً له، فجاء بالماء في «قلّة» ومعه قدح، فصبّ الغلام الماء في القدح وأعطاه لمسلم، فأخذه حتّي يشرب، فامتلا القدح دماً، فصبّه علي الأرض ولم يشرب، ثمّ ملأه مرّة أخري ليشرب، فامتلأ القدح دماً مرّة أخري، فصبّه علي الأرض. وفي المرّة الثالثة ذهب ليشرب فسقطت ثنيتاه فمه، فأبعد القدح من فيه وقال : الحمد للّه، لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته(3).

من جانبه جلس عبيد اللّه بن زياد متبختراً، متكبراً، مغروراً ، علي كرسيّ رفيع له في دار الإمارة، وقد جمع حوله قوّاد جيشه ورجال سلطته وحرسه وقد رفعوا السيوف، فأذن لإدخال مسلم عليه حتّي يبيّن عظمة نفسه أمام ابن عقيل الأسير الجريح. فلمّا دخل مسلم لم يسلّم عليه، فقال له أحد الحرّاس : سلّم علي الأمير .

فقال له مسلم: أسكت، لا أمّ لك، ما لك وللكلام؟ واللّه ليس لي أمير غير الحسين، أمّا هذا فيسلّم عليه من يخاف منه(4) .

ص: 238

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 375.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 210.
3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 367.
4- (4) المنتخب، للطريحي، ج 4، ص 127.

وأضاف : وما ينفعني السّلام عليه وهو يريد قتلي ؟

فقال له عبيد اللّه بن زياد : سلّمت أم لـم تسلّم، فإنّك مقتول .

فقال مسلم بن عقيل : إن قتلتني، فقد قتل من هو شرّ منك، من كان خيراً منّي.

فقال ابن زياد: يا شاقّ، خرجت علي إمامك، وشققت عصي المسلمين، وألقحت الفتنة؟

فقال مسـلم : «كذبت يابن زياد، واللّه ما كان معاوية خليفة بإجماع الأمّة ، بل تغلب علي وصـي النبي صلي الله عليه و آله و سلم بالحيلة، وأخـذ عنه الخلافـة بالغصب، وكـذلك ابنه يزيـد. و أمّا الفتنة فإنّك ألقحتها أنت وأبوك زياد بن علاج من بني ثقيف، وأنا أرجو أن يرزقني اللّه الشـهادة علي يدي شرّ بريته. فواللّه ما خالفت ولا كفرت ولا بدّلت، وإنّما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم، ونحن أولي بالخلافة من معاوية وابنه وال زياد» .

لقـد جاء جواب مسـلم صـريحاً قاطعاً، قويّاً، كسـر شوكة عبيد اللّه بن زياد أمام جماعته ، فتوسّل بالكذب، فقال لمسـلم: يا فاسق؛ ألـم تكن تشرب الخمر في المدينة؟

فقال مسـلم بن عقيل : «إنّ من يقتل النفس التي حرّم اللّه قتلها، ويسـفك الدم الحرام علي الغضب والعداوة وسوء الظنّ، وهو في ذلك يلهو ويلعب، كأنّه لم يسمع شيئا، أولي بشرب الخمر منّي».

فقال ابن زياد : لقد منّتك نفسك أمراً (يعني الخلافة) أحالك اللّه دونه، وجعله لأهله.

قال مسلم بن عقيل: ومن أهله يابن مرجانة؟

قال ابن زياد: أهله يزيد ومعاوية .

فقال مسلم بن عقيل : الحمد للّه، كفي باللّه حكما بيننا و بينكم.

فقال ابن زياد: أنظن أنّ لك من الأمر شيئاً ؟

فقال مسلم بن عقيل : لا واللّه ما هو الظنّ، ولكنّه اليقين .

فقال ابن زياد: قتلني اللّه إن لم أقتلك شرّ قتلة.

فقال مسلم: «إنّك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة، فاقض ما أنت قاض يا عدوّ اللّه».

وأضاف: «واللّه لو كان معي عشرة ممّن أثق بهم، وقدرت علي شربة من ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر، ولكن إن كنت عزمت علي قتلي، ولابدّ لك من ذلك، فدعني حتّي أوصي» .

فقال عبيد اللّه بن زياد: أوصي ما بدا لك.

فنظر مسلم في وجوه الناس فرأي عمر بن سعد فقال له: «إنّ بيني وبينك رحم، فليس هاهنا رجل من قريش غيرك، فادنو منّي حتّي أكلّمك».

فنظر عمر بن سعد إلي عبيد اللّه بن زياد كأنّه يستأذن منه، فقال له ابن زياد: أنظر في حاجة ابن عمّك.

فدنا منه عمر بن سعد، فقال له مسلم: «إنّ عليّ بالكوفة سبعمائة درهم ديناً، فخذ من هؤلاء سيفي وبعه واقضها عنّي، وانظر جثّتي، فاطلبها من ابن زياد فوارها التراب، وابعث إلي الحسين بن عليّ من يخبره بما صنعوا بي، فإنّ الحسين ومن معه، وهم تسعون

بين رجل وامرأة في الطريق، فارددهم، واكتب إليهم بما أصابني، حتّي لا يقدم إلي هنا، فينزل به ما نزل بي»(1).

كان الكلام بين مسلم بن عقيل وعمر بن سعد في ناحية من المجلس، لا يسمع أحد ما يدور بينهما، وقد أراد مسلم أن يكون كذلك، ولكن عمر بن سعد قام وجلس إلي عبيد الله بن زياد وقال له : أتدري ما قال؟ وكأنّه يريد أنيفشي سرّه .

فقال عبيد الله بن زياد: أكتم علي ابن عمّك .

قال عمر بن سعد: هو أعظم من ذلك.

فقال ابن زياد : فأيّ شيء هو؟

قال عمر بن سعد: أخبرني أنّ الحسين ومن معه قد أقبلوا، وهم تسعون إنسان بين رجل وامرأة.

فقال ابن زياد: قد أسأت في إفشاء ما أسرّه إليك، أما واللّه إذ أنّك دللت عليه، فلا يقاتلهم أحد غيرك(2).

وأضاف : أمّا ماله فلسنا نمنعه أن تدفع فيه ما أحبّ، وأمّا الحسين فإنّه إن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لم نكفّ عنه، وأمّا جثّته فإنّا لم نشفّعك فيها، إنّه ليس بأهل منّا لذلك، قد جاهدنا وخالفنا وجاهد علي هلاكنا!

ثمّ إنّ ابن زياد التفت مرّة أخري إلي مسلم بن عقيل وقال : إيهٍ

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 97 و 8چ؛ وجواهر المطالب، للباعوني، ج 2، ص 268.

2- (2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 241؛ والإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص 5.

يابن عقيل؛ أخبرني بماذا أتيت إلي هذا البلد، فشتّت أمرهم، وفرّقت كلمتهم، ورميت بعضهم علي بعض؟

فقال مسلم بن عقيل : «ليس لذلك أتيت هذا البلد، ولكنّكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمّرتم علي الناس من غير رضي، وحملتموهم علي غير ما أمركم اللّه به، وعملتم فيهم بأعمال كسري وقيصر، فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف، وننهاهم عن المنكر، وندعوهم إلي حكم الكتاب والسنّة، وكنّا أهل ذلك، ولم تزل الخلافة لنا منذ قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ولا تزال الخلافة لنا. فإنّا قهرنا عليها، لأنّكم أوّل من خرج علي إمام الهدي، وشقّ عصي المسلمين، وأخذ هذا الأمر غصباً، ونازع أهله بالظلم والعدوان، ولا نعلم لنا ولكم مثلا إلّا قول اللّه تبارك وتعالي :(وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلون) .

فجعل ابن زياد يشتم عليّا والحسن والحسين .

فقال له مسلم : أنت وأبوك أحقّ بالشتيمة منهم، إنّا أهل بيت موكّل بنا البلاء(1).

فنادي ابن زياد: أين هذا الذي ضربه ابن عقيل علي رأسه بالسيف؟

فجاؤوا ببكير بن حمران الأحمري، وهو الذي تبادل الضربات في بداية المواجهة مع مسلم بن عقيل وتلقّي منه ضربة علي رأسه ،

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 103؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 376 والعقد الفريد، لابن عبد ربه، ج 4، ص 379.

فلمّا أتوا به، قال له عبيد اللّه : خذ ابن عقيل واصعد به إلي أعلي القصر، واضرب عنقه بيدك ، ليكون ذلك أشفي لصدرك(1).

ولمّا صرّح ابن زياد بقتل مسلم، قام محمّد بن الأشعث الذي أعطاه الأمان، وقال : أيّها الأمير، إنّي آمنته .

فقال ابن زياد : وما أنت والأمان؟ كأنّما أرسلناك لتؤمّنه؟ إنّما أرسلناك لتأتينا به(2).

وفيما كان ابن حمران يجرّ مسلماً إلي أعلي القصر ليقتله، التفت مسلم إلي ابن زياد وقال: «أما واللّه لو كنت من قريش، أو كان بيني وبينك رحم لما قتلتني، ولكنّك ابن أبيك، فاقض ما أنت قاض

يا عدوّ اللّه»(3)

فلمّا صعدوا به قال مسلم لقاتله : دعني أصلّي ركعتين وافعل ما بدا لك. فلم يسمح له بأن يصلّي، وقال : ليس إلي ذلك سبيل (4).

وكان مسلم في تلك الحالة يكبّر، ويستغفر، ويصلّي علي النبي وآله وعلي ملائكة اللّه ورسوله، ويقول: اللّهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذبونا وأذلّونا.

وجاء القاتل به إلي موضع يشرف علي مكان الحذّائين،

1- (1) روضة الواعظين، للفال، ص 151؛ والفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 103.
2- (2) تجارب الأمم، لأبي علي مسكويه، ج 2، ص 52.
3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 213.
4- (4) معاني السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 238.

فضرب عنقه، ورمي بجسده من أعلي القصر، ثمّ أتبع رأسه بجسده ، ثمّ نزل إلي عبيد اللّه بن زياد، فسأله عبيد اللّه : هل قتلته؟

فقال الرجل : نعم.

قال عبيد اللّه : هل كان يقول شيئاً وأنتم تصعدون به؟

قال بكير : نعم؛ كان يكبّر ويسبّح ويستغفر، فلمّا أدنيته لأقتله قال : اللّهمّ أحكم بيننا وبين قوم كذبونا وغرّونا وخذلونا وقتلونا .

فقلت له: أدنو منّي، الحمد للّه الذي أقادني منك. فضربته ضربة لم تغن شيئاً، ولم يمت .

فقال : أما تري في خدش تخدشينه وفاءً من دمك أيّها العبد، أهي لا تكفي بما فعلت بي وفاءً لدمك؟

فقال ابن زياد: أو فخراً عند الموت؟

قال الرجل : ثمّ ضربته الثانية، فقتلته (1)

وكان في ذلك الوقت أناس كثيرون قد اجتمعوا خارج القصر وهم ينتظرون ما يفعل بمسلم وما يؤول إليه أمره، وكان بعضهم يقول : سوف يبقي هناك حتّي يأتيهم أمر يزيد، وآخرون يقولون : إنّه مقتول لا ـ محالة. وإذا بقاتليه يرمون بجثّته من أعلي القصر إلي الناس، وبعدها أتبعوها بالرأس الشريف (2).

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 378؛ ومروج الذهبي، للمسعودي، ج 3، ص 69 ؛ و مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص 71.

2- (2) مع الحسين في نهضته، ، الأسد حيدر، ص 224.

وكان اليوم الذي قتل فيه هو يوم الأربعاء من أيّام الأسبوع، التاسع من شهر ذي الحجّة، أي يوم عرفة عام 60 للهجرة النبويّة الشريفة(1).

***

1- (1) البحار، للمجلسي، ج 44، ص 363؛ والعوالم، ج 17، ص 213.

إلي جنّة اللّه هاني بن عروة

بعد أن قضي عبيد اللّه بن زياد علي مسلم بن عقيل، قام محمّد بن الأشعث إليه وكلّمه في هاني بن عروة، وقال فيما قال :

«إنّك قد عرفت منزلة هاني بن عروة في هذا المصـر، وبيته في العشـيرة، وقد علم قومه أنّي وصاحبي أسماء بن خارجة سقناه إليك ، فأنشدك اللّه أيّها الأمير لمّا وهبته لي، فإنّي أكره عداوة قومه، فهم أعزّ أهل المصر، وعدد أهل اليمن»(1).

فسكت عبيد اللّه بن زياد هنيئة كأنّه قد قبل ذلك، إلّا أنّه عاد وزبر ابن الأشعث وأمر بقتل هاني في السوق، وقال: أخرجوه إلي السوق فاضربوا عنقه.

فأخرجوه إلي سوق كان يباع فيها الغنم وهو مكتوف اليدين، فجعل يقول: وآمذحجاه، ولا مذحج لي اليوم.. وآمذحجاه، وأين منّي مذحج؟

فلمّا رأي أنّ أحداً لا ينصره جذب يده فنزعها من الكتّاف، ثمّ

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 378.

أخذ يبحث عن شيء ما يدافع به عن نفسه، قائلاً : أما من عصي، أو سكّين، أو حجر، أو عظم يدافع به رجل عن نفسه؟

فوثب عليه الشرطة، فشدّوه وثاقاً، ثمّ جاءه القاتل وهو عبد تركي، كان مولي لعبيد اللّه بن زياد يقال له ژشيد، وقال له : أمدد عنقك.

فقال هاني : ما أنا سخي به، وما أنا بمعينك علي نفسي.

فضربه رشيد، فلم ينفع سيفه شيئا .

فقال هاني: «إلي اللّه المعاد، اللّهمّ إلي رحمتك ورضوانك، اللّهمّ اجعل هذااليوم كفّارة لذنوبي، فإنّي إنّما غضبت لابن بنت نبيّك محمّد(1).

ثم انهال عليه السيّاف وضربه حتي قتله (2).

*

ثمّ إنّ ابن زياد أمر أن يؤتي برأسي مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وأعطاهما لاثنين من جلاوزته، وهما هاني بن أبي حيّة، والزبير بن أروح، ليحملانهما إلي الشام وكتب رسالة إلي يزيد يقول له فيهما:

«أمّا بعد، فالحمد للّه الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه ، وكفاه مؤونة عدوّه، أخبر أمير المؤمنين، أكرمه اللّه ، أنّ مسلم بن

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 214؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 379؛ والفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 105.
2- (2) العبرات، للمحمود، ج 1، ص 338؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 58.

عقيل لجأ إلي دار هاني بن عروة المرادي، وإنّي جعلت عليهم العيون، ودسست إليهم الرجال، وكدتهما حتّي استخرجتهما ، وأمكن اللّه منهما فقدّمتهما، فضربت أعناقهما وقد بعثت إليك برؤوسهما مع هاني بن حيّة الهمداني والزبير بن أروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة، فليسألهما أمير المؤمنين عمّا أحبّ من أمر، فإنّ عندهما علماً وصدقا وفهما وورعا، والسّلام»(1).

وكان رأس مسلم أوّل رأس حمل من رؤوس بني هاشم إلي دمشق (2).

ولمّا وصل الرأسان والكتاب إلي يزيد، قرأ الكتاب مستبشراً، وأمر بالرأسين، فنصبا علي باب مدينة دمشق(3) .

أما جثّتا مسلم وهاني فقد تمّ سحبهما في الأسواق من أرجلهما طوال ذلك النهار، إلي أن أمر عبيد اللّه بن زياد فصلبتا منكّستين بسوق الكوفة في منطقة الكنّاسة، وكانت جثّة مسلم أوّل جثّة صلبت من بني هاشم(4) .

وبقيت الجثّتان مصلوبتين في السوق إلي أن قامت زوجة ميثم

ص: 248

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 308.
2- (2) مروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 470 وأعلام الوري، للطبرسي، ص 229.
3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 215؛ مثير الأحزان، للجواهري، ص 28؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 108.
4- (4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 139؛ والبداية والنهاية، لابن كثير،ج8، ص 157؛ والإصابة، لابن حجر، ج 1، ص 332؛ ومروج الذهب، للمسعودي، ج 3، ص 70.

التّمار، في منتصف ليلة من الليالي بإنزالهما من هناك، ودفنتهما بدمائهما في جنب المسجد الأعظم، حيث مقامهما الآن، ولم يعلم بذلك إلّا زوجة هاني بن عروة(1).

وقيل أنّ قبيلة مذحج هم الذين ركبوا خيولهم وجاؤوا إلي مكان صلبهما وأنزلوا الجثّتين ودفنوهما(2).

ولم يكتف عبيد اللّه بن زياد بقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وإنّما عمد بعد ذلك إلي كلّ الرجال الذين ساندوا مسلماً ونصروه، فأمر بسجنهم، وقتل منهم أناساً كثيرين(3) .

فقد كان يجلس كلّ يوم في مجلس عام ويأمر أن يؤتي بكل رجل متّهم بأنّه حاول أن ينصر مسلم بن عقيل فيطلب منه أمرين : الأوّل - أن يحلف بالأيمان المغلّظة بأنّه لم يفعل، والثاني - أن ينخرط مع جيشه الذين كان يعبأهم لمواجهة الحسين، ومن يأبي ذلك كان يضرب عنقه .

وممّن جيء به إليه رجل اسمه عبد الأعلي الكلبي، وشخص آخر اسمه عمارة الأزدي، وكان قد أخذهما صاحب شرطته كثير بن شهاب، فحقّق معهما عبيد اللّه بن زياد، ومن جملة ما سألهما: ما الذي أخرجكما؟

فقالا : خرجنا لننظر ما يسمع الناس، فأخذنا صاحبك كثير بن شهاب.

1- (1) معالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 245.
2- (2) المقتل، لأبي مخنف، ص 38.
3- (3) البداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 157.

فطلب منهما ابن زياد أن يحلفا علي ذلك بالأيمان المغلّظة ، فلم يحلفا، فأمر بعبد الأعلي الكلبي أن يذهبوا إلي جبّانة السبيع ويضربوا عنقه، فانطلقوا به إليها وقتلوه، ثمّ أمر بعمارة الأزدي أن يذهبوا به إلي قومه، يضربوا عنقه فيهم(1) .

*

ولقد رثي الفرزدق كلّا من مسلم بن عقيل وهاني بن عروة في أبيات من الشعر، فقال:

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظري * إلي هانيء في السوق وابن عقيل

إلي بطل قد هشّم السيف وجهه * وآخر يهوي من طمار قتيل

أصابهما ريب الزمان فأصبحا * أحاديث من يمشي بكلّ قبيل

تري جسداً قد غيّر الموت لونه * ونضح دم قد سال أيّ مسيل

فتي كان أحيا من فتاة حييّة * وأقطع من ذي شفرتين صقيل

تطوف حواليه مراد وكلّهم * علي رفقة من سائل ومسول

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص181؛ ولواعج الأشجان، للسيد الأمين، ص 68.

أيركب أسماء الهماليج آملاً * وقد طالبته مذحج بذحول

فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم * فكونوا بغايا أرضيت بقليل(1)

***

ص: 251

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص 72.

تتابع فصول المواجهه

مع مصرع مسلم بن عقيل بدأ فصل جديد من فصول نهضة الحسين، وانفتحت الأبواب علي جميع الاحتمالات.

فمع أنّ عبيد اللّه بن زياد استطاع في الظاهر أن يقضي في الكوفة علي حركة المؤمنين بقيادة مسلم، إلّا أنّه في الحقيقة لم يستطع إخماد ثورتهم، وإنّما وضع الرماد علي النار.

صحيح أنّه ارتكب جرائم، وقتل رجالاً وحبس آخرين، إلّا أنّه ما استطاع أن يخمد النيران المشتعلة في نفوس الناس، خاصّة وأنّ الطريقة التي قتل بها كلّا من مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وغيرهما من سراة القوم، واستخدامه أسلوب الخداع والمكر والاغتيال، في الوقت الذي رفض مسلم بن عقيل أن يغتال ابن زياد نفسه حينما أتيحت له الفرصة أكثر من مرّة، كلّ ذلك زاد من تنفّر المؤمنين من الحكم الأموي برمّته ، وأصبحت الأمّة منقسمة علي نفسها أكثر من أيّ يوم آخر، رغم أنّ المظاهر لم تكن تدلّ كثيراً علي ذلك، فالمؤمنون أصبحوا فعلا في جبهة، وأعدائهم في جبهة أخري.

ولم يعد الحياد ممكناً بعد ارتكاب ابن زياد جرائم قتل بحقّ المؤمنين ، وقيامه بالتنكيل بالناس، وأخذ البريء بجريرة غيره .

ص: 252

فكم من شباب أمر بإعدامهم أمام بيوت أقربائهم وعشيرتهم، حتي أصبح القتل هو المنطق الوحيد الذي كان يستخدمه مع المخالفين لسلطات بني أميّة .

*

لقد مات معاوية وهو يعلم أنّ بيعة يزيد، التي استخدم فيها السيف بإفراط، والمال بالتفريط، لا تؤمن عواقبها، خاصّة مع وجود شخص كالحسين بن علي بن أبي طالب الذي تجمّعت فيه كلّ الفضائل، وأصبح يمثّل في نظرالناس رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم بكلّ ما كان في النبيّ من الفضائل والمناقب.

وفي الطرف الآخر كان يقف يزيد بن معاوية ابن الخامسة والثلاثين عاماً، لا يملك من تجارب الزعامة شيئاً، وليس حوله من المرشدين والنصحاء إلّا مجموعة من المجرمين الذين تحرّكهم الأحقاد الأموية من أمثال عبيد اللّه بن زياد.

وهكذا وصل الصراع بين بني أميّة المنافقين وبين بني هاشم الصادقين إلي مفترق طريق، لا سبيل فيه إلي توفيق. فأصبحت الجبهتان في وضعية التصادم .

ففي جبهة الحق يقف الحسين بن علي بن أبي طالب كوارث آدم، وهابيل، ونوح، وإبراهيم، وموسي، وعيسي، ورسول اللّه ، وعليّ، ومعه أهل البيت ومجموعة من المؤمنين الصالحين الصادقين المخلصين . وفي جبهة الباطل يقف يزيد بن معاوية كوارث قابيل، ونمرود، وفرعون، وبني إسرائيل، وجدّه أبي سفيان، وأبيه معاوية صاحب الدواهي، ورجل الحيلة والمكر والخداع والاغتيال وقتل الأبرياء.

إنّ الصـراع بين الحسـين ويزيـد لـم يكن صـراعاً بين رجلين ، إلّا بمقـدار ما كان كلّ واحـد منهما يمثّل طريقة ومنهجاً وسـلوكاً متناقضاً مع الآخر، وذلك الصراع هو نفسه الذي كان علي مرّ التاريخ بين الأنبياء وبين خصومهم، وبين الشّهداء وبين الجلّادين .

فبمقـدار ما كان الحسـين غيوراً علي دين اللّه وما فيه من المثل والقيم كالعدل، والإحسان، والإيمان، ورعاية حقوق الناس ، وبمقدار ما كان فيه من صفات كنصرة الحقّ والنجدة، والتعاون، بمقدار ما كان يزيد هائماً في عشق السلطة والزعامة، بعيداً عن الأصول الأخلاقيّة، لا يحترم أبسط المثل الإنسانية، ولم تكن عنده من حرمة الدماء الناس وأموالهم وأعراضهم، مستخدماً الرياء والدهاء والعبث بمقدّرات الأمة.

وهكـذا فإنّ التقابل بين الحسـين بن عليّ، ويزيـد بن معاويـة كان تقابلاً في الأخلاق، والسـلوك، والمنهـج، والطريقة، فالمعركة بين الطرفين كانت هي معركـة الخير والشـرّ، والصـلاح والفساد، والإيمان والنفاق.. وهي ذاتها المعركة التي بدأت بين هابيل وقابيل، والتي ستسـتمر إلي نهايـة الخليقة والتي يمثّلها في كلّ زمان ومكان رجال هنا ورجال هناك : مؤمنون في مواجهة منافقين، صالحون في مواجهة فاسـقين، علماء في مواجهة جهلة، صادقون في مواجهة كذبة ، شهداء في مواجهة جلّادين.

وبمقدار ما كان الحسـين مسـتعدّا للتضـحية بنفسه، وبأقرب الناس إليه وأحبّهم إلي قلبه في سبيل الحقّ والعدل والخير والصلاح، بمقدار ما كان عدوه مستعداً للتضحية بالناس، و إراقة

دمائهم، ومصادرهم حقوقهم، وسبي نسائهم، في مصلحة سلطته ومنافعه وشهواته .

وهـذا أقـلّ ما يقال في حقّ أعـداء الحسـين، وإلّا فإنّهم في الحقيقـة كانوا مجموعـة من المجرمين الأفّاكين .. وكما يحـدث أحيانا أنّ رئيس عصابـة يصـبح رئيس دولة، فيتصـرّف مع الناس كرئيس عصابة، مع فارق واحد وهوأنّه يضـفي علي نفسه هالة من القدسـيّة باعتباره سـلطاناً وزعيماً ورئيس دولة، كذلك كان الأمر مع يزيد وخلفاء بني أميّة .

إنّ أعداء الحسين لا يمكن أن نسمّيهم زعماء ملك دنيوي بحت، حتّي ولا يمكن وصف سياستهم بأنّها لتدعيم سلطان في مواجهة أعدائهم، بل أقلّ ما يمكن تسـميتهم به أنّهم كانوا جلّادين متنمّرين، يطيعون ما في نفوسـهم من غلظـة وحقد، ولا تهـمّهم ارتكاب مذابح طائشة بحقّ أبرياء، وسـفك الدماء كتلهية ، يلتذّون بها أيما التذاذ. فبتلك الطريقة وحدها كانوا يشـعرون بسـلطانهم، وقوّة دولتهم، وعظمة شوكتهم.. فإنّ كلّ واحـد من أعوان يزيـد أولغ في دماء المسـلمين، فيقتل النفس التي حرّم اللّه قتلها علي الغضب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً»(1)، كما قال مسلم بن عقيل.

من هنا لا نجـد في التاريـخ صورة أوضـح للصـراع بين الحقّ الصـراح والباطل الواضـح، والخير المطلق والشـرّ المطلق، والإيمان الصادق والنفاق العميق مثل الصراع الذي حدث عام 61 هجريّة بين

1- (1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج 4، ص 35.

الحسـين وبين أعـدائه فلقـد برزت في مجابهة الحسـين مع أعدائه النفس الإنسانية في صورتين متناقضتين؛ صورة النفس المطمئنّة بإيمانها ، الملتزمـة بأخلاقها، الصادقـة مع اللّه في تصـرّفاتها، وبين النفس الأمّارة بالسوء، التي لا تصـدق في شـيء، لا مع اللّه ولا مع الناس ولا مع النفس، وتنزع إلي الملذّات، وتهوي الزعامات، ولا تتورّع أبدا عن ارتكاب الموبقات.

وهاتان الصورتان المتناقضـتان من النفس الإنسانية هم اللّتان تتنازعان حوادث التاريخ بين الأفراد، والأمم، والجماعات في كل عصـر وكلّ مصر.

لقد كان الحسـين يمثّل كل أصـحاب النّفوس المطمئنة في التاريخ، ابتداء من النبيّ آدم صـفي اللّه، وانتهاء إلي محمّد حبيب اللّه، كما كان يزيد يمثّل كل أعداء الأنبياء، من قابيل قاتل الإخوان، إلي المتمرّد علي الحقّ معاوية بن أبي سفيان.

ولـذلك لم يجد أحد في التاريخ ما يعيب به علي الحسـين حتّي من قبل أعدائه. كما لـم يجد أحد في التاريخ ما يمدح به يزيد حتّي من قبل أحبّـائه، وكفي ذلـك دليلاً علي التقابـل بين المنهجين والطريقتين، كمـا كـان تقابلاً بين الشخصـين، وحتي في أشـكالهم وصورهم كانوا متقابلين. فقد كان كل أعداء الحسين خلقاً مشوّهاً في الصورة، كما كانوا شرّاً مطلقاً في السيرة.

فمن يزيـد بن معاوية المحفور وجهه بحفر الجدري، إلي عبيد اللّه بن زياد المجهول النسب، الذي كان ألكن اللّسان، لا يجيد نطق العربيّة، إلي شمر بن ذي الجوشن المصاب بالبرص، وقبح المنظر.

بينما على العكس، كان الحسـين وأصـحابه كأنّهم البدور الطالعة في ليالي تمامها وكمالها، وكانت وجوههم أقرب إلي وجوه الملائكة، كما كانت مواقفهم هي نفسها مواقف الأنبياء، في مواجهة وجوه كأنّها وجوه الأبالسة، ومواقف هي مواقف الشياطين .

***

قبل أن تصل أخبار نجاح الانقلاب الـذي قاده عبيـد اللّه بن زياد ضـدّ مسـلم بن عقيل في الكوفـة ، وتثبيت السـلطة في يـد بني أميّة هناك، كشـفت الأحداث عن غليان كبير في حاضرة العالم الإسلامي؛ ففي مكّة المكرّمة كان أهل الحجاز والوافدون لأداء فريضة الحج يتجمّعون يومياً عنـد الحسـين، وما أن يخرج من داره إلّا ويلتفّ الناس حوله أينما ذهب. كما أنّ البصـرة بـدأت تغلي أيضاً ، حيث قام المؤمنون هناك بعقد اجتماعات لترتيب أمورهم، استعداداً للمشاركة في أيّ تغيير قد يحدث.

كما أنّ كبار المخالفين ليزيـد أخذوا يتنقّلون من مكان لمكان، فعبد اللّه بن الزبير اسـتقرّ في مكّة، وأخذ أنصاره يجمعون الأتباع، وكلّ هذه الأمورأصابت السـلطة بالاضـطراب، فقام يزيـد بتغيير الولاة في البلـدان، بما فيها ولاة المدينـة ومكّـة، كما أنّه بـدأ حركـة مضادّة الاسـتباق الأحداث، تماماً كما يفعل كلّ الطغاة في التاريخ، فإنّهم يبطشون جبّارين ويعاقبون علي الفعل الصـغير عقابا شديدا . وفي العادة هم الذين يتخـذون قرار المواجهـة وليس مخـالفوهم، كمـا حصـل بين قابيل وهابيل، وبين نمرود وإبراهيم، وبين فرعون وموسـي، وبين بني إسـرائيل وعيسي، وبين أبي سفيان ورسول اللّه .

فمن هو الذي اتخذ قرار المواجهة بالقتل : قابيل، أم هابيل؟

ومن هو الذي اتخذ قرار حرق الآخر بالنار: نمرود، أم إبراهيم؟

ومن هو الذي اتخذ قرار اعتقال موسي، أو قتله أو نفيه : فرعون، أم موسي؟

وكذلك فيما يرتبط ببني إسرائيل الذين حاولوا قتل عيسي ابن مريم، وقريش الذين أرادوا اغتيال رسول اللّه.

وهكذا فإنّ يزيد هو الذي قرّر مواجهة الحسين، فكتب الرسائل إلي ولاته يطالبهم بإجبار الحسين علي البيعة أو مواجهة العقاب ، كما كتب رسائل إلي بعض كبار الشخصيّات من بني هاشم يطالبهم بمنع الحسين من الاستمرار في حركته، وفي كثير منها كان هنالك تهديد واضح للحسين عليه السلام .

وممّن كتب إليهم بمجرّد نزول الحسين في مكّة هو عبد اللّه بن عبّاس، باعتباره من صحابة أمير المؤمنين ومن العائلة ذاتها، وكان يسعي في رسالته إلي تأليب بني هاشم علي الحسين، وتأليب من تبقي من الصحابة عليه.

يقول يزيد في رسالته هذه : «أمّا بعد، فإنّ ابن عمك حسيناً ، وعدوّ اللّه ابن الزبير، إلتوياً ببيعتي، ولحقا بمكّة مرصدين للفتنة ، معرّضين أنفسهما للهلكة، فأمّا ابن الزبير فإنّه سريع الفناء وقتيل السيف غدا.

«وأمّا الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم أهل البيت ممّا كان منه، وقد بلغني أنّ رجالا من شيعته من أهل العراق يكاتبونه

ويكاتبهم، ويمنّونه الخلافة، ويمنّيهم الأمر، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة، وعظيم الحرمة، ووشائج الأرحام، وقد قطع ذلك الحسين وبتره، وأنت زعيم أهل بيتك، و سيّد أهل بلادك، فألقه، فأردده عن السعي في الفرقة، وردّ هذه الأمّة عن الفتنة، فإن قبل منك وأناب إليك، فله عندي الأمان والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه علي أخيه، وإن طلب الزيادة فأضمن له ما أراك اللّه ، أنفذ ضمانك وأقوم له بذلك ، وله عليّ الأيمان المغلّظة ، والمواثيق المؤكّدة بما تطمأن به نفسه، ويعتمد في كلّ الأمور عليه، عجّل بجوابي إليك، وبكلّ جاجة لك إليّ وقبلي، والسّلام.

وذيّل رسالته بأبيات من الشعر، قائلاً :

يا أيّها الراكب الغادي مطيّته * علي عذافرة في سيرها قحم

أبلغ قريشا علي نأي المزار بها * بيني وبين الحسين: اللّه والرحم

وموقف بفناء البيت أنشده * عهد الإله وما توفي به الذمم

عنيتم قومكم فخراً بأمّكم * أمّ لعمري حصان برّة كرم

هي التي لا يداني فضلها أحد * بنت الرسول وكلّ الناس قد علموا

إنّي لأعلم أو ظنّا كعالمه * والظنّ يصدق أحيانا فينتظم

أن سوف يترككم ما تدّعون به * قتلي تهاداكم العقبان والرّخم

يا قومنا لا تشبّوا الحرب، إذ سكنت * وأمسكوا بحبال السلم، واعتصموا

قد جرّب الحرب من قد كان قبلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم

فانصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً * فربّ ذي بذخ زلّت به القدم(1)

وكما هو واضح من الرسالة فإنّ يزيد اعتبر مجرّد انتقال الحسين من المدينة إلي مكّة، وكتابة الرسائل من أهل الكوفة إليه وإجابة الحسين لهم، جريمة لابدّ من أن يتخذ بنو هاشم موقفاً مضادّاً تجاهه، وكذلك اتهم الحسين بأنّه يريد الفتنة، وهدّده بالهلاك والموت. كما اعتبر نفسه محوراً لوحدة الأمّة، ومن ثمّ فقد صنّف حركة الحسين ضمن السعي إلي الفرقة والفتنة، وفي نهاية رسالته عرض علي الحسين شراء موقفه بالمال، ظنّا منه أنّ معدن الحسين كمعدنه هو، يخضع للابتزاز والتهديد، ويمكن شراء ذمّته بالأموال والمغريات. وأخيراً أعطي لابن عبّاس الخيار في أن يزيد أو ينقص من المال للحسين، إذا رأي أنّ ذلك سوف يحمله علي طاعة يزيد.

أمّا ابن عبّاس فقد ردّ علي رسالة يزيد بالجواب التالي:

ص: 261

1- (1) مختصر ابن منظور، ج 7، ص 142؛ والبداية والنهاية، لأبن كثير، ج 8،ص 164؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 136.

«أمّا بعـد، فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسـين وابن الزبير بمكّة، فأمّا ابن الزبير فرجل منقطع عنّا برأيه وهواه، ومع ذلك يكاتمنا أضـغاناً يسرّها في صدره، يوري علينا وري الزناد، فرأيي في أمره ما أنت راء.

وأمـا الحسـين فـإنّه لمّا نزل مكّـة، وترك حرم جـدّه ومنازل آبائه سألت عن مقـدمه، فأخبرني أنّ عمّالك بالمدينـة أساؤوا إليه وعجّلوا بالكلام الفـاحش عليه، فأقبـل إلي حرم اللّه مسـتجيراً به، وسألقاه فيما أشـرت إليه، ولن أدع النصـيحة فيما يجمع اللّه به الكلمـة، ويطفيء به النائرة، ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الأمة.

وأنا أأمرك بأن تتقي اللّه في السـرّ والعلانيـة، ولا تبيتنّ ليلة وأنت تريد لمسـلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحفر له مهوات، فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه، وكم من مؤمل أملاً لم يؤت أمله، وخذ بحظك من تلاوة القرآن، وعليك بالصيام والقيام، لا تشغلك عنهما ملاهي الدّنيا وأباطيلها، فإنّ كلّ ما اشتغلت به عن اللّه يضرّ ويفني، وكلّ ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع ويبقي، والسّلام»(1).

وواضح أنّ ابن عبّاس ردّ علي يزيد موقفه فيما يرتبط بانتقال الحسين من المدينة إلي مكّة، واعتبر ذلك نتيجة موقف السلطة منه ، وعلي رأسها الوالي، وموقف مروان بن الحكم وهم الذين أساؤوا إلي الحسين بالكلام الفاحش، وهدّدوه بالقتل إن لم يبايع.

1- (1) الأمالي، للشجري، ج 1، ص 182؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 145؛ وموسوعة الإمام الحسين، ج 2، ص 22.

كما اعتبر أنّ انتقال الحسـين من مدينـة جدّه إلي حرم اللّه أمر طبيعي، وحقّ من حقوق كلّ مسـلم في الأرض، بالإضافة إلي ردّ تهديد يزيد بالقتل والهلاك، بأن نصحه بأن يتقي اللّه عزّ وجلّ ولا يتعجّل في أمره.

*

كان الحسين قد اتخذ قراره بالنهضة، بناءً علي مجموعة من المعطيات :

أوّلاً : قيام الحجّة بوجود الناصر .

ثانياً : ما أخذ اللّه علي العلماء أن لا يقارّوا علي كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم.

ثالثا : وصـيّة أمير المؤمنين له وللحسن، قبيل رحيله عن هذه الحياة، حيث قال لهما: «أوصـيكما بتقوي اللّه، وأن لا تبغيا الدّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا علي شيء منها زوي عنكما، قولا بالحق واعملا للأجر، وكونا للظالـم خصماً وللمظلوم عونا»(1).

رابعاً : تمادي بني أميّة في الظلم والعدوان والطغيان، من خلال إجبار معاوية الناس علي بيعة يزيد كخليفة للمسلمين، هذا الرجل الذي قال فيه الحسين: «وعلي الإسلام السلام إذ قد بليت الأمّة براع مثل يزيد»(2).

فمجمل هذه الأمور دفعت الحسين لاتخاذ قرار النهضة، ليس من أجل أن يصبح حاكماً هنا أو هناك، وإنّما لكي يؤدّي مسؤوليته ،

1- (1) نهج البلاغة، رسالة رقم 47.
2- (2) مثير الأحزان، لابن نما الحلي، ص 15.

وهي نفسها التي كانت تدفع الأنبياء والأولياء والصالحين لكي يقوموا بالأمر وينهضوا في أممهم .

*

انتشر خبر عزم الحسين علي التوجه نحو العراق بين الناس، و خاصّة حجّاج بيت اللّه الحرام، كانتشار النار في الهشيم، وعلي عجل قام عبد الرحمن الصالح بزيارة صاحبه عبد اللّه بن مسلم، فدخل عليه، فوجده حزيناً باكياً، فقال له: ماذا تري فيما عزم عليه الحسين؟

قال عبد اللّه : لقد دقّت ساعة الحقيقة، وأظن أنّ الأيّام حبلي بحوادث كبري في هذه الأمّة.

فقال عبد الرحمن : كلّنا نعلم مكانة الحسين، ولا أحد يخفي عليه أمر يزيد، والسلطة بأكملها في يد هذا الرجل، فكيف يخرج الحسين إلي العراق، هل لكي يحكم هناك؟

قال عبد اللّه : يبدو أنّك لا تعرف الحسين معرفة حقيقية، إنّ هؤلاء رجال لا يبحثون عن الدّنيا ومغانمها، ولو أتتهم علي أبواب بيوتهم لأكبّوها علي وجهها كما فعل أبوهم. هم أهل بيت النّبوّة ، ومعدن الرسالة،ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي.

أتري أنّ رسول اللّه حينما صدع بالأمر في مكّة كان يريد أن يكون أميراً علي أهلها؟

لقد عرضوا عليه ذلك، ولكنّه رفض .

أتري أنّه كان يبحث عن الأموال؟

وقد عرضت عليه حليّ الكعبة، ولكنّه رفض.

أم أنّه كان يريد أن يتزوج أجمل بنات قريش؟

وقد عرض عليه ذلك ولكنّه رفض أيضا.

وقال لعمّه أبي طالب جدّ الحسين : «يا عمّ، واللّه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، علي أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتّي يظهره اللّه، أو أهلك دونه»(1).

قال عبد الرحمن: لكن دين اللّه ظاهر الآن، فلماذا يخرج الحسين؟

قال عبد اللّه : يا هذا ؛ إنّ الناس افتتنوا ببني أميّة، وهم يأخذون دينهم من هؤلاء، وخاتمة الأديان علي وشك أن يتحولّ إلي مجرّد مظاهر خالية من الجواهر، والديانات التي بعث اللّه الأنبياء لكي يقوم الناس بالقسط، علي وشك أن يجعلها هؤلاء غطاء للظلم والطغيان والنفاق.

ولهذا قال علي عليه السلام : «ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أميّة»(2).

تري لو أنّ بني أمية أعلنوا إعادة الأصنام إلي الكعبة، وفرضوا علي الناس عبادتها، أليس ذلك يوجب علي كلّ مؤمن أن ينهض بالأمر، ويردّ عليهم؟

قال عبد الرحمن : قطعاً .

1- (1) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج 14، ص 54.
2- (2) نهج البلاغة، خطبة رقم 93.

قال عبد اللّه : أتري أنّ إقامة الظلم باسم هذا الدّين، واتخاذ مال اللّه دولاً، وعباده خولاً باسم شريعة سيّد المرسلين أقلّ خطورة من نصب الأصنام علي الكعبة؟

ألم يقل النبيّ للكعبة: «مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك علي اللّه . واللّه للمؤمن أعظم حرمة منك»؟(1).

أليس من الغريب أن النبيّ، وهو مرسل من قبل ربّ العالمين ، لم يكن يفرض علي أحد بيعته، وإنّما كانت البيعة اختياريّة، واليوم يفرض بنو أميّة علي الناس البيعة ليزيد بصفته خليفة رسول اللّه ، وهو لا يمتّ إلي النبيّ بصلة، لا في دينه، ولا في نسبه، ولا في أخلاقه، ولا في التزامه ، ولا في علمه؟

أتري أنّ رسول اللّه بعث لينتهي أمر الأمّة إلي مثل يزيد، فيكون حاكماً علي الناس وبيده مقدّراتهم، ومصيرهم، وأعراضهم، وأموالهم، وكلّ صغيرة وكبيرة في دينهم ودنياهم؟

قال عبد الرحمن الصالح: إذن هل الحسين يخرج علي السلطة لكي يقضي علي شخص يزيد ويجلس في مكانه؟

قال عبد اللّه بن مسلم : أولياء اللّه لا يتخذون مواقفهم بناءً علي عداوة شخصيّة مع أحد، ثمّ إنّهم يريدون الاستنهاض بالأمّة، وليس الحصول علي السلطان والتاج. فهل كان إبراهيم الخليل يريد أن يجلس مكان نمرود؟

وهل كان النبي موسي عليه السلام يريد أن يحتلّ موقع فرعون؟

1- (1) مستدرك سفينة البحار، للنمازي الشاهرودي، ج 1، ص 204.

وهل كان رسول اللّه يريد أن يحصل علي موقع أبي سفيان في مكّة؟

إنّ الأنبياء يبحثون عن شيء آخر، وهو هداية الناس ودفعهم إلي إقامة العدل ومنع الفتنة، حتّي لا تكون الأموال بيد قوم طغاة يستخدمونها لإبعاد الناس عن التزامهم بدينهم وقيمهم ومثلهم وأخلاقهم.

قال عبد الرحمن : ولكن الحسين إذا نهض وخرج إلي العراق فلربّما يقتل؟

قال عبد اللّه : إنّ الحسين لا يقوم بمغامرة سياسيّة، ولا ينهض لمساومة تجارية، وإنّما الحسين يؤمن بدينه، فإن نصره الناس وقبلوه، فقد نصروا حقّهم في أن يكونوا أحراراً في دنياهم، وإن تقاعسوا عن ذلك، واستطاعت السلطة أن تقضي علي الحسين، التزم هو بالحقّ. وسيّان عنده فوات هذا الأمر عنه بالموت أو فواته بالحياة، بل الموت بالنسبة إليه أشهي من الحياة .

قال عبد الرحمن : إذن أن تري أنّ الحسين خارج لا محالة؟

قال عبد اللّه : هكذا يبدو.

فقال عبد الرحمن : وهل أنّ أحداً نصحه بخلاف ذلك، أو منعه من التوجّه إلي العراق؟

قال عبد اللّه : كثيرون نصحوه بأن لا يخرج .

قال عبد الرحمن : فهل قبل منهم الحسين؟

قال عبد اللّه : كلا .

قال عبد الرحمن : ولماذا ؟

قال عبد الله بن مسلم : لأنّ منطق الحسين يختلف عن منطقهم، الكثيرون حينما أتوا إلي الحسين ظنّوا أنّه يبحث عن التاج والسلطان، ويريد الانتصار علي بني أميّة بأيّ ثمن، فهم يقولون له إنّك لا تنتصر، فالسلطة أقوي من أن تسقط علي يديك، مع قلّة العدد وخذلان الناصر.

وأنت تعرف أنّ الحسين حفيد رسول الله، وابن أمير المؤمنين، وهو من حيث العمر في نهايات الثامنة والخمسين، بينما يزيد بن معاوية في الخامسة والثلاثين، فالحسين عليه السلام أكثر حكمة وحنكة وعلماً ومعرفة من عدوّه، وقد عاش أحداثاً كبيرة مرّت عليه منذ ولادته إلي اليوم، فما يقوله له هؤلاء لا يغيب عنه، غير أنّ منطقه مختلف عن منطقهم. إنّ الحسين لا يخرج لكي يحكم كما يظن هؤلاء.

قال عبد الرحمن : فهل يخرج الحسين لكي يقتل؟

قال عبد الله : لا؛ فالأمر لا يدور بين أن يبحث الحسين عن السلطة أو أن يبحث عن الموت، الحسين يقوم بواجبه، وهو بين إحدي الحسنيين، إمّا النصر وإما الشهادة، تماماً كما كان يفعل جميع الأنبياء. فلو بعث نبيّ في أمّة من الأمم، فهل يريد أن يكون حاكماً عليها ، أم يريد أن يهديها؟

إنّ المشكلة التي وقعت الأمّة فيها اليوم هي أنّ هنالك جماعة يبحثون عن الحكم والسلطان ليصبحوا ملوكاً باسم هذا الدّين، وخطورة هؤلاء أنّ أعمالهم تصبح موازين دينية لدي الناس، وتصبح مواقفهم مصبوغة بصبغة الشرعية، وهذا هو معني النفاق الذي لابدّ أن نخشاه دائماً علي أنفسنا وعلي غيرنا .

ص: 268

إنّ كلّ الذين جاؤوا إلي الحسين قالوا له إنّ الوضع لا يزال مضطرباً في الكوفة، وأنّ خروجه إلي العراق قد لا ينتهي بحصوله علي السلطة، والحسين أساسا لا يبحث عن السلطة، إنّما يريد أن يؤدّي ما عليه من الواجب.

*

عندما بلغ عبد اللّه بن عبّاس خبر أنّ الحسين يريد المسير إلي العراق أقبل حتّي دخل عليه مسلّماً، فقال له: «جعلت فداك يابن بنت رسول اللّه ؛ إنّه قد شاع الخبر في الناس بأنّك سائر إلي العراق، فبيّن لي ما أنت صانع».

فقال الحسين عليه السلام: «نعم؛ إنّي أزمعت علي ذلك في أيّامي هذه إن شاء اللّه ، ولا قوة إلا باللّه» .

فقال ابن عبّاس: «أعيذك باللّه من ذلك، فإن كنت تسير إلي قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوّهم، فإنّ في مسيرك إليهم لعمري الرشاد والسداد. وإن كانوا إنّما دعوك إليهم وأميرهم قاهر لهم، وعمّالهم يجبون بلادهم، فإنّما دعوك إلي الحرب والقتال. وإنّك تعلم أنّه بلد قد قتل فيه أبوك، واغتيل فيه أخوك، وبويع يزيد بن معاوية، وعبيد اللّه بن زياد في البلد يعطي ويفرض، والناس اليوم إنّما هم عبيد الدينار والدرهم، ولا آمن عليك أن تقتل، فاتق اللّه والزم هذا الحرم»(1).

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 112.

قال عبد الرحمن الصالح: ألا تري أنّ كلام عبد اللّه بن عبّاس هو كلام ناصح؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : هو كلام ناصح بالنسـبة إلي من يريد الحصول علي الحكم والسـلطة. يقول له لا تذهب إلي الكوفة إلّا بعد أن يقوم الناس بطرد أميرهم ونفيه، والقضاء علي سـلطانه، حتّي إذا ذهبت إلي هناك أصـبحت أميراً عليهم، وإلّا فإنّك ربّما تقتل في هـذا الطريق. أمّا الحسين فلا هو يبحث عن السلطان، ولا هو خائف من الموت، كما لم يكن الأنبياء يبحثون عن السلطان، ولا كانوا يخافون من الموت.

*

في الجواب علي ابن عبّاس قال الحسين: «واللّه لئن أقتل بالعراق أحبّ إلي من أن أقتل بمكّة، ويستحلّ بي حرم اللّه وحرم رسوله. وما قضي اللّه فهو كائن، وأنا مع ذلك أستخير اللّه وأنظر ما يكون»(1).

وبعد أيّام جاءه عبد اللّه بن عبّاس مرّة أخري، فدخل إليه وقال: «يا بن بنت رسول اللّه ؛ إنّي قد رأيت رأيي إن تقبل منّي».

فقال الحسين : «وما ذاك»؟

قال ابن عبّاس: تخرج إلي بلاد اليمن، فإنّ فيها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، وإنّ لك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة ، فإذا استوطنت بها أكتب إلي الناس، وأعلمهم مكانك».

1- (1) المعجم الكبير للطبراني، ج 3، ص 128.

فقال الحسين : «يابن عمّي؛ إنّي لأعلم أنّك ناصح شفوق، ولكنّي أزمعت علي المسير إلي العراق ولابدّ من ذلك، فخلّ عنّي يابن عبّاس، فإنّي أستحي من ربّي عزّ وجلّ أن ألقاه ولم آمر في أمّتنا بمعروف، ولم أنهي عن منكر»(1).

فأطرق ابن عبّاس ساعة، ثمّ قال : «يابن بنت رسول اللّه ؛ إن كنت قد أزمعت ولابدّ لك من ذلك، فلا تسر بنسائك وأولادك، فإنّي خائف عليك أن تقتل، وهم ينظرون إليك، ولا يقدرون علي حيلة».

فقال الحسين: «إنّهنّ ودائع رسول اللّه ، ولا آمن عليهن أحداً ، وهنّ أيضاً لا يفارقنني».

ويبدو أنّ بعض نسوة الحسين سمعن كلام ابن عبّاس، حيث ارتفع أصواتهنّ بالبكاء، وسمع ابن عبّاس قائلة منهن تقول: «يا بن عبّاس؛ أتشير علي شيخنا وسيّدنا أن يخلّفنا هاهنا، ويمضي وحده؟ !

لا واللّه ، بل نحيا معه ونموت معه، وهل أبقي الزمان لنا غيره» (2)

فلمّا أبي الحسين قبول رأي ابن عبّاس قال له هذا الأخير : واللّه لو أعلم أنّي إذا تشبّثت بك، وقبضت علي مجامع ثوبك ، وأدخلت يدي في شعرك، حتّي اجتمع الناس عليّ وعليك، لو علمت أنّ ذلك كان نافعاً لي لفعلته، ولكن اعلم أنّ اللّه بالغ أمره».

1- (1) الأمالي، للشجري، ج 1، ص 186.
2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 157.

ثمّ أسبل عينيه وبكي وودّع الحسين وانصرف، وهو يقول : «واحسيناه»(1).

*

في لقائهم الليلي بفناء الكعبة جلس عبد الرحمن الصالح إلي جنب صاحبه وهما صامتان فترة من الزمن، ثمّ التفت عبد الرحمن إلي عبد اللّه قائلا : حديث الناس كلّهم حول خروج الحسين.

فقال عبد اللّه : هل هم يؤيّدونه، في ذلك أم يخالفون؟

قال عبد الرحمن: عامّة الناس مع الحسين، فهم يرون أنّ ليل الظلم قد طال، وأنّه لابدّ أن يتغيّر شيء ما في هذه الأمّة.

قال عبد اللّه : هذا صحيح، ولكن أتدري أنّ أوّل شيء لابدّ أن يتغيّر في الأمّة هو بصيرتها، وتحرير إرادتها، حتّي يتحرّكوا ويغيّروا، لا أن يكتفوا بتأييد الشيء بقلوبهم من دون أن يحرّكوا ساكناً بمواقفهم، وهذا هو الذي يميّز الحسين عليه السلام عن بقيّة الناس . فهو لا يقول شيئاً إلّا ويفعل، وإذا فعل فهو يمشي علي خطي جدّه رسول اللّه، لا يلوي إلي الوراء.

قال عبد الرحمن : هل أنّ الحسين في النهاية يقوم بنهضته لا محالة؟

قال عبد اللّه : لا ـ يشك الحسين في مواقفه، وليس متردّدا في أمره، ولو كان إبراهيم الخليل عليه السلام قد تردّد في كسر الأصنام لتردّد الحسين، ولو كان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قد تردّد في رفضه لعبادة الأصنام

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص 73؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 114.

لتردّد الحسين . وكما أعلن رسول اللّه البراءة من المشركين يوم الحجّ الأكبر، فإنّ الحسين قد أعلن البراءة من المنافقين في حجّه هذا .

قال عبد الرحمن : وماذا عن مواقف عليّة القوم وكبارهم؟

قال عبد اللّه بن مسلم : هنالك من يحاول منع الحسين عليه السلام

من التوجّه إلي العراق كما ذكرت لك، وهم علي أربعة أصناف:

الصنف الأوّل : المشفقون علي الحسين .

الصنف الثاني :المشفقون علي بني أميّة .

الصنف الثالث: الذين لم يفهموا مقاصد الحسين عليه السلام فيما هو مقدم عليه ، فهم يتحدّثون بمنطق يختلف تماماً عن منطق الحسين.

قال عبد الرحمن : أتريد أن تقول إنّ هذا الصنف لا يفهم الحسين ولا يفهمهم الحسين؟

قال عبد اللّه : الحسين يفهمهم، ولكنّهم هم لا يفهمونه.

الصنف الرابع : الذين يحبّذون خروج الحسين، ولكنّهم يتظاهرون بخلاف ذلك، حتّي لا يتّهموا فيما بعد بالشراكة في دمه إذا قتل.

قال عبد الرحمن : ومن تقصد بهذا الصنف؟

فقال عبد اللّه : أقصد أمثال عبد اللّه بن الزبير، فقد جاء مرّة إلي الحسين ليشجّعه علي أن ينهض ضدّ يزيد، وقال فيما قال: «ما أدري لماذا تركنا هؤلاء القوم وكففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين و أولي بالأمر منهم، فخبّرني بماذا تريد أن تصنع»؟

فقال له الحسين : «واللّه لقد حدّثت نفسي بإتيان الكوفة، فإنّ أشراف أهلها قد كتبوا إليّ بالقدوم عليهم، وأستخير اللّه».

فقال ابن الزبير: لو كان لي بها مثل شيعتكم ما عدلت بها .

ثمّ خشي أن يتّهمه، فقال : بلي؛ لو أنّك أقمت بالحجاز، ثمّ أردت الأمر هاهنا ما خلف عليك إن شاء اللّه(1). فإذا قوي أمرك نفيت عمّال يزيد عن هذا البلد، وعليّ لك المكاتفة والمؤازرة، وإن عملت بمشورتي طلبت هذا الأمر بهذا الحرم، فإنّه مجمع أهل الآفاق ومورد أهل الأقطار، لم يعدمك بإذن اللّه إدراك ما تريد، ورجوت أن تناله(2).

قال عبد الرحمن : وبماذا أجابه الحسين؟

قال عبد اللّه : إنّ الحسين قال له: «إنّ أبي حدّثني أنّ بمكّة كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش. نحن لا نستحلّها ولا تستحلّ بنا، ولئن أقتل علي تلّ أعفر أحبّ إليّ من أن أقتل بها»(3).

فخرج عبد اللّه بن الزبير، فقال الحسين لمن معه: «ما من شيء من أمر الدّنيا يؤتاه أحبّ إليه من خروجي عن الحجاز، لأنّه قد علم أنّه ليس له معي من الأمر شيء، و أنّ الناس لن يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت من هنا لتخلوله»(4)

1- (1) جمل الأنساب الأشراف، للبلاذري، ج 5، ص 315.
2- (2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 244.
3- (3) كامل الزيارات، لابن قولويه، ص 73.
4- (4) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 383.

قال عبـد الرحمن الصالـح: هـذا عن الصـنف الرابع ممّن أشاروا علي الحسـين بعدم المسـير إلي العراق، فماذا عن الذين أشاروا عليه بعدم الخروج إشفاقاً منهم عليه ، من هم مثلاً، وماذا قالوا، وماذا قال لهم الحسين؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : من هؤلاء عبـد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، وهو ابن عمّ الحسـين وزوج أخته زينب، فقد كان الرجل في المدينة، ولما سمع بأنّ الحسين يريد الخروج إلي العراق كتب إليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم، للحسـين بن عليّ، من عبـد اللّه بن جعفر، أمّا بعد، أنشدك اللّه أن لا تخرج عن مكّة، فإنّي خائف عليك، من هذا الأمر الذي قد أزمعت، عليه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، فإنّك إن قتلت أخاف أن يطفأ نور اللّه ، فأنت علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلاـ تعجّـ ل بالمسـير إلي العراق، فـإنّي آخـذ لـك الأمان من يزيـد، ومن جميع بني أميّـة، لنفسك ولمالك وأولادك وأهل بيتك، والسّلام(1).

فكما هو واضـح فإنّ الرجل مشـفق علي الحسـين، وهو خائف من أن يقدم بنو أميّة علي قتله، ومن ثمّ أن ينقطع نسل رسول اللّه ويستأصـل أهله.

فكتب إليه الحسين يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد، فإنّ كتابك ورد عليّ، فقرأته وفهمت ما فيه، وأعلمك أنّي قد رأيت جدّي رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 218؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 115.

في منامي، فأخبرني بأمر أنا ماض له، أكان لي الأمر أو عليّ، فواللّه يابن عم لو كنت في حجر هامّة من هوامّ الأرض فإنّهم يستخرجوني حتّي يقتلوني، وواللّه ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في يوم السبت، والسّلام(1).

قال عبد الرحمن الصالح: هل تكشف رسالة عبد اللّه بن جعفر أنّ بعض أهل البيت يختلفون مع الحسين في أمر خروجه؟

قال عبد اللّه بن مسلم : أهل البيت مجمعون علي إمامة الحسين، وهو سيّدهم بلا منازع، وزعيمهم، وهم مشفقون عليه ، ولو أنّه صمّم علي الخروج فسوف يستسلمون له، ولذلك فإنّ عبد اللّه بن جعفر مع هذه الرسالة التي تلوتها لك أرسل ولديه عون ومحمّد لكي يلتزما ركاب الحسين، مع قطع النظر عمّا يمكن أن يحدث له، ولهما(2).

وأضاف عبد اللّه بن مسلم: ومن الذين أشاروا علي الحسين بعدم الخروج،إشفاقاً منهم عليه، عبد اللّه بن مطيع، فقد قال للحسين : «فداك أبي وأمّي، أنشدك اللّه أن تعتني بنفسك ولا تسر إلي العراق، فإنّ حرمتك من اللّه حرمة، وقرابتك من رسول اللّه قرابة ، وإنّ بني أميّة إن قتلوك لم يرتدعوا عن حرمة اللّه أن ينتهكوها، ولن يهابوا أحداً بعدك أن يقتلوه، فواللّه لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذونا

خولا وعبيداً »(3).

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 174.

2- (2) الفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 187.

3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 217؛ والتهذيب، لابن بدران، ج 4، ص 328.

ومن المشـفقين الذين أشاروا علي الحسـين عليه السلام بعدم الخروج أيضا عمر بن عبد الرحمن المخزومي، فقد جاء إليه وقال له: «بلغني أنّك تريـد العراق، وأنـا مشـفق عليك من مسـيرك، لأنّك تأتي بلـداً فيها عمّال يزيـد وأمرائه ومعهم بيوت المال، وإنّما الناس عبيـد الـدينار والدرهم، فلا آمن عليك أن يقاتلك منوعدك نصره، ومن أنت أحبّ إليه ممّن يقاتلك معه».

فقال له الحسين: جزاك اللّه خيراً من ناصح، ولكن مهما قضي من أمر يكون، أخذت برأيك، أو تركته(1).

وممّن أشار علي الحسين بعدم الخروج أيضاً عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاريّة، فقد كتبت إليه تخبره أنّه إنّما يصار إلي مصرعه .

وقالت: «أشهد لقد حدّثتني عائشة أنّها سمعت رسول اللّه يقول: يقتل حسين بأرض بابل».

فلمّا قرأ الحسين كتابها، قال : فلابدّ لي إذن من مصرعي(2).

قال عبـد الرحمن الصالـح لعبد اللّه : إنّ جواب الحسـين علي هذه الرسالة عظيم فعلاً، فإذا كان رسول اللّه صـلي الله عليه و آله و سـلم قد أخبر بمقتله في أرض العراق، فإذن لابدّ أن يذهب إلي هناك، لأنّ إخبار رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم وحي من السّماء.

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 382.

2- (2) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج 2، ص 343؛ والعبرات، للمحمودي، ج1، ص 361.

ولكن أخبرني عمّن أشار علي الحسين بعدم الخروج وهو مشفق علي بني أميّة، وليس علي الحسين، من هم مثلاً؟

قال عبد اللّه بن مسلم : من هؤلاء عمرو بن سعيد بن العاص، وهو نائب الحرمين، فقد كتب إلي الحسين بمنطق المتكبّرين يقول : إنّي أسأل اللّه أن يلهمك رشدك، وأن يصرفك عمّا يرديك، وأن

يهديك لما يرشدك، فقد بلغني أنّك قد اعتزمت علي الشخوص إلي العراق، وإنّي أعيذك باللّه من الشقاق، فإنّي أخاف عليك فيه الهلاك فإن كنت خائفاً فقد بعثت إليك بأخي يحيي بن سعيد، فأقبل إليّ معه، فلك عندنا الأمان، والصلة، والبرّ، والإحسان.

فكتب إليه الحسين يقول: «أمّا بعد، فإنّه لم يشاقق من دعي إلي اللّه وعمل صالحا وقال إنّني من المسلمين، وقد دعوتني إلي الأمان والبرّ والإحسان، وخير الأمان أمان اللّه، ولن يؤمن اللّه يوم القيامة من لم يته في الدّنيا، ونحن نسأل اللّه في الدّنيا توجب أماناً يوم القيامة، فإن كنت بكتابك هذا إليّ أردت برّي وصلتي، فجزيت بذلك خيراً في الدّنيا والآخرة، والسّلام»(1).

قال عبد الرحمن الصالح: فمن هم الصنف الثالث الذي قلت إنّهم يرون شيئاً، بينما يري الحسين شيئاً آخر، وأنّهم ربّما لم يفهموا لماذا يريد الحسين الخروج؟

قال عبد اللّه بن مسلم : مثل محمّد ابن الحنفيّة، فقد ظنّ أنّ الحسين إنّما يخرج إلي العراق لأنّه يخاف علي نفسه من البقاء في

1- (1) التهذيب، لابن بدران، ج 4، ص 330؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 164.

مكّ ة، وفي العراق له أتباعه ومريـدوه، الـذين يطلبون منه الـذهاب إليهم ليكون إماماً لهم. فقد قال للإمام إنّه يخاف عليه في الكوفة أكثر ممّا يخاف عليه في مكّة، حتّي أنّه قال : «رأيي أن تقيم بمكّة ، وتكون أعزّ من في الحرم، أو إذهب إلي اليمن فإنّك أمنع الناس به ، ولا يقدر عليك بنو أميّة».

وكـان جواب الحسـين عليه السـلام إنّه رأي رسول اللّه في منـامه، فـأمره بأن يخرج إلي العراق حتّي لو قتل هناك، فقـد شاء اللّه أن يراه قتيلا، وحينما سأل عن حمله النساء من أهل بيته ،قال : «شاء اللّه أن يراهنّ سبايا(1).

وكـذلك الأمر بالنسـبة إلي عبـد اللّه بن عبّاس، فقـد ظنّ أنّ الحسـين إنّما يخرج لكي يصـبح حاكماً في الكوفة، ومن ثمّ يبسط سـلطته علي العراق، وفيما بعد يبايعه الناس كخليفة للمسلمين، كأنّ الحسين يريد إقامة سلطة بديلة عن السلطة القائمة.

بينما الحسـين يريـد الخروج لأداء مسؤوليته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعادة الأمّـة إلي مسارها الصـحيح، وبغيته أن يهـدي الناس بهدي اللّه ورسوله، ويفصل بين السـياسة التي تستغلّ الدّين لمآربها، وبين دين اللّه الذي لابدّ من الالتزام به، والعمل بما جاء به النبي صلي الله عليه و آله و سلم ، ليس من أجل مغانم في الدّنيا، وإنّما لكسب رضي اللّه عزّ وجلّ.

فالحسين إنّما يخرج لقام المعطّلة من حدود اللّه، ويبسط

ص: 279

1- (1) لواعج الأشجان، للسيد الأمين، ص 73؛ والمنتخب، للطريحي، ج 2، ص 435.

العدل بين الناس، ويكون دين اللّه في مأمن من استغلال الأشرار والمنافقين.

قال عبد الرحمن الصالح: هل لك أن تخبرني بما يختلف عليه الحسين عن ابن الزبير، فكلاهما رفض بيعة يزيد؟

قال عبد اللّه بن مسلم : كما أنّ السلطات تختلف من سلطة عادلة تريد بسط العدل للناس والخير لهم، مع قطع النظر عمّا ترفعه من شعارات، سواء كانت دينيّة أو غير دينيّة، وبين سلطة لا تريد بسط العدل، وإنّما تريد كلّ الامتيازات لنفسها، وإذا ذكرت اسم الناس أو اسم اللّه فلمصالحها ؛ كذلك الذين يخرجون علي السلطات هم صنفان: صنف يخرجون علي السلطة الظالمة، ويرفعون شعار العدل في وجهها، ولكن مقصدهم أن يكونوا هم مكان أولئك وليس أكثر من ذلك، فهم يبحثون عن السلطة والجاه والجلال والتاج والصولجان والمال والامتيازات.

وصنف آخر صادقون في دعواتهم، لا يريدون لأنفسهم شيئاً . فعبد اللّه بن الزبير من الصنف الأوّل، فهو يخالف يزيد لأنّه يريد أن يكون مكانه، ومن ثمّ فهو لا يختلف عن يزيد في أهدافه وتطلّعاته، بينما الحسين يتحرّك علي منهج الأنبياء، وشعاره هو: (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)، (قل لا أسئلكم عليه أجرا).

والفرق بينهما أنّ الحسين لو حكم لفعل كما فعل أبوه، الذي ازداد زهداً في حطام الدّنيا بعد أن بويع بالخلافة، فحرّم علي نفسه الملذّات، ومنع حتّي من أن يمشي خلفه أحد من الرجال، ولم يتخذ لنفسه حرساً، مع كثرة أعدائه وخوضه ثلاثة حروب داخلية، ولا

اتخذ عبيداً وإماء في داره وبيته، وكان أهله يعيشون بمستوي أقلّ ممّا يعيش عامّة الناس.

أمّا عبـد اللّه بن الزبير فإنّه إذا حكم لفعل كما يفعله الظالمون، لأنّه يريـد السـلطة لنفسه ولجماعته، بينما نري أنّ الحسـين يريد الخروج إلي العراق والموت بين عينيه، ولا يهمّه ذلك لأنّه لا يريـد الدّنيا أساساً، وكما قال لعبد اللّه بن عمر حينما جاء إليه وحذّره من مشاقّة أهل العناد، لأنّهم لا يرقبون في اللّه إلّا ولا ذمّة، وربّما يقدمون علي قتله .

فقـال الحسـين: «يـا أبـا عبـد الرحمـن؛ أمـا علمـت أنّ مـن هـوان الـدّنيا علي اللّه، أنّ رأس يحيي بن زكريّـا يهـدي إلي بغيّ من بغايـا بني إسرائيل»؟(1).

فالـدّنيا عنـد الحسـين هي أدني من أن يقصدها، وأهون من أن يطلبها، ومن ثمّ فحتي لو أهدي رأسه الشـريف إلي يزيد فسـيكون مثل رأس يحيي بن زكريّا الذي أهدي إلي بغيّ من بغايا بني إسرائيل.

*

قال عبد الرحمن : وما هو موقف بعض صحابة النبي صلي الله عليه و آله و سلم من أمثال جابر بن عبد اللّه الأنصاري، وأبو سعيد الخدري؟

قال عبد اللّه بن مسلم: لقد كان كلاهما مشفقين علي الحسين، أمّا جابر بن عبد اللّه فقد جاء إليه وقال: «أنت ولد

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 31؛ والبحار، ج 44، ص 365؛ والفتوح، لابن أعثم، ج 5، ص 39 و 40؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 119.

رسول اللّه وأحد سبطيه، لا أري إلّا أنّك تصالح كما صالح أخوك الحسن، فإنّه كان موفقاً راشداً».

فقال له الحسين: «يا جابر؛ قد فعل أخي ذلك بأمر اللّه وأمر رسوله، وإنّي أيضا أفعل بأمر اللّه وأمر رسوله(1) .

قال عبد الرحمن الصالح: وهل اقتنع جابر بن عبد اللّه بما قاله الحسين؟

قال عبد اللّه بن مسلم : نعم، فهو يعرف أنّ الحسين لا يتقوّل علي اللّه ولا علي رسوله، كيف وهو أمين اللّه في أرضه، وحجّته علي عباده، وهذا مقام يعرفه جابر بن عبد اللّه للحسين .

قال عبد الرحمن : وماذا عن نساء رسول اللّه؟

قال عبد اللّه : لقد بعثت إليه أمّ سلمة، وهي التي ربّته صغيراً، وكان من أحبّ الناس إليها، وكانت هي أرقّ الناس عليه، وقد دفع إليها النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم تربة الحسين، فوضعتها في قارورة، فقالت له: يا بنيّ، أتريد أن تخرج؟

قال الحسين : يا أمّاه أريد أن أخرج إلي العراق .

فقالت له: إنّي أذكّرك اللّه تعالي أن تخرج إلي العراق .

فقال الحسين : ولم ذلك يا أمّاه؟

قالت : سمعت رسول اللّه يقول: يقتل ابني الحسين بالعراق، وعندي يا بنيّ تربتك في قارورة مختومة دفعها إليّ رسول اللّه (2).

ص: 282

1- (1) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص 323.

2- (2) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص 330.

فقال الحسين: «واللّه إنّي مقتول كذلك، وإن لم أخرج إلي العراق يقتلونني أيضاً(1). وإنّي لا أفرّ من القدر والمقدور، والقضاء المحتوم، والأمر الواجب من اللّه تعالي».

فقالت أمّ سلمة : واعجباه، فأنت تذهب وأنت مقتول؟

فقال الحسين: «يا أمّاه؛ إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب غدا لذهبت بعد غد، وما من الموت بدّ، وإنّي لأعرف الموضع الذي أقتل فيه، والسّاعة التي أقتل فيها، والحفرة التي أدفن فيها كما أعرفك، وأنظر إليها كما أنظر إليك، وإن أحببت أن أريك مضجعي ومصرع أصحابي فعلت» .

فقالت : قد شئتها.

فمسع الحسين علي وجهها، وما زاد أن تكلّم باسم اللّه ، حتّي فسح اللّه في بصرها وانخفضت لها الأرض، وأراها مضجعه ومضجع أصحابه، وأخذ تربة فأعطاها من تلك التربة أيضاً في قارورة أخري وقال لها : إذا فاضتا دماً فاعلمي أنّي قد قتلت(2).

*

في اليوم السابع من ذي الحجّ ة، عام ستّين للهجرة، التقي عبد الرحمن الصالح في أحد أزقّة مكّة بصاحبه عبد اللّه بن مسلم، فقال له : كلّ الأخبار تقول إنّ الحسين علي وشك أن يخرج اليوم،

1- (1) الخرائج والجرائح، للراوندي، ج 1، ص 253.

2- (2) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص 331؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص 89.

وسؤالي هو: ألا يوجد بديل آخر ما دام في هذا الخروج كلّ الخطورة علي حياته، وربّما علي حياة أهل بيته أيضاً؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لو كان هنالك مخرج لاختاره الحسين، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ التزامه بالدّين متأصّل في نفس هذا الرجل، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ تعطيل حدود الدّين أكبر فتنة ابتليت بها هذه الأمّة في حاضرها ومستقبلها، وأيّ مسلم يؤمن بدينه لا يستطيع أن يساوم عليه ، فكيف بالحسين وهو وارث الأنبياء ، وسبط رسول اللّه ؟.

إنّ الحسين يري في وجود يزيد علي رأس السلطة خطراً علي الدّين كلّه، فإذا كان من يفترض فيه أن يكون أميناً علي دين الناس ودنياهم ومصالحهم المعنويّة والمادّية، ليست له حتّي كفاءة أن يكون مجرّد عضو في شرطة الخميس، أفلا يكون الدّين في خطر الإبادة علي يديه؟

ثمّ إنّ يزيد قد وضع الحسين بين أمرين: إمّا أن يبايع، وإمّا أن يقتل. أمّا الحسين فقد اختار أمراً آخر وهو أن ينهض، لأنّه لا يستطيع أن يكون موافقاً علي ضلالة السلطات، وكيف يمكن للحسين أن يشهد ليزيد بالصلاح للإمامة، أليس في ذلك تغريراً بالناس، وفي مقابل ماذا ، في مقابل أن يسلم في دنياه؟

إنّ يزيد ليس فيه ولو صفة واحدة يمكن أن يرضي الحسين بها؛ لا في دينه، ولا في شرفه، ولا في علمه، ولا في كفاءته، ولا في اهتمامه بالناس ومصالحهم.. ومن ثمّ فإنّ من يقبل بخلافة يزيد فهو يتنكّر لكلّ أصول الدّين، ويتجاهل كل حقوق الناس، وفي كلّ مجالات الحياة.

إنّ التسليم للباطل ليس من شيم الحسين، ولا ترضاه له مروءته، كما لا يرضاه له إيمانه .

قال عبد الرحمن الصالح: ولكن الحسين عليه السلام نفسه لم يخرج علي معاوية؟

قال عبـد اللّه بن مسـلم : نعم؛ لم يخرج علي معاوية ، ولكنّه لم يبايعه أيضاً، ومعاوية لم يجعله بين خيارين: إمّا البيعة وإمّا القتل . أمّا يزيد فقد وضع الحسـين بين هذين الأمرين: إمّا أن يبايع يزيد ويعطيه الشـرعية في كلّ شـيء، وإمّا أن يقتل، وهذا ما كتبه إلي واليه علي المدينة، وهو ما أشار به مروان بن الحكم في الليلة التي استحضـره الوالي إلي دار الإمارة، وهذا أمر مختلف. الحسـين مؤمن صادق في إيمانه، ملتزم بكل المفردات الأخلاقية، وهو معدن الفضائل، ويتمتّع بالوفاء كما يتمتّع بالشجاعة، ومن وفائه أنّه لم يخرج علي معاوية بعد وفاة أخيه، لأنّ أخاه عاهد معاوية علي المسالمة، فكان بينه وبين الرجل عهد وعقد، لم يري الحسين له أن ينقضه حتّي تمضي المدّة(1).

أمّا خلافة يزيد فهي مفتتح ملك جديد، والتسليم لها يعني تحويل هذه الحالة إلي سنّة تستقرّ عليها الأمّة جيلا بعد جيل، من دون أن يكون هنالك أمل في التغيير، بالإضافة إلي أنّ عمله سيصبح ديناً يدين به الناس.

ألا تري كيف أنّ بني أميّة جعلوا من الطغيان أمراً طبيعيّاً ،

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص 187؛ وتاريخ مدينة دمشق،لابن عساكر، ج 14، ص 205.

فمن خلال الذين اشتروا ضمائرهم بالدينار والدرهم أضفوا علي الطاغي حالة قدسية باعتباره خليفة لرسول اللّه ، وهذا معناه إعادة الجاهليّة بكلّ ما تعنيه الكلمة ولكن بغطاء ديني .

فإذا كان ربّنا يوجب التبرّي من الطاغوت، ويعتبر نفي الأرباب والآلهة من دون اللّه مقدّمة للتوحيد في كلمة : لا إله إلّا اللّه .. وإذا كان كلّ الأنبياء إنّما بعثوا لمواجهة طاغوت زمانهم، حتّي آدم بعثه اللّه في مقابل طغيان إبليس، وإذا كان ربّنا يقول في كتابه : (اللّه وليّ الذين امنوا يخرجهم من الظلمات إلي النور والذين كفروا أولياؤهم الطغوت يخرجونهم من النور إلي الظلمات أولئك أصحب ألنار هم فيها خلدون)(1) ، فإنّ هؤلاء حوّلوا الطاغوت إلي رجل مقدّس، فما دام أنّه حاكم فهو مقبول ومرضي، وعمله شرع ودين، وإن طغي وإن ظلم بحيث ينسجم الدّين مع الطغيان رغم كلّ الموبقات التي يرتكبها الطاغوت، واليوم يحاولون أن يجعلوا ذلك سنّة يتوارثها جيل بعد جيل، بالإضافة إلي أنّ تعيين يزيد جاء بخلاف سنّة رسول اللّه ، وسنّةالخليفة الأوّل، وسنّة الخليفة الثاني، وسنّة الخليفة الثالث، وسنّة الخليفة الرابع، وكأنّ هذا الدّين لا نظام فيه، ولا موازين له، ولا حدود لأهم قضاياه.

ألم يكن اختيار معاوية لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كلّ مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته، جهرةً وعلانية، من المال أو الولاية أو المصانعة .. ولو أنّ معاوية كان يعيّن قرداً من القرود وليّا لعهده ، ويصرف تلك الأموال، ويعطي من أجلها الولايات لهذا وذاك، من أجل تثبيته، لحاول أعوانه أن يفرضوه خليفة علي الناس .

ص: 286

1- (1) سورة البقرة، آية 257.

وتكمن خطورة تعيين يزيـد خليفة علي المسـلمين، أنّه لـم يأت باعتبار معاوية ملكا يورّث ملكاً لبنيه، وإنّما باعتباره خليفة الرسول اللّه ، وما كـان يراه المؤمنون في النبيّ، الـذي هو أولي بالمؤمنين من أنفسـهم، من البيعـة له اختياراً أجبر عليه المسـلمون، بعـد أن عطّل كلّ حـدود الدّين، وقوّض كلّ معالـم الأخلاق.

وأغرب مـا في الأـمر أن يطلب من الحسـين أن يبايع مثل هـذا الرجل، ويزكّيه أمام المسـلمين، ويشـهد له عنـدهم بأنّه خليفـة رسول اللّه ، وصاحب حقّ ديني في الخلافة، وهم لـم يتركوا للحسين خياراً، إمّا أن يستسلم ويبايع، وإمّا أن يقتل .

لكن الحسين اختار طريقاً ثالثاً، وهو أن يعلنها ثورة مقدّسة ضدّ الظلم والطغيان، مع علمه بأنّه سيكون سيّد شهداء هذه الأمّة .

***

إعلان الثورة

في ليلـة الثامن من شـهر ذي الحجّـة، وبينما كان حجّاج بيت اللّه الحرام، والمعتمرون يسـتعدّون للتروية، والإحرام من جديد للذهاب إلي مني لقضاء ليلة التاسع هناك، ثمّ الانتقال إلي عرفات في يومها ، انتشـر بين الناس خبر مهم، وهو أنّ الحسـين يريد أن يلقي خطبة عامّة يبيّن فيها ما هو عازم عليه . ولم يكن خلال الفترة السابقـة قـد تحدّث للناس بشـكل عام، وإنّما كانت هنالك أحاديث يتبادلها مع هذا أو ذاك، أو رسائل يرسلها إلي بعض الجماعات هنا وهناك .

ومع أجواء الاحتقان السائدة، والتجاذبات التي كانت قائمة في البلدان، فلقد تسارع أكثر حجّاج بيت اللّه الحرام وأهل الحجاز لسـماع كلمة الحسين عليه السلام .

كـانت الجموع تتسـابق فيمـا بينهـا للوصول إلي البيت الـذي ينزل فيه الإمام عليه السـلام، وحينما امتلأت الأزقّـة والساحات بالناس، خرج الحسـين بكامل هيبته وجلاله وكماله، لا تختلف مشيته عن مشية رسول اللّه، وفي وجهه ملامح تصميم عظيم، وفي خطواته جلجلة الثبات علي المبدأ، وفي عينيه بريق الشهادة .

كان الحسين قبل غيره يعرف علي ماذا قدم، وماذا تعني خطوته القادمة بالنسبة إلي شخصه وإلي أهل بيته .

ص: 288

من رأي الحسـين في تلك اللحظات، رأي فيه هابيل عليه السلام في صفائه وعطوفته، ورأي نوحا عليه السلام في ثباته وشوكته، وإبراهيم عليه السـلام في إيمانه وشجاعته، وموسي عليه السلام في شدّته وسطوته، وعيسي عليه السلام في رأفته ورحمته، ورسول الله صلي الله عليه و آله و سـلم في رسالته ودعوته، وعليّاً عليه السـلام في كلّ مناقبه وصـفاته . فوقف هنالك علي مرتفع، بينما خيّم الصمت علي الجميع كأنّ علي رؤوسهم الطير، وبدأ خطبته قائلاً :

بسم الله الرحمن، الحمد للّه وما شاء اللّه ، ولا قوة إلا باللّه ، وصلّي اللّه علي رسوله، وعلي آله وسلّم.

ثمّ سـكت لحظـات، قـال بعـدها: «خـطّ الموت علي ولـد آدم مخطّ القلادة علي جيـد الفتاة، وما أولهني إلي أسـلافي اشتياق يعقوب إلي يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن منّي أكراشاً جوفا وأجربة سغبي، لا محيص عن يوم خـطّ بـالقلم، رضـا اللّه رضانا أهل البيت، نصبر علي بلائه، ويوفّينا أجور الصّابرين، لن تشـذّ عن رسول اللّه لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرّ بهم عينه ، وينجز له بهم وعده».

ثمّ قال : «ألا فمن كان باذلاً فينا مهجته، وموطّنا علي لقاء اللّه نفسه، فليرحل معنا، فإنّني راحل مصبحاً إن شاء اللّه»(1).

ثمّ أقفل راجعاً إلي بيته.

*

1- (1) نزهة الناظر، للحلواني، ص 41؛ والأمالي، لأبي طالب الزيدي، ص 199؛ وكشف الغمة، للإربلي، ج 2، ص 29؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص 21.

كان كل من عبد الرحمن الصالح، وعبد اللّه بن مسلم من أوائل من حضروا خطاب الحسين، واستمعوا إليه، ومع قصر الخطبة، إلّا أنّها كانت إعلاناً صريحاً ببدء نهضة عظيمة، لم يكن أحد يعرف إلي أين ستنتهي.

إلتفت عبد الرحمن إلي صاحبه قائلاً : أنت تعرف الحسين أكثر منّي، فقد كنت مع أهل البيت منذ البدايات، أمّا أنا فلم أكن كذلك، ولولا رحمة اللّه لكنت في ضلالي القديم، قل لي ماذا أراد الحسين بما قال؟

قال عبد اللّه بن مسلم :

أوّلا : إنّ الحسين اليوم بين موتين: موت يأتي إليه، وقد اتخذ قراره يزيد، وموت يذهب إليه، وقد اتخذ قراره الحسين . فلقد قام يزيد بإرسال مجموعة من جلاوزته إلي الحجاز لاغتيال الحسين، وإن كان متعلّقاً بأستار الكعبة. أمّا الحسين فقد اختار الموت الثاني، لأنّه سبق وأن قال في مجالسه الخاصّة أنّه لا يريد أن يستباح به الحرم، فهو أمين علي قدسيّة هذا المكان، لأنّ أهل البيت لا يستبيحون الحرم بأحد، ولا يدعون الآخرين يستبيحون الحرم بهم. هذا بالإضافة إلي أنّ الموت الذي يأتي المرء يذلّه، أمّا الموت الذي يذهب إليه فهو مثل القلادة علي جيد الفتاة. فكما تزيّن القلادة الفتاة، كذلك يزيّن الموت صاحب الحقّ حينما يذهب إليه .

ثانياً : كشف الحسين عليه السلام عن مداخل نفسه، فهو مشتاق إلي رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم، وإلي أبيه أمير المؤمنين، وإلي أمّه فاطمة الزهراء عليهاالسلام ، وإلي أخيه الحسن عليه السلام ، وشوقه هذا يشبه شوق يعقوب عليه السلام إلي يوسف عليه السلام بعد أن ابيضّت عيناه من الحزن عليه

ثالثاً : أعلن أنّ له مصرعاً هو لاقيه، ومن ثمّ فهو مشروع قربان ربّاني، وقد اختار اللّه له ذلك، من قبل أن يبرأ الشموات والأرض.

رابعاً : كشف بوضوح عمّا سيجري عليه وما سيفعل به، ومن ثمّ فقد كشف عن وحشـيّة عدوّه وطريقته حينما قال : «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات»، وحدّد المكان، «بين النواويس وكربلاء» . فكما تفعل الذئاب الجائعة بضحاياها حيث تقطّعها، ثمّ تملأ أكراشها الفارغة وتشرب من دمائها، كذلك سيفعل العدوّ به. وبيّن أيضا أنّ هذا قضاء اللّه وقدره، إذ «لا محيص عن يوم خطّ بالقلم».

خامساً: صـرّح الحسـين عليه السـلام بمنطلقاته فيما يفعل، فهو لا ينطلق من أجل المصالـح، ولا هو يبحث عن حطام الـدّنيا. فأهل البيت راضون بمـا يرضـي اللّه، وهـذا أعلي درجـات الإيمـان. وأعلن بأنّه سـيصبر ويتحمّل ولا يتراجع عمّا فيه رضا ربّه : «نصبر علي بلائه ويوفّينا أجور الصّابرين».

سادساً : أعلن أنّ العاقبـة بالنسـبة إليه وإلي أهل بيته، هي الجنّـة بلا شك ولا ترديد، ل-: (إنّ اللّه اشتري من المؤمنين أنفسـهم وأمولهم بأنّ لهم الجنه يقتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقّاً في التورة والإنجيل والقرءان) (1)

وإذا كان رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم في حضيرة القدس، فإنّ الحسين في حضيرة القدس معه، إذ «لن تشذّ عن رسول اللّه لحمته، بل هي مجموعة له هناك». وباعتبار أنّ الدار الآخرة هي الحيوان، والفلاح

1- (1) سورة التوبة، آية 111.

والنجـاح إنّمـا هو هنـاك وليس هنـا في الـدّنيا، فإنّ عين رسول اللّه تقرّ بأهل بيته، وينجز اللّه له بهم وعـده، ويسـكن معه ذرّيّته في الفردوس الأعلي.

سابعاً : فتح الحسين الباب لينضمّ إليه من يريد، بشرط واحد، وهو أن يكون مستعداً للموت في سبيله: «فمن كان باذلاً فينا مهجته ، و موطّنا علي لقاء اللّه نفسه فليرحل معنا».

ثامناً : حدّد الساعة التي سينطلق منها، وهو صبيحة اليوم التالي: «فإنّي راحل مصبحاً إن شاء اللّه».

قال عبد الرحمن الصالح: مع علم الحسين بوحشيّة عدوّه،كيف يعلن عن يوم خروجه، وساعته، واتجاهه؟

قال عبد اللّه بن مسـلم : إنّ معرفة الحسين بمصيره فيما هو مقدم عليه لأكبر دليل علي أنّه يخرج في سبيل اللّه، ولا يخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإلّا فإنّ باسـتطاعته أن يساوم علي موقفه إذا كان يريد حطام الدّنيا . ثمّ لا تنس أنّ الجهاد في سبيل اللّه من أهم ما جاء به هذا الدّين، فالقتل في سبيل اللّه أعلي درجات الإيمان، فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم أنه قال: «فوق كلّ برّ برّ حتّي يقتل الرجل في سبيل اللّه ، فإذا قتل في سبيل اللّه فليس فوقه من برّ»(1).

ألم يكتب الإمام عليّ عليه السلام في نهاية عهده إلي مالك الأشتر قائلاً : «وأنا أسأل اللّه .. أن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة»(2).

1- (1) الكافي، للكليني، ج 2، ص 348.

2- (2) نهج البلاغة، رسالة رقم 53.

ثم أليس أنّ «الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه اللّه لخاصّة أوليائه»(1)، كما يقول الإمام عليّ أيضا؟

قال عبد الرحمن الصالح: ولكن حينما يعرف الحسين أنّه يقتل فالأمر يكون مختلفاً، فهل الجهاد مطلوب حتّي مع العلم بالموت؟

قال عبد اللّه بن مسلم : عندما قال اللّه عزّ وجلّ : (إنّ اللّه أشتري من المؤمنين أنفسهم وأمولهم بأنّ لهم الجنّة)، لم يجعل الحياة شرطاً للجهاد، بل قال: (يق-تلون في سبيل اللّه فيقتلون و يقتلون)(2)، فهو ليس مقيّداً بالانتصار، بل قد ينتهي إلي الشهادة .

ثمّ ألم يكن رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم يخوض الجهاد مع عدد قليل من الناس، وعدّة بسيطة من السلاح، في مواجهة الجيوش الجرّارة؟

كم من مرّة خرج النبي صلي الله عليه و آله و سلم للجهاد، بعدد قليل جدّاً وقتل خيرة أصحابه مثل حمزة سيّد الشّ هداء، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهما من الصحابة الصالحين الصادقين ؟

ولا تنس أنّ الحسين إمام، فإذا كان الجهاد واجباً علي جميع الناس، فإنّه علي الإمام أوجب.

قال عبد الرحمن : ولماذا؟

قال عبد اللّه : لأنّ الإمام من واجباته المحافظة علي حدود اللّه ، وإذا لم يكن الإمام، وهو المسؤول الأوّل عن الدّين، والمحور الأساسي في الأمّة، يقوم بما يجب عليه ، فهل ينتظر من الآخرين أن يقوموا بما يجب عليهم؟

ص: 293

1- (1) نهج البلاغة، خطبة رقم 27.

2- (2) سورة التوبة، آية 111.

قال عبد الرحمن : أتريد أن تقول أنّ الحسين مقدم علي عمل يؤدّي إلي إراقة دمه ودماء أهل بيته، لكي يحفظ شريعة اللّه وحدوده؟

قال عبـد اللّه : تماماً؛ إنّ ربّنا وصف المؤمنين بأنّهم تائبون وعابـدون، وحافظون لحـدود اللّه ، فقد قال تعالي بعد أن حدّد الصـفقة التي بينه وبين عباده المؤمنين ب-: (إنّ اللّه اشتري من المؤمنين أنفسهم وأمولهم بأنّ لهم الجنّة يقتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقّا في التّوراة والإنجيل و القرءان ومن أوفي بعهده من اللّه فاستبشـروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)(1) ، ثمّ قال ربّنا: (الت-ئبون العبدون الحمدون السئحون الركعون السجدون الأمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحفظون لحدود اللّه وبشّر المؤمنين)(2).

. قال عبد الرحمن : إذن أنت تري أنّ الحسين شهيد لا محالة؟

قال عبـد اللّه : هو كـذلك؛ فلقـد اتخـذ الحسـين قراره بأن ينهض لإنقاذ دين جدّه، كما اتخذ يزيد قراره بأن يقضـي علي هذا الدّين فالصدام بينهما واقع لا محالة.

فقال عبد الرحمن : ومن يقول إنّ يزيد سوف ينتصر علي الحسين، وليس العكس؟

قال عبد اللّه : أمّا أنّ الحسـين ينتصـر، فهو في علم اللّه منتصـر حتماً، ولا شكّ في ذلك ولكن لا بمعني أنّه سيستلم الحكم والسلطة، وذلك لسبب بسيط، أنّه لا يبحث عن الحكم والسلطة ، كما أنّه لن يتوسّل بما يتوسّل به يزيد من وسائل حرمها اللّه تعالي .

1- (1) سورة التوبة، آية 111.

2- (2) سورة التوبة، آية 112.

فمنـذ البدايـة تراه يعلن بأنّه مقتول، ولو كان الحســين يبحث عن الســيطرة علي عـدوّه، والحصول علي الســلطة لوعد الناس بالانتصار وليس بالموت. ثمّ إنّ الميزان من حيث العدّة والعدد ليس لمصـلحة الحسـين. فمع مجموعة بسيطة من الناس لا يمكن الانتصار علي السلطة في هـذه الإمبراطوريّـة الشاسـعة، التي ورثها يزيد من أبيه ، إضافة إلي ميل الناس الشديد إلي الدعة والراحة،والإخلاد إلي الأرض، والخوف من الموت.

إنّ بيوت الأموال الممتلئة ذهباً وفضة بيد يزيد، وهو يشتري بالجملة ضـمائر ضـعاف النّفوس، بينما الحسـين يكلّف الأيّام ضدّ طباعها. ففي المـدي القريب لن ينتصـر الحسـين علي يزيد، ولكنّه في المدي البعيد هو المنتصـر علي كلّ حال. وأنت تعرف أنّ الحسـين وأصـحابه لن يصـرفوا موارد الأمّة لشـراء الضمائر، فإنّ الحسين لا يريد إلّا من وطّن نفسه علي المنيّة، ويرفض أن يصرف درهماً واحداً لشراء ولاء شخص واحد.

فهذا سفير الحسين مسلم بن عقيل يدخل الكوفة صفر اليدين من المال، حتّي أنّه يقترض لأمور البسيطة.

وإذا كانت السلطات الظالمة تمنّي الناس بالنصر لتدفعهم إلي التضحية بأنفسهم من أجل الحاكم، فإنّ الحسين لا يتحدّث لأصحابه إلّا عن الموت والشهادة ؛ أي عن موته هو، وشهادته، وموت من معه وشهادتهم.

وإذا كان سـلاطين الجور لا يغادرون قصورهم في الحروب، وإنّما يـدفعون الجنود لكي يخوضوا المعارك نيابة عنهم، فإنّ الحسـين بنفسـه خارج غداً، ومعه أهل بيته وفلذات أكباده. وهذا هو الذي

يريده الحسين، أن يكشف للناس الفرق بين الإيمان الصادق والنفاق، وبين المؤمنين الصادقين وأدعياء الإيمان .

الحسين لا يهدف – كما ذكرت – إلي فتح البلدان والحصول علي السلطان، وليست نهضته مغامرة سياسيّة ، ولا مساومة تجاريّة ، وإنّما يقوم بنهضته دفاعا عن الحقّ، فإن نصره الناس وأعانوه فقد نصروا حقّهم وأعانوا أنفسهم، وإن تقاعسوا عن ذلك التزم هو وحده بالحقّ وإن صرع معه.

قال عبد الرحمن الصالح : وهل أنت تخرج معه مصبحاً؟

قال عبد اللّه بن مسلم : ولم لا؟ وهل هنالك فوز أكبر من هذا الفوز؟ إنّه لتوفيق عظيم أن يكون المرء في ركاب ابن بنت رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم، وسيّد شباب أهل الجنّة. فإذا لم نكن في عهد رسول اللّه لكي نقاتل علي التنزيل، فنحن اليوم في عهد الحسين نقاتل علي التأويل.

***

ص: 296

الخطوات الأولي

اليوم الثامن من ذي الحجّة هو يوم الاستعداد لأعمال الحجّ، والانتقال إلي مني، للمبيت فيها ليلة عرفة، ثمّ الذهاب إلي عرفات في صبيحة اليوم التاسع، أو الانتقال من مكّة المكرمة إلي عرفات في يوم غده .

الحجّاج يتروون، ويهيّأون لأنفسهم زاد يوم عرفة وليلة مزدلفة ، ثمّ الذهاب إلي مني للمبيت هناك، ومن ثمّ فإنّ هنالك حركة وعجيجاً في مكّة. والاستعداد للذهاب إلي عرفات أمر عادي في جميع السنوات، لكن ما جعل ذلك اليوم مختلفاً هو إعلان الحسين ، الذي يعتبره المسلمون أمير الحاج، قيامه بالنهضة، فكلّ الحجّاج ينتظرون حركة الحسين حتي يتعلّموا منه، ويقتدوا به، ويمشوا خلفه ، لكن الذي فعله الحسين هو أنّه جاء وطاف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة، ثمّ أحلّ من إحرامه، بعد أن حوّله من إحرام الحج إلي عمرة مفردة(1).

كان خبر إحلال الحسين من إحرامه ، للتوجّه إلي العراق، قد

1- (1) روضة الواعظين، للفال، ص 152؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 230؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص 69.

أثار موجة من التساؤلات : لماذا لا يتأخّر الحسين بضعة أيّام حتّي يكمّل حجّه، ثمّ يذهب إلي العراق؟

ما الذي يراه ابن بنت رسول اللّه ممّا لا يراه غيره حتّي يستعجل في نهضته؟ خاصّة وأنّه منذ فترة لم تصل أخبار إيجابيّة مهمّة من الكوفة التي يتوجّه إليها، بل العكس، فقد وصلت أخبار انتقال عبيد اللّه بن زياد، هذا الرجل الغليظ القلب ، القاسي، الذي لا يعرف لغة غير لغة الدم، انتقاله من البصرة إلي الكوفة كوالٍ عليها ، بدلاً عن النعمان بن البشير الذي رفض أن يحمل السيف في وجه مسلم بن عقيل؟

لقد سئل بعض المقرّبين من الحسين عن هذا القرار المفاجيء له، فكان جوابهم أنّ هنالك أخباراً مؤكّدة بأنّ السلطة الجديدة في الشام، قد أرسلت عصابة من الرجال لقتل الحسين غيلة حين الإفاضة من عرفات إلي المزدلفة(1) ، ثمّ اتهام السرّاق وقطّاع الطرق بذلك.

ولمّا سئل : وماذا لو فشل هؤلاء، أليس باستطاعة الحسين أن يتخذ حرّاساً لنفسه، بأن يكون محاطاً بمجموعة من رجال أهل البيت المعروفين بالشجاعة، كأمثال أخيه العبّاس وابنه عليّ الأكبر؟

فكان الجواب : إنّ مهمّة هؤلاء هو قتل الحسين في مكان ما، بحيث لا تتهم السلطة بذلك، فهي مأمورة بأن تقتل الحسين كيف ما كان، فإن لم تستطع بطريقة خفيّة، فبأية طريقة، حتّي ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة .

1- (1) لواعج الأشجان، للسيد الأمين، ص62؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 193.

ولمّا سئل : إذن هو الخوف من الموت؟

فكان الجواب : أبداً ؛ فالحسين هو الذي بشّر بموت نفسه في ليلة سابقة، واستبشر به معتبراً إيّاه وسيلته للحاق بأسلافه الذين يشتاق إليهم اشتياق يعقوب عليه السلام إلي يوسف عليه السلام ، وإنّما هو هروب من موت ذليل إلي موت عزيز .

هذا بالإضافة إلي أنّه فرق بين أن يقتل الإنسان غيلة، وبين أن ينهض دفاعاً عن قضية، ثمّ يقتل في سبيلها، فتنتصر قضيّته، ومن ثمّ يكون قد أدّي رسالته التي كلّفه اللّه بها، وهذا معني كلام الحسين عليه السلام : شاء اللّه أن يراني قتيلاً. فإذا كان مجرّد إحلال الحسين عليه السلام عن إحرام الحج، وتحويله إلي عمرة مفردة، قد أثار العالم الإسلامي كلّه بهذا الشكل، فكيف إذا تعدّي آل أميّة علي حياته؟ خاصّة وأنّ المواجهة ليست بين شخصين، بل بين مسلكين ومنهجين وطريقتين. ولا شكّ أنّ الحسين هو من يمثّل رسول اللّه في هذه المواجهة، ولو كان رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم حيّاً لفعل ما فعله الحسين عليه السلام.

*

كان عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم في قافلة الحسين، ويرون ما يحدث فيها، ومن أهم ما شاهدوه قبيل حركة الحسين من مكّة أنّه طلب قلماً وقرطاساً، ثمّ كتب رسالة قصيرة جدّاً إلي كلّ بني هاشم، أرسلها إلي محمّد ابن الحنفيّة لكي يبلّغها جميع بني هاشم، ونصّ الرسالة : بسم اللّه الرحمن الرحيم من الحسين بن عليّ إلي محمد بن عليّ ومن قبله من بني هاشم،

أمّا بعد، فإنّ من لحق بي استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح، والسّلام(1) .

وكانت الرسالة بالغة الوضوح في أنّ الحسين يطالب بني هاشم جميعاً أن ينهضوا معه في وجه بني أميّة، وأن يتحمّل كلّ واحد منهم مسؤوليته كاملة غير منقوصة، لمواجهة النفاق والتلاعب بالدّين، ومقارعة الظلم والعدوان.

*

كان الوقت صباحاً عندما تحركت قافلة الحسين عليه السلام من مكّة باتجاه العراق وما إن تحركت القافلة التي ضمّت كوكبة من أهل بيته إلّا وكثر الباكون حولها، إذ لم يبق بمكّة أحد إلّا وحزن لمصيره(2).

ولمّا أكثروا عليه وألحّوا في أن يبقي، أخذ يتمثّل بأبيات أخي الأوس:

سأمضي وما بالموت عار علي الفتي * إذا ما نوي خيراً وجاهد مسلما

وواسي الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مثبوراً وخالف مجرما

فإن عشت لم أندم، وإن متّ لم ألم * كفي بك ذلّا أن تعيش وترغما

ثم قرأ قوله تعالي : (وكان أمر اللّه قدرا مقدورا)(3).

*

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 87؛ وبصائر الدرجات، للصفار، ص 502؛ وإثبات الهداة، للحر العاملي، ج 2، ص 577؛ ودلائل الإمامة ، للطبري، ص 77، والخرائج والجرائح، للراوندي، ج 2، ص 772

2- (2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 137.

3- (3) نفس المهموم، للقمي، ص 170؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي ، ص 137.

خرج مع الحسين عليه السلام من مكّة اثنان وثمانون رجلاً من أولاده وإخوته وأهل بيته وصحابته(1) .

وقد أعطي الحسين لكلّ واحد من أصحابه عشرة دنانير، وجملاً يحمل زاده ورحله، كما حمل بناته وأخواته علي المحامل، وكان خروجه يوم الثلاثاء من أيّام الأسبوع، في الثامن من شهر ذي الحجّة الحرام(2) .

فمجموع الأيّام التي بقي فيها في مكّة المكرّمة، بعد هجرته من المدينة إليها، كانت مائة ونيفاً وعشرين يوماً (3) .

*

لقد شكّل خروج الحسين صدمة لوالي يزيد بن معاوية علي مكّة: عمرو بن سعيد بن العاص، فلم يعلم ماذا يفعل، لأنّه كان متورّطاً مع يزيد في التخطيط لقتل الحسين غيلة، عند انصرافه من عرفات إلي مزدلفة، فأمر صاحب شرطته وهو أخوه يحيي بن سعيد أن يعترض الحسين ويمنعه من الذهاب إلي العراق، فجاء مع مجموعة رجال مسلّحين ووقف أمام الحسين قائلاً : انصرف، إنّ الأمير يأمرك بالانصراف، انصرف وإلّا منعتك.

فامتنع عليهم الحسين، وتدافع الفريقان واضطربوا بالسياط، فنادوه: «يا حسين؛ ألا تتقي اللّه، تخرج من الجماعة وتفرّق بين هذه الأمّة؟

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 220.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج5، ص 120.
3- (3) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 67.

فقرأ الحسين قوله تعالي: (لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون)(1) .

وكادت أن تقع بين الفريقين المواجهة بالسّلاح، فبلغ ذلك عمرو بن سعيد، فخاف أن يتفاقم الأمر، فأرسل إلي أخيه صاحب شرطته يأمره بالانصراف (2).

وفيما كان الحسين مع أهله وأصحابه يخرجون من مكّة المكرّمة، التقي عبد اللّه بن عبّاس بعبد اللّه بن الزبير الذي كان يريد الخلافة لنفسه، ويتمنّي في قرارة نفسه أن يخرج الحسين، ويقتل حتّي يتورّط يزيد وبنو أميّة في دمه، فيستغل الفرصة، ويعلن نفسه خليفة علي المسلمين، التقي به عبد اللّه بن عبّاس فقال له:

يالك من قبّرة بمعمر * خلا لك الجوّ فبيضي واصفري

ونقّري ما شئت أن تنقّري * قد رفع الفخّ فماذا تحذري

هذا حسين سائر فأبشري(3)

*

فقال له عبد اللّه بن الزبير : واللّه ماترون إلّا أنّكم أحقّ بهذا الأمر من سائر الناس.

فقال ابن عبّاس : إنّ من يري من كان في شك، فأمّا نحن

1- (1) سورة يونس، آية 41؛ التاريخ، للطبري، ج 5، ص 385؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 166.
2- (2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 244.
3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 217؛ والمنتظم، لابن الجوزي، ج 5، ص 328.

فمن ذلك علي يقين، ولكن أخبرني عن نفسك لم زعمت أنّك أحقّ بهذا الأمر من سائر العرب؟

قال عبد اللّه بن الزبير : لشرفي عليهم.

قال ابن عبّاس : وبماذا شرّفت؟ إن كان لك شرف فإنّما هو بنا، فنحن أشرف منك، لأنّ شرفك منّا.

فارتفعت أصواتهما، فقال ابن أخ لعبد اللّه بن الزبير : يابن عبّاس دعنا من قولك ، فواللّه أنتم بنو هاشم لا تحبّوننا أبداً . فضربه عبد اللّه بن الزبير بالنعل وقال : أتتكلّم وأنا حاضر؟

فقال له ابن عبّاس: لماذا ضربت الغلام؟ وما استحقّ الضرب، وإنّما يستحقّ الضرب من مرق ومذق.

فقال عبد اللّه بن الزبير : ومن تقصد؟

قال ابن عبّاس : أنت.

فقال عبد اللّه بن الزبير، وهو يريد أن يخفّف من حدّة كلامه مع ابن عبّاس : أما تريد أن تعفو عن كلمة واحدة؟

قال ابن عبّاس : إنّما نعفو عمن أقرّ، فأمّا من هرّ فلا .

فقال ابن الزبير وكأنّه يستجدي العفو منه : فأين الفضل؟

قال ابن عبّاس : عندنا أهل البيت، لا نضعه في غير موضعه فنذم، ولا نزويه عن أهله فنظلم.

فقال عبد اللّه بن الزبير : أولست منكم؟

قال : إن نبذت الحسد، ولزمت الحدود .

وهنا تدخّل عدد من رجال قريش، فأسكتوهما(1).

*

انطلقت قافلة الحسين من مكّة بثبات وتصميم لا مثيل لهما، بالرغم من وجود أخطار جمّة، أقلّها أن يجنّد يزيد بن معاوية ، من خلال بعض ولاته هنا أو هناك، قوّة لمواجهة الحسين في بدايات الطريق، إلّا أنّ ما كان يزيد هذا الخطر أمران:

الأوّل: الشجاعة التي اتصف بها الحسين وأصحابه، ذلك أنّ آل علي عليه السلام كانوا من أشهر من عرف بالشجاعة النفسيّة، والصبر على الجراح، والاطّلاع بعلم الحرب، والقوّة البدنيّة، وكان الوقت مبكّراً في أن يستطيع أحد من الولاة تعبئة أعداد كبيرة لجيش لجم، وإن كان والي الكوفة عبيد اللّه بن زياد يستعد لذلك ليل نهار.

الثاني: إنّ قلوب الناس كانت مع الحسين، ولم يكن يمرّ بمنطقة إلّا وينظّم إليه منها بعض الرجال، مع أنّ الحسين لم يكن يمنّي أحداً بالنصر، ولا بمغانم الدّنيا وحطامها، بل العكس فإنّه كان يتحدّث دائما عن القتال والاستشهاد والجنّة والثواب.

وكان من الذين انضمّوا إلي الحسين في منطقة الأبطح – وهو مسيل وادي مكّة فيها بقاق الحصي أوّله عندما ينقطع الشعب بين وادي مني وآخر متّصل بالمقبرة التي تسمّي بالمعلّي – هو يزيد بن نبيد الذي قدم من البصرة مع اثنين من أولاده هما عبد اللّه وعبيد اللّه مع أشخاص آخرين، فقد جدّ الرجل السير لكي يلحق بالحسين في

1- (1) مختصر ابن منظور، لابن عساكر، ج12، ص 326؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج 20، ص 134.

مكّة، وحينما وصل إليها عرف أنّ الحسـين قد خرج، فجعل يطلبه حتّي جاء إلي رحله، فلمّا رأي الحسين قال : (بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا)(1) ، السّلام عليك يابن رسول اللّه .

ثمّ جلس إلي الإمام عليه السلام ، وأخبره بالذي جاء له، فدعي له الحسين بالخير، ثمّ ضمّ رحلة إلي الحسين (2).

***

1- (1) سورة يونس، آية 58.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 354.

الاستعدادات المضادّة

فيما كانت قافلة الحسـين في طريقها إلي العراق، كان عبد اللّه بن مسلم وعبد الرحمن الصالح، وهما في ركابه، يلتقطان الأخبار ممّا تقوم به السـلطة في الشام أو في العراق، وكان عبد اللّه بن مسـلم أكثر قدرة علي تصـيّد الأخبار، نظراً لعلاقاته الواسـعة مع مختلف الأطراف، فكان يلتقي بالقادمين من الشام، أو من العراق ويسألهم عمّا هناك.

وكان ممّا سـمعاه أنّ يزيـد بن معاوية حينما وصـله خبر خروج الحسـين من مكّة نحو العراق كتب رسالة إلي عبيد اللّه بن زياد _ كما ذكرنا ذلك سابقاً –يقول له فيها: «أمّا بعـد، فقـد بلغني أنّ الحسـين بن عليّ قد توجّه نحو العراق، وقد ابتلي به بلدك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمّال، وعنـدها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد، فضع المناظر والمسالح والأرصاد، وأدق العيون، واحترس كلّ الاحتراس، فاحبس علي الظنّة، وخذ بالتّهمة، واكتب إليّ في كلّ يوم بما يحدث لك، من خير أو شرّ»(1).

وهكذا كانت الأوامر مشدّدة بالتهيئة أوّلا، وبضرب الذين

ص: 306

1- (1) تذكرة الخواص، ص 140؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج 2، ص 85؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 380.

يخالفون السلطة بكلّ قوّة، وأخذ الناس بالتّهمة، وحبسهم علي الظنّة ، ممّا جعل سجون الكوفة - كما ذكرنا - تمتليء بأربعة آلاف شخص، منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي، وسليمان بن صرد الخزاعي، وغيرهم من الأشراف ورجال الكوفة، فمن كان له هوي في أهل البيت كان ذلك كافياً للقضاء عليه، أو إلقائه في الحبس.

أمّا الحسين فكان ذاهباً إلي مبتغاه، وهو يعلم ببصيرته الثاقبة أنّ كلّ كلمة يقولها، وكلّ خطوة يخطوها ستكون مثالا، ونموذجاً ، وقدوة للمؤمنين في التاريخ، كيف لا وهو سبط رسول اللّه ووصيّه ، وإمام المؤمنين وزعيمهم.

*

في منطقة التنعيم التقي الحسين بقافلة من العير كانت تقبل من اليمن، بعث بها بجير بن ريسان الحميري، والي معاوية علي اليمن، لإيصالها إلي الشام، وكانت تحمل الورس والحلل، فأخذها الحسين وانطلق بها، وقال لأصحاب الإبل : «لا أكرهكم، فمن أحبّ أن يمضي معنا إلي العراق وفيناه كراه وأحسنّا صحبته، ومن أحبّ أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء علي قدر ما قطع من الأرض».

وأوفي لمن فارقه حقّه، ومن مضـي منهم معه أعطاه كراه وكساه، وكان عدد الذين اختاروا أن يكونوا في قافلة الحسين من اليمن هم ثلاثة نفر منهم، فزادهم عشرة دنانير وأعطاهم جملا(1).

*

ص: 307

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 386؛ والجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 376.

لمّا رأي عبـد الرحمن الصالح ذلك قال لصاحبه عبد اللّه بن مسـلم: كما أعرف أنّ الحسـين ليس بحاجة إلي الورس والحلل، فلماذا أخذها من هؤلاء؟

قال عبد الله بن مسلم : إنّ هذه أموال المسلمين، ولابدّ من إيصالها إلي المحاويج منهم، أمّا يزيد فهو مغتصب للخلافة، وقد جعل مال اللّه دولاً وعباده خولاً، وليس من حقّه أن يتصـرّف في هـذه الأموال، بينما الحسـين إمام الأمّة، وهو الأمين علي حقوق الناس، وأساسا هو لم يخرج من مكّة إلاّ من أجـل العـدل، فما دام باسـتطاعته أن يقيم العـدل بيـديه فإنّه يفعل، ولا يهمّه ما يترتّب علي ذلك. ألا تري وأنت في الطريق كيف أنّ الحسين يفيض علي الأعراب بكلّ ما تجود به نفسه؟

وإنّمـا فعـل ذلـك لكي يعرف الآخرون أنّ عليهم أن يأمروا بالمعروف قولاً وفعلاً، وينهوا عن المنكر أيضا بالقول والفعل . فإذا كان الحاكم غاصـباً للحكم، فهو لا يملك حقّ التصـرّف في أموال المسـلمين، ومن واجب هؤلاء أن يمنعوه منها . فإذا كنّا لا نري ليزيد حقّاً في الخلافة وزعامة الأمّة، أفهل نري له حقّاً في التصرّف في أموال الناس، والغنائم، والزكوات، وما أشبه؟

*

في منطقة الصـفاح التقي الحسـين بالفرزدق الشاعر، وهو قادم من العراق يريد مكّة، فقال الفرزدق للحسين : أعطاك اللّه سؤلك وأملك فيما تحب يابن رسول اللّه ، ما أعجلك عن الحجّ؟

ص: 308

فقال له الحسين : لو لم أعجل لأخذت(1).

ثمّ قال عليه السلام: يا فرزدق ؛ كيف خلّفت الناس بالعراق؟

فقال الفرزدق : «من الخبير سألت، أنت يابن رسول اللّه أحبّ الناس إلي الناس، فقلوب الناس معك، ولكن سيوفهم مع بني أميّة ، والقضاء ينزل من السّماء، واللّه يفعل ما يشاء».

فقال له الحسين : «صدقت، للّه الأمر، واللّه يفعل ما يشاء ، وكلّ يوم ربّنا في شأن. إنّ الناس عبيد الدّنيا والدّين لعق علي ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون(2).

«يا فرزدق ؛ إنّ هؤلاء قوم لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين ، وأنا أولي من قام بنصرة دين اللّه، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله لتكون كلمة اللّه هي العليا (3) .

«فإن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد اللّه علي نعمائه، وهو المستعان علي أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلا يعتب من كان الحقّ نيّته، والتقوي سريرته» .

ثمّ حرّك الحسين راحلته وافترق عنه الفرزدق(4) .

1- (1) الإرشاد، للمفيد، ص218.

2- (2) نزهة الناظر، للحلواني، ص 42.

3- (3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 251.

4- (4) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 276؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 410.

ومشي الحسين بأهله ، من إخوته وأخواته، وعلي رأسهن كانت العقيلة زينب الكبري بنت فاطمة الزّهراء، لكنّ زوجها : عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، ابن عمّ الحسين، لم يكن معهم، وكان من الحريصين علي حياة الحسين، ومشفقاً عليه، وخائفاً من حركته تلك، ولذلك حينما سمع بخروج الإمام من مكّة باتجاه العراق كتب إليه رسالة أرسلها مع ابنيه عون، ومحمّد. وجاء في رسالته - كما ذكرنا -: إنّي مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك(1) .

ولمّا قرأ الحسين الكتاب قال لمن حوله : إنّي رأيت رسول اللّه في المنام وأمرني بأمر أنا ماضٍ له.

وحينما سئل عن تلك الرؤيا قال : ما حدّثت بها أحداً، ولا أحدّث حتّي ألقي ربّي عزّ وجلّ.

أمّا عون ومحمد فقد لزما الحسين بناءً علي أمر والدهما، وبقيا معه في قافلته نحو العراق.

*

ولمّا وصل إلي بطن «الرمّة» نزل علي ماء من مياه العرب، وهناك لقيه عبد اللّه بن مطيع، وهو منصرف من العراق، فسلّم علي الحسين وقال له:بأبي أنت وأمّي يابن رسول اللّه، ما الذي أخرجك من حرم اللّه وحرم جدّك؟

فقال الحسين : إنّ أهل الكوفة كتبوا إليّ يسألوني أن أقدم عليهم، لما رجوا من إحياء معالم الحقّ، وإماتة البدع.

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 277؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 388.

فقال ابن مطيع : أنشدك اللّه أن لا تأتي الكوفة، فواللّه لأن أتيتها لتقتلن، وإن قتلوك لا يهابون أحداً أبدا، واللّه إنّها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب(1) .

فقال له الحسين: «يا عبد اللّه؛ أكلّ ذلك فراراً من الموت؟ قل لن يصيبنا إلّا ما كتب اللّه لنا. واللّه إنّ الموت علي الحقّ أولي من الحياة علي الباطل، واللّه لجهاد يزيد علي الدّين، أحقّ من جهاد المشركين».

وهكذا كلّما نزل الحسين في منزل والتقي بالمسافرين من هنا وهناك كان يبيّن أهدافه الربانيّة في نهضته، ليس فقط لكي يعتذر إلي اللّه عزّ وجلّ فيما هو مقدم عليه ، ويتمّ الحجّة علي أعدائه فحسب، وإنّما لكي يبيّن الأسس التي يجب أن يبني عليها المؤمنون أمورهم في كل نهضة يقومون بها في المستقبل .

وممّن التقي بهم الحسين عليه السلام رجل من أهل الكوفة يكنّي أبا هرّة الأزدي، فقال للحسين : يابن بنت رسول اللّه ، ما الذي أخرجك من حرم اللّه، وحرم جدّك محمد صلي الله عليه و آله و سلم ؟

فقال الحسين: «يا أبا هرّة؛ إنّ بني أميّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فسكتّ، وطلبوا دمي فهربت. واللّه يا أبا هرّة لتقتلنّي الفئة الباغية، وليلبسنّهم اللّه ذلّاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وليسلطنّ اللّه

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 396؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 246. (2) وسائل المظفري، لليزدي، ص 437.

عليهم من يذلّهم حتّي يكونوا أذلّ من قوم سبأ، إذ ملكتهم امرأة ، وحكمت في أموالهم و في دمائهم»(1).

ولمّا نزل في منطقة شقوق أتاه رجل، فسأله الإمام عن العراق، فأخبره بحاله. فأنشد الحسين قائلاً :

فإن تكن الدّنيا تعدّ نفيسةً * فدار ثواب اللّه أعلي وأنبل

وإن تكن الأموال للترك جمعها * فما بال متروك به المرء يبخل

وإن تكن الأرزاق قسماً مقدّراً * فقلّه حرص المرء في الكسب أجمل

وإن تكن الأبدان للموت أنشأت * فقتل امريء بالسّيف في اللّه أفضل

عليكم سلام اللّه يا آل أحمد * فإنّي أراني عنكم سوف أرحل (2)

ويبدو أنّ الرجل تحدّث مع الحسين عليه السلام بكلام كأنّه يعلّمه ما لا يعرف، فقال له الحسين : من أيّ البلاد أنت؟

قال : من أهل الكوفة .

قال الحسين: «أمّا واللّه يا أخا أهل الكوفة، لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرائيل من دارنا، ونزوله بالوحي علي جدّي. يا أخا أهل الكوفة؛ مستقي العلم من عندنا، أفعلموا وجهلنا؟ هذا ما لا يكون»(3).

*

وفي منطقة الحاجز ببطن الرمّة كتب الحسين كتاباً إلي المؤمنين من أهل الكوفة، بعثه مع قيس بن مسهّر الصيداويّ، ونصّ الرسالة

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 124؛ والعوالم، ج17، ص 163.
2- (2) الكامل، للبهائي، ج 2، ص 277؛ والمناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 95.
3- (3) بصائر الدرجات، للصفار، ص 32؛ والأصول من الكافي، للكليني، ج2، ص 250.

كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلي إخوانه من المؤمنين والمسلمين».

«سلام عليكم، أمّا بعد، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه حسن رأيكم، واجتماع ملأكم علي نصرنا، والطلب بحقّنا، فسألت اللّه أن يحسن لنا الصنع، وأن يثيبكم علي ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء، لثمان مضين من ذي الحجّة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدّوا ، فإنّي قادم عليكم في أيّامي هذه إن شاء اللّه، والسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته»(1).

*

قال عبد الرحمن الصالح لصاحبه عبد اللّه بن مسـلم: حقّاً إنّ الدّنيا غدّارة، فرجل ورث من جدّه كلّ صفاته، وآثار جبرائيل في داره، ويستقي علمه من أبيه وهو باب مدينة علم الرّسول، بدل أن يكون مرجعاً للناس جميعاً، يهيم علي وجهه بالبراري والصـحاري، وينتقل من منزل إلي منزل، لا لكي يصل إلي مرتع من المراتع، وإنّما ليؤدّي ما عليه من الواجب، ويدافع عن المظلومين والمستضعفين، وينتصر للحقّ وأهله.

فقال عبد اللّه بن مسـلم : هكذا كان يا أخي أنبياء اللّه وأوصـياؤهم، فهم: (رجال صدقوا ما عهدوا اللّه عليه فمنهم مّن قضي نحبه ومنهم مّن ينتظر وما بدّلوا تبديلا)(2) .

*

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 395؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 72.
2- (2) سورة الأحزاب، آية 23.

ثمّ إن الحسـين وصل إلي بطن العقيق وهو من منازل الحجّاج، ومنه يحرم أهل العراق، فلقيه شـيخ من بني عكرمـة يقال له عمرو بن لوذان، فقال : يا أبا عبد اللّه ، أين تريد؟

قال الحسين : الكوفة.

فقال الشـيخ: أنشدك اللّه لمّا انصـرفت، فواللّه ماتقدم إلّا علي الأسنّة وحدّ السيوف، وإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال، ووطأوا لك الأشياء، ثمّ قدمت عليهم بعد ذلك كان ذلك رأياً، فأمّا علي هذه الحال التي تذكر فإنّي لا أري لك أن تفعل.

فقال له الحسـين: «يا عبد اللّه ؛ ليس يخفي عليّ الرأي، ولكنّ اللّه تعالي لا يغلب علي أمره. ثمّ قال : واللّه لا يدعونني حتّي يسـتخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط اللّه عليهم من يذلّهم حتّي يكونوا أذلّ فرق الأمم»(1).

*

سمع عبد الرحمن وصاحبه حوار الحسـين مع الشيخ، فقال عبد الرحمن : يبدو أنّ المصير عند الحسين محسوم، ولا مجال للتراجع عنه، إذ لا نسمع منه إلّا الحديث عن أمر اللّه وقضاء اللّه ، وأنّ سلطة بني أميّة سوف لن تدعه حتّي تقتله، ويستخرجوا العلقة من جوفه .

قال عبد اللّه : هو كذلك، فظواهر الأمور تدلّ علي ما تقول،

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 399؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 78؛ والفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 189.

وإن كان ما يجري في الكوفة غير واضح حتّي الآن، فدعنا نري ماذا سيكون الوضع هناك.

*

كان الحسين في طريقه إلي الكوفة لا يتنكّب الطريق الأعظم، وإنّما يمشي في الطرق المعهودة التي يمشي فيها المسافرون، وكان ينزل في المنازل التي يستريحون فيها، وهو لم يكن مستعجلا للوصول إلي الكوفة، علي عكس عبيد اللّه بن زياد الذي ما إن نصبه يزيد بن معاوية والياً علي الكوفة حتّي جدّ السير حتّي يصل إليها قبل أن يصل الحسين، والسبب في هذا الاختلاف هو أنّ عبيد اللّه بن زياد كان يبحث عن السلطة، أمّا الحسين فكان يؤدّي مسؤوليته في الاستجابة لمن طلبوا منه أن يكون إماماً لهم.

وعلي كلّ حال فإنّ الحسين كان يلتقي بالأعراب وبالمسافرين، سواء القادمين من الكوفة أو الذاهبين إليها، وكان أغلب القادمين من الكوفة كما ذكرنا يحذّر الحسين من الاستمرار في التوجّه إليها، نظراً لتحكيم السلطة الأمويّة قبضتها هناك، وتعبئة الموارد لتنظيم الجيش لمواجهة أهل البيت.

*

سار موكب الحسين ومن معه حتّي نزلوا في منطقة زرود، وكان معه رجلان من بني أسد قد قضيا حجّهما، ولم تكن لهما همّة إلّا اللحاق بالحسين لينظرا ما يكون من أمره وشأنه، فأقبلا مسرعين

حتّي لحقاه في تلك المنطقة. فلمّا دنوا منه، إذا بهما يرون رجلاً قادماً من الكوفة، ولكنّه بمجرّد أن رأي موكب الحسين عليه السلام عدل عن الطريق، مع أنّ الحسين وقف كأنّه كان يريد خبره .

ص: 315

فقال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلي هذا فلنسأله، فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه .

فمضيا حتّي انتهيا إليه، فسألاه عن نسبه ، فقال : أنا أسديّ.

فقالا له: ونحن أسديّان، فمن أنت؟

قال : أنا بكير بن متعبة . فتعرّف بعضهم علي بعض، ثمّ قالا له: أخبرنا عن الناس ورائك؟

قال : نعم؛ لم أخرج من الكوفة حتّي قتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، ورأيتهما يجرّان بأرجلهما في الأسواق.

ثمّ مضي الرجل في طريقه .

فأقبل هـذان الأسديّان حتّي لحقا بالحسـين، فسايراه حتّي نزل الثعلبيّة في المساء، فسـلّما عليه ورد عليهما، فقالا له: يرحمك اللّه ، إنّ عندنا خبراً، فإن شئت حدّثناك علانية وإن شئت حدّثناك سرّاً .

فنظر الحسين إلي أصحابه وقال : ما دون هؤلاء من سرّ.

فقالا له: أرأيت الراكب الذي استقبلك عشاء أمس؟

قال الحسين : نعم؛ وقد أردت مسألته.

فقالا له: قـد اسـتبرأنا لك خبره، وكفيناك مسألته، وهو امريء أسـديّ منّا، ذو رأي وصـدق، وفضل وعقل، وإنّه حدّثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتّي قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وأنّه رآهما يجرّان في السوق بأرجلهما .

فقال الحسين : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، رحمة اللّه عليهما ..

وردّد ذلك مراراً .

ثمّ قال له الرجلان: ننشدك اللّه في نفسك وأهل بيتك إلّا انصـرفت من مكانك هذا، فليس لك بالكوفة ناصـر ولا معين، بل نتخوف أن تكون الكوفة عليك.

فنظر الحسين إلي إخوة مسلم من بني عقيل، وقال لهم: ما ترون، فقد قتل مسلم؟

فقالوا : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، واللّه لا نرجع حتي نصيب ثأرنا، أو نذوق ما ذاق.

فأقبل الحسين علي الرجلين وقال : لا خير في العيش بعد هؤلاء.

فعلما أن الحسين قد عزم علي المسير .

فقالا له: خار اللّه لك.

فأجابهما الحسين بقوله : رحمكم اللّه .

ثمّ جمع الحسين من كان معه وقال لأصحابه : قد ترون ما يأتينا من الأخبار، وما أري القوم إلّا سيخذلوننا، فمن أحبّ أن يرجع فليرجع(1).

فانصـرف عنه الذين صاروا إليه في طريقه، وبقي أصحابه الذين خرجوا معه من مكّة، وعدد قليل ممّن صحبه بعد خروجه، فكان عدد الخيّالة منهم إثنين وثلاثين فارساً (2).

1- (1) نهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 414.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 398؛ والحسين في طريقه الشهادة، للهاشمي، ص 72؛ والطبقات، لابن سعد، ص 68.

وبعد وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل، وتفرّق أهل الأطماع والارتياب عن الحسين وبقاء أهله وخيار أصحابه، ارتجّ الموضع بالبكاء، وسالت الدموع كلّ مسيل، ولكن ثقل المسؤولية التي كانوا يشعرونها لم تدع لهم خياراً إلّا الجدّ في طريقهم للوصول إلي مبتغاهم(1).

ومع أنّ الصورة أصبحت واضحة لكلّ من كان مع الحسين، إلّا أنّ بعضهم كان لا يزال يري أنّ من الممكن أن تنقلب المعادلة ومن ثمّ يفشل عبيد اللّه بن زياد في الكوفة، ويقوم الناس بما يجب عليهم إذا وصل إليهم الحسين .

فقد قال له بعض من كان معه : إنّك واللّه ما أنت بمثل مسلم، ولو قدمت الكوفة ونظر الناس إليك لكانوا إليك أسرع، وما عدلوا عنك ولا عدلوا بك أحداً .

لكنّ الحسين لم يعلّق علي ذلك، بل سكت وسار في طريقه(2) .

*

بعد استشهاد مسلم بن عقيل، كان الحسين كثيراً ما يردّد قوله تعالي : (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(3)، وأحياناً يتمثل بقول الشاعر:

سأمضي وما بالموت عار علي الفتي * إذا ما نوي حقّا وجاهد مسلما

وواسي الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مثبوراً وخالف مجرما

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 74؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص 250.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 215 و 229.

3- (3) سورة البقرة، آية 156.

فإن عشت لم أندم وإن متّ لم ألم * كفي بك ذلّاً أن تعيش ترغما

ثمّ أمر فتيانه بأن يكثروا من حمل الماء، فاستقوا وأكثروا منه ، ثمّ ارتحلوا من الثعلبيّة (1).

*

وسار حتّي وصل منطقة يقال لها زبالة، وهناك استقبل شخصاً جاء كرسول من قبل محمّد بن الأشعث وعمر بن سعد لكي يخبر الحسين بخذلان أهل الكوفة إيّاه بعد أن بايعوه. فلمّا سمع الحسين ذلك قال : كلّما حمّ - أي قضي وقدّر - نازل، وعند اللّه نحتسب أنفسنا وفساد أمّتنا(2) .

ولم يفعل الحسين شيئاً برسول عمر بن سعد ومحمّد بن الأشعث، بل أكرمه وتركه يرجع إلي الكوفة.

*

كان عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم حاضرين في ذلك المكان، فقال عبد الرحمن لصاحبه: إنّ بني أميّة قتلوا رسول الحسين وهو مسلم بن عقيل، وقتلوا من آواه وهو هاني بن عروة، لكنّ الحسين لا يمسّ رسولهم بسوء، بل ويكرمه، ويتركه يعود سالماً إلي من جاء من قبله؟

قال عبد اللّه بن مسلم: يا أخي؛ إنّ أهل البيت هم خلاصة الفضائل، وبنو أميّة خلاصة الرذائل، وهذا الذي تراه ليس خلافاً بين شخصين - كما قلت لك من قبل - وإنّما هو اختلاف بين طريقتين

1- (1) نهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 414.
2- (2) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 273؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 375.

وسنّتين، بين أتباع الأنبياء الصادقين، وبين أهل الدّنيا المنافقين . وكما تري فإنّ هؤلاء لا يرقبون في اللّه إلّا ولا ذمّة، ولا يتركون وسيلة لدعم سلطانهم إلّا ويستخدمونها، فلا يحترمون حدود اللّه ولا يقيمون للأخلاق والفضائل أي وزن. لقد أعماهم حبّ السلطان، وحليت الدّنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها .. ألا تري كيف أنّهم باسم رسول اللّه يحكمون، و رسول اللّه هو جدّ الحسين، ودماء رسول اللّه تجري في عروق الحسين وأهل بيته، ولولا سيف عليّ - والد الحسين - لما كان هؤلاء مسلمين، وهم لم يدخلوا في الدّين إلا طمعا في الدّنيا ، أو خوفا علي أنفسهم.

قال عبد الرحمن : ولكن لماذا لا يرجع الحسين، وقد جاءته الأخبار المؤكّدة بأنّ أوليائه إمّا مقتولون، أو مسجونون، أو مشرّدون، وأنّ الكوفة في قبضة بني أميّة، فليترك الأمور لهم؟

فقال عبد اللّه : أيترك الحسين دين جدّه، ليتلاعب به المرجفون؟

أيترك الحسين هذه الأمّة تحت سياط بني أميّة، ليظلموا الناس باسم الدّين، وباسم شريعة سيّد المرسلين؟

أيسكت سيّد شباب أهل الجنّة، ليرتكب هؤلاء المأثم والجرائم، باسم رسول اللّه؟

إنّ الحسين يعرف سلفاً أنّ هؤلاء الذين قتلوا عمّار بن ياسر، والذي كان الجميع قد سمعوا من النبي صلي الله عليه و آله و سلم قوله: «تقتلك الفئة الباغية»(1)، ولم يرعوا إلّا ولا ذمّة في إراقة دماء عشرات الألوف

1- (1) دعائم الإسلام، للقاضي النعمان المغربي، ج 1، ص 392.

من المسلمين لن يتركوه، وإنّهم قاتلوه علي كلّ حال، وهذا ما قاله أكثر من مرّة، فهل يتركهم يفعلوا ذلك من دون أن يحرّك ساكناً؟

*

في أثناء الطريق رأي رجل كان يعود من الحجّ خياماً مضروبة في الطريق إلي الكوفة، فسأل: لمن هذه؟

فقالوا: للحسين بن عليّ.

فدخل علي الحسين، فرآه يقرأ القرآن، والدموع تسيل علي خدّيه . فقال له: بأبي أنت وأمي يابن بنت رسول اللّه، ما أنزلك هذه البلاد والفلات التي ليس بها أحد؟

فقال له الحسين : هذه كتب أهل الكوفة إليّ . ثمّ سكت هنيئة ، ثمّ قال : ولا أراهم – ويقصد بني أميّة – إلّا قاتلي، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا للّه حرمة إلّا انتهكوها(1).

*

بعد مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة دعا الحسين عليه السلام بدواة وبياض، وكتب إلي أشراف الكوفة رسالة جاء فيها: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلي جماعة المؤمنين .

«أمّا بعد، فقد علمت من رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم أنّه قد قال في حياته : من رأي سلطاناً جائراً، مستحلّاً لحرم اللّه، ناكثاً لعهد اللّه ، مخالفة لسنّة رسول اللّه، يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان، ثمّ لم يغيّر عليه بقول ولا فعل كان حقّا علي اللّه أن يدخله مدخله» .

1- (1) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج 2، ص 345.

وقد علمت أنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولّوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا في الأرض الفساد، وعطّلوا الحدود والأحكام، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام اللّه، وحرّموا حلاله، وإنّي أحقّ بهذا الأمر، لقرابتي من رسول اللّه، وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تخذلوني، فإن وفيتم لي ببيعتكم فقد أصبتم حظّكم ورشدكم، ونفسي مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهليكم و أولادكم، فلكم بي أسوة».

«وإن لم تفعلوا ونقضتم عهودكم، ونكثتم بيعتكم ومواثيقكم، فلعمري ما هي منكم بالنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن ينكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغني اللّه عنكم، والسّلام». .

وأرسل هذا الكتاب مع أخ له من الرضاعة، اسمه عبد اللّه بن يقطر، إلي أهل الكوفة(1).

***

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 186؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 228.

تعبئة الكوفة ضدّ الحسين

بعد الانتهاء من قتل مسـلم بن عقيل قام عبيد اللّه بن زياد بتعبئة الناس لمواجهة الحسـين وأصحابه ، وأمر مناديه في الكوفة أن ينادي : ألا قد برئت الذمّة ممّا لا يخرج لقتال الحسين .

وزاد في أعطيات من كانوا يأخذون الأموال من الدولة مائة في المائة، بالإضافة إلي أنّه اعتقل كثيراً من الأشـراف الذين لم يكن باستطاعته أن يجبرهم علي قتال الحسين، ولا أن يقتلهم، خوفاً من أن تنهض ضدّه العشائر التي كانوا ينتمون إليها .

ثمّ أمر صاحب شـرطته الحصـين بن نمير، أن يتوجّه في أربعة آلاف فارس من المقاتلين من أهل الكوفة إلي المناطق المحيطة بتلك المدينة لينتشـروا ما بين القادسيّة إلي خفّان، وما بين القادسيّة إلي القطقطانة وإلي لعلع، وأن يضع المصالح والحواجز فينظّم الدخول والخروج إلي مدينـة الكوفـة، ويمنع الناس من الالتحاق بالحسين، ويمنع أصـحاب الحسـين من الـدخول إلي الكوفـة، فلا يـدعون أحـداً يلج، ولا أحداً يخرج(1).

1- (1) البداية والنهاية ، لابن كثير، ج 8، ص 170؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 392؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 243.

وفي ذات الـوقت وجّه الحرّ بن يزيـد الريـاحي اليربـوعي، في ألـف فـارس للبحث عن الحسـين في الطريق، لمنعه من التحرّك أو جلبه إلي الكوفة(1).

وقال له: إذا لقيت الحسين فسايره، ولا تدعه يرجع حتّي يدخل الكوفة، وجعجع به(2) .

وهكذا فإنّ ابن زياد سيطر علي المنطقة الواقعة ما بين منطقة «واقصة» إلي مفرق طريق الشام، وإلي مفرق طريق البصرة.

وقبل أن تصل هـذه القوات إلي الحسـين، التقي الإمام ببعض الأعراب، فسألهم عن الأوضاع، فقالوا : واللّه لا نـدري، غير أنّا لا نسـتطيع أن نلج ولا أن نخرج(3).

وبما أنّ المنطقـة كلّها قـد أصـبحت تحت سـيطرة ابن زياد، فإنّ جميع الطرق أصـبحت غير آمنـة، ولذلك فإنّ عبد اللّه بن يقطر، الذي كان يحمل رسالة الحسين إلي أهل الكوفة، وقع في قبضة الحصين بن نمير في منطقة القادسيّة، فمزّق عبد اللّه رسالة الحسين، حتّي لا تقع في يد الأعداء. فاعتقله الحصين، وأرسله إلي عبيد اللّه بن زياد، وهناك في الكوفة سأله عبيد اللّه عن نسبه؟

فقال : أنا موليً لبني هاشم .

قال ابن زياد: فما اسمك؟

قال : اسمي عبد اللّه بن يقطر .

ص: 324

1- (1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 166.
2- (2) الطبقات، لابن سعد، ص 68.
3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 392؛ والبحار، ج 44، ص 371.

فسأله عن الرسالة التي كانت معه، ومن أعطاها له، فامتنع من أن يذكر شيئاً عن ذلك.

فقال له ابن زياد : إمّا أن تخبرني من دفع إليك هذا الكتاب فتنجو من يدي، وإمّا أن تصعد المنبر فتلعن الحسين بن عليّ وأباه، ثمّ تنزل حتّي أري فيك رأيي.

فقال عبد اللّه بن يقطر : أمّا أن أخبرك لمن كانت الرسالة، فلن أفعل، وأمّا الصعود علي المنبر فنعم.

فجمع ابن زياد الناس في المسجد، وأمر عبد اللّه بن يقطر أن يصعد، فلمّا أشرف علي الناس قال: «أيّها الناس؛ إنّي رسول الحسين ابن فاطمة بنت رسول اللّه إليكم، لتنصروه وتوازروه علي ابن مرجانة الدعيّ وابن الدعيّ، لعنه اللّه .

وقبل أن يكمّل كلامه أمر عبيد اللّه بن زياد جلاوزته، فأنزلوه

من المنبر، ثمّ أمر به، فألقوه من فوق القصر إلي الأرض، فتكسّرت عظامه وبقي به رمق وهو يضطرب، فهجم عليه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي، فذبحه وهو في تلك الحالة(1).

*

وأمّا قيس بن مسهّر الصيداوي فهو أيضاً وقع في قبضة جنود الحصين بن نمير، وفعل قيس مثل ما فعل عبد اللّه بن يقطر، حيث أخرج كتاب الحسين فمزّقه عن آخره، فأخذوه حتّي أتوا به إلي عبيد اللّه بن زياد، فقال له: من أنت؟

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 398؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 379؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 187.

قال : أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ .

قال : فلم خرقت الكتاب الذي كان معك؟

قال : حتّي لا تعلم أنت ما فيه.

قال ابن زياد: وممّن كان هذا الكتاب، وإلي من كان؟

قال: من الحسين إلي جماعة من أهل الكوفة، لا أعرف أسمائهم.

فغضب ابن زياد وقال : واللّه لا تفارقني أبداً، أو تدلّني علي هؤلاء القوم الذي كتب إليهم هذا الكتاب، أو تصعد المنبر فتسبّ الحسين وأباه وأخاه، أو لأقطعنّك.

فقال قيس: أمّا هؤلاء القوم فلا أعرفهم، وأمّا الأخري فإنّي أفعل.

فأمر به ابن زياد، فأدخل المسجد الأعظم، ثمّ صعد المنبر ونادوا بالناس : الصلاة جامعة. فلمّا اجتمعوا، قام قيس فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ صلّي علي محمّد وآله، وأكثر الترحّم علي عليّ وولده، ثمّ لعن عبيد اللّه بن زياد وأباه . ثمّ قال : أيّها الناس؛ هذا حسين بن عليّ خير خلق اللّه ابن فاطمة بنت رسول اللّه ، وأنا رسوله إليكم، وفارقته بالحاجز، فأجيبوه(1).

ولمّا أخبر ابن زياد بما قاله أمر أن يصعد به القصر، ويرمي به من أعلاه، فأصعدوه أعلي القصر ورموا به علي أمّ رأسه، فاندقّ عنقه وخرج دمه من أذنيه ومات(2).

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 146؛ وتجارب الأمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص 57.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 236.

أنباء مقلقة، وحوادث مؤسفة

منذ خروج الحسين من المدينة، وخلال بقائه في مكّة، كانت الأنباء التي تصل إليه كلّها تدلّ علي التفاف المؤمنين حوله.

فكانت الأنباء كلّها سارّة حيث أنّ الناس بدأوا ينشطون في سبيل اللّه، ويرفضون الباطل المتمثّل في السلطة الأمويّة القائمة علي الظلم والعدوان، والاحتيال والاغتيال.

ولكن منذ خروجه من مكّة المكرّمة انقلبت الأمور تماماً ، فكانت الأنباء التي تصله تباعاً كلّها مقلقة وغير سارّة، كما أنّ الحوادث التي مرّ بهاكلّها كانت تصبّ بالاتجاه المعاكس لنهضته .

ففي منطقة زبالة، التي سمّيت بهذا الاسم باعتبار ضبطها للماء وأخذها منه ، وكانت قرية عامرة بها أسواق، وتقع بين منطقة الواقصة والثعلبيّة، وصل إلي الحسين خبر مقتل أخيه من الرّضاعة عبد اللّه بن يقطر، وكان قد وصله من قبل خبر مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فجلس الحسين وكتب كتابا، ثمّ قرأ علي من كان معه، وهذا نصه.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد، فقد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد اللّه بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن كان منكم يصبر علي حدّ السيوف، وطعن الأسنّة فليقم

معنا، ومن أحبّ منكم الانصراف، فلينصرف من غير حرج، ليس عليه منّا ذمام.

ووقع هذا الخبر علي الحاضـرين مثل الصاعقة، ليس بسبب مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فهذا الخبر كانوا قد سمعوه ، ولكن مقتل عبد اللّه بن يقطر، أخو الحسـين من الرّضاعة، الذي لم يكن إلّا مجرّد رسول منه إلي بعض أهل الكوفة، شكّل مفاجأة كبيرة، فقد دلّ علي أنّ السلطات مستعدّة أن تذهب إلي نهاية المطاف، وترتكب كلّ إجرام ضدّ الحسين، ذلك أنّ الرّسل في جميع الأعراف والأمم لا تقتل، وحتّي في الجاهليـّة، لم يكن المتخاصـمون يقتلون الرّسل، وإذا حـدث وأنّ رسولاً قتل فإنّه كان بمثابة إعلان للحرب، وكانوا يعطون للطرف الذي ينتمي إليه الرسول الحق في أن يشنّ الهجوم علي من قتلوه.

والسـبب الذي جعل الحسـين يعلن مقتل عبد اللّه بن يقطر أنّه علم أنّ الذين اتبعوه من الأعراب إنّما اتبعوه لأنّهم ظنّوا أنّه سيأتي إلي بلد قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسير معه إلّا من يعلم أنّه يقدم علي قتال وحرب، فلم يكن يريد إلّا من وطّن نفسه علي الموت معه .

وبعد تكرار مثل هذا الكلام من الحسـين، لم يبق معه إلّا أهل بيته ومواليه الذين قالوا: «واللّه ما نرجع حتّي نأخذ بثأرنا ونذوق الموت غصـّة بعد غصّة. وكان عددهم أقل من ثمانين رجلاً، ومعظمهم من الذين خرجوا معه من مكّة (1)وقليل ممّن انضمّ إليه في الطريق.

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 399؛ وينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص62؛ ومقتل أبي مخنف، ص 43.

ومن هؤلاء زهير بن القيس البجلي، وهو من أشراف الناس ، وكان عثماني الهوي، لا يرغب في عليّ وأولاد عليّ، وكان الرجل قد أتمّ حجّه، فأقبل يتّجه نحو الكوفة، وكان أبغض شيء إليه أن يلتقي بالحسين، ويسير معه في طريق واحد، أو أن ينزل معه في منزل واحد، فإذا سار الحسين تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير، لكن الظروف اضطرّته للنزول مع الحسين في منطقة «زرود»، وكان ذلك في اليوم الواحد والعشرين من ذي الحجّة سنة ستّين، فنزل الحسين في جانب، ونزل زهير بن القين ومن معه في جانب آخر.

وبينما كان زهير وأصحابه جلوساً يتغدّون من طعام لهم، إذ دخل عليهم رسول الحسين وسلّم، وقال : يا زهير، إن أبا عبد اللّه الحسين بن عليّ بعثني إليك لتأتيه.

فطرح كلّ واحد من الحضور ما في يده من الطعام، وجلسوا ساكتين كأنّ علي رؤوسهم الطير، وكان واضحاً أنّ الرجل لا يريد أن يستجيب للحسين وأن يكلّمه.

فقامت زوجته واسمها «دلهم بنت عمرو» وقالت له: سبحان اللّه ؛ أيبعث إليك ابن رسول اللّه ثمّ لا ـ تأتيه، فلو أتيته فسمعت كلامه ثمّ انصرفت؟

فقام زهير علي كره منه، وذهب مع الرّسول متثاقلاً ، فما كانت إلّا ساعة إلّا ورجع بوجه مشرق مستبشر، فأمر بفسطاطه ومتاعه ورحله أن تنقل إلي جانب الحسين، ثمّ قال لزوجته : الحقي بأهلك ، فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خير.

كان واضحاً أنّ الرجل اتخذ قراره بالالتحاق بقافلة الحسين، فقامت إليه زوجته وبكت وودّعته وقالت له: كان اللّه لك عوناً

ومعيناً، خار اللّه لك، أسألك أن تذكرني عند جدّ الحسين يوم القيامة(1).

ثمّ قال زهير لأصحابه : من أحبّ منكم أن يتّبعني، وإلّا فإنّه آخر العهد.

وأضاف: إنّي سأحدّثكم حديثاً : غزونا بلنجر، ففتح اللّه علينا ، فأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الفارسي: أفرحتم بما فتح اللّه عليكم، وأصبتم من الغنائم؟

فقلنا : نعم.

فقال لنا: إذا أدركتم سيّد شباب أهل الجنّة، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم، منكم بما أصبتم من غنائم.

ثم قال : أما أنا فإنّي أستودعكم اللّه، والتحق بالحسين (2).

وسارت قافلة الحسين حتّي نزلت في الخزيميّة، فأقام فيها يوماً وليلة، فلمّا أصبح أقبلت إليه أخته زينب وقالت : أبا عبد اللّه ، إنّي سمعت البارحة هاتفاً يقول:

ألا يا عين فاحتفلي بجهدي * فمن يبكي علي الشّهداء بعدي

علي قوم تسوقهم المنايا * بمقدار إلي إنجاز وعدي

فقال لها الحسين : يا أختاه، كلّ الذي قضي اللّه فهو كائن(3).

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 184.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 397.

3- (3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص164؛ ومقتل الحسين، اللخوارزمي، ج 1، ص 226.

كـانت تلك واحـدة من عشـرات الشواهـد التي تـدلّ علي أنّ قافلـة الحسـين مكتوب عليها الموت في سبيل اللّه ، وأنّ جميع من فيها سوف يقتلون، حتّي أنّ الحسـين حينما نزل في بطن العقبـة قال لأصـحابه : ما أراني إلّا مقتولا، فإنّي رأيت في المنام كلاباً تنهشـني، وأشـدّها عليّ كلب أبقع(1).

*

في منطقة الشراف أمر الحسين فتيانه أن يحملوا الكثير من الماء.

قال عبـد الرحمن الصالـح لصاحبه: تري، لماذا يأمر الحسـين الفتية بحمل أكبر قدر ممكن من الماء، أليست هنالك منازل في الطريق فيها الماء؟ ألسنا نمشي مع شطّ الفرات؟

قال عبد اللّه بن مسلم: ما دامت القافلة محكومة بالموت فلابدّ من الاستعداد لكلّ شيء.

قال عبد الرحمن : وهل الواثق من موته يفكّر في مثل هذه الأمور؟

قال عبد اللّه : إنّ الحسـين لن يستسـلم، وفرق كبير بين من يثق بموته وهو ذليل، وبين من يقدم علي الموت وهو عزيز. فلا شكّ أنّ الحسين سيدافع عن نفسه وحقّه وأهل بيته، ولابدّ من الاهتمام بعناصـر البقاء. ألا تري أنّ الحسـين مع أنّه لم يقصد القتال، بدليل أنّه يحمل معه أهل بيته وأطفاله ونسائه والصغار والكبار منهم، فإنّه

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 213؛ وكامل الزيارات، ص 75؛ والحسين في طريق الشهادة، للهاشمي، ص 89.

يحمل معه السيف والرّمح والسهم. فالحسين لا يريد القتال، ولكن إذا فرض عليه ذلك فسوف يقاوم، ويعمل بوصيّة أبيه لأخيه الحسن، حينما قال له: «لا تدعونّ إلي مبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإنّ الداعي باغ والباغي مصر وع»(1). هذا بالإضافة إلي أنّ الحسين يفكّر في أهله وعياله، فحتي لو قتل الرجال فإنّ العيال بحاجة إلي الماء.

قال عبد الرحمن: إذا لم يكن الحسين يريد قتالا، فلربّما يسلم من الموت، لأنّ القوم ربّما لا يحبذون قتله؟

قال عبد اللّه : لا أظنّ ذلك، إنّ أولياء اللّه لا يعتدون علي أحد، ويأتي العدوان دائماً من أعدائهم، وكما قلت لك فإنّ هابيل ما أراد سوءً بأخيه قابيل، بل وصرّح له بذلك، قائلاً :(لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك (2)، ومع ذلك اعتدي عليه قابيل وقتله. وإبراهيم الخليل عليه السلام ما حاول أن يحرق نمرود بالنّار، ومع ذلك فإنّ نمرود ألقي به في النار، والنبيّ موسي عليه السلام ما أراد أن يغرق فرعون، وإنّما فرعون هو الذي تعقّبه حتّي يقضي عليه. ورسول الله صلي الله عليه و آله و سلم دعا قومه في مكّة إلي الهدي عشر سنوات، ولم يحمل حتي مجرّد خنجر في مواجهة قريش، لكنّهم آذوه واعتدوا عليه، وعذّبوا أصحابه، وقتلوا بعضاً منهم، وهجّروه من مكّة.

إنّ أهل الباطل هم أهل العدوان، أمّا أهل الحق – والحسين اليوم سيّدهم – لا يعتدون علي أحد.

قال عبد الرحمن : إذن لماذا يحمل الحسين معه السلاح؟

قال عبد اللّه : عملاً بقوله تعالي : (وأعدّوا لهم مّا استطعتم من قوّة)(1) إنّ المؤمن لن يقبل بالذلّة مهما كانت الظروف، ألم يقل الحديث الشريف: «إنّ اللّه عزّ وجلّ فوّض إلي المؤمن أموره كلّها ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه»(2)؟

قال عبد الرحمن : وماذا عن الماء، هل يتوقّع الحسين أن يمنعوه منه؟

قال عبد اللّه : كلّ شيء ممكن، فالعدوّ الذي نعرفه لا يتقي اللّه في أي أمر، ولابدّ أن نتوقّع منه ارتكاب كلّ جريمة. ألم يمنع معاوية بن أبي سفيان عليّا وأصحابه، وفيهم صحابة كبار من أمثال عمّار بن ياسر الشهيد ابن الشهيد، ألم يمنعوهم من شريعة الماء في صفّين، وحينما استردّ الإمام علي عليه السلام منهم الماء لم يمنعهم منه؟

إنّ القوم أبناء القوم. فالحسين هو ابن عليّ، ويزيد هو ابن معاوية، فكلّ شيء وارد.

*

واستمرّت قافلة الحسين في مسيرها، حتّي إذا كانوا في منتصف النهار رفع أحد أصحاب الحسين صوته قائلاً : اللّه أكبر .

فالتفت إليه الحسين قائلاً : اللّه أكبر، ممّ كبّرت؟

قال الرجل : رأيت النخل .

1- (1) سورة الأنفال، آية 60.

2- (2) الكافي، للكليني، ج 5، ص 63.

فقال له رجلان من بني أسد يعرفان المنطقة تماماً : إنّ هذا مكان ما رأينا به نخلاً قطّ .

فقال لهما الحسين : فما تظنون أنّه قد رأي الرجل؟

قالا : إنّه رأي هوادي الخيل.

فقال الحسين : وأنا واللّه أري ذلك .

ثمّ التفت الحسين إليهما وقال : أما لنا ملجأ نلجأ إليه، نجعله في ظهورنا، ونستقبل القوم من وجه واحد؟

فقالا له: بلي؛ هذا ذو حصن إلي جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد.

فسار الحسين حتّي سبق إلي ذلك المكان، وجعل الجبل وراء ظهره، ولم تمرّ إلا فترة قصيرة حتّي تبيّنت هوادي الخيل، وجنود كثيرون، وكان عددهم ألف فارس، كأنّ أسنّتهم اليعاسيب، وكأنّ راياتهم أجنحة الطير، وكان يقودهم الحرّ بن يزيد التميمي، فمال هو وجيشه حتّي وقف مقابل الحسين في حرّ الظهيرة وكان الحسين وأصحابه يعتمّون بالعمائم، وتلتمع سيوفهم .

فقال له الحسين : لنا، أم علينا؟

قال الحرّ: لسنا معك. ولمّا رأي الحسين عليه السلام أنّ القوم يتضوّرون عطشاً أمر فتيانه بأن يسقوهم، قائلاً : أسقوا القوم، وأرووهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً .

فقام أصحاب الحسين وسقوا القوم من الماء، حتّي أرووهم ورشفوا خيولهم، وكانوا يملأون القصاع والطساس من الماء، ثمّ يدنونها من الفرس، فإذا عبّ منها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلوها

عنه ، وسـقوا فرسا آخر حتّي سقوا الخيل كلّها، كما سقوا الجيش كلّه، حتي أنّ رجلاً اسمه : عليّ بن الطعان المحاربي كان آخر من جاء من أصـحاب الحرّ، فلمّا رأي الحسـين ما به وبفرسه من العطش قال له : أنـخ الراويـة .. وكلمة الراوية تعني السـقاء بلغة أهل الحجاز، فلم يفهم معناها، فقال له الحسين عليه السلام : يابن أخ، أنخ الجمل، فأناخه .

فقال له الحسين : إشرب، ولكن الرجل كلّما أراد أن يشرب سال الماء من السقاء، فقال له الحسين : أخمث السقاء، أي أعطفه .

فلم يكن يعرف ماذا يفعل، فقام الحسين بنفسه فأعطف له السقاء، فشرب وسقي فرسه.

ولمّا أتمّ أصـحاب الحسـين عمليّة السقي لجيش الحرّ حضر وقت الصلاة، فأمر الحسين مؤذّنه، وهو الحجّاج بن مسروق الجعفي أن يؤذّن، فأذّن للصلاة.

فلما حضرت الإقامة خرج الحسين، وهويلبس إزاراً ورداءاً وفي رجليه نعلان، فقال للحرّ: أتريد أن تصلّي بأصحابك؟

قال الحرّ: لا، بل تصلّي أنت، ونصلّي نحن بصلاتك .

فأمر الحسين مؤذنه أن يقيم، فأقام، فصلّي بهم جميعاً .

فلمّا فرغوا من الصلاة عاد أصحاب الحرّ إلي مكانهم الذي كانوا فيه، وأخذ كلّ رجل منهم بعنان دابّته وجلس في ظلّها .

فقام الحسين عليه السلام واتكي علي قائمة سيفه ، فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال :

«أيّها الناس؛ إنّها معذرة إلي اللّه عزّ وجلّ وإليكم، إنّي لم

أقدم إلي هذا البلد حتّي أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم: أن أقدم إلينا فإنّه ليس لنا إمام، فلعلّ اللّه أن يجمعنا بك علي الهدي .

«فـإن كنتم علي ذلـك فقـد جئتكم، فإن تعطوني ما اطمأن إليه من عهودكم ومواثيقكم، دخلت معكم إلي مصـركم، وإن لـم تفعلوا ، وكنتم كارهين لقدومي عليكم، انصرفت عنكم إلي المكان الذي أقبلت منه».

فسكت القوم عنه ولم يجيبوا بشيء(1).

ثمّ إنّ الحرّ بن يزيـد دخل خيمته التي ضـربت له، وجلس فيها يفكّر في أمره، وإذا برسالة وردت إليه من عبيد اللّه بن زياد، وفيها : «أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فجعجع بالحسين، ولا تفارقه حتّي تأتيني به، فإنّي أمرت رسولي أن لا يفارقك حتّي يأتيني بإنفاذ أمري إليك، والسّلام.

فلمّا قرأ الحرّ الكتاب بعث إلي ثقات أصحابه ، فدعاهم، ثمّ قال لهم: إنّه قد ورد إليّ كتاب عبيد اللّه بن زياد، يأمرني أن أقدم إلي الحسين بما يسوؤه، و واللّه ما تطاوعني نفسي، ولا تجيبني إلي ذلك.

وكان في أصحاب الحرّ رجل يكنّي بأبي الشعثاء الكندي، فالتفت إلي رسول عبيد اللّه بن زياد، وقال له مستنكراً: بماذا جئت، ثكلتك أمّك؟

قال الرجل : أطعت إمامي، ووفيت ببيعتي، وجئت برسالة أميري .

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 401.

فقال له أبو الشعثاء: لقد عصيت ربّك ، وأطعت إمامك، وأهلكت نفسك،واكتسبت عاراً، فبئس الإمام إمامك، قال اللّه عزّ وجلّ : (وجعلنهم أئمة يدعون إلي النّار يوم القيامة لا ينصرون)(1).

وفيما هم كذلك، وإذا بصلاة العصر قد دنت، فأمر الحسين مؤذّنه من جديد أن يؤذّن للصّلاة، فأذّن وأقام للصلاة، فتقدّم الحسين فصلي بالعسكرين أيضاً.

فلمّا أكمل صلاته وقف علي قدميه ، فحمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال :

«أيّها الناس؛ إنّكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضي اللّه، ونحن أهل البيت أولي بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والظلم والعدوان».

«وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا، وكان رأيكم علي خلاف ما جاءت به كتبكم، وقدمت به عليّ رسلكم انصرفت عنكم».

فقام الحرّ وقال : أبا عبد اللّه ؛ إنّا واللّه ما ندري ما هذه الكتب التي تذكرها؟

فقال الحسين لعقبة بن سمعان : أخرج الخرجين الذين فيهما كتبهم إلي .

فأخرج عقبة بكتب أهل البصرة والكوفة، فنثرها بين يدي الحسين.

فقال الحرّ: يا أبا عبد اللّه ؛ لسنا من القوم الذين كتبوا إليك

1- (1) سورة القصص، آية 41.

هذه الكتب، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتّي نقدمك علي عبيد اللّه بن زياد.

فتبسّم الحسين، وقال : الموت أدني إليك من ذلك .

ثمّ التفت إلي أصحابه وقال : قوموا فاركبوا ..

فركبوا، وانتظروا حتّي ركبت نساؤهم. فقال الحسين لهم : انصرفوا بنا، فلمّا أرادوا أن ينصرفوا، حال جيش الحرّ بينهم وبين الانصراف .

فقال الحسين للحرّ: ثكلتك أمّك، ما تريد أن تصنع؟

فغضب الحرّ من ذكر أمّه، ولكنّه كظم غيظه وقال: «أما واللّه ، لو غيرك من العرب يقولها لي، وهو علي مثل الحال التي أنت عليها، ما تركت ذكر أمّه بالثكل أن أقوله كائناً من كان، ولكن واللّه مالي إلي ذكر أمّك من سبيل إلّا بأحسن ما يقدر عليه .

فقال الحسين : فما تريد؟

قال الحرّ: أريد واللّه أن أنطلق بك إلي عبيد اللّه بن زياد .

فقال الحسين : إذن واللّه لا أتبعك.

فقال الحرّ: إذن واللّه لا أدعك .

وبقيا يردّدان مثل هذا الكلام ثلاث مرّات، ثمّ قال الحرّ: «يا أبا عبد اللّه : إنّي لم أؤمر بقتالك، وإنّما أمرت أن لا أفارقك حتّي أقدمك الكوفة، فإذا أبيت ذلك فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردّك إلي المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً، حتي أكتب إلي عبيد اللّه بن زياد، فلعلّ اللّه إلي ذلك الوقت أن يأتيني بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك».

ثمّ أشار إلي طريق هناك، وقال : خذ هاهنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسيّة، وكان بينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً (1).

وأضاف : يا حسين؛ إنّي أذكّرك اللّه في نفسك، فإنّي أشهد لأن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أري.

فقال له الحسـين: «أفبالموت تخوّفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس الابن عمّه حينما لقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ، فقال له: أين تذهب فإنّك مقتول.

فقال :

سأمضي فما بالموت عار علي الفتي * إذا ما نوي حقا وجاهد مسلما

وواسي الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مذموماً وخالف مجرما

أقدّم نفسي لا أريد بقائها * لتلقي خميساً في النزال عرمرما

فإن عشت لم أندم، وإن متّ لم ألم * كفي بك ذلّا أن تعيش وترغما(2)

وهكذا فقد أخذ الحسين يسير ليس باتجاه الكوفة ولا باتجاه المدينة، وكان الحرّ وأصحابه يراقبونه في الطريق (3).

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 403؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 140؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 74.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 233.
3- (3) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 170.

ولمّا أقبل اللّيل التفت الحسين إلي أصحابه وقال: هل فيكم أحد يعرف الطريق علي غير الجادّة؟

فقال الطرمّاح بن عدي الطائي: يابن بنت رسول اللّه ؛ أنا أعرف الطريق .

فقال له الحسين : إذن سر بين أيدينا .

فتقدّم الطرمّاح وجعل يحدو الإبل ويقول :

يا ناقتي لا تذعري من زجري * وامضي بنا قبل طلوع الفجر

بخير فتيان وخير سفر * آل رسول اللّه أهل الفخر

السادة البيض الوجوه الغرّ * الطاعنين بالرّماح السّمر

الضاربين بالصفاح البتر * حتّي تحلّي بكريم نجر

الماجد الحرّ رحيب الصدر * أتي به اللّه لخير أمر

أمّره اللّه بقاء الدّهر * وزاده من طيّبات الذّكر

يامالك النفع معاً والضّرّ * أيّد حسيناً سيّدي بالنصر

علي الطغاة من بقايا الكفر * علي اللعينين سليلي صخر

يزيد، لا زال حليف الخمر * والعود والصنج معاً والزمر

وابن زياد العهر وابن العهر(1)

*

ونزل الحسين في منطقة البيضة، وأصحاب الحرّ يسايرونه ، فقام خاطباً في أصحابه وأصحاب الحرّ، فقال لهم بدايةً ما ذكره في رسالته إلي أهل الكوفة بعد معرفته بمقتل مسلم بن عقيل، حيث حمد

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 141؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 233.

اللّه وأثني عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس؛ إنّ رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قال : «من رأي سلطاناً جائراً مستحلاّ لحرام اللّه، ناكثاً لعهد اللّه، مخالفاً لسنّة رسول اللّه، يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّا علي اللّه أن يدخله مدخله».

ثمّ قال : «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام اللّه، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر».

«أيّها الناس؛ قد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنّكم لا تسلّموني ولا تخذلوني، فإن أتممتم عليّ بيعتكم فقد أصبتم حظّكم ورشدكم، فأنا الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول اللّه ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، وولدي مع أولادكم، فلكم فيّ أسوة» .

«وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث علي نفسه، وسيغني اللّه عنكم والسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته»(1).

كان عدد أصحاب الحسين حينئذٍ أقلّ من مائة، بينما كان يتجاوز أصحاب الحرّ الألف رجل، وكان عبيد اللّه بن زياد لا يفتأ يرسل جنوداً إضافيين، وكان الحسين كلّما جاء منهم رجال جدد، يذكّرهم بما آل إليه أمر الأمّة، ويتحدّث معهم عن مسؤولياتهم،

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 403؛ والعبرات، للمحمودي، ج 1، ص 397.

ويبيّن لهم أيضاً تصميمه علي المضي علي الطريق. فكان يخطب فيهم بين الفينة والأخري، فيحمد اللّه ويثني عليه ويصلّي علي النبيّ ويذكر فضل أهل البيت، وقرابتهم من رسول اللّه، ويبيّن مكانته من النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم .

وقال ذات مرّة : «ألا وإنّه قد نزل بنا ما ترون، ألا وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذّاء وولّت، فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعي الوبيل، ألا ترون إلي الحقّ لا يعمل به، وإلي الباطل لا يتناهي عنه؟

«ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّا، فإنّي لا أري الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما»(1).

فقام زهير بن القين، الذي كان لتوّه قد التحق بركب الحسين عليه السلام، فقال بعد أن أثني علي اللّه وحمده: «يا أبا عبد اللّه ؛ قد سمعنا هداك اللّه مقالتك ، واللّه لو كانت الدّنيا باقية وكنّا فيها مخلّدين لآثرنا الخروج معك علي الإقامة فيها»(2).

وقام هلال بن نافع البجلي فقال: «واللّه ما كرهنا لقاء ربّنا ، وإنّا علي نيّاتنا وبصائرنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك».

وقام برير بن خضير، فقال: «واللّه يابن رسول اللّه، لقد منّ اللّه بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطّع فيها أعضاؤنا، ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة».

1- (1) المعجم الكبير، للطبراني، ج 3، ص 122؛ وحلية الأولياء، لأبي نعيم، ج 2، ص 39.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 404؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص 69.

وتكلّم بقيّة أصحاب الحسين بهذا ونحوه من الكلام، فجزّاهم الحسين خيراً(1).

*

ومضـي الحسـين حتّي وصل إلي منطقة تسـمّي عذيب الهجانات، فإذا هو بأربعة أشخاص مقبلين من الكوفة علي رواحلهم، وهم: نافع بن هلالـل المرادي، وعمرو بن خالـد الصـيداوي، وسـعد مولاـه، ومجمع بن عبـد اللّه العائـدي، من قبيلـة مذحـج. فأراد الحرّ أن يمنعهم من الالتحاق بالحسين، فقال للإمام عليه السلام : إنّ هؤلاء ليسوا ممّن أقبل معك، فأنا حابسهم أو رادّهم إلي الكوفة.

فقال الحسـين عليه السـلام : إذن سأمنعهم ممّا أمنع منه نفسـي (أي أدافع عنهمّ)،إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد أعطيتني أن لا تعرضـني بشيء حتّي يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال الحرّ: أجل؛ لكن هؤلاء لم يأتوا معك.

فقال الحسين : هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن أتممت ما كان بيني وبينك، وإلّا ناجزتك.

فكفّ عنهم الحرّ، فالتحقوا بالحسين، فسألهم عن خبر الناس من ورائهم، فقال له مجمع بن عبد اللّه العائدي، وهو أحد الأربعة :

«سيّدي ؛ أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، واستميل ودّهم، واستخلصت نصيحتهم، فهم إلبٌ واحد

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 80؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص 255.

عليك، وأمّا سائر الناس فإنّ أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

فقال لهم الحسين : أخبروني، فهل لكم خبر برسولي إليكم؟

قالوا : ومن هو؟

قال الحسين : قيس بن مسهّر الصيداويّ.

فقالوا: نعم؛ لقد أخذه الحصين بن نمير، فبعث به إلي ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصعد المنبر وصلّي عليك وعلي أبيك، ولعن ابن زياد وأباه، ودعي إلي نصرتك، وأخبرهم بقدومك، فأمر به ابن زياد، فألقي من طمار القصر، فقتل .

فترقرقت عينا الحسين ولم يملك دمعه، ثمّ قال : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه فمنهم مّن قضي نحبه ومنهم مّن ينتظر وما بدّلوا تبديلا)(1) . الّلهمّ اجعل لنا ولهم الجنّة نزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك. أما واللّه إنّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد اللّه بنا، قتلنا أم ظفرنا(2) .

ثمّ رفع يديه بالدّعاء قائلاً : «الّلهمّ اجعل لنا ولشيعتنا عندك منزلاً كريماً، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك، إنّك علي كلّ شيء قدير»(3).

وهنا التفت الطرمّاح إلي الحسين وقال : واللّه إنّي لأنظر، فما أري معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الذين أراهم ملازمين

1- (1) سورة الأحزاب، آية 23.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 405؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص421.
3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 236.

لك مع الحرّ لكان ذلك بلاء، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم واحد ظهر الكوفة مملوءاً رجالاً، لم تر عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل : اجتمعوا ليعرضوا، ثمّ يسرّحوا إلي الحسين. فأنشدك اللّه إن قدرت علي أن لا تقدم شبراً إلّا فعلت.

وأضاف: «أردت أن تنزل بلداً يمنعك اللّه به حتّي تري من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع، فسر حتي أنزلك أجاء، وهو جبلنا الذي امتنعنا واللّه به من ملوك غسّان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، واللّه ما دخل علينا ذلّ قطّ، فأسير معك حتّي أنزلك القرية، ثمّ نبعث إلي الرجال ممّن بأجي وسلمي من طي، فواللّه لا يأتي عليك عشرة أيّام حتي تأتيك طيّ رجالاً وركباناً، ثمّ أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، واللّه لا يوصل إليك شرّ أبداً، ومنهم عين تطرف».

فقال له الحسين: «جزاك اللّه وقومك خيراً، إنّ بيننا وبين هؤلاء القوم قولاً لسنا نقدر معه علي الانصراف، ولا ندري علي ما تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبة، فإن يدفع اللّه عنّا فقديماً ما أنعم علينا وكفي، وإن يكن ما لابدّ منه ففوز وشهادة إن شاء اللّه»(1).

فتقدّم الطرمّاح باقتراح آخر أصرّ علي الإمام بأن يقبله، حيث قال : أري أن تركب معي جمّازة - أي فرساً من أكرم خيول العرب -

---

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 406؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص 20؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص 219.

فإنّي أبلغ بك الليلة قبل الصباح أحياء طيّ، وأسوّي لك الأمور، وأقيم بين يديك خمسة آلاف مقاتل، يقاتلون عنك.

فقال له الحسين: «أمن مروءة الإنسان أن ينجي نفسه، ويهلك أهله و إخوته وأصحابه؟

فقال بعض أصحابه: إنّ هؤلاء القوم - يقصدون جيش بني أميّة - إذا لم يجدوك لم يفعلوا شيئا .

لكن الحسين لم يلتفت إلي قولهم، وجزّ الطرمّاح خيراً(1).

فقال الطرمّاح : إنّي قد امترت لأهلي من الكوفة ميرة، ومعي نفقة لهم، فآتيهم فأضع ذلك فيهم، ثمّ آتيك إن شاء اللّه، فإن ألحقك فواللّه لأكوننّ من أنصارك .

فقال له الحسين : فإن كنت فاعلا فعجّل رحمك اللّه، ثمّ ودّعه وذهب إلي أهله(2).

*

ثمّ إنّ الحسين رحل عن عذيب الهجانات حتّي نزل في الأوّل من شهر محرّم في قصر بني مقاتل، فإذا به يري فسطاطاً مضروباً ، فسأل عن صاحبه ، فقيل له: إنّه لعبيد اللّه بن الحرّ الجعفي.

فأرسل الإمام أحد أصحابه، وهو الحجّاج بن مسروق إليه ليدعوه للقاء الحسين، فجاء ابن مسروق إلي عبيد اللّه بن الحرّ في فسطاطه، فسلّم عليه، فردّ عليه السّلام، وقال له : ما ورائك؟

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 239.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 407.

فقال الحجّاج: إنّ اللّه قد أهدي إليك كرامة، إن قبلتها .

فقال : وما ذلك؟

قال الحجّاج: «هذا الحسين بن عليّ يدعوك إلي نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت، وإن متّ فإنّك استشهدت.

فقال له عبيد اللّه : إنّي واللّه ما خرجت من الكوفة إلّا كراهة أن يدخلها الحسين وأكون أنا فيها، فإن قاتلته كان ذلك عند اللّه عظيماً، وإن وقفت معه كنت أوّل قتيل في غير غناء عنه، وواللّه لا أراه ولا يراني، فارجع إليه وخبّره بذلك.

فأقبل الحجّاج إلي الحسين وأخبره بما قاله عبيد اللّه الجعفي ، فقام الحسين بنفسه، وجاء إليه في جماعة من إخوته ، فلمّا دخل عليه ، حمد اللّه وأثني عليه، ثمّ قال: «يابن الحرّ؛ إنّ أهل مصركم هذا كتبوا إليّ، وخبّروني أنّهم مجتمعون علي نصرتي، وسألوني القدوم إليهم فقدمت» .

فقال له عبيد اللّه بكلّ صراحة : «واللّه إنّي ما خرجت من الكوفة إلّا مخافة أن تدخلها أنت وأنا فيها فلا أنصرك، لأنّه ليس لك في الكوفة أنصار».

فقال له الحسين : «يابن الحرّ؛ إعلم أنّ اللّه عزّ وجلّ يؤاخذك بما كسبت وأسلفت من الذّنوب في الأيّام الخالية، وأنا أدعوك في وقتي هذا إلي توبة تغسل بها ما عليك من الذّنوب، أدعوك إلي نصرتنا أهل البيت، فإن أعطيتنا حقّنا حمدنا اللّه علي ذلك وقبلناه ، وإن منعنا حقّنا كنت من أعواني علي طلب الحقّ».

فقال عبيد اللّه بن الحرّ: «واللّه ، يابن بنت رسول اللّه ، لو كان

لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا من أشدّهم علي عدوّك ، ولكنّي رأيت أنّ شيعتك بالكوفة قد لزموا منازلهم خوفاً من بني أميّة ومن سيوفهم، فأنشدك باللّه أن لا تطلب منّي هذه المنزلة، وأنا أواسيك بكلّ ما أقدر عليه ، فهذا فرسي ملجمة، واللّه ما طلبت عليها شيئاً إلّا أذقته حياض الموت، وخذ هذا سيفي، فواللّه ما ضربت به أحداً إلّا قطعته».

فقال له الحسين : يابن الحرّ؛ ما جئناك لفرسك وسيفك، إنّما أتيناك لنسألك النصرة، فإن كنت قد بخلت علينا بنفسك، فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي يتخذ المضلّين عضداً، وإذ قد امتنعت من نصرتي فلا تظاهر عليّ، وإن استطعت أن لا تسمع واعيتنا فافعل، لأنّي سمعت رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم يقول:«من سمع واعية أهل بيتي، ولم ينصرهم علي حقّهم، أكبّه اللّه علي وجهه في النار»(1).

وكان في مجلس ابن الحرّ آنذاك رجل اسمه أنس بن الحارث الكاهلي، وكان قد ترك الكوفة بنفس السبب الذي تركها عبيد اللّه بن الحر. فلمّا سمع مقالة الحسين تأثّر بها، فخرج من خيمة عبيد اللّه ، ولحق بالحسين، وقال له : «واللّه ما أخرجني من الكوفة إلّا ما أخرج هذا، من كراهة قتالك أو القتال معك، ولكنّ اللّه قد قذف في قلبي نصرتك، وشجّعني علي المسير معك».

فقال له الحسين : فاخرج معنا راشداً محفوظاً(2).

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 133؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 384.
2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 384.

وكان هذا الرجل شيخاً صحابيّاً، ممّن رأي النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم وسمع حديثه، وكان ممّا قاله لأصحاب الحسين حينما التحق بهم : لقد سمعت رسول اللّه يقول : والحسين في حجره: «إنّ ابني هذا يقتل بأرض من العراق، ألا فمن شهده فلينصره»(1).

*

لمّا سمع عبد الرحمن الصالح حوار الحسين مع عبيد اللّه بن الحرّ، التفت إلي صاحبه عبد اللّه بن مسلم وقال : تري لماذا قال الحسين للرجل: «إنّ اللّه يؤاخذك بما كسبت وأسلفت من الذّنوب في الأيّام الخالية»، صحيح أنّ الناس ليسوا معصومين من الخطأ، ولكن لماذا التأكيد من الحسين لعبيد اللّه ، دون غيره، بأنّه قد كسب الذّنوب، وأسلف المعاصي في الأيّام الخالية ، من دون أن يردّ عليه عبيد اللّه، أو ينكر ذلك؟

فقال عبد اللّه : إنّ عبيد اللّه بن الحرّ هذا، كان من قادة جيش عليّ أمير المؤمنين في صفّين، ولكنّه كان ضعيف الإيمان، فبعث إليه معاوية بمبالغ من المال ووعده بالمزيد، فترك الجند الذي كان تحته ، وهرب إلي معاوية متخفّياً من دون أن يخبر أحداً، وبقي في الشام إلي أن ضاعت أخباره، وسرت شائعة تقول: إنّ الرجل قد قتل، فاتخذت زوجته العدّة بالوفاة، وتزوّجت بعد انتهائها ، من رجلٍ اسمه عكرمة، ولمّا وصل الخبر إليه ترك الشام وعاد إلي الكوفة، وذهب إلي دار عكرمة ليسترجع زوجته منه، فطرده الرجل شرّ طردة، فجاء مضطرّاً إلي الإمام عليّ عليه السلام في جامع الكوفة وكان الإمام يصلّي،

ص: 349

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 411؛ وأسد الغابة، ج 1، ص 349.

فلمّا أنهي صلاته جلس إليه، فعرفه الإمام فأخذ يعاتبه علي ما فعل من الخيانة.

ولمّا أكمل الإمام عتابه قال الرجل : أو يمنعني ذلك من عدلك يا أمير المؤمنين؟

فقال له الإمام : لا؛ فقصّ عليه قصّته، وكيف أنّ زوجته أصبحت تحت عكرمة. فبعث الإمام من يستبريء المرأة، فتبيّن أنّها حامل، فأودعها فيبيت، ومنع الاقتراب إليها، سواء من قبل زوجها الأوّل أو الثاني، وأمر بأنّها إذا وضعت مولودها، أن يلتحق الولد بعكرمة، وتعود زوجة عبيد اللّه بن الحرّ إليه. وما قاله الحسين من مؤاخذة اللّه له إشارة إلي خيانته هذه.

وعلي كلّ حال فإنّ التوفيق لم يحالف الرجل، ليغسل ذنوبه ويكفّر عنها بنصرة الحسين، وهو الذي خان أباه من قبل.

*

وفي قصر بني مقاتل هذا، دخل علي الحسين عمرو بن قيس المشرقي، وابن عمّ له، فسلّما عليه. وكان بينهما وبين الحسين معرفة سابقة، فقال عمرو: يا أبا عبد اللّه ؛ هذا الذي أري لون خضاب، أو لون شعرك؟

فقال الإمام: خضاب، والشيب يسرع إلينا بني هاشم .

ثمّ التفت إليهما وقال : جئتما لنصرتي؟

فقال له عمرو بن قيس : أنا رجل كثير العيال وفي يدي بضائع للناس، ولا أدري ما يكون، وأكره أن تضيع أمانتي.

وقال ابن عمّه مثل قوله، فقال لهما الإمام : فانطلقا، فلا

تسـمعا لي واعيـة، ولاـ تريـا لي سواداً ، فـإنّه من سـمع واعيتنـا، أو رأي سوادنـا، فلم يجبنا ولم يعنّا كان حقّاً علي اللّه عزّ وجلّ أن يكبّه علي منخريه في النّار(1).

ويبدو أنّ هذين الرجلين أيضاً لم يحالفهم التوفيق ليكونا في ركاب الحسين، مثلما لم يحالفه عبيد اللّه بن الحرّ الجعفي .

*

ربّما كان قصر بني مقاتل آخر منزل نزل فيه الحسين قبل وصوله إلي كربلاء، ولذلك فلمّا كان في آخر اللّيل أمر فتيانه بأن يكثروا من حمل الماء، فاستقوا ثمّ أمر بالرحيل من هناك، وبعد ساعة من المسير خفق الحسين، وهو علي ظهر فرسه، خفقة ثمّ انتبه وهو يقول: إنّا للّه وإنّه إليه راجعون، والحمد للّه ربّ العالمين .

وكرّر ذلك مرّتين أو ثلاثاً، فأقبل ابنه عليّ بن الحسين الأكبر، فقال له: يا أبتاه ؛ جعلت فداك، ممّ حمدت اللّه ، واسترجعت؟

فقال الحسين: «يا بنيّ؛ إنّي خفقت خفقة، فظهر لي راكب علي فرس وهويقول : القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنّها أنفسنا نعيت إلينا .

فقال له عليّ الأكبر : يا أبتاه ؛ لا أراك اللّه سوءاً، أولسنا علي الحقّ؟

قال الحسين : بلي؛ والذي إليه مرجع العباد .

1- (1) العبرات، للمحمودي، ج 1، ص 408؛ والرجال، للكشي، ج 1، ص 331؛ والبحار، ج45، ص 84.

فقال عليّ الأكبر: إذن لا نبالي أن نموت محقّين.

فقال له الحسين : جزاك اللّه من ولي خير ما جزي ولداً عن والده (1).

وكان الحسين، بعد لقائه بالحرّ بن يزيد الرياحي، مقيّداً في مسيره بحركة الحرّ، حيث كان الرجل وجيشه يراقبونه، وكلّما أراد أن يميل نحو البادية منعوه، بل حينما أراد الحسين أن يفرّق أصحابه، كان الحرّ يردّهم عن ذلك. وأحياناً كان يحاول أن يدفع الحسين باتجاه الكوفة، لكن الحسين كان يمتنع عليه، فلم يزالوا يتسايرون في الطريق(2).

وفيما هم كذلك، وإذا براكب يأتي علي نجيب له وعليه السلاح، وهو متنكّر قوسا، وكان مقبلاً من الكوفة، فوقف الطرفان جميعاً ينتظرون، فلمّا انتهي إليهم سلّم علي الحرّ وأصحابه ، ولم يسلّم علي الحسين، ثمّ دفع إلي الحرّ كتاباً من عبيد اللّه بن زياد، وكان فيه :

«أمّا بعد، فاحبس الحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلّا بالعراء، في غير حصن وعلي غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتّي يأتيني بإنفاذك أمري».

فلمّا قرأ الحرّ رسالة عبيد اللّه، قال للحسين: «هذا كتاب الأمير عبيد اللّه بن زياد، يأمرني فيه أن أجعجع بكم في المكان الذي

1- (1) أعلام الوري، للطبرسي، ص 233؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص 74؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 408؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 84.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 408؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج 6، ص 2624.

يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره أن لا يفارقني حتّي أنفذ رأيه وأمره».

ثمّ طالب الحسين وأصحابه بالنزول في ذلك المكان في غير ماء ولا بيوت، فقال له الحسين وأصحابه : دعنا ننزل في هذه القرية، وأشاروا إلي نينوي، أو تلك، وأشاروا إلي الغاضريّة، أو هذه الأخري، وأشاروا إلي شفيّة.

فقال الحرّ: لا واللّه ما أستطيع ذلك.

ثمّ أشار إلي الرجل الذي جاء بالكتاب وقال : إنّ هذا رجل قد

بعث إليّ عيناً(1).

ومع وقوع تلك المشادة بين الحسين والحرّ، اقترح زهير بن القين مقاتلة القوم، وقال للحسين : «بأبي وأمّي يابن رسول اللّه ؛ واللّه لو لم يأتنا غير هؤلاء لكان لنا فيهم كفاية، فكيف بمن سيأتينا من غيرهم؟ فهلمّ بنا نناجز هؤلاء، فإنّ قتالهم أيسر علينا من قتال من يأتينا غيرهم».

فقال له الحسين : إنّي أكره أن أبدأهم بقتال حتّي يبدأوا .

فقال زهير : فهاهنا قرية بالقرب منّا علي شطّ الفرات، وهي في عاقول حصينة، (العاقول يعني النهر المعوج)، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم.

فقال الحسين : ما اسم تلك القرية؟

قال زهير : العقر.

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 409؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 424.

فقال الحسين : الّلهمّ إنّي أعوذ بك من العقر(1). ورفض الذهاب إليها ..

لقد كان الوضع متوتّراً جدّاً بين الحسين وبين الحرّ، إلّا أنّ الحرّ لم يكن قد أمر بالقتال، ولعلّه لو كان قد أمر لفعل، والحسين كان يرفض أن يبدأهم بقتال. فلم تقع بينهما المواجهة.

هنا التفت الحسين إلي الحرّ قائلاً : سر بنا قليلاً ثمّ ننزل.

فسار معه حتّي أتوا في يوم الخميس الواقع في الثاني من شهر محرّم، سنة إحدي وستّين للهجرة إلي أرض قريب من نهر صغير، فوقف الحرّ وأصحابه أمام الحسين ومنعوه من المسير، وقالوا : أنزل بهذا المكان، فالفرات منك قريب.

فقال الحسين : وما اسم هذا المكان؟

قالوا له : إنّ هذه الأرض تسمي الطّف .

قال الحسين : فهل لها اسم غيره؟

قالوا : تعرف بكربلاء.

فدمعت عينا الحسين، وقال : الّلهمّ إنّي أعوذ بك من الكرب والبلاء (2).

ثمّ قبض من ترابها قبضة فشمّها(3)، ثمّ استخرج طينة من جيبه

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 282؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 425.

2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 229.

3- (3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 142.

وقال لهم : هذه طينة جاء بها جبرائيل من عند اللّه لجدّي رسول اللّه وقال : هذا موضع تربة الحسين، ثمّ قال : إنّهما رائحة واحدة(1).

ثمّ قال : صدق اللّه ورسوله، ذات كرب وبلاء، ولقد مرّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلي صفّين وأنا معه، فوقف، فسأل عن اسمه، فقيل له : كربلاء.

فقال أبي : هاهنا محطّ ركابهم، وهاهنا مهراق دمائهم، فسألوه عن ذلك، فقال أبي : ثقل لآل محمّد ينزلون هاهنا .

ثمّ التفت الحسين إلي أصحابه وقال : انزلوا، فهاهنا مناخ ركابنا، ومحطّ رجالنا، ومسفك دمائنا.

فنزل القوم وحطّوا الأثقال ناحية من الفرات، وضربت في خيم الحسين لأهله وبنيه وبناته في ناحية، وضربت خيم أخري لإخوته و بني عمّه حول خيمته، وخيم الأصحاب في جانب آخر، كما أنّ الحرّ وأصحابه أيضاً نزلوا وخيّموا في مواجهة مخيّم الحسين (2).

وهكذا تعيّنت أرض المعركة، وتبيّن أنّ قافلة الحسين لن ترحل من تلك الأرض.

*

التفت عبد الرحمن الصالح إلي صاحبه عبد اللّه بن مسلم

1- (1) موسوعة الإمام الحسين، ج 2، ص 611.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 237؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 81؛ وذخائر العقبي، للطبري، ص 149.

وقال : إنّ الحسين قال صدق اللّه ورسوله، تري إلي م أشار بكلامه هذا؟

قال عبد اللّه : أظنّ أنّه أشار إلي الحديث الذي ذكرته لك عن أمّ سلمة التي قالت : كان رسول اللّه جالسا ذات يوم في بيتي، فقال : لا يدخلن عليّ أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج رسول اللّه يبكي، فاطّلعت، فإذا الحسين في حجره، والنبيّ يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: واللّه ما علمت أنّه دخل.

فقال رسول اللّه : «إنّ جبرائيل كان في البيت، فقال لي والحسين في حجري: أتحبّه؟

قلت: أمّا في الدّنيا فنعم.

فقال جبرائيل : إنّ أمّتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء.. وناولني جبرائيل من تربتها »(1).

ويبدو أنّ الحسين يعرف هذا الحديث، ولذلك قال : صدق اللّه ورسوله.

*

لقد استغرقت رحلة قافلة الحسين من مكّة المكرّمة إلي كربلاء أربعة وعشرين يوماً، قطع بها ستّة عشر منزلاً، وأقام في بعضها يوماً أو يومين أو ثلاثة أيّام.

*

1- (1) المعجم الكبير، للطبراني، ج 23، ص 289، رقم 637؛ والصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي، ص117.

قال عبد الرحمن لصاحبه : تري لماذا تسمّي كربلاء، هل هي من الكرب والبلاء؟

قال عبـد اللّه : إنّ الكلمة قد تعني ذلك، ولكنّها من كلمتين : الكرب بمعني حرم، وأبلي بمعني إله، أي حرم الإله في لغة الكلدانيين في عهد البابليين(1).

*

كان عدد أصحاب الحسين حين نزل كربلاء خمسة وأربعين فارس، منهم تسعة عشر من أهل بيته ومائة راجل(2) .

ومنـذ نزوله هنـاك كـان الحسـين يتصـرّف وكأنّه شـهيد، بالرغم من أنّه كان مصـمّماً علي أن لا يتنازل للعـدوّ عن شـيء، فهو صاحب حقّ وصاحب رسالـة، والأعـداء هم المعتـدون عليه، فهم الـذين يمنعونه من الـدخول إلي الكوفـة أو العودة إلي المدينـة. وممّا فعله أنّه سأل عن الأعراب الموجودين هناك، فـدلّوه علي بعضـهم، فطلب منهم شـراء تلك الأراضـي من أصـحابها، فقبلوا ذلك، فاشتراها بستّين ألف درهم وتصدّق بها عليهم.

لكنّه اشترط عليهم أن يرشـدوا المارّة إلي قبره بعـد مقتله، ويقوموا بضـيافة زوّاره ثلاثـة أيّام، وكان المقـدار الذي اشتراه أربعة أميال في أربعة أميال (3).

*

1- (1) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 199 و207.
2- (2) البداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 197؛ وتهذيب التهذيب، لابن حجر، ج 2، ص 352.
3- (3) مقتل الحسين، للمقرم، ص 235.

حطّ أهل البيت رحالهم في تلك الأرض الجرداء، وكانت أرضاً مسطّحة، لا تلال فيها ولا بيوت، بحيث كانوا مكشوفين أمام أعدائهم.

وفي صباح اليوم التالي أخذ الحسين قرطاساً وقلماً وكتب الرسالة التالية إلي أخيه :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، من الحسـين بن عليّ إلي أخيه محمّـد ابن الحنفيّة بن عليّ بن أبي طالب، ومن قبله من بني هاشم، أمّا بعد، فكأنّ الدّنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل، والسّلام(1).

ثمّ دعا أحد أصحابه وأعطاه الرّسالة، وبعثه إلي أخيه في المدينة المنورة .

أمّا الحرّ بن يزيد الرّياحي فقد أرسل رسالة إلي ابن زياد يخبره بنزول الحسين بأرض كربلاء، ويطلب منه تعليماته بما عليه أن يفعل (2).

ولمّا وصـلت رسالة الحرّ إلي ابن زياد كتب رسالة تهديد واضحة إلي الحسين، جاء فيها: «أمّا بعد يا حسين، فقد بلغني نزولك بكربلاء، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيـد بن معاويـة أن لاـ أتوسّـد الوثير، ولاـ أشـبع من الخمير، حتّي ألحقك باللطيف الخبير ، أو ترجع إلي حكمي وحكم يزيد»(3).

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 87؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 235.

2- (2) الفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 190؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 239.

3- (3) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 11؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص 475 والمناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 98.

فلمّا ورد هذا الكتاب إليه وقرأه الحسين رمي به علي الأرض وقال : لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

فقال له الذي جاء بالرّسالة : يا أبا عبد اللّه ، ما هو جواب كتاب الأمير؟

فقال له الحسين : لا جواب له عندي، لأنّه قد حقّت عليه كلمة العذاب .

فرجع الرّسول إلي ابن زياد وأخبره بذلك، فغضب أشدّ الغضب (1).

*

سميت

كان عبيد اللّه بن زياد يرسل الألوف المؤلّفة من الجيوش تباعاً إلي كربلاء، وفي بحثه عن قائد عام لهم وقع اختياره علي عمر بن سعد بن أبي وقّاص، الذي كان قد ابتعثه علي أربعة آلاف من أهل الكوفة ليسير بهم إلي دستبي، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكان عبيد اللّه قد كتب عهداً بولاية الرّي له إن استطاع أن يخمد تمرّد الديلم، وذلك قبل أن تصله رسالة الحرّ بإجبار الحسين علي النزول في أرض كربلاء.

كان عمر بن سعد في ذلك الوقت قد جمع رجاله في منطقة حمام أعين، استعداداً للرحيل إلي دستبي، إلّا أن عبيد اللّه بن زياد استدعاه، فلمّا جاءه ، قال له: سر إلي الحسين أوّلا، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه، سرت إلي عملك.

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 239؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 383.

فقال له عمر بن سعد: إن رأيت أن تعفيني، فافعل .

فقال له عبيد اللّه : نعم؛ علي أن تردّ لنا عهدنا بالرّي.

فقال عمر بن سعد: إذن أمهلني اليوم حتّي أنظر في أمري.

فأمهله، فانصرف يستشير نصحائه، فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه عن قتال الحسين، حتّي أنّ حمزة بن المغيرة بن شعبة ، وهو ابن أخته، قال له: أنشدك اللّه يا خال أن لا تسير إلي الحسين فتأثم بربّك وتقطع رحمك، فواللّه لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلّها، خير لك من أن تلقي اللّه بدم الحسين .

فقال له عمر بن سعد: إنّي أفعل إن شاء اللّه .

وفي اليوم التالي أقبل إلي ابن زياد وقال: «أصلحك اللّه ؛ إنّك ولّيتني هذا العمل - أي الذهاب إلي دستبي - وكتبت لي العهد بالرّي، وسمع به الناس، فإن رأيت أن تنفذ لي ذلك فافعل، وابعث إلي الحسين في هذا الجيش من أشراف الكوفة من لست بأغني، ولا أجزأ عنك في الحرب منه».

ثمّ بدأ يسمّي لابن زياد أسماء بعض الرجال لقيادة الجند إلي حرب الحسين عليه السلام، فقال له ابن زياد: «لا تعلّمني بأشراف أهل الكوفة، ولست أستأمرك (أستشيرك) فيمن أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا، وإلّا فابعث إلينا بعهدنا».

فلمّا رأي ابن سعد أنّ ابن زياد مصرّ علي أمره، خضع له وقال : إنّي سائر إلي الحسين(1) .

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 410؛ ومختصر ابن منظور، ج 19، ص 64.

وبات ليلته قلقا ممّا هو مقدم عليه ، وكان يتململ بين نداء ضميره، وبين رغبته في أمور دنياه، وفي ذلك أنشد يقول :

دعاني عبيد اللّه من دون قومه * إلي خطّة فيها خرج لحيني

فواللّه ما أدري وإنّي لحائر * أفكّر في أمري علي خطرين

أأترك ملك الرّي، والرّيّ منيتي * أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

حسين ابن عمّي والحوادث جمّه * ولكنّ لي في الرّي قرّة عين

يقولون: إنّ اللّه خالق جنّة * ونار وتعذيب وغلّ يدين

فإن صدقوا فيما يقولون * إنّني أتوب إلي الرّحمن من سنتين

وإنّ إله العرش يغفر زلّتي * وإن كنت فيها أعظم الثقلين

وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة * وملك عظيم دائم الحجلين

ألا إنّما الدّنيا لخير معجّل * وما عاقل باع الوجود بدين (1)

وهكـذا حسم عمر بن سـعد أمره، وبـدل أن يـذهب إلي الديلم، تحرّك مع أربعة آلاف فارس باتجاه كربلاء، وكان قد جعل خالد بن عرفطة علي مقدّمـة جيشه، كما أعطي رايته لحبيب بن جمّاز، ونزل كربلاء في اليوم الثالث من شـهر محرّم الحرام، سـنة واحد وستّين للهجرة ؛ أي بعد يوم واحد من نزول الحسين بتلك الأرض.

ولمّا رأي أصـحاب الحسـين جيش عمر بن سـعد يتقدّمهم خالد بن عرفطة، ويحمل الراية حبيب بن جمّاز، قال عبد اللّه بن مسلم لصاحبه: سبحان اللّه ؛ لقد سمعت من سويدة بن غفلة أنّه قال :

1- (1) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 221؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 283.

«كنت أنا عند أمير المؤمنين عليّ، إذ أتاه رجل وقال : يا أمير المؤمنين، جئتك من واد القري، وقد مات خالد بن عرفطة .

فقال عليّ : إنّه لم يمت.

فأكّد الرّجل موت خالد بن عرفطة .

فقال عليّ : إنّه لم يمت، ثمّ أعرض عنه بوجهه، فأعاد الرجل عليه الثالثة، وقال : سبحان اللّه ؛ أخبرك أنّه قد مات، فتقول إنّه لم يمت؟

فقال علي:«والذي نفسي بيده، لا يموت خالد بن عرفطة حتّي يقود جيش ضلال، يحمل رايته حبيب بن جمّاز .

ولمّا انتشر ذلك الخبر وسمع حبيب بن جمّاز ذلك جاء إلي أمير المؤمنين وقال له : أنشدك اللّه فيّ، فإنّي لك شيعة، وقد ذكرتني بأمر، لا واللّه لا أعرفه من نفسي.

فقال له عليّ : ومن أنت؟

قال : أنا حبيب بن جمّاز .

فقال له عليّ: «إن كنت حبيب بن جمّاز، فلا يحملها غيرك .

فولّي عنه حبيب، وأقبل أمير المؤمنين يقول : إن كنت حبيب لتحملنّها(1) وقد حملها بالفعل في جيش الضلال في كربلاء.

*

ولما استقرّ بعمر بن سعد المكان، دعا عروة بن قيس

1- (1) الاختصاص، للمفيد، ص 280؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 175.

الأحمسي وقال له: اذهب إلي الحسين، واسأله ماذا يريد أن يصنع؟ وماذا أخرجه عن مكّة وقد كان مستوطناً بها؟

فاعتذر عروة بن قيس وقال : أيّها الأمير؛ إنّي كنت ممّن قد كاتب الحسين،وأنا أستحي أن أسير إليه ، فإن رأيت أن تبعث غيري فافعل.

فنادي عمر بن سعد رجلاً من أصحابه اسمه كثير بن عبد اللّه الشعبي، وكان رجلاً فاتكاً فاسقاً، وقال له: إمضي إلي الحسين، وسله ما الذي أخرجه عن مكّة، وماذا يريد؟

فقال له الرجل: أذهب إليه، وواللّه لأن شئت لأفتكنّ به .

فقال له عمر: ما أريد أن تفتك به، ولكن اذهب إليه، واسأله ما الذي جاء به؟

فأقبل هذا الرجل نحو مخيّم الحسين، فلمّا رآه أبو ثمامة الصائدي، قال للحسين: أصلحك اللّه يا أبا عبد اللّه، قد جاءك شرّ أهل الأرض، وأفتكهم، وأجرأهم علي دم.

فقام إليه أبو ثمامة وقال له : ضع سيفك.

قال الرجل: لا واللّه، لا أضع سيفي ولا كرامة، إنّما أنا رسول عمر بن سعد، فإن سمعتم منّي بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، وإن أبيتم انصرفت عنكم.

فقال له أبو ثمامة : فإنّي آخذ بقائم سيفك ثمّ تكلّم بحاجتك.

فقال الرجل : لا واللّه، لا يمسّ سيفي أحد.

فقال أبو ثمامة : فتكلّم بما تريد ولا تدنو من الحسين، فإنّك رجل فاسق.

فغضب الرجل ورجع إلي عمر بن سعد وقال له: إنّهم لم يتركوني أصل إلي الحسين فأبلّغه الرّسالة .

فانتدب عمر بن سعد رجلاً آخر من أصحابه اسمه قرّة بن قيس الحنظلي، وسأله أن يأتي إلي الحسين ويسأله عن سبب قدومه، وما الذي يريد أن يصنع؟

ولمّا قرب الرجل ورآه الحسين، قال لأصحابه: هل تعرفون هذا ؟

فقال حبيب بن مظاهر : نعم؛ هذا من بني تميم، وقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما ظننت أنّه يشهد هذا المشهد.

وحينما وقف الرجل بين يدي الحسين، سلّم عليه، وأبلغه رسالة عمر بن سعد.

فقال الحسين : يا هذا، أعلم صاحبك عنّي أنّي لم أرد إلي هاهنا حتّي كتب إليّ أهل مصركم أن أقدم، فإن كرهوني أنصرف عنهم من حيث جئت.

فسمع الرجل ذلك، ولمّا همّ بالانصراف التفت إليه حبيب بن مظاهر الأسديّ وقال : ويحك يا قرّة، عهدي بك أنّك حسن الرأي في أهل البيت، فما الذي غيّرك حتّي أتيتنا في هذه الرّسالة، فأقم عندنا وانصر هذا الرجل - وأشار إلي الحسين -.

فقال الحنظلي : لقد قلت الحقّ، ولكنّي أرجع إلي صاحبي بجواب رسالته، ثمّ أنظر في ذلك وأري رأيي(1).

ص: 364

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 156؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 87؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 212.

وحينما أخبر الحنظلي عمر بن سعد بما قاله الحسين، قال عمر بن سعد: أرجو أن يعافيني اللّه من حربه وقتاله(1).

ثمّ كتب رسالة إلي ابن زياد يقول له فيها: «أمّا بعد، فإنّي حيث نزلت بالحسين، بعثت إليه رسولي، فسألته عمّا أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إليّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم، ففعلت، فأمّا إذ كرهوني، وبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم، فأنا منصرف عنهم» .

فلمّا قرأ ابن زياد رسالة عمر بن سعد استشهد بقول الشاعر :

الآن إذا علقت مخالبنا به * يرجو النجاة، ولات حين مناص

ثمّ كتب رسالة إلي عمر بن سعد يقول له فيه: «أمّا بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فأعرض علي الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا»(2).

ولمّا وصلت الرّسالة إلي عمر بن سعد، قال: «ما أحسب أنّ ابن زياد يريد العافية».

ثمّ أرسل الرّسالة بنصّها إلي الحسين .

فقال الحسين للرّسول: «لا أجيب ابن زياد إلي ذلك أبداً فهل هو إلّا الموت، فمرحباً به(3).

ص: 365

1- (1) الإرشاد، للمفيد، ص 687.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 412.
3- (3) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 252؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج 6، ص 2626.

ولمّا عرف ابن زياد بجواب الحسين غضب، وخرج بجميع أصحابه إلي منطقة النخيلة، وأعلن التعبئة العامّة في الكوفة(1) .

ثمّ كتب رسالة إلي عمر بن سعد يقول له فيها: «أمّا بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا تدعهم يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي المظلوم عثمان بن عفّان».

فقام عمر بن سعد بما أمره ابن زياد، فبعث عمرو بن الحجّاج علي خمسمائة فارس، فنزلوا علي الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم من أن يسقوا منه، وكان ذلك في اليوم السابع من محرّم الحرام سنة واحد وستّين للهجرة(2).

ولمّا جاء أصحاب الحسين ليستقوا من الماء صرخ عبد اللّه بن حصين: يا حسين؛ ألا تنظر إلي الماء كأنّه كبد السّماء، واللّه لا تذوق منه قطرة حتّي تموت عطشاً.

وسمع الحسين مقالته، فقال : اللّهمّ أقتله عطشاً، ولا تغفر له أبداً (3).

ونادي عمرو بن الحجّاج : يا حسين؛ هذا الماء تلغ فيه الكلاب، وتشرب منه خنازير أهل السواد والحمر والذئاب، ولن تذوق منه واللّه قطرة حتي تذوق الحميم في نار جهنّم.

وكان سماع هذا الكلام علي الحسين أشدّ من منعهم إيّاه الماء (4) .

1- (1) العبرات، للمحمودي، ج 1، ص 424؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 235.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 412.

3- (3) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 390.

4- (4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 141.

ولمّا رأي عبد اللّه بن مسـلم ما فعلوا بالحسين من منع الماء، التفت إلي صاحبه عبد الرحمن الصالح وقال له : سبحان اللّه ؛ إنّ الحسين هو الذي حمل الماء إلي عثمان بن عفّان حينما حاصروه، وكان هو وأخوه الحسن يوصلان الماء إلي أهله. ثمّ لو كان عثمان مات وهو عطشان، فما ذنب صبية الحسين الصغار والنساء، وهنّ حرائر رسول الله؟

قال عبد الرحمن الصالح: يبدو أنّنا أمام جرائم لم يسبق لها مثيل حتي في الجاهلية .

*

أمّا في الكوفـة فبعد إعلان التعبئة العامّة، جمع ابن زياد الناس وخطب فيهم قائلاً: «أيّها الناس، إنّكم بلوتم آل بي سـفيان، فوجدتموهم كما تحبّون، وهـذا أمير المؤمنين يزيـد بن معاوية قد عرفتموه حسن السـيرة، محمود الطريقة، محسـناً إلي الرعيّة، يعطي من العطاء في حقّه، قد أمّنت السـبل علي عهـده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصـره، وهذا ابنه يزيد من بعده، يكرم العبا. ويغنيهم بالأموال ويكرمهم، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفّرها عليكم، وأخرجكم علي حرب عدوّه الحسين، فاسمعوا له وأطيعوا »(1).

وبهذا أعلن بأنّ الحرب علي الحسين أمر مباشر من يزيد، ثمّ

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 242؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص 236.

عيّن علي الكوفة عمرو بن الحريث، وأمر بأخذ الناس جميعاً بالخروج إلي النخيلة وضبط الجسر، من دون أن يترك أحداً يجوزه(1).

وبعد ذلك دعا شهاب الحارثي، ومحمّد بن الأشعث بن قيس، والقعقاع بن سويد، وأسماء بن خارجة، وقال لهم : طوفوا في الناس، وأمروهم بالطاعة والاستقامة، وخوّفوهم عواقب الأمور والفتنة، وحثّوهم علي العسكرة.

فخرجوا، فعزّروا وداروا بالكوفة، ثمّ ألحق بهم كثير بن شهاب، الذي كان مبالغاً يدور بالكوفة ويأمر الناس بالجماعة ويحذّرهم من الفرقة، ويخذّلهم عن الحسين .

ثمّ جعل ابن زياد يرسل من النخيلة لمقاتلة الحسين من الجنود العشرين، والثلاثين، والخمسين، والمائة، غدوة، وضحوة، ونصف النهار، وعشيّة يمدّ بهم عسكر عمر بن سعد، كما وضع المناظر علي الكوفة لئلّا يهرب أحد من الناس، مخافة أن يلحق بالحسين مغيثاً له، ورتّب المسالح حولها، وجعل علي حرس الكوفة والعسكر زحر بن قيس الجعفي. ورتّب بينه وبين عسكر عمر بن سعد خيلاً مضمرة مقدّحة، فكان يأتيه الخبر في كلّ وقت (2).

وكان من يستطيع الإفلات من عبيد اللّه بن زياد يهرب منه، لأنّهم كانوا يكرهون قتال الحسين، ويحاولون أن يتخلّفوا عن مقاتلة الحسين .

ص: 368

1- (1) طبقات ابن سعد، موضوعة الحسين، ص 70.

2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 388.

فبعث ابن زياد سويد بن عبد الرحمن المنقري في خيل إلي الكوفة، وأمره أن يطوف بها ، فمن وجده قد تخلّف أتاه به(1).

أمّا من بعثهم من المجاميع الكبيرة إلي كربلاء، فكان كثيراً، وكان من أوائل هؤلاء: يزيد بن ركاب الكلبي في ألفين، والحصين بن نمير السكوني في أربعة آلاف، وعروة بن قيس في أربعة آلاف، وسنان بن أنس في أربعة آلاف(2) .

ولمّا تخلّف عن ابن زياد شبث بن ربعي الرّياحي، وهو ممّن كاتب الحسين وقال له : أقدم إلينا فإنّه ليس لنا إمام، وكان يعتبر فقيه أهل الكوفة، أرسل إليه عبيد اللّه يطلب منه اللحاق به في النخيلة ، لكن الرجل تظاهر بالمرض، فأرسل إليه من يقول له: أتتمارض؟ إن كنت في طاعتنا فاخرج إلي قتال عدوّنا .

فخرج إليه، فعقد له ابن زياد راية في ألف فارس، بعد أن زاد في عطائه وحباه(3).

وهكذا جاءت الخيل والرجال إلي كربلاء حتّي تكامل عند عمر بن سعد ثلاثون ألفاً، بين فارس وراجل(4).

وكانت أوامر ابن زياد مشدّدة في وجوب أن يلتحق كلّ من يستطيع حمل السيف أو الرمح أو حتّي العصي والحجارة بالجيوش

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 252.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 242؛ ومقتل أبي مخنف، ص 52.

3- (3) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 159.

4- (4) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 386؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 229.

المتجهة إلي كربلاء المقاتلة الحسين، حتّي لا يبقي أحد إلّا وتورّط في مقتل سيّد شباب أهل الجنّة.

حتّي أنّ القعقاع بن سويـد وجـد رجلاً غريباً من أهل الشام، قد جاء إلي الكوفة يطلب ميراثاً له في تلك المدينة، فأتي به إلي ابن زياد، فسأله عبيد اللّه : لماذا لم تخرج لقتال الحسين؟

فقال الرجل : إنّي رجل غريب من أهل الشام، جئت لدين لي في ذمّة رجل من أهل العراق.

فقال ابن زياد: أقتلوه، ففي قتله تأديب لمن لم يخرج إلي حرب الحسـين. فلمّا رأي الناس ذلك خرجوا بأجمعهم، إلّا من استطاع الهروب أو كان في السجن(1).

*

وفي كربلاء وفيما كان الحسين عليه السلام جالساً مع أصحابه ، في الخيمة، إذ دخل عليهم رجل اسمه هرثمة بن سليم، فسلّم علي الحسين وقال له: «يا أبا عبد اللّه ؛ غزونا مع أبيك عليّ بن أبي طالب غزوة صـفّين، فلمّا نزلنا بكربلاء صـلّي بنا الصـلاة في طريقه ، فلمّا سلّم رفع إليه من تربتها فشمّها ، ثمّ قال : وآهٍ لك أيّتها التربة ، ليقتلنّ فيك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب» .

«فلمّا رجعت من الغزوة إلي امرأتي، وهي جرداء بنت سـمير، وكانت شـيعة لعليّ، قلت لها : ألا أعجبك من صديقك أبي الحسن؟ لمّا نزلنا كربلاء رفع إليه من تربتها فشمّها وقال : «وآهٍ لك أيّتها

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 252؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 241؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 313.

التربة، ليقتلنّ فيك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب، وما علمه بالغيب»؟

فقالت زوجتي: دعنا منك أيّها الرجل، فإنّ أمير المؤمنين لا يقول إلّا حقّا».

«ثمّ إنّ أبـاك علي عليه السـلام قـد قتل ونسـيت الحـديث، فلمّا جئت أنت إلي هنا بعثني عبيـد اللّه بن زياد لمقاتلتك، لكنّني عرفت المنزل الذي نزل بنا عليّ عليه السـلام فيه، والبقعة التي رفع إليه من ترابها، والقول الذي قاله، فكرهت مسـيري، فأقبلت إليك لأخبرك بما سمعته من أبيك».

. وأضاف الرجل: «وإنّك يا أبا عبد اللّه لمقتول السّاعة .

فقال له الحسين : أنت معنا، أم علينا؟

قال هرثمة : يابن رسول اللّه ، لا معك ولا عليك، تركت أهلي وولدي، وأخاف عليهم من ابن زياد.

فقال له الحسين : «فولّ هرباً، حتي لا تري لنا مقتلاً، فوالذي نفسي بيده لا يري مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا، إلّا أدخله اللّه النار» .

فولّي الرجل هارباً، حتّي لا يسمع صوتاً، ولا يشهد مقتلاً(1) .

*

ثمّ إنّه بالرغم من أنّ السواد الأعظم من الناس تعبّئوا للحرب

1- (1) المناقب، لمحمد بن سليمان، ج 2، ص 201؛ ووقعة الصفين، لنصر بن مزاحم، ص 141؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج 3، ص 169.

ضدّ الحسين، فإنّ بعض المؤمنين هنا وهناك كانوا يتسلّلون إليه ليدافعوا عنه .

فقد التحق بالحسين رجل يدعي عبد اللّه بن عمير، من قبيلة بني عليم، كان قد نزل الكوفة، واتخذ عند بئر الجعد من همدان داراً، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط، فرأي القوم بالنخيلة يهيئون ليسرّحوا إلي الحسين، فقال: «واللّه لقد كنت علي جهاد أهل الشّرك حريصاً، وإنّي لأرجو أن لا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أكثر ثواباً عند اللّه من ثوابه إيّاي في جهاد المشركين .

فدخل إلي زوجته ، فأخبرها بما يريد أن يفعل.

فقالت له: «أصبت، أصاب اللّه بك أرشد أمورك، إفعل وأخرجني معك».

فخرج ليلاً حتّي أتي الحسين وأقام معه.

كما أنّ رجلاً آخر اسمه عمرو بن أبي سلامة الدالّاتي خرج متسلّلاً ليلتحق بالحسين، ووقعت بينه وبين زجر بن قيس الجعفي، الذي عيّنه عبيد اللّه بن زياد علي رأس خمسمائة فارس، ليمنع من يخرج من أهل الكوفة إلي الحسين، وقعت بينهما مواجهة، واستطاع أن ينفلت من قبضة ابن قيس، ويلتحق بالحسين في كربلاء.

ومن الذين استطاعوا الانفلات من عسكر ابن سعد والالتحاق بالحسين في كربلاء حبيب بن مظاهر الأسدي، الذي فرح أهل البيت بالتحاقه إليهم، وكان شيخاً صحابيّاً، شجاعاً، يهابه الأعداء.

وكان له دور كبير في نصرة الحسين، ومن ذلك أنّه لما رأي كثرة من جاؤوا لقتال أهل البيت التفت إلي الحسين وقال: «يابن

رسول اللّه، إنّ هاهنا حيّاً من بني أسد قريباً منّا، أفتأذن لي بالمسير إليهم في اللّيل لأدعوهم إلي نصرتك، فعسي اللّه أن يدفع بهم عنك ما تكره؟

فأذن له الحسين بذلك، فخرج في جوف اللّيل متنكّراً حتّي صار إلي حيّ أولئك، وعرّف نفسه فعرفوه، فقالوا له: ما حاجتك يابن عمّ؟

قال : «حاجتي إليكم إنّي قد أتيتكم بخير ما أتي به وافد إلي قومه قطّ، أتيتكم أدعوكم إلي نصرة ابن بنت نبيّكم، فإنّه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلّموه ما دامت فيهم عين تطرف، وهذا عمر بن سعد قد أحاط به في أكثر من إثنين وعشرين ألفاً وأنتم قومي وعشيرتي، وقد أتيتكم بهذه النصيحة، فأطيعوني اليوم تنالوا شرف الدّنيا وحسن ثواب الآخرة، فإنّي أقسم باللّه لا يقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول اللّه صابراً محتسباً، إلّا كان رفيق محمّد صلي اللّه عليه وآله في أعلي علّيّين».

فقام رجل من بني أسد يقال له عبد اللّه بن بشر وقال : أنا أوّل من يجيب إلي هذه الدعوة، ثمّ أنشد يقول:

قد علم القوم إذا تناكلوا * وأحجم الفرسان إذ تناضلوا

أنّي الشجاع البطل المقاتل * كأنّني ليث عرين باسل

ثمّ بادر رجال الحيّ إلي حبيب وأجابوه، فالتأم منهم تسعون رجلاً، وجاؤوا معه يريدون الحسين، إلّا أنّ أحدهم، وكان ضعيفاً في إيمانه، يقال له «جبلة بن عمر» أسرع إلي عمر بن سعد في جوف

اللّيل وأخبره بقدوم قومه لنصرة الحسين، فدعا ابن سعد برجل من أصحابه يقال له الأزرق بن الحارث الصيداوي، فضمّ إليه أربعمائة فارس ووجّه به إلي حيّ بني أسد، يرافقهم الذي جاء إليه بالخبر.

فبينما كان أولئك القوم يقبلون مع حبيب يريدون عسكر الحسين، إذ استقبلتهم خيل ابن سعد علي شاطيء الفرات، ولم يكن بينهم وبين معسكر الحسين إلّا اليسير من الطريق، ووقع بينهما التناوش واقتتلوا، فصاح حبيب بالأزرق بن الحارث : ما لك ولنا ، انصرف عنّا، ودعنا يشقي بنا غيرك، فأبي الأزرق وخاف بنو أسد، حيث قال منهم قائلاً : انصرفوا، لا طاقة لنا بخيل ابن سعد، فانهزموا راجعين إلي حيّهم، ورجع حبيب إلي الحسين وأخبره بما جري، فقال الحسين : لا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم .

ولمّا كملت الأعداد الغفيرة في كربلاء، وامتلأت الصحراء بالرجال والجنود الرجّالة، كتب عبيد اللّه بن زياد رسالة إلي عمر بن سعد يقول له فيها: «إنّي لم أجعل لك عذراً في قتال الحسين من كثرة الخيل والرجال، فانظر أن لا تبدأ أمراً حتّي تشاورني غدواً وعشياً مع كلّ غاد ورائح» وكان ابن سعد يمتثل لأوامر ابن زياد في كل ما يأمر به.

*

في اليوم السابع من شهر محرّم الحرام اشتدّ الحصار علي أهل البيت، وسدّ رجال بني أميّة عنهم باب الورود إلي الماء تماماً، ونفد ما عندهم منه. فعاد كلّ واحد يعاني من لهب الشمس، وأخذ الرجال والأطفال والنساء يتضوّرون من العطش، بينما لم يكن بينهم وبين الماء إلّا الرماح المشرعة والسيوف المرهفة. فطلب الحسين

من أخيه أبي الفضل العبّاس أن يستقي لهم بالقوّة، وضمّ إليه عشرين راجلاً يحملون القرب، وثلاثين فارساً . فتقدّموا إلي الشريعة، وكان نافع بن هلال البجلي يحمل اللّواء، فصاح عمرو بن الحجّاج، المكلّف بالشريعة من قبل ابن سعد: من الرجل؟

قال نافع : جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلّئتمونا عنه.

فقال له عمرو بن الحجّاج : اشرب هنيئاً، ولكن لاتحمل إلي الحسين منه .

فقال نافع: لا واللّه لا أشرب منه قطرة، والحسين ومن معه من آله وصحبه عطاشي.

ثمّ صاح بأصحابه : املأوا قربكم وأسقيتكم.

فشدّ عليهم أصحاب عمرو بن الحجّاج، ووقعت بينهم المواجهة، فكان بعض القوم يملأون القرب وبعضهم يقاتل، وكان العبّاس يقود ذلك الجمع، واستطاعوا أن يحملوا بعض الماء، فجاؤوا به إلي خيام أبي عبد اللّه الحسين (1).

إلّا أنّ تلك الكمّية القليلة من الماء لم تكن لتجدي نفعاً أولئك الجمع الذين كان يتجاوز عددهم المائة والخمسين من الرجال والنساء والأطفال.

*

ولمّا نال منهم العطش، وأخذ منهم كل مأخذ، قام الحسين

ص: 375

1- (1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 141؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص 245؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 246.

واتكأ علي قائم سيفه ونادي في أصحاب عمر بن سعد بأعلي صوته :

«أنشدكم اللّه، أتعرفوني؟

قالوا: نعم، أنت ابن بنت رسول اللّه وسبطه.

قال : أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ جدّي رسول اللّه؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه ، هل تعلمون أنّ أبي عليّ بن أبي طالب؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه ، هل تعلمون أنّ أمي فاطمة الزهراء بنت محمّد المصطفي صلي الله عليه و آله وسلم؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ جدّتي خديجة بنت خويلد، أوّل نساء هذه الأمّة إسلاماً؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ جعفر الطيّار في الجنّة عمّي؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه ، هل تعلمون أنّ هذا سيف رسول اللّه، أنا مقلّده؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال : أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ هذه عمامة رسول الله، أنا لابسها؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: أنشدكم اللّه، هل تعلمون أنّ عليّاً كان أوّل القوم إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأعظمهم حلماً، وأنّه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة؟

قالوا: اللّهمّ نعم.

قال: فبم تستحلّون دمي، وأبي الذائد عن الحوض يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة»؟

قالوا : قد علمنا ذلك كلّه، ونحن غير تاركيك حتّي تذوق الموت عطشاً.

فلمّا سمعت نسوة الحسين وبناته هذه الخطبة ارتفعت أصواتهن بالبكاء، فوجّه الحسين إليهن أخاه العبّاس وعليّاً ابنه وقال لهما : «سكّتاهن، فلعمري ليكثرنّ بكائهن(1).

*

ثمّ إنّ الحسين أرسل إلي ابن سعد: إنّي أريد أن أكلّمك فألقني اللّيلة بين عسكري وعسكرك .

فاستجاب له عمر بن سعد علي كره، وخرج إليه في عشرين

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 87.

فارساً، والحسـين في مثل ذلك. ولمّا التقيا أمر الحسين أصحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه أخوه العبّاس وابنه عليّ الأكبر، وأمر ابن سعد أصحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه ابنه «حفص» وغلاـم له، فقال الحسـين لعمر بن سـعد: ويحك، أما تتقي اللّه الـذي إليه معادك ؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟

وأضاف: يا هذا، ذر هؤلاء القوم وكن معي، فإنّه أقرب لك من اللّه .

فقال له عمر بن سعد : أخاف أن تهدم داري.

فقال الحسين : أنا أبنيها لك.

فقال عمر بن سعد: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين: أنا أخلّف عليك خيراً منها، من مالي بالحجاز .

فقال عمر بن سعد: لي عيال أخاف عليهم .

فقال الحسين : أنا أضمن سلامتهم.

فلم يقبل ابن سـعد دعوة الحسين ولم يجبه إلي ذلك، فانصرف عنه الحسين وهو يقول : «ما لك، ذبحك اللّه علي فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فواللّه إنّي لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلّا يسيراً».

فقال عمر بن سعد مستهزئا : يا أبا عبد اللّه، في الشعير كفاية ! ثمّ رجع كلّ واحد منهما إلي معسكره(1).

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 245.

ومع أنّ عمر بن سعد رفض دعوة الحسين للانضمام إليه، إلّا أنّه كتب رسالة إلي عبيد اللّه بن زياد يقول له فيها : «أمّا بعد، فإنّ اللّه قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمّة. هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلي المكان الذي منه أتي، أو أن نسيّره إلي أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا، فيكون رجلاً من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده ، فيري فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لكم رضي وللأمّة صلاح»(1).

وقد خلط ابن سعد في رسالته هذا بين الصدق والكذب ، فالحسين كان قد عرض عليهم أن يعود إلي المكان الذي جاء منه ، أو أن يذهب إلي أيّ مكان آخر. ولكن عمر بن سعد زاد علي ذلك بأنّ الحسين قبل أن يذهب إلي يزيد وأن يضع يده في يده، وهذا كذب صريح وتقوّل فاضح من الرجل علي الحسين، لأنّ أساس الصراع كان حول خلافة يزيد، وكان الحسين قد قال من قبل : «وعلي الإسلام السلام إذا بليت الأمّة براع مثل يزيد». فكيف يقبل أن يذهب إلي يزيد ويضع يده في يده؟

وعلي كلّ حال، فعندما وصلت الرسالة إلي عبيد اللّه بن زياد قرأها علي جمع من أصحابه ، فيهم شمر بن ذي الجوشن الكلابي الضبابي، الذي قال لابن زياد: «لا تقبلنّ إلّا أن يضع يده في يدك ، فإنّه إن لم يفعل ذلك كان أولي بالقوّة والعزّ، وكنت أولي بالضعف والعجز، فلا ترضي إلّا بنزوله علي حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت كان ذلك لك، وإن غفرت كنت أولي بما تفعله» .

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 414.

وأضاف الشمر: «لقد بلغني أنّ حسيناً وعمر بن سعد يجلسان ناحية من العسكر، يتناجيان ويتحادثان في اللّيل».

فقال ابن زياد: «نعم ما رأيت، فاخرج بهذا الكتاب إلي عمر بن سعد، فليعرض علي الحسين وأصحابه النزول علي حكمي، فإن فعلوا أبعث بهم إليّ سلماً، وإن هم أبوا فقاتلهم».

وكان كتابه إلي عمر بن سعد كالتالي: «أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلي حسين لتطاوله وتمنّيه السّلامة، وتكون له عندي شافعاً، فانظر إن نزل الحسين وأصحابه علي حكمي فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتّي تقتلهم وتمثّل بهم، فإنّهم لذلك مستحقّون. وإن قتلت حسيناً فأوطيء الخيل صدره وظهره، فإنّه عاقّ مشاقّ قاطع، فإن فعلت ذلك جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر وأمر الناس، فإنّا قد أمّرناه فيك بأمرنا، والسّلام»(1).

***

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 391؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 253؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 415؛ والعقد الفريد، لابن عبد ربه، ج 4، ص 379؛ وجواهر المطالب، للباعوني، ج 2، ص 269.

كربلاء..مقدّمات المواجهه

كان واضحاً للجميع أنّ الأرض التي خيّم فيها كلّ من الحسين وأصحابه من جهة، والجيش الأموي بقيادة عمر بن سعد من جهة أخري، هي أرض المعركة القادمة.

فالحسين من جهته كان قد حسم الموقف منذ بداية البدايات، إيماناً منه بمسؤوليته الربّانية بإقامة الحقّ ورفض للباطل، واستجابة منه لدعوة من دعاه لكي يكون لهم إماماً وقدوة.

والعدوّ من جهته كان قد حسم الموقف أيضاً، استجابة منه لحبّ السلطان، ورغبة منه في الانتقام، وكان مصمّماً علي قتل الحسين وأصحابه بأبشع صوره .. وما جاء في رسالة عبيد اللّه بن زياد إلي عمر بن سعد، كان صريحاً في ذلك.

وكانت بداية المعركة وصول شمر بن ذي الجوشن الضبابي إلي كربلاء عشيّة الخميس، في اليوم التاسع من شهر محرّم، سنة إحدي وستّين بعد العصر(1).

وكان شمر بن ذي الجوشن - كما ذكرنا - يحمل الأمر

1- (1) الطبقات، لابن سعد، موضوعة الحسين، ص 70؛ والعبرات، للمحمود، ي ج 1، ص 441.

بالزحف علي الحسين، ويحدّد له ساعة الصفر، بعد إتمام الاستعدادات اللازمة لتلك المواجهة.

لقد كان عمر بن سعد في آخر رسائله إلي عبيد اللّه بن زياد يحاول أن يمنع وقوع الحرب، وقد عرض ما ذكره الحسين من أنّه مستعدّ للرجوع إلي المدينة ، أو الذهاب إلي أيّ مكان آخر، وكان ذلك صحيحاً . فالحسين أساساً لم يكن طالب حرب، بل كان طالب حقّ، ولم يكن أشراً ولا بطراً، يطلب الملك والسلطان، كما أنّه كأيّ إمام ربّاني كان يريد إتمام الحجّة علي أعدائه، ومن ثمّ فإنّه عرض عليهم العودة من حيث جاء، وكان في موقفه ذلك يشبه موقف رسول اللّه صلي اللّه عليه وآله وسلّم في صلح الحديبيّة. فقد خرج النبي صلي اللّه عليه وآله وسلّم بأصحابه يريد مكّة لكي يحجّ إلي بيته، ويتعبّد اللّه فيه، ولم يكن راغباً في قتال المشركين مع حملهم للسيوف، كما كانت العادة في السابق .

وحينما واجهه رجال قريش، ومنعوه من الذهاب إلي بيت اللّه ، لم يصرّ علي ذلك، بل رضي بالعودة إلي المدينة، مع فارق واحد أنّ طغاة قريش لم يحاولوا أن يفرضوا علي النبي صلي اللّه عليه وآله وسلّم أن يأخذوه إلي أبي سفيان قسراً حتّي يبايعه، أمّا في كربلاء فلم يمنحوا الحسين الخيار بين أن يواصل الطريق إلي الكوفة، بحسب طلب الناس له ذلك، أو العودة إلي المدينة، وإنّما ركزوا بين اثنتين، بين السلّة والذلّة.

هذا، وقد جاء شمر بن ذي الجوشن برسالتين معه إلي كربلاء، الأولي إلي عمر بن سعد برفض ترك الحسين عليه السلام ، ورسالة أخري إلي العبّاس وإخوته، بإعطائهم الأمان حتّي ينفصلوا عن الحسين.

ص: 382

وحينما أوصل كتاب عبيد اللّه إلي عمر بن سعد، قال له عمر: «ويلك يا أبرص، لا قرّب اللّه دارك، ولا أدني مزارك، وقبّح اللّه ماقدمت به عليّ ، وإنّي واللّه لأظنّك أنت الـذي ثنيته أن يقبـل مـا كتبت به إليه، لقـد أفسـدت علينا أمراً كنّا رجونا معه الصـلاح، ولكنّك شيطان، فعلت ما فعلت»(1).

وأضاف: «لا يستسلم واللّه حسين أبداً، إنّ نفساً أبيّة لبين جنبيه » .

فقال له شـمر، وقد تجاهل عتابه بإفساد أمره: «أخبرني يا عمر، ما أنت صانع، أتمضـي الأمر أميرك وتقاتل عدوّه، وإلّا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر».

فقال له عمر بن سعد، وقد هاجت به الرغبة في ملك الرّي : «لا، ولا كرامة لك، ولكن أنا أتولّي ذلك، فدونك أنت، كن علي الرجّالة»(2).

ثمّ إنّ عمر بن سـعد بعث إلي الحسـين يخبره بوصول أمر عبيد اللّه بن زياد بالمناجزة ورفضه القبول بالعودة إلي مكّة أو المدينة ، أو الذهاب إلي مكان غير الكوفة.

فقال الحسين : «واللّه لا وضعت يدي في يد ابن مرجانة أبداً» . ثمّ تمثّل بقول الشاعر:

لا ذعرت السوّام في غسق اللّيل * مغيراً ولا دعوت يزيدا

ص: 383

1- (1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 142.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 416؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 91؛ ومختصر ابن عساكر، لابن منظور، ج 19، ص 65.

يوم أعطي من المهانة ضيماً * والمنايا ترصدنّي أن أحيدا(1)

أمّا الرسالة الثانية التي حملها الشـمر فكانت إلي العبّاس وإخوته من أمّه، وهم عبد اللّه بن عليّ، وجعفر بن عليّ، وعثمان بن عليّ، بالإضافة إلي العبّاس نفسه ، فقد كانت لها قصّة وهي أنّ شمر بن ذي الجوشن، وهو من أكثر المشجّعين لعبيد اللّه بن زياد بالتعجيل في قتال الحسين وإراقـة دمه، كان من نفس العشـيرة التي تنتمي إليها أمّ البنين والـدة العبّاس وإخوته، فقد كان كلابيّا، وكان الرجل يعرف نتائج المواجهة بين الحسين وبين الجيش اللجب الذي كان يعدّ لقتاله ، فكلّ من هو مع الحسين سيقتل.

فقام الشـمر قبل مغادرته الكوفة، واصـطحب معه عبد اللّه بن أبي المحل، وهو ابن أخ أمّ البنين، ودخلا علي عبيد اللّه بن زياد، فقال عبد اللّه بن أبي المحـل: «أصـلح اللّه الأـمير، إنّ علي بن أبي طـالب كان عنـدنا هاهنا بالكوفـة ، فخطب إلينا، فزوّجناه بنتاً لنا يقال لها أمّ البنين بنت حزام، فولـدت له عبـد اللّه وجعفر والعبّـاس وعثمـان، فهم بنو أختنا، وهـم مع الحسـين أخيهم، فإن رأيت أن تكتب إليهم كتابـة بأمان منك عليهم فعلت متفضّلا».

فقال عبيد اللّه بن زياد: نعم، وكرامة لكم، ثمّ أمر كاتبه أن يكتب إليهم بالأمان .

وكتاب الأمان هذا حمله الشمر إلي العبّاس وإخوته، فجاء

ص: 384

1- (1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 142؛ والإمام الحسين وأصحابه ، للقزويني، ج 1، ص 250.

حتّي وقف بقرب معسكر الحسين ونادي بأعلي صوته: أين بنو أختنا؟ أين العبّاس وإخوته؟

فأعرض هؤلاء عنه وما أجابوه، فقال لهم الحسين : أجيبوه، ولو كان فاسقاً .

فجاؤوا إليه وقالوا : ما شأنك وما تريد؟

قال الشمر: يا بني أختي، أنتم آمنون، لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين، وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد.

فغضب العبّاس من كلامه ، وصرخ في وجهه قائلاً : «لعنك اللّه ولعن أمانك، أتؤمّننا وابن رسول اللّه لا أمان له؟ وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللّعناء وأولاد اللّعناء، ونترك طاعة ابن فاطمة الزّهراء»(1).

ومع هذا الجواب القاسي رجع الشمر إلي معسكره خائباً، بعد أن اكتشف أنّ كلّ أولاد عليّ بن أبي طالب يحملون أنفساً أبيّة في جنباتهم، كما اكتشف عمر بن سعد من قبل، النفس الأبيّة التي كانت بين جنبي الحسين عليه السلام .

*

بعدما رأي عبد اللّه الصالح ما جري، التفت إلي صاحبه عبد اللّه بن مسلم وقال له: تري ما الذي ينتظر هؤلاء حتي يشنّوا حربهم؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ ما يميّز أصحاب الحسين هو

1- (1) نهاية الإرب، للنويري، ج 2، ص 432؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 166؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 252.

بصـيرتهم، فهم مؤمنون بما يفعلون، وواثقون من سـلامة مواقفهم، ولا تجد عندهـم تزلزلاً في أمر، كما هو بالنسبة إلي سيّدهـم الحسين، أمّا أعدائهم فهم يعرفون بأنّهم علي باطل، فهم يقدّمون رجلاً و يؤخّرون أخري.

قال عبد الرحمن الصالح: أتقصد ابن سعد؟

قال عبد اللّه بن مسلم : أقصد عمر بن سعد، كما أقصد كلّ من في معسكره، واستثني الشمر بالطبع، فإنّه جلف جافي، وهو يختلف عن غيره تماماً، فـذاته خبيثـة ، يريـد الحرب الآن وليس بعـد ساعـة. أمّا عمر بن سـعد فإنّه يحاول التأجيل، لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً، إنّه يعرف الحسـين تمامـاً، وبينه وبين الحسـين رحم، وقـد كـان كلاهمـا يجلسـان تحت منبر عليّ عليه السـلام في الكوفـة، ويسـتمعان إلي مواعظه ونصائحه، ولكن الذي أعماه هو ملك الرّي، ورغبته في مغانم السلطان هي التي جاءت به إلي كربلاء.

وأضاف: إنّ الحسـين من أبناء الآخرة، أمّا عمر بن سـعد فهو من أبناء الـدّنيا، وخشـيته من إراقـة دم الحسـين ليس علي آخرته بل علي دنياه، فهو يخاف أن تنقلب الموازين عليه، إذ ليس سـهلاً إراقة دم ابن بنت النبيّ، الذي سـمع الناس عن رسول اللّه صـلي الله عليه و آله و سلم في حقّه الكثير من الأحاديث، مثل قوله : «حسـين منّي وأنا من حسين»(1)، وقوله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»(2)، وغير ذلك كثير .

ص: 386

1- (1) كامل الزيارات، لابن قولويه، ص 116.
2- (2) قرب الإسناد، للحميري القمي، ص 111.

قال عبد الرحمن : وماذا عن عبيد اللّه بن زياد، ألا يخاف من انقلاب الأمر عليه؟

قال عبد اللّه : معروف عن عبيد اللّه بن زياد أنّه رجل جبان، وبمقدار جبنه يحشّد الناس ضدّ الحسين، لكي يورّط جميع من يمكن أن يحمل سيفاً أو رمحاً، أو حتي عصي، في دم الحسين، حتّي لا يطالبه أحد فيما بعد بالثأر لسيّد شباب أهل الجنّة .

قال عبد الرحمن : وهل تري أنّ عبيد اللّه بن زياد متردّد في قتل الحسين؟

قال عبد اللّه : أبداً، إن الرجل ذاته كذات الشمر، خبيثة، فهو ابن زياد ابن أبيه، لا يعرف له أصل في الحقيقة، ولكن الرجل يخاف من يزيد بن معاوية الذي انتدبه لمواجهة الحسين وقد أعطاه ولاية الكوفة والبصرة معاً، ويخاف من أن يعزله يزيد إن لم ينفّذ أوامره، ويخاف من انقلاب الأمر عليه، فهو مدفوع بأمرين: الأوّل رغبته في السلطة، والثاني خوفه من يزيد. وأمّا عمر بن سعد فهو يماطل لعلّ الأمر يتغيّر لدي يزيد أو عبيد اللّه بن زياد، ومن هنا فإنّ الرجل يماطل ويؤجل الهجوم.

*

عندما كان الأعداء يمنعون الماء عن أهل البيت في شدّة الحرّ، فإنّهم كانوا يتمتّعون ليس بشربه فحسب، بل والسباحة فيه . فقد ذهب عمر بن سعد إلي نهر الفرات ومعه سعد بن عبيدة يستنقع في الماء. وبينما هو فيه، وإذا برجل يأتي إلي عمر بن سعد، فيسرّ إليه قائلاً : «إنّ ابن زياد قد أرسل جويرة بن بدر التميمي، وأمره إن أنت لم تقاتل الحسين وأصحابه أن يضرب عنقك».

وبين الرغبة في ملك الرّي والخوف من أن يضرب عنقه، خرج عمر بن سعد من الماء مسرعاً، ووثب علي فرسه ، ودعا بسلاحه(1).

ثمّ نادي في أصحابه أن اهجموا علي الحسين الآن.

كان الوقت بعد صلاة العصر، عشيّة يوم الخميس في اليوم التاسع من شهر محرّم الحرام.

وبالفعل، فقد تحرّك الجيش نحو خيام الحسين .

كان الحسين في ذلك الوقت جالساً أمام خيمته، محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه علي ركبتيه، فسمعت أخته زينب صيحات القوم، فدنت من أخيها وقالت له : أخي، أما تسمع الأصوات؟

فرفع الحسين رأسه غير آبه بذلك، وقد ارتسمت بسمة الرضي علي شفتيه، وقال لها : إنّي رأيت رسول اللّه الآن في المنام، فقال لي: إنّك تروح إلينا .

فلطمت زينب وجهها وقالت : يا ويلتاه .

فقال لها الحسين : ليس لك الويل يا أخيّة، أسكتي، رحمك الرّحمن.

وبينما الحسين وزينب يتحدّثان، فإذا بالعبّاس قد أقبل قائلاً : يا أخي، أتاك القوم.

فنهض الحسين من مكانه ، وقال للعبّاس : «اركب بنفسي أنت،

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 424؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج 6، ص 2638.

حتّي تلقاهم، فتقول لهم : ما لكم وما بدا لكم، وتسألهم عمّا جاء بهم»؟

فأتاهم العبّاس ومعه عشرون فارساً، فيهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، فقال لهم العبّاس : ما بدا لكم، وما تريدون؟

قالوا: جاء أمر من الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا علي حكمه، أو نناجزكم.

فقال العبّاس : فلا تعجلوا، حتّي أرجع إلي أبي عبد اللّه فأعرض عليه ما ذكرتم .

فوافقوا، وقال قائلهم : ألقه فأعلمه ذلك، ثمّ ارجع بما يقول.

فانصرف العبّاس وحده راجعاً إلي الحسين ليخبره بالخبر، بينما وقف من كان معه يخاطبون القوم، فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين : كلّم القوم إن شئت، وإن شئت كلّمتهم أنا.

فقال له زهير : أنت بدأت بهذا، فكن أنت من تكلّمهم.

فرفع حبيب بن مظاهر صوته قائلا لهم: «أما واللّه ، لبئس القوم عند اللّه غداً قوم يقدمون علي اللّه، وقد قتلوا ذرّيّة نبيّه وعترته وأهل بيته، وعبّاد أهل هذا المصر، المجتهدين بالأسحار، الذاكرين اللّه كثيراً باللّيل والنهار، وشيعتهم الأبرار».

فقال له عزرة بن قيس، مستهزءاً : إنّك لتزكّي نفسك ما استطعت يا حبيب.

فقال زهير بن القين : يا عزرة؛ إنّ اللّه زكّاها وهداها، فاتق اللّه ، فإنّي لك من الناصحين، أنشدك اللّه أن تكون ممّن يعين الضلّال علي قتل النّفوس الزكيّة .

فقال عزرة: يا زهير؛ إنّك لم تكن عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنّما كنت عثمانيّاً.

فقال زهير بن القين: «أفلست تستدلّ بموقفي هذا أنّي منهم؟ أما واللّه ما كتبت إلي الحسين كتاباً قطّ، ولا أرسلت إليه رسولاً قطّ، ولا وعدته نصرتي قطّ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلمّا رأيته ذكرت به رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم فرأيت أن أنصره، وأكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيّعتم من حقّ اللّه وحقّ رسوله»(1).

أمّا ما جري للعبّاس مع الحسين فقد جاء إليه وأخبره بمقالة القوم، فقال له الحسين: «ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخّرهم إلي غد، وتدفعهم عنّا هذه العشيّة، لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة ، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي أحبّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدّعاء والاستغفار».

فرجع العبّاس بمقالة الحسين إلي القوم، وطلب منهم تأخير القتال إلي يوم غد، فالتفت عمر بن سعد إلي شمر وقال له : ما تري يا شمر؟

قال شمر : ما تري أنت؟ أنت الأمير والرأي رأيك، ولو كان الأمر إليّ لمضيت إلي ما أمرت به، ولم أؤخّر القتال .

فقال عمر بن سعد: قد أردت أن لا أكون.

ثمّ أقبل علي الناس من قومه ، فقال : ماذا ترون؟

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 416.

فقال عمرو بن الحجّار بن سلمة الزبيدي، سبحان اللّه ؛ واللّه لو كانوا من الديلم، ثمّ سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها !

وقال قيس بن الأشعث: أجبهم إلي ما سألوك، فلعمري ليصبحنّك بالقتال غدوة .

فقال عمر بن سعد: واللّه لو أعلم أن يفعلوا ما أخّرتهم العشيّة .

ثمّ التفت إلي العبّاس وقال : إنّا قد أجّلناكم إلي غد، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلي الأمير عبيد اللّه بن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم(1).

*

بعد رجوع عمر بن سعد إلي معسكره ورجوع العبّاس وأصحابه إلي مخيّمهم، التفت عبد الرحمن الصالح إلي صاحبه عبد اللّه وقال : كما تري فإنّ المعركة واقعة لا محالة فيها، ولكن لماذا أجّلها الحسين؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لقد بيّن ذلك، إنّه يريد أن يعبد اللّه ، فهذه آخر ليلة من حياته، وهو يحبّ الصلاة، والتزوّد من كتاب اللّه ، والاستغفار، ولعلّه يريد أموراً أخري.

*

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 178؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص 268

بعد صلاة العشاء من ليلة العاشر من محرّم جمع الحسين أصحابه وقام فيهم خطيباً، وقال :

بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمـد للّه ربّ العالمين، والصّـلاة علي رسول اللّه وأهل بيته . أثني علي اللّه تبارك وتعالي أحسن الثناء، وأحمده علي السـرّاء والضـرّاء. اللّهمّ إنّي أحمدك علي أن أكرمتنا بالنّبوّة، وعلّمتنا القرآن، وفقّهتنا في الدّين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين».

«أمّا بعـد، فإنّي لا أعلم أصـحابة أوفي، ولا خيراً من أصـحابي، ولا أهل بيت أبرّ، ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم اللّه عنّي جميعاً خيراً. الا وإنّي أظنّ يومنـا من هؤلاـء الأعـداء غـداً، وإنّي قـد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، وهـذا اللّيل قـد غشـيكم، فاتخـذوه جملاـً وليأخـذ كـلّ رجل منكم بيـد رجل من أهل بيتي، فجزاكم اللّه جميعا خيراً، وتفرّقوا في سوادكم ومـدائنكم، فإنّ القوم إنّما يطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري»(1).

*

حينما سـمع عبد الرحمن الصالح هذا الكلام من الحسـين التفت إلي صاحبه وقال: أظنّ أنّ الحسـين إنّما أجّل المعركة لكي يقول لقومه ما قاله الآن، وحتي يسمح لمن يطلب الحياة الدّنيا ، أن يتركه ويبتعد عن المواجهة.

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 418؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 257؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 74.

فقال عبد اللّه بن مسلم : هذا بالإضافة إلي ما صرّح به من أنّه يريد أن يصلّي هذه اللّيلة، ويتلو كتاب اللّه، ويستغفره، ويقضي آخر ليلة من ليالي حياته في الدّنيا بالدّعاء والتضرّع والعبادة فهذا ديدن الأولياء، ينظرون إلي الدّنيا كدار للتزوّد، وليس كدار للتمتّع.

بعد خطبة الحسين عليه السلام ارتفعت أصوات أصحابه، وكان كلّ واحد منهم يتسابق مع صاحبه لكي يقول شيئاً. فقام مسلم بن عوسجة الأسدي إلي الحسين وقال: «أنحن نخلّي عنك، ولمّا نعذر إلي اللّه في أداء حقّك ؟!

«أما واللّه لأقاتلنّهم حتّي أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة دونك حتّي أموت معك».

وقام سعيد بن عبد اللّه الحنفي، وقال: «واللّه لا نخلّيك حتي يعلم اللّه أنّا حفظنا غيبة رسول اللّه فيك».

وأضاف: «واللّه لو علمت أنّي أقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أحرق حيّاً، ثمّ أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّي ألقي حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنّما هي قتلة واحدة ثمّ بعدها الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».

وقام زهير بن القين وقال: «واللّه لوددت أنّي قتلت، ثمّ شرت، ثم قتلت، حتّي أقتل هكذا ألف قتلة، وأنّ اللّه يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»(1).

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 420؛ والأمالي، للصدوق، ص 156؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 95.

وتكلّم جماعة آخرون من أصـحابه بكلام يشـبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: «واللّه لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قتلنا كلّنا وفينا وقضينا ما علينا »(1).

أمّا إخوة الحسين فقد نطق باسـمهم العبّاس بن عليّ، فقال :«معاذ اللّه والشـهر الحرام، يابن بنت رسول اللّه ، فماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟

«أنقول لهم : إنّا تركنا سيّدنا وابن سيّدنا وعمادنا، وتركناه غرضاً للنبل، وذريئة للرّماح، وجزراً للسباع، وفررنا عنه رغبة في الحياة، ولم نرم معه بسهم، ولم نطعن عنه برمح، ولم نضرب معه بسيف، معاذ اللّه؟!

«لاـ واللّه ، يـابن بنت رسول اللّه، لاـ نفارقـك أبـداً، ولكنّـا نفـديك بأنفسـنا، ونحيـا بحياتك، ونموت معك، ونرد موردك، فقبّح اللّه العيش بعدك»(2).

فالتفت الإمام الحسين إلي أولاد عمّه عقيل وقال لهم : «حسبكم من القتل ما تقدّم في أخيكم مسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم».

فقالوا: «لا واللّه لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا »(3).

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 419.
2- (2) الفتوح، لابن الأعثم، ج 5، ص 171؛ ومقالت الطالبيين، لأبي الفرج، ص 75.
3- (3) البداية والنهاية ، لابن كثير، ج 8، ص 177.

ولمّا سمع الحسين مقالتهم جزّاهم خيراً، وانصرف إلي خيمته (1).

ويبدو أنّ زينب كانت قد سمعت مقال الحسين وما قاله أصحابه ، فلما رأته عائداً إلي خبائه قامت تجرّ ثوبها، فدخلت عليه وهي تقول: «واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم قتل أبي عليّ، اليوم ماتت أمّي فاطمة، اليوم مات أخي الحسن، يا خليفة الماضين ويا ثمال الباقين».

ثمّ لطمت وجهها والحسين يعزّيها(2).

*

لقد كانت الآلام في مخيّم الحسين تختلط، في تلك اللّيلة ،بإرادة المقاومة، والرعب يمتزج بالتصميم علي رفض الاستسلام.

فلقد كانت نساء أهل البيت ينظرن إلي رجالهن، وهنّ يرون أنّهنّ سيفقدنهم خلال سويعات النهار، كما أنّ غموض ما سيحدث، وهول الحرب التي ستقع صبيحة اليوم الثاني، كان يزيد من أجواء الرعب التي كانت تخيم عليهنّ، خاصّة وأنّ عدد الرجال في هذا المخيّم كان قليلاً جدّاً بالقياس إلي أعدائهم الذين كانوا يملؤن الصحراء. فإزاء كلّ واحد من أصحاب الحسين كان يقف خمسمائة شخص من الرجال، يحملون معهم كلّ أنواع الأسلحة المتوفّرة من السيوف والرماح والنبال والعصي والحجارة، بالإضافة إلي الضغائن والأحقاد التي كانت تملأ قلوبهم .

1- (1) أعلام الوري، للطبرسي، ص 239.

2- (2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ج، ص 142.

هذا بالإضافة إلي أنّ أولئك الذين صحبوا الحسين عليه السلام من أجل الدّنيا لم يكونوا أصحاب إرادة وإيمان وتصميم وثبات علي الحقّ من النوع الذي سبق، أخذوا يفارقونه واحداً بعد واحد. حتّي أنّ سكينة بنت الحسين قالت: «كنت جالسة في وسط الخيمة عندما سمعت نشيجاً من خلفي، فخرجت أعثر بأذيالي خوفاً من أن تفقه بي النساء، فنظرت إذا بأبي الحسين جالس وأصحابه من حوله ودموعه تجري علي خدّيه، فسمعته يقول: «يا قوم؛ إنّكم خرجتم معي لعلمكم أنّي أقدم علي قوم بايعوني بألسنتهم وقلوبهم، إلّا أنّهم الآن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر اللّه، وليس لهم مقصد إلّا قتلي وقتل من يجاهد بين يدي، وسبي حريمي بعد سلبهم، وأخشي أنّكم لا تعلمون ذلك، أوتعلمون وتستحيون، والمكر والخديعة محرّم عندنا أهل البيت، فمن كره منكم نصرتنا فلينصرف، فإنّ اللّيل ستير، والسبيل غير خطير، والوقت ليس بهجير ومن واسانا بنفسه كان معنا غداً في الجنان، نجيّا من غضب الرّحمن»، وقد قال رسول الله : «ولدي الحسين يقتل بأرض كربلاء غريباً وحيداً عطشاناً، فمن نصره فقد نصرني، ونصر ولده القائم».

وتضيف السيّدة سكينة : «فواللّه ما أتمّ كلامه إلّا وتفرّق القوم من عشرة وعشرين، فلم يبق معه إلّا ما ينقص عن الثمانين ويزيد علي السبعين. فنظرت إلي أبي وقد نكّس رأسه في حزن وكرب، فخنقتني العبرة، فرددتها ولزمت السكوت».

ثمّ إنّ سكينة رجعت إلي الفسطاط الذي فيه النساء، بينما كانت دموعها تجري علي خدّها، فنظرت أمّ كلثوم إليها وقالت : ما لك؟

فـذكرت قصّـتها، فلمّا سـمعت ذلك، نادت : «و آجدّاه، واعليّاه ، وآحسـناه، وآحسـيناه، وأقلّة ناصـراه. ثمّ قالت: يا ليت الأعادي يرضون أن يقتلونا بدلاً عن أخي.

فاجتمعت النساء من بكائها ، فبكين، وسـمع الحسين بكاؤهن، فدخل عليهن، فقالت له أمّ كلثوم: «يا أخي؛ اذكر لهـم (لأهل الكوفة) محل جدّك وأبيك، وجدّتك وأخيك.

فقال الحسـين : «ذكّرتهم فلم يذكّروا، ووعظتهم فلم يتّعظوا ، ولم يسمعوا قولي، وليس لهم رأي سوي قتلي، أوصيكم بتقوي اللّه رب البريّة، والصبر علي البليّة، وأودّعكم اللّه الفرد الصمد، الذي لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً.ثمّ قال : (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (1).

*

لقد كان الحسين يريد نهضته طاهرة مطهرّة، فلم يكن يرغب أن يكون معه من هو راغب في الدّنيا ، بل وحتّي ولم يكن يريد أن يبقي معه من هو مديون للآخرين. فلقد أخبره رجل من أنصاره في ليلة عاشوراء، فقال : إنّ عليّ ديناً .

فقال الحسين : لا يقاتل معي من عليه دين (2).

إنّ التزام الحسين بالقضايا الإنسانية كان نابعاً من إيمانه

1- (1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص 268؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص 272.
2- (2) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 202؛ والطبقات، لابن سعد، موضوعة الحسين، ص 71، رقم 291.

المطلق بمبادئه وقيمه، ونهضته كانت تقوم أساساً علي إحياء الشريعة بكلّ جوانبها، وعلي رأسها الجوانب الأخلاقيّة .

ومن هنا أيضاً أنّ رجلاً من أصحاب الحسين اسمه محمّد بن بشير الحضرمي، جاءه الخبر في ليلة عاشوراء أنّ ابنه قد تمّ أسره في الرّي، فقال الرجل : عند اللّه أحتسبه ونفسي، وأضاف: ما كنت أحبّ أن يؤسر ولا أن أبقي بعده .

ولمّا سمع الحسين ذلك، قال للرجل: رحمك اللّه، أنت في حلّ من بيعتي، فاعمل في فكاك ابنك.

فقال الرجل : أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك، يا أبا عبد اللّه . هيهات أن أفارقك، ثمّ أسأل الركبان عن خبرك، وأخذلك مع قلّة الأعوان، لا يكون هذا واللّه أبداً ولا أفارقك(1).

*

في ليلة العاشر من محرّم كان الحسين يوزّع وقته بين أمور ثلاث:

الأول: الدّعاء والاستغفار والصلاة وتلاوة القرآن، وهو أكثر ما أخذ من وقته ، لأنّه استمهل القوم في اليوم التاسع لهذا الغرض.

الثاني: إلقاء المواعظ والوصايا علي الأصحاب.

الثالث : الذهاب إلي النساء، وتوصيتهنّ بالصبر، والتحدّث

1- (1) تهذيب الكمال، للمري، ج 6، 407؛ والإقبال، لابن طاوس، ص 576؛ ومصباح الزائر، ص 282.

معهنّ حول الآخرة، وضرورة أن ينظرن إلي الدّنيا كدار ممرّ، لا دار مقرّ، ودار بلاء وابتلاء.

*

من الأمور التي حـدثت في تلك الليلـة أنّ الإمام أخبر أصـحابه بأنّهم سـيقتلون معه جميعاً، وقال: «لا يبقي منكم أحـد إلّا ولدي عليّ زين العابدين، لأنّ اللّه لن يقطع نسلي منه، وهو أبو أئمّة ثمانية .

فقالوا بأجمعهم: الحمد للّه الذي أكرمنا بنصرك، وشرّفنا بالقتل معك، أولا نرضي أن نكون معك في درجتك؟

فقال لهم الحسين : جزاكم اللّه خيراً .

ثمّ أخبرهم أنّ الأعداء بعد مقتلهم سيصلون إلي المخيّم، وأنّ ولده الرّضيع أيضاً هو ممّن يقتل معه.

فقال القاسم بن الحسن، وكان في حدود الثالثة عشرة من عمره: يا عمّ، أيصل العدوّ إلي مخيّمنا حتّي يقتل الرّضيع في حضن أمّه؟

فقال الحسين : فداك عمّك، يقتل عبد اللّه إذا جفّت روحي عطشاً، وصرت إلي خيمتنا، فطلبت ماء، فلا أجد قطّ، فأقول ناولوني ابني، فيأتوني به، فيضـعونه علي يدي، فأحمله لأدنيه من فمي، فيرميه فاسق بسهم، فينحره وهو يناغي، فيفيض دمه في كفّي، فأرفع إلي السّماء وأقول: اللّهمّ صبراً واحتساباً فيك (1).

1- (1) مقتـل الحسـين، لبحر العلوم، ص 282؛ والإمام الحسـين وأصـحابه، للقزويني ، ج1، ص 262؛ ومدينة المعاجز، للسـيد هاشم البحراني، ص 286.

فأخذ القاسم يفكّر كيف سيقتل عبد اللّه وهو طفل رضيع، وهل يكون ذلك، بينما القاسم نفسه لا يزال موجوداً؟

فسأل الحسين، قائلاً : وأنا فيمن يقتل يا عمّ؟

فأشفق عليه الحسين أن يقول له نعم، فقال : يابن أخي، كيف تجد طعم الموت عندك؟

فقال القاسم : يا عمّ؛ فيك أحلي من العسل!

فقال له الحسين : إنّك لأحد من يقتل معي، بعد أن تبلو ببلاء عظيم (1) .

*

وممّا حدث في تلك اللية أنّ الحسين حينما عرف من أصحابه صدق النيّة والإخلاص، ولم يبق معه إلّا الذين كتبت لهم الشهادة في يوم غد، كشف لهم عن أبصارهم، فرأوا ما حباهم اللّه من نعيم الجنان، وعرّفهم منازلهم فيها، فرأوها، فجعلوا ينظرون إلي بيوتهم وقصورهم هناك، والإمام يقول لهم : هذا منزلك يا فلان، وهذا قصرك يا فلان، وهذه درجتك يا فلان(2).

ولم يكن ما فعله الحسين غريباً، فالأولياء الذين سبقوه كشفوا أيضاً لأصحابهم في ساعات العسرة بعض من هذه الأمور .

1- (1) نفس المهموم، للقمي، ص 230؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 343.
2- (2) الخرائج والجرائح، للراوندي، ج 2، ص 848؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج 44، ص 298.

فموسي عليه السلام كشف للسحرة حينما آمنوا باللّه عزّ وجلّ، كشف لهم عن منازلهم في الجنّة (1).

*

أمّا وضع الماء في مخيّم الحسين فكان مأساويّاً حقّاً.

تقول سيكنة بنت الحسين: «عزّ ماؤنا في التاسع من المحرّم حتّي كنّا العطش، وقد نفد الماء كلّه وخلت الأواني وجفّت القرب التي فيها الماء، حتّي يبست من شدّة الحرّ.

فلمّا أمسي المساء عطشت أنا وبعض فتياتنا، فقمت إلي عمّتي زينب أخبرها بعطشنا لعلّها ادّخرت لنا ماءً. فوجدتها في خيمتها وفي حجرها أخي الرضيع عبد اللّه، وهي تارة تقوم وتارة تقعد، وهو يضطرب اضطراب السمكة ويصرخ، وكانت زينب عمّتي تقول له: صبراً صبراً يابن أخي، وأنّي لك الصبر وأنت علي هذه الحالة المشؤومة؟ يعزّ علي عمّتك أن تسمعك ولا تنفعك.

«فلمّا سمعت انتحبت باكية، فقالت عمّتي : ما يبكيك»؟

«قلت لها : حال أخي الرضيع، ولم أخبرها بعطشي، خشية أن يزيد ذلك من همّها ووجدها».

«ثمّ قلت لها: يا عمّتاه؛ لو أرسلت إلي بعض عيالات الأنصار فلربّما أن يكون عندهم ماء. فقامت وأخذت الطفل بيدها ومرّت بخيم عمومتي، فلم تجد عندهم ماءاً، فرجعت وتبعها بعض أطفالهم رجاء أن تسقيهم ماءً» .

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 261.

ثمّ جلست عمّتي في خيمة أولاد عمّي الحسن، وأرسلت إلي خيم الأصحاب لعلّ عندهم ماء، فلم تجد. فلمّا أيست من الماء رجعت إلي خيمتها، ومعها ما يقرب من عشرين صبيّا وصبيّة، كلّهم عطاشي يطلبون الماء، فأخذت أنا بالعويل».

«وبينما نحن نتصارخ بالقرب من عمّتي، مرّ علينا رجل من أصحاب أبي، وهو برير بن خضير الهمداني، وكان سيّد القرّاء، فلما سمع بكائنا رمي بنفسه علي الأرض، ونادي بأصحابه قائلاً : «ما عندكم من الرأي، أيسرّكم أن تموت بنات فاطمة علياالسلام عطشاً وفي أيدينا قوائم وسيوفنا؟ لا واللّه لا خير في الحياة بعدهم، بل نرد قبلهم حياض الموت».

«ثمّ قال لهم : أصحابي؛ ليأخذ كلّ واحد منّا بيد فتاة من هذه الفتيات، ونهجم بهم علي مشرعة الغاضريّات، قبل أن يهلكن من الظمأ، وإن قاتلنا القوم قاتلناهم».

«فقال لهم يحيي المازني: إنّ الحرس يصرّون علي قتالنا لا محالة، فإذا أخذنا بأيدي الفتيات ربّما ينال إحداهنّ سهم أو رمح فنكون نحن السبب لذلك، لكن الرأي أن نحمل معنا قربة ونملأها لهم، فإن قاتلنا أحد قاتلناه، وإن قتل منّا أحد يكون فداء لبنات فاطمة الزّهراء».

«ثمّ أخذوا قربة وساروا قاصدين الفرات، وكانوا أربعة أشخاص، وأقبلوا نحو المشرعة، فحسّ بهم الحرّاس، فقالوا: من هؤلاء القوم»؟

«فقال لهم برير: أنا برير وهؤلاء أصحابي، وقد كظّنا العطش، ونريد أن نرد الفرات».

فقـالوا لهـم : مكـانكم حتّي نخبر زعيمنـا بخبركم. وكـان بين برير وبين زعيمهـم قرابـة، فلمّا أخبروه قال لهم : أفرجوا لهم عن المشـرعة حتّي يشـربوا، فلمّا نزلوا إلي المشـرعة وحسّوا ببرد الماء، انتحب برير وأصـحابه وقالوا : لعن اللّه ابن سـعد، هذا الماء يجري، وأكباد آل رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم لا تبلّ منه بقطرة. ثمّ قال : يا أصحابي ؛ أذكروا ما ورائكم واملأوا القربة وعجّلوا، فقد ذابت قلوب أطفال الحسين عليه السلام من الظمأ، ولا تشربوا حتّي تروي أكباد بنات فاطمة.

«فقالوا: إي واللّه يا برير لا نشرب قبل أن تروي قلوب أطفال الحسين».

«فسـمعه رجـل من الحرّاس، فقـال لهم، فقـال لهم : مـا كفـاكم الورود حتّي تحملون المـاء إلي هـذا الخـارجي؟ واللّه لأخبرنّ صاحبي بخبركم، فإن أغضني، روّعتكم بسيفي حتّي يصل خبركم إلي الأمير».

«فقـال له برير : يـا هـذا، أكتم علينـا أمرنا . ثمّ دنا منه وهو يريـد قبضه واعتقاله، فولّي منهزماً وأخبر صاحبه بـذلك، فقال : اعترضوا طريقهم وأتوني بهم، فإن أبوا قاتلوهم».

«فلمّا اعترضوهم، قالوا: يا برير، لا يرضي صاحبنا بحملكم الماء إلي صاحبكم».

«فقال له برير : ثمّ ماذا»؟

«قالوا : إراقة دمائكم» .

فقال برير: «ويلكم، إراقـة الـدماء أشـهي من إراقـة الماء، ما ذاق منّا أحد طعم فراتكم، وإنّما همّنا ريّ أكباد الأطفال، فواللّه لا ندعكم حتّي تراق دمائنا حول هذه القربة».

«فقال أحـد الأعـداء: أتركوهم، فإنّ هؤلاء قوم مسـتميتون علي يسـير ماء، ولا يجدي لهم نفعاً، لكن الآخرين قالوا: لا تخالفوا حكم الأمير، فأحاطوا بهم حلقاً، فوضع برير وأصـحابه القرية علي الأرض وجثوا دونها . ثمّ حمل أحد أصحاب برير القربة علي عاتقه ، فاحتوشوه من كلّ جانب وجعلوا يرشـقون القربة بالسـهام، فأصاب حبل القربة سهم، حتّي خاطه إلي عاتق الرجل، وسال الدم علي ثوبه وقدميه. فلمّا نظر إلي الدم يسيل والقربة سالمة، قال : الحمد للّه الذي جعل رقبتي وفاءً لقربتي» .

«فلمّا رأي برير أنّ القوم غير تاركيه، صاح بأعلي صوته : ويلكم يا أعوان بني سفيان، لا تثيروا الفتنة، ودعوا سيوف بني همدان في أغمادها».

«وكان برير في تلك الحالة قد وصل قريباً من مخيّم الحسين ، فسمع أحد منهم صوت برير، فقال : إنّي أسمع بريراً ينتدب».

«فقال الحسـين لأصـحابه: الحقوا به، فركب جماعة إليهم. ولمّا رأي أصـحاب عمر بن سـعد أصحاب الحسين تراجعوا منهزمين، فجاء برير بالماء حتّي دنا من الخيمة، ووضع القربة علي الأرض وقال للأطفال : اشربوا، يا آل الرّسول، هنيئاً مريئاً».

«فتباشـرت البنيّات بالماء وصـحن صـيحة واحدة : هذا برير جاءنا بالماء، ورمين بأنفسهن علي القربة، فمنهنّ من تحضنها بصدرها، ومنهنّ من تضع خدّها عليها، ومنهنّ من تقبّلها».

«فلمّا كثر ازدحامهنّ علي القربة انفلت الوكاء وأريق الماء، فتصارخت الفتيات وصحن قائلاً : أريق الماء يا برير» .

ص: 404

«فلطم برير جبينه وقال : وآلهفتاه علي أكباد بنات رسول الله »(1).

*

في إحدي المرّات التي جاء فيها الحسين إلي خيمة الأصحاب ليلة العاشر، ينصحهم ويوعظهم، قال لهم : ألا ومن كان في رحلة امرأة فلينصرف بها إلي بني أسد.

فقام إليه عليّ بن مظاهر وقال : ولماذا يا سيّدي؟

فقال الحسين : إنّ نسائي سبي بعد قتلي، وأخاف علي نساء كم من السبي.

فمضي عليّ بن مظاهر إلي خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، فاستقبلته وتبسّمت في وجهه، فقال لها : دعيني والتبسّم.

قالت: يابن مظاهر، إنّي سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، وما علمت ما يقول؟

قال عليّ بن مظاهر: يا هذه، إنّ الحسين قال لنا: ألا ومن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلي بني عمّها، لأنّي غداً أقتل ونسائي تسبي.

فقالت زوجته : وما أنت صانع؟

قال لها : قومي حتّي ألحق ببني عمّك بني أسد.

فقامت زوجته ونطحت رأسها بعمود الخيمة، وقالت له : «واللّه

1- (1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص 395؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1،ص 321.

ما أنصفتني يابن مظاهر، أيسرّك أن تسبي بنات رسول اللّه، وأنا آمنة من السبي؟

أيسرّك أن تسلب زينب إزارها من رأسها، وأنا أستتر بإزاري»؟

أيسرّك أن تذهب من بنات الهراء أقراطها، وأنا أتزين

بقرطي»؟

«أيسرّك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم ويسودّ وجهي عن فاطمة الزّهراء»؟

«واللّه أنتم تواسون الرّجال، ونحن نواسي النّساء» .

فرجع عليّ بن مظاهر إلي الحسين وهو يبكي، فقال له الحسين : ما يبكيك؟

فقال : سيّدي أبت الأسديّة إلّا مواساتكم.

فدمعت عين الحسين دمعة وقال : جزيتم منّا خيراً(1).

*

كـان الحسـين – كمـا ذكرنا – يتنقّل ليلـة العاشـر بين خيمته الخاصّـة التي يـدعو فيها ربّه ويصـلّي ويتلو الكتاب، وبين خيم النّساء، وخيم الأصحاب.

يقول عليّ بن الحسين : «بينما أنا جالس في عشيّة العاشر من محرّم، وكانت عمّتي تمرّضني، إذا اعتزل أبي الحسين عن أصحابه

1- (1) موسوعة الإمام الحسين، ج 3، ص 135؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 342.

في خباء له، ومعه مولي لأبي ذرّ الغفاري، فأخذ يعالج سيفه ويصلحه، وهو يقول:

يا دهر أفّ لك من خليل * كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل * والدّهر لا يقنع بالبديل

وإنّما الأمر إلي الجليل * وكلّ حيّ سالك سبيل

«فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتّي فهمتها، فعرفت ما أراد ، فخنقتني عبرتي، فرددت دمعي ولزمت السكون، وعلمت أنّ البلاء قد نزل.

«أمّا عمّتي زينب فإنّها سمعت أيضاً ما سمعت، وهي امرأة ،وفي النّساء الرقّة، فلم تملك نفسها، فوثبت تجرّ ثوبها حتّي انتهت إلي الحسين، فقالت:

«واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت فاطمة أمّي، وعليّ أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضين، وثمال الباقين».

فنظر إليها الحسين، فقال: «يا أخيّة، لا يذهبنّ بحلمك الشيطان».

قالت زينب: «بأبي أنت وأمّي يا أبا عبد اللّه، استقتلت نفسي فداك»؟

فردّ الحسين غصّته وترقرقت عيناه ، فقالت له: «ردّنا إلي حرم جدّنا».

فقال الحسين : «هيهات، لو ترك القطا لغفي ونام» .

فقالت زينب: «يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟ ذلك أقرح لقلبي وأشدّ علي نفسي» .

ثمّ أهوت إلي جيبها وشقّته، وخرّت مغشيّاً عليها، فلمّا أفاقت قال لها الحسين عليه السلام: «يا أخيّة، اتقي اللّه وتعزّي بعزاء اللّه ، واعلمي أنّ أهل الأرض يموتون، وأهل السّـ ماء لا يبقون، وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجه اللّه الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده».

ثمّ قال عليه السلام : «إنّ أبي كان خيراً منّي وقد مات، وأمّي خير منّي وقد ماتت، وأخي خير منّي وقد مات، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول اللّه أسوة».

ثمّ قال لها: «إنّي أقسم عليك، فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»(1).

*

في ليلة العاشر من محرّم كان الحسين عليه السلام يقوم أحياناً بتعبئة أصحابه نفسيّاً وروحيّاً، ويتهيّأ من الناحية العسكريّة أيضاً للمواجهة المقبلة، فمن إصلاح السيوف، باعتباره السلاح الأساسي في المواجهة، إلي ترتيب مكان المواجهة ووجهتها، إلي كلّ ما يتطلب الأمر ليوم المواجهة .

فلقد أمر أصحابه أن يقرّبوا الخيام بعضها من بعض، وأن يدخلوا الأطناب في بعض، وأن يكونوا هم بين الخيام ليستقبلوا

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 421؛ والتاريخ، لليعقوبي، ج 2، ص 217؛ وبحار الأنوار،للمجلسي، ج45، ص 3.

الأعداء من وجه واحد، وتكون الخيام من ورائهم وعن أيمانهم وشمائلهم.

ثمّ بعد أن رتّب خطّة المواجهة من هذه الناحية، بات هو تلك الليلة مع أصحابه يصلّون، ويستغفرون، ويدعون، ويتضرّعون طول ليلهم(1).

وكما في ناحية الرجال، كذلك في ناحية النساء، فزينب لم تزل تلك الليلة قائمة في محرابها تدعو ربّها وتصلّي له، وتتوسّل به ، وتستغيث إليه، وكذلك بقيّة نساء أهل البيت، إذ ما هدئت لهنّ عين، ولا سكنت لهنّ رنّة (2).

*

ثمّ إنّ الحسين حاول مراراً هداية الأعداء بأية طريقة، حتّي لا تقع المواجهة معهم، ليمنعهم من ارتكابهم جرائم بحقّ الأبرياء من أهل البيت وأصحابهم. فحينما جاء برير بن خضير، وكان من الزهّاد المعروفين بقيام الليل وصيام النهار، وقال : يابن رسول اللّه ؛ ائذن لي أن آتي هذا الفاسق عمر بن سعد، فأعظه لعلّه يتعظ ويرتدع عمّا هو عليه؟

قال له الحسين : ذاك إليك يا برير .

فذهب برير إلي عمر بن سعد حتّي دخل عليه في خيمته، فجلس ولم يسلّم، فغضب عمر وقال : يا أخا همدان، ما منعك من السّلام عليّ؟

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، جظ، ص 394؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 421؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 286.
2- (2) مثير الأحزان، للجواهري، ص 56.

ألست مسلماً أعرف اللّه ورسوله، وأشهد بشهادة الحقّ؟

فقال له برير: «لو كنت عرفت اللّه ورسوله كما تقول، لما خرجت إلي عترة رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم تريد قتلهم، وبعد، فهذا الفرات يلوح بصفائه ويلج كأنّه بطون الحيّات، تشرب منه كلاب السواد وخنازيرها، وهذا الحسين بن عليّ وإخوته ونسائه وأهل بيته يموتون عطشاً، وقد حلت بينهم وبين ماء الفرات أن يشربوه، وتزعم أنّك تعرف اللّه ورسوله»؟

فأطرق عمر بن سعد برأسه إلي الأرض ساعة، ثمّ رفع رأسه وقال : «واللّه يا برير، إنّي لأعلم يقيناً أنّ كلّ من قاتلهم وغصبهم حقّهم هو في النار لا محالة، ولكن يا برير أفتشير عليّ أن أترك ولاية الرّي، فتكون لغيري، فواللّه ما أجد نفسي تجيبني لذلك»؟

ثمّ قرأ علي برير الأبيات التي كان قد نظمها في الكوفة حينما أمره عبيد اللّه بن زياد للتوجّه لمقاتلة الحسين، وهي قوله :

دعاني عبيد اللّه من دون قومه * إلي خطّة فيها خرجت لحيني

فواللّه ما أدري وإنّي لحائر * أفكّر في أمري علي خطرين

أأترك ملك الرّي والرّي منيتي * أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها * حجاب وملك الرّي قرّة عيني(1)

فرجع برير إلي الحسين وقال له: «إنّ عمر بن سعد قد رضي

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 248؛ ومطالب السؤول، لابنطلحة ، ص 76؛ والفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 192.

لقتلك بولاية الرّي، وإنّ القوم يا مولاي قد استحوذ عليهم الشيطان».

فقال الحسين: «لا يأكل من برّها إلّا قليلاً، ويذبح علي فراشه»(1).

*

في أواخر الليـل، خرج الحسـين ليتفقّـد المكـان الـذي يحيط بمخيّمه، ويسـتطلع الأكمات والتلاع والعقبات، فرآه نافع بن هلال الجملي، فحمل سيفه وجاء لحراسته، فسأله الحسين عمّا أخرجه في هذه الساعة؟

فقال نافع : يابن رسول اللّه، أفزعني خروجك إلي جهة معسكر هذا الطاغية في هذه الساعة.

فقال الحسين : إنّي خرجت أتفقّد التلاع والروابي، مخافةً أن تكون مكناً لهجوم الخيل، يوم تحملون ويحملون.

ثمّ بعد أن اطّلع علي المكان، أخذ بيد نافع ورجع إلي المخيم وقال : هو، هو، واللّه وعد لا خلف فيه.

ثمّ التفت إلي نافع وقال له: ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف اللّيل وتنجو بنفسك؟

فوقع نافع علي قـدمي الحسـين يقبّلهما ويقول : إذن ثكلت هلالاً أمّه. سـيّدي، إنّ سـيفي بألف وفرسـي بمثله، فواللّه الـذي منّ بك عليّ لا فارقتك حتي يكلّا (أي يتعبا) عن فرّي وجرّي(2) .

1- (1) المنتخب، للطريحي، ج 2، ص 239.

2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 284؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 265؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 273.

ثمّ ودعه الحسين وذهب إلي مخيّم النساء، فاستقبلته زينب، بينما وقف نافع بن هلال بإزاء الخيمة ينتظره، فسمع أنّ زينب تقول للحسين : هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم، فإنّي أخشي أن يسلّموك عند الوثبة؟

فقال لها الحسين : واللّه لقد بلوتهم، فما وجدت فيهم إلّا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنيّة دوني، استيناس الطفل إلي محالب أمّه.

فلمّا سمع نافع ذلك جرت دموعه علي خدّيه، فذهب إلي حبيب بن مظاهر، وذكر له ما سمع من الحسين ومن أخته زينب.

فقال حبيب بن مظاهر : واللّه لولا انتظار أمره لعاجلت العدوّ بسيفي هذه الليلة.

فقال نافع: إنّي خلّفته عند أخته، وأظنّ أن النساء أفقن وشاركنها في الحسرة، فهل لك أن تجمع أصحابك وتواجههن بكلام طيّب يسكّن قلوبهنّ، ويذهب برعبهنّ، فلقد شاهدت منها ما لا قرار

لي مع بقائها؟

فقام حبيب ونادي بالأصحاب قائلاً : يا أصحاب الحميّة وليوث الكريهة، فاجتمع إليه الأصحاب، فقال لبني هاشم: ارجعوا إلي مقرّكم، لا سهرت عيونكم.

ثمّ التفت إلي أصحابه وحكي لهم ما شاهده نافع وسمعه ، فقالوا له: طب نفساً وقرّ عيناً، فلولا انتظار أمر الحسين لعاجلناهم بسيوفنا الساعة كما ذكرت.

فقال لهم حبيب: هلمّوا معي لنواجه النسوة، ونطيّب خاطرهن.

فجاؤوا إلي مخيّم النساء ووقفوا خارجه، فصاح حبيب: يا معشر حرائر رسول اللّه ، هذه صوارم فتيانكم، آلوا أن لا يغمدوها إلّا في رقاب من يريد السوء بكم، وهذه أسنّة غلمانكم، أقسموا أن

لا يركّزوها إلّا في صدور من يفرّق ناديكم.

فخرجت بعض النساء ببكاء وعويل، وقلن : أيّها الطيّبون، حاموا عن بنات رسول اللّه ، وحرائر أمير المؤمنين.

فضجّ القوم أيضاً بالبكاء، حتّي كأنّ الأرض تميد بهم(1) .

*

أمّا جهة عمر بن سعد فإنّه أرسل شمر بن ذي الجوشن في منتصف الليل يتجسّس علي مخيّم الحسين، وكان معه جماعة من أصحابه، وحينما قاربوا خيامهم، سمعوا الحسين يقرأ في كتاب اللّه في سورة آل عمران: (ولا يحزنك الّذين يسرعون في الكفر إنّهم لن يضرّوا اللّه شيئاً يريد اللّه ألّا يجعل لهم حظّا في الآخرة ولهم عذاب عظيم * إنّ الّذين اشتروا الكفر بالإيمن لن يضرّوا اللّه شيئا ولهم عذاب أليم * ولا يحسبن الّذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مّهين * مّا كان اللّه ليذر المؤمنين علي ما أنتم علي حتّي يميز الخبيث من الطّيب وما كان اللّه ليطلعكم علي الغيب ولكنّ اللّه يجتبي من رسله من يشاء فامنوا باللّه و رسله، وإن تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجر عظيم)(2) .

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 266؛ والدمعة الساكبة ، للبهبهاني، ج4، ص 274؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 285.
2- (2) سورة آل عمران، الآيات 176 - 179.

فصاح أحد أصحاب شمر قائلاً : نحن وربّ الكعبة الطيّبون و أنتم الخبيثون، وقد ميّزنا اللّه منكم!

فسمع برير هذا الكلام، فقطع دعائه، وخرج من خيمته و صاح بمن تكلّم، قائلاً : أمثلك يكون من الطيّبين، والحسين بن عليّ من الخبيثين؟

«واللّه ما أنت إلّا بهيمة لا تعقل ما تأتي وما تذر، فأبشر يا عدوّ اللّه بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم».

فقال شمر : إنّ اللّه قاتلك وقاتل صاحبك عن قريب.

فقال برير: أبالموت تخوّفني؟ واللّه إنّ الموت مع ابن رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم أحبّ إليّ من الحياة معكم، واللّه لا نالت شفاعة محمّد صلي الله عليه و آله و سلم قوماً أرقوا دماء ذرّيته وأهل بيته .

فأقبل رجل من أصحاب الحسين إلي برير وقال له : رحمك اللّه يا برير، إنّ أبا عبد اللّه يقول لك : ارجع إلي موضعك، ولا تخاطب القوم(1).

هذا، ولم تخل ليلة عاشوراء من بعض المفاجآت، والتي منها مثلاً أنّه كان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلاً من قريش من أهل الكوفة، فاجتمعوا إليه وقالوا له: يعرض عليكم ابن بنت رسول اللّه ثلاث خصال لا تقبلون واحدة منها؟!

وأضافوا : لقد خاب سعيكم وشقي من يتبعكم.

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 251؛ والفتوح، لابن اعثم، ج5، ص 180.

ثمّ هربوا من مخيّم عمر بن سعد، وانضمّوا إلي معسكر الحسين وبقوا معه(1).

*

ولمّا كان عند السحر خفق الحسين برأسه خفقة، ثمّ استيقظ ، فقال لأصحابه : أتعلمون ما رأيت في منامي الساعة؟

قالوا: ما رأيت يابن رسول اللّه؟

قال: رأيت كلاباً قد شدّت عليّ لتنهشني، وفيها كلب أبقع، رأيته كأشدّها عليّ، وأظنّ أنّ الذي يتولّي قتلي من بين هؤلاء رجل أبرص، ثمّ إنّي رأيت علي ذلك رسول اللّه ومعه جماعة من أصحابه ، فقال لي: يا بنيّ، أنت شهيد آل محمّد، وقد استبشر بك أهل السّموات وأهل الصفيح الأعلي، فليكن إفطارك عندي الليلة، فعجّل يا بنيّ ولا تتأخّر، فهذا ملك نزل من السّماء يأخذ دمك في قارورة خضراء.

ثمّ قال : لقد أزف الأمر، واقترب الرحيل من هذه الدّنيا(2) .

*

بالرغم من أنّ ليلة عاشوراء كانت ليلة مرعبة بالنسبة إلي أصحاب الحسين، خاصّة النساء والأطفال منهم، حيث كانوا

1- (1) الجوهرة، للبري، ص 44؛ وتاريخ ابن عساكر، موضوعة الحسين، ص 220؛ والتهذيب، بن بدران، ج 4، ص 335.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 252، والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 181؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 3؛ وأعيان الشيعة، للأمين، ج1، ص 601.

محاصـرين من قبل ألوف من الأعداء الحاقدين، إلّا أنّهم كانوا ينظرون إلي تلك الليلة باعتبارها آخر ليلة من حياتهم في الدّنيا، ومن ثمّ كانوا يشـعرون أنّهم علي مقربة من رحمة اللّه ورضوانه، وجنّة عرضـها كعرض السّموات والأرض أعدّت للمتقين، وكان الواحد منهم يبشّر الآخر بذلك.

فقـد التقي كـلّ من عبـد الرحمن بن عبـد ربّه الأنصـاري، وبرير الهمـداني، التقيـا علي بـاب الفسـطاط، فجعـل برير يهـازل عبـد الرحمن ويضاحكه.

فقال له عبد الرحمن : دعنا يا برير، فهذه ليست بساعة باطل .

فقال له برير: «واللّه لقد علم قومي أنّي ما أحببت الباطل شابّاً ولا كهلاً، ولكنّني لمستبشر واللّه بما نحن فيه، وما نحن لاقون».

وأضاف: «واللّه ما بيننا وبين أن نعانق الحور العين، إلّا أن يميل علينا هؤلاء القوم بأسيافهم ويقتلونا، ولوددت أنّهم قد مالوا» (1) .

*

وفي أواخر اللّيل، عنـدما نامت عيون الأعـداء جميعاً قال الحسـين لأصـحابه : «قوموا فاحفروا لنا حفيرة شـبه الخندق حول معسـكرنا حتّي نؤجج فيه النار غداً، ويكون قتال هؤلاء القوم من وجه واحد، فإنّهم لو قاتلوا وشغلنا بحربهم لضاعت الحرم».

فحفروا وراء مخيّمهم حفرة كأنّها ساقية، فصار كالخندق، ثمّ

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 423؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 286؛ والبداية والنهاية ، لابن كثير، ج 8، ص 178.

ألقوا فيها بعض القصب والحطب وقالوا : إذا غدوا فقاتلوا، ألقينا فيها النار، لئلّا يأتونا من وراءنا(1).

وكان ذلك آخر عمل قاموا به تلك اللّيلة، ثمّ انشغلوا بعد ذلك بالدّعاء والعبادة، وبعضهم ذهب ليستريح لفترة قصيرة قبل أن يطلع الفجر.

*

أمّا عبد الرحمن الصالح وعبد اللّه بن مسلم فقد جلسا في زاوية الخيمة يتحدّثان بصوت خافت، فقال عبد الرحمن لصاحبه : تري، ما الذي جري، وماذا تتوقّع أن يجري غداً؟

قال له عبد اللّه : لقد شاهدت كلّ شيء، فكيف تسأل عن الماضي؟

قال عبد الرحمن: لقد شاهدت كلّ شيء، لكنّني في ذهول وحيرة، لا أدري كيف جرت الأمور إلي أن وصلت إلي ما وصلت إليه، أليس هذا الحسين بن عليّ بن أبي طالب ابن فاطمة بنت رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم ، فكيف يصبح محاصراً الآن من قبل الذين يدّعون أنّهم يتبعون جدّه، ويصلّون ويصومون ويحجّون علي دينه؟

كيف أصبح أهل بيت رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم متّهمين ومحاربين، كيف يجرأ هؤلاء بأن يفعلوا ذلك بهم؟ ما الذي تغيّر؟ أليس المرء يحفظ في ولده؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ كثيراً من الذين هم مع عمر بن

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 396؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 248؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 174.

سعد يحفظون الأحاديث التي قالها النبيّ في حقّ أهل بيته، مثل قوله: «إنّ اللّه عزّ وجلّ جعل أهل بيتي في أمّتي كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن رغب عنها غرق»(1). ومثل قوله: «إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»(2).

قال عبد الرحمن: فهل معني ذلك أنّ الأمّة قد تركت كتاب اللّه ، كما تركت عترة نبيّها؟

قال عبد اللّه : تماماً .

قال عبد الرحمن : أليس ذلك غريباً، ولمّا يمضي علي وفاة رسول اللّه إلّا أقل من خمسين عاماً؟ أليس ربّنا قد قال : (إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحظون) (3)؟ فإذا تركت الأمّة أهل البيت الذين لا يفارقهم الكتاب، فمعني ذلك أنّ الذّكر قد ضاع، ولم يحفظ كما لم يحفظ أهل البيت؟

قال عبد اللّه : لا تذهبنّ بك المذاهب، إنّ الذّكر يتمثّل الآن في الحسين وأصحابه ، وهم من يحفظون الذّكر.

قال عبد الرحمن : وإذا قتلت هذه العصابة، فكيف يكون الذّكر قد حفظ؟

قال عبد اللّه : إنّ الحسين لم يأتي إلي هنا إلّا لكي يحفظ الذّكر .

1- (1) مكارم الأخلاق، للطبرسي، ص 459.

2- (2) بصائر الدرجات، للصفار، ص 433.

3- (3) سورة الحجر، آية 9.

قال عبد الرحمن : لكنّك تقول إنّ الذّكر يتمثّل فيهم، فإذا هلكوا علي أيدي هؤلاء الأعداء فهل يبقي الذّكر؟

قال عبد اللّه : أنظر يا أخي، حينما هاجر النبيّ صلي الله عليه و آله و سلم من مكّة إلي المدينة هل كان يحفظ بهجرته بيت اللّه الحرام، أم كان ذلك تضييعاً لهذا البيت؟

إنّ الحسين هاجر إلي هنا، وسوف يحفظ اللّه به الذّكر.

قال عبد الرحمن : لا أفهم؛ كيف يحفظ بالحسين الذّكر إذا قتل؟

قال عبد اللّه : إنّ الكتاب ككلمات وحروف وألفاظ ومعاني موجودة بين الدفتين بأيدي الناس، فما من بيت إلّا وفيه نسخة من القرآن، لكن المشكلة هو في التأويل. فالمنافقون هؤلاء اغتصبوا مقام الخلافة، وادّعوا أنّهم هم من يمثّلون دين اللّه، مع ظلمهم وطغيانهم ومخالفتهم لكلّ صغيرة وكبيرة من هذا الدّين، فإذا أقدم هؤلاء علي قتل الحسين فسوف يعرف الناس جميعاً أنّ الدّين تمثّل في الحسين، وأنّ الدّين الحقيقي هو دين الحسين، أمّا دين بني أميّة فهو النفاق بعينه .

إنّ الحسين يقول للناس اليوم بأعماله ومواقفه : إنّ اللّه يريد الحقيقة لا الزيف، ويريد الإيمان الصادق وليس التظاهر بالإيمان، وأنّ من الممكن أن يدّعي المدّعون أنّهم يمثّلون الدين وهم يخالفونه، وعلي الأمّة أن تفتح عينيها وأن تتبع أهل الحقّ الصادقين ، ألم تسمع قوله تعالي : (يأيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه و كونوا مع الصدقين) (1).

1- (1) سورة التوبة، آية 119.

وكما تري فإنّ هذا الخطاب موجّه للمؤمنين، ومعني ذلك أنّ من الممكن أن يكون الشخص عضواً في المجتمع المسلم، ويعرف كمؤمن، لكنّه لا يكون مع الصادقين . الصدق إنّما هو في هذا العمل الذي يقوم به الحسين اليوم، حيث نراه مستعدّاً أن يراق دمه في سبيله، أمّا هؤلاء فيبحثون عن الدّنيا . الحسين جعل الدّنيا مطية الآخرة، أمّا هؤلاء فجعلوا الآخرة مطيّة الدّنيا، ألا تراهم كيف يتظاهرون بالدّين لخداع الناس؟

ألا تري كيف يتجاهلون أحد أهم أمور الدّين، وهو العدل ،

ويتخذون مال اللّه دولاً، وعباده خولاً؟

إنّ الحسين هو حجّة اللّه علي خلقه، وبه سيحتجّ ربّنا غداً علي جميع من شارك بفعل هؤلاء، ومن اتّبعهم، ومن فعل مثل ما يفعلون، أو رضي بفعلهم.

قال عبد الرحمن : لكنّني لا أعتقد أنّ الحسين سينتصر علي هؤلاء، لكي يقيم العدل بين الناس؟

قال عبد اللّه بن مسلم : لا، لن ينتصر فيما يرتبط بالدّنيا، لكنّه منصور علي كلّ حال، لأنّ الحسين – كما قلت لك – أساساً لا يريد الدّنيا، وليس يطلب الحكم والحكومة والسلطة والسلطان، إنّ الحسين يكشف الآن للأمّة المعاصرة ولمن سيأتي فيما بعد، أنّ الذين أصبح دينين : دين بني أميّة، حيث هو في ظاهرة «إسلام» وفي واقعه جاهلية عمياء.. ودين أهل البيت، وهو الجوهر الذي جاء به الأنبياء وهو خالص وطاهر ونقي.

إنّ القوم خافوا الحسين علي دنياهم، وخافهم الحسين علي

آخرته، فتمسّك الحسين بآخرته، وهؤلاء ماضون في ارتكاب المآثم والجرائم في سبيل دنياهم.

قال عبد الرحمن : لكن الحسين علي كلّ حال لن ينتصر.

قال عبد اللّه : إذا كان مقصود من الانتصار أن يتغلّب بأصحابه علي جيش هؤلاء فهذا صحيح، لكن الأنبياء أيضاً بهذا المعني لم ينتصروا، وكثير من الصالحين قضوا في هذه الحياة مغلوبين مظلومين.

ألم يقتل هابيل علي يد أخيه قابيل؟

ألم يرم بإبراهيم عليه السلام في النّار علي يد نمرود؟

ألم يحاول فرعون أن يقضي علي موسي عليه السلام وقتل الألوف من بني إسرائيل؟

إنّ أكثر الأنبياء لم يغلبوا أعدائهم بالمعني الماديّ للكلمة ، لكنّهم أدّوا رسالتهم في الحياة، وبهداهم اهتدي الناس، وكذلك يفعل الحسين عليه السلام ، ويبقي مسؤولية كلّ شخص كما قال ربّنا : (إنّا هدينه السّبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً)(1).

***

1- (1) سورة الإنسان، آية 3.

يوم المواجهه

ما إن بزغ الفجر من صبيحة العاشر من محرّم، سنة واحد وستّين للهجرة النبويّة الشريفة، حتّي قام أصحاب الحسين وتيمّموا للصّلاة، إذ لم يجدوا ماءاً للوضوء، ثمّ اصطفوا خلف سيدّ شباب أهل الجنّة وأقاموا صلاة الصبح. وبعد الصّلاة أخذ الحسين يهيىء أصحابه للقتال، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، فيهم ثمانية من صلب عليّ بن أبي طالب، وستّة عشر من الهاشميّين ، فقسّمهم إلي ميمنة، وميسرة، وقلب.

فجعل علي الميمنة زهير بن القين، وجعل علي الميسرة حبيب بن مظاهر الأسديّ، وأعطي الراية لأخيه العبّاس، وثبت هو في القلب، بينما جعلوا الخيام وراء ظهورهم، لتكون الحرب من جهة واحدة (1).

أمّا عمر بن سعد فقد قسّم جيشه إلي خمسة أقسام، حيث جعل علي ميمنته عمرو بن الحجّاج الزبيدي، وعلي ميسرته شمر بن ذي الجوشن الضبابي، وعلي الخيل عذرة بن قيس الأحمسي، وعلي

1- (1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص 254؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 422؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 143.

الرجالة شبث بن ربيع الرياحي، بينما ثبت هو في القلب، وأعطي الراية إلي مولاه دريد(1).

وكان عدد جنود عمر بن سعد علي الأقل ثلاثين ألفاً، بينما لم يتجاوز عدد أصحاب الحسين علي أكثر التقادير المائة(2).

ولمّا استعدّ الطرفان للقتال أضرم الحسين وأصحابه النار في الحطب والقصب الذي رموه في الخندق الذي حفروه في اللّيل خلف الخيام، وقد فاجأ ذلك أعدائه، حيث كانوا يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يحاصروا مخيّم الحسين، ويهجموا عليه من كلّ جانب، وأن يقضوا عليه وعلي أصحابه خلال ساعة من النهار.

وحينما أقبلوا يجولون هناك ويرون النار تضطرم في الخندق، عرفوا أنّهم أخذوا بذلك، وأنّ خطّتهم قد فشلت.

فنادي شمر بن ذي الجوشن بأعلي صوته، وهو في حالة غضب: يا حسين ؛ تعجّلت النار قبل يوم القيامة؟

فقال الحسين : من هذا، كأنّه شمر بن ذي الجوشن؟

فقال أصحابه : نعم.

فأجابه الحسين قائلاً : يابن راعية المعزي، أنت أولي بها صلّياً .

فقال مسلم بن عوسجة للحسين، وقد رأي الشمر في مرمي

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 395؛ والتاريخ،للطبري، ج 5، ص 422.

2- (2) جواهر المطالب، للباعوني، ج 2، ص 284، وتاريخ الإسلام، للذهبي، ج 2، ص 348؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 178.

سهامه : يا أبا عبد اللّه ؛ ائذن لي حتّي أرميه، فإنّ هذا الفاسق من أشدّ أعداء اللّه ، ومن عظماء الجبّارين، وقد أمكن اللّه منه .

لكن الحسين منعه من ذلك، قائلاً : لا ترمه، فإنّي أكره أن أبدأهم بالقتال(1) .

ثمّ إنّ أحد أصحاب عمر بن سعد جاء وهو راكب علي فرسه ، اسمه مالك بن أبي جويرة المزني، فلمّا نظر إلي النار تتّقد صفّق بيده، ونادي : يا حسين، ويا أصحاب الحسين، أبشروا بالنار، فقد تعجّلتموها في الدّنيا.

فقال الحسين : من الرجل؟

فقيل له : إنّه ابن أبي جويرة .

فقال الحسين : اللّهمّ جرّه إلي النار، وأذقه حرّها في الدّنيا .

وسمع الرجل ذلك فغضب، وأراد أن يظهر الشجاعة، فضرب فرسه وأدارها كأنّه يريد الهجوم علي الحسين عليه السلام ، فلم يكن بأسرع من أن شبّ به الفرس،فألقاه من علي ظهره، فتعلّقت رجله في الركاب، وركض به الفرس قريباً من النار حتّي ألقي فيها فاحترق، فخرّ الحسين ساجداً، ثمّ رفع رأسه وقال : يا لها من دعوة، ما كان أسرع إجابتها(2) .

ولقد حدث ذلك بمنظر من الطرفين، وكان في جيش عمر بن

1- (1) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 99، والمنتظم، لابن الجوزي، ج 5، ص 339؛ و جواهر المطالب، للباعوني، ج 2، ص 285.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 249، وروضة الواعظين، للفال، ص 159؛ والثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص 340، رقم 285.

سعد رجل اسمه مسروق بن وائل، فلمّا رأي ما حدث لابن جويرة عرف أنّ ذلك من دعوة الحسين، فأخذ يبتعد عن جيش عمر بن سعد، ورآه عمر، فقال له: ما بالك ترجع عن القتال؟

فقال الرجل : واللّه، إنّي رأيت ما لم تروا من أهل هذا البيت، واللّه لا قاتل الحسين أبداً، وانعزل عن القتال(1) .

وما حدث لابن جويرة حدث مثل ذلك أيضاً لمحمّد بن الأشعث، ذلك أنّ الحسين في صبيحة عاشوراء رفع صوته بالدّعاء قائلاً : «اللّهمّ إنّا أهل بيت نبيّك وذرّيّته وقرابته، فاقصم من ظلمنا وغصبنا حقّنا، إنّك سميع مجيب».

فسمعها محمّد بن الأشعث، فقال : يا حسين؛ وأيّة قرابة لك من رسول اللّه ليست لغيرك؟

فقرأ الحسين هذه الآية : (إنّ اللّه اصطفي ءادم وءال إبراهيم و ءال عمران علي العلمين * ذرّيّة بعضها من بعض واللّه سميع عليم)(2) . ثمّ قال :

واللّه إنّ محمّداً جدّي لمن آل إبراهيم، وإنّ العترة الهادية لمن آل محمّد.

ثمّ سأل الحسين من أصحابه : من الرجل؟

فقيل : محمّد بن الأشعث بن قيس الكندي. فرفع الحسين طرفه إلي السماء قائلاً : اللّهمّ إنّ محمّد بن الأشعث يقول إنّه ليس بيني وبين رسولك قرابة ، اللّهمّ أذلّ محمّد بن الأشعث ذلّاً في هذا اليوم لا تعزّه بعده أبداً.

وما هي إلّا لحظات حتّي عرض للرجل عارض خطير، فقد

1- (1) مقتل أبي مخنف، ص 64؛ التاريخ، للطبري، ج 5، ص 431.
2- (2) سورة آل عمران، الآيتان 33، 34.

نزل من علي فرسه ليقضـي حـاجته، وإذا بعقربـة سوداء خرجت من حجرهـا ولـدغته لدغـة، فسـقط وهو يسـتغيث ويتقلّب علي برازه، ورآه العسكر وهو يركض مضطرباً من لدغة العقرب، بادي العورة(1).

*

مع بداية الاصطفاف للحرب في صبيحة عاشوراء، أخذ الحسين عليه السلام ينتقل من دعاء إلي خطبة، ومن خطبة إلي دعاء. فكان قلبه ذاكراً ولسانه شاكراً، ولا يـدع لحظة إلّا ويتوجّه فيها إلي ربّه ، فاللّه منتهي غايته ومقصده. وكان ممّا سـمعه الناس منه لمّا صـبّحت الخيل، أن رفع يـديه بالدّعاء قائلا : «اللّهمّ أنت ثقتي في كلّ كرب ، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كمن من همّ يضـعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلـة، ويخذل فيه الصديق، ويشـمت فيه العدوّ، أنزلته بك، وشـكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشـفته ، فأنت وليّ كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة ، ومنتهي كلّ رغبة»(2).

ثمّ التفت إلي أصـحابه ، وقال : «الحمد للّه الذي جعل الآخرة للمتّقين،والنّار للكافرين، وإنّا واللّه ما طلبنا وفي وجهنا هذا الدّنيا فنكون من الشاكين، إنّ اللّه عزّ وجلّ قد أذن في قتلكم اليوم وقتلي، فعليكم بالصبر والقتال»(3).

1- (1) كتـاب الصافي، للفيض الكاشاني، ج 1، ص 328؛ والمناقب، لابن شـهر آشوب، ج4، ص58؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص 615.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 423؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 4287 والبداية والنهاية ، لابن كثير، ص 170.

3- (3) الأمالي، للشجري، ج 1، ص 160؛ وإثبات الوصية، للمسعودي، ص 126؛ومقتل الحسين، للمقرم، ص 275.

ثمّ قرّب إليه فرسه، فاستوي عليه وتقدّم نحو القوم في نفر من أصحابه ، وبين يديه برير بن خضير الهمداني، فقال له الحسين : كلّم القوم يا برير وانصحهم. فتقدّم برير حتّي وقف قريباً منهم، وكانوا قد استعدّوا للهجوم علي معسكره، وهم علي ظهور أحصنتهم وأيديهم علي مقابض سيوفهم، فقال برير: «يا هؤلاء، اتقوا اللّه، فإنّ ثقل محمّد صلي الله عليه و آله و سلم قد أصبح بين أظهركم،هؤلاء ذرّيّته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم، وما الذي تريدون أن تصنعوا بهم»؟

فقالوا : «نريد أن نمكّن منهم الأمير عبيد اللّه بن زياد، فيري فيهم رأيه.

فقال برير: «أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلي المكان الذي جاؤوا منه؟

«ويلكم يا أهل الكوفة، أنسيتم كتبكم إليه، وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم، وأشهدتم اللّه عليها ، وكفي باللّه شهيداً؟

«ويلكم، أدعوتم أهل بيت نبيّكم، وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتّي إذا أتوكم أسلمتموهم لعبيد اللّه بن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات الجاري الذي يشرب منه اليهود والنصاري والمجوس، وترده الكلاب والخنازير، بئس ما خلّفتم محمّدا في ذريّته .

«ما لكم، لا سقاكم اللّه يوم القيامة، فبئس القوم أنتم» .

فقال له نفر منهم: يا هذا، ما ندري ما تقول؟

فقال برير : «الحمد للّه الذي زادني فيكم بصيرة، اللّهمّ إنّي أبرأ

إليك من فعال هؤلاء القوم، اللّهمّ ألق بأسهم بينهم حتّي يلقوك وأنت عليهم غضبان».

فجعل القوم يرمونه بالسهام، فرجع برير إلي ورائه عند الحسين (1).

*

ثمّ إنّ عمر بن سعد وجيشه قاموا بتضييق الحصار علي الحسين ودنوا أكثر إلي خيامه، فتقدّم إليهم الحسين وهو علي فرسه، وتكلّم بصوت سمعه جلّهم، فقال :

«أيّها الناس؛ إسمعوا قولي ولا تعجّلوا، حتّي أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ، وحتّي أعذر إليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي، وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل . وإن لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم

غمّة ثمّ أقضوا إليّ ولا تنظرون)(2) (إنّ ولـيّ اللّه الّذي نزل الكتب وهو يتولّي الصلحين)(3).

وبينما الحسين يتكلّم، خرجت أخواته، وقد سمعن كلامه، فصحن وبكين، وبكت بناته، فارتفعت أصواتهن، فأرسل الحسين إليهنّ أخاه العبّاس، وابنه عليّ الأكبر وقال لهما: أسكتاهنّ،

ص: 428

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 252؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 183؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 5.
2- (2) سورة يونس، آية 71.
3- (3) سورة الأعراف، آية 196.

فلعمري ليكثرن بكائهنّ. فلمّا سكتن، حمد اللّه وأثني عليه، وذكر اللّه بما هو أهله، وصلّي علي محمّد صلي الله عليه و آله و سلم وعلي ملائكته وأنبيائه .

فذكر من ذلك بما لا يحصي ذكره، حتّي أنّ بعضهم أخذ ينظر إلي الآخر ويقول: ما سمعت متكلّماً قطّ قبله ولا بعده أبلغ في منطقه من الحسين.

ثمّ قال: «أمّا بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلي أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي . ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه ، وابن عمّه، وأوّل المؤمنين باللّه والمصدّق لرسول اللّه بما جاء به من عند ربّه»؟

«أوليس حمزة سيّد الشّهداء عمّ أبي»؟

«أوليس جعفر الطيّار في الجنّة بجناحين عمّي»؟

«أولم يبلغكم قول رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ وقوله : إنّي مخلف فيكم الثقلين، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً»؟

«فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ، فواللّه ما تعمّدت الكذب مذ علمت أنّ اللّه يمقت عليه أهله ويضرّ به من اختلقه، وإن كذّبتموني فإنّ فيكم من أن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد اللّه الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك ، يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم لي ولأخي». .

«أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي»؟

وهنا قاطع شمر بن ذي الجوشن كلام الحسين عليه السلام متوجّهاً

ص: 429

إلي جماعته وقال بصوت عال : هو يعبد اللّه علي حرف، إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر : واللّه إنّي لأراك تعبد اللّه علي سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع اللّه علي قلبك .

واستمرّ الحسين في كلامه قائلاً : «فإن كنتم في شك من هذا ، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيّكم، فواللّه ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم، وفي غيركم.

«ويحكم؛ أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة»؟

فسكتوا جميعاً كأنّ علي رؤوسهم الطير، وأخذوا لا يكلّمونه .

فقال الحسين عليه السلام منادياً : «يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن أقدم، قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنّما تقدم علي جند لك مجنّد»؟

فقال هؤلاء: لم نفعل .

فقال : «سبحان اللّه ؛ بلا واللّه لقد فعلتم» .

وبعد صمت لحظات، استمرّ في كلامه، قائلاً: «إذا كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلي مأمني من الأرض».

فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل علي حكم بني عمّك، فإنّهم لن يروك إلّا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين : «أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟

«لا واللّه، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ فرار العبيد».

عباد اللّه ؛ إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب».

ثمّ أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان، فعقلها(1).

*

بعد خطبة الحسين عليه السلام هذه التفت عبد الرحمن الصالح إلي صاحبه، قائلاً : كأنّ الحسين لا يزال عنده أمل في أن يعود بعض هؤلاءالقوم إلي رشدهم، أليس كذلك؟

قال عبد اللّه بن مسلم : إنّ الحسين عليه السلام صاحب رسالة، وكما هو شأن الأنبياء فإنّ غايتهم هداية الناس، وأظن أنّ الحسين سيستمر في محاولة هدايتهم إلي آخر لحظة يستطيع فيها ذلك، لأنّه لا يحبّ أن يقاتله هؤلاء ويدخلوا النار، وإنّما يريد لهم أن يهتدوا إلي الصراط المستقيم. أولم تسمع أنّ الحسين بكي صباح هذا اليوم قبل أن يبدأ كلّ شيء، فقالت له زينب: ممّ بكائك، يا أبا عبد اللّه؟

فقال لها: أبكي علي هؤلاء القوم الذين يدخلون النار بسببي (2) .

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 426؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 242؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 288؛ وكشف الغمة، للاربلي، ج 2، ص 13.

2- (2) بنور فاطمة لا اهتديت، للسيد عبد المنعم.

إنّ قلب الحسين مفعم بالمحبّة للّه ولعباد اللّه ، ولو أنّ أحداً من هؤلاء تاب من فعلته، وانتقل من جبهة عبيد اللّه بن زياد إلي جبهته ، لرحّب به وقبله بقبول حسن، حتّي ولو كان ذلك عمر بن سعد نفسه ، أو حتّي الشمر. فكما أنّ اللّه عزّ وجلّ يفتح باب التوبة لعبده حتّي تبلغ روحه التراقي، كذلك الحسين عليه السلام يفتح باب التوبة لهؤلاء القوم العصاة إلي آخر لحظة.

إنّ الحسين لم يأت إلي هنا إلّا ليدافع عن توحيد اللّه، وعن القيم والمثل والمباديء التي جاء بها الأنبياء، ولذلك فإنّه ينصح هؤلاء بما نصح به الأنبياء بها أممهم. ومن أهمّ ما يريد تأكيده لهم في خطبه أنّ لهذا الكون ربّاً، وأنّ الناس عبيد لربّهم، فإن أطاعوه فبفضل منه وتوفيق، وإن عصوه فبأنفسهم وأعمالهم، وأنّ جميع الناس مسؤولون عمّا يفعلون. فليس من حقّ أحد أن ينسب معصيته إلي ربّه، ولا من حقّه أن يعتبر طاعته تفضّلاً من نفسه. فالطاعة يسبقها التوفيق، أمّا المعصية فهي بسبب أهواء النفس.

قال عبد الرحمن : وماذا يقول بنو أميّة؟

قال عبد اللّه : إذا كان هنالك أحد منهم يؤمن باللّه وبرسوله فهو ينسب معاصيه إلي ربّه، ويعتبر ما يفعله من الظلم والطغيان هو بإرادة اللّه عزّ وجلّ، أوما سمعت برسالة الحسين إلي الحسن بن أبي الحسن البصري؟

قال عبد الرحمن : لا.

قال عبد اللّه : إنّ هذا الرجل كتب رسالة إلي الحسين يسأله عن القدر، فكتب إليه الحسين قائلاً: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشرّه فقد كفر، ومن حمل المعاصي علي اللّه عزّ وجلّ فقد افتري

علي اللّه افتراءً عظيماً. إنّ اللّه تبارك وتعالي لا يطاع بإكراه، ولا يعصـي بغلبـة، ولا يهمل العباد في الهلكة، لكنّه المالك لما ملّكهم، والقادر لمـا عليه أقـدرهم، فـإن ائتمروا بالطّاعـة لم يكن اللّه صـادّاً عنهـا مبطئاً، وإن ائتمروا بالمعصـية، فشاء أن يمنّ عليهم، فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به، فعل. وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها قسراً، ولا كلّفهم جبراً، بل بتمكينه إيّاهم، بعد إعذاره وإنذاره لهم، واحتجاجه عليهم، طوّقهم ومكّنهم، وجعل لهم السبيل إلي أخذ ما إليه دعاهم، وترك ما عنه نهاهم جعلهم مسـتطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آخذيه، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركيه ، والحمد للّه الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به، ينالون بتلك القوّة وما نهاهم عنه ، وجعل العذر لمن يجعل له السبيل حمداً متقبلاً ، فأنا علي ذلك أذهب وبه أقول، وله الحمد»(1).

قال عبد الرحمن : لم أفهم بعض ما جاء فيما ذكرت من كلام الحسين؟

قال عبد اللّه : الحسـين يشير إلي أنّ القضاء والقدر أمر كائن، والإيمان بهما ضرورة من ضرورات الدّين. فاللّه ليس منعزلاً عن خليقته ، وإنّما له الخلق وله الأمر، وليس لهم أن يفعلوا ما شاؤوا خلافاً لما يريد اللّه. فالأمور لم تفوّض إلي الناس بشـكل مطلق، فللّه سـلطانه علي العباد، ولكن هـذا السـلطان لا ـ يخرجهم عن الاختيـار، فهو الـذي أراد لهم أن يكونوا قـادرين علي أن يعملوا مـا يريـدون، لكن ذلـك لا يعني أنّ معاصيهم هي من فعل اللّه عزّ وجلّ، فهذا افتراء علي ربّ العزّة والجلال، كما قال الحسين : «ومن حمل

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج 5، ص 123.

المعاصـي علي اللّه عزّ وجـلّ فقـد افتري علي اللّه افتراءً عظيمـاً. ولكنّه المالك لما ملّكهم، والقادر علي ما عليها أقـدرهم». فاللّه إن أعطي الحرّية والاختيار لعباده فقد أعطاهم الحرّية علي الفعل والترك . فالأعمال تصدر وفقاً لإرادة العباد، لكن القدرة علي الفعل أو الترك هي من مواهب اللّه عزّ وجلّ لعباده، وهي تأتي في كلّ آنٍ ولحظـة . فقـدرة العباد ليست منعزلـة أو مسـتقلّة عن إرادة اللّه تعالي، فرّبنا أعطي القدرة لعباده، وهـم باستطاعتهم أن يفعلوا من الأفعال ما يريدون، سواءً كان خيراً أو شرّاً أو أن يتركوا. وباعتبار أنّهم قادرون علي الأمرين، فإنّ الفعل ينسب إليهم، سـواءً في الطاعـة أو في المعصـية . لكن اللّه أحيانـا يحول بين العبـد والمعصـية، وهـذا لطف منه تعـالي علي من يمنعه عن المعصـية، وأحيانـاً أخري يترك العبـد ومـا يختـار . فـاللّه منزّه عن أفعال العباد، فلا تنسب تلك الأفعال إلي اللّه عزّ وجلّ . أمّا بنو أميّـة فهم يقولون بالجبر وليس بالاختيار في أفعال العباد، وما من خطوة يعملونها إلّا وينسبونها إلي اللّه .

إنّ الحسـين يريد أن يبيّن لأعدائه أنّ ما يفعلونه به وبأصـحابه وأهل بيته سيحاسبون عليه، وهـم مسؤولون عنه، ولا يمكنهـم التخلّص من تبعته غداً . يقول في أشعار له :

تعدّيتم يا شرّ قوم ببغيكم * وخالفتم فينا النبيّ محمّداً

أما كان خير الخلق أوصاكم بنا * أما كان جدّي خيرة اللّه أحمدا

أما كانت الزّهراء أمّي * ووالدي عليّ أخا خير الأنام مسدّداً

لعنتم وأخزيتم بما قد جنيتم * ستصلون ناراً حرّها قد توقّدا(1)

1- (1) مقتل أبي مخنف، ص 61؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص 301.

قال عبد الرحمن : ما هو واجب الأمّة الآن تجاه الحسين؟

قال عبد اللّه : الدفاع عنه، فمن يخذل سـبط رسول اللّه اليوم لن يكون النبي صلي الله عليه و آله و سلم شفيعه يوم القيامة. هذا أقلّ ما يمكن أن يقال في ذلك.

قال عبد الرحمن : إذن تعال نذهب إلي القري المجاورة، لعلّنا نستطيع أن نقنع بعض المؤمنين لكي يأتوا للدفاع عن الحسين عليه السلام .

قال عبد اللّه : وكم تظن سيستجيب لنا منهم؟

قال عبـد الرحمن : أي عـدد كان. إذ ليس من الصـحيح أن نجلس ههنا حتّي يهجم هؤلاء الأجلاف علينا وعلي الحسـين عليه السـلام وأن نغلب من قلّة ..

قال عبد اللّه : مهما حصلنا من الرجال، فلن نغيّر شيئا من واقع الحال، فهم أكثر من ثلاثين ألف.

قال عبد الرحمن : ألم تقل إنّ واجب الأمّة أن تدافع عن الحسين عليه السلام؟

قال عبد اللّه : هو كذلك.

قال عبد الرحمن : لنضعهم أمام مسؤولياتهم إذن، ولنحاول أن نصنع شيئاً،ولنؤدّ واجبنا في هذا الأمر.. لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً.

قال عبد اللّه : فما تري نفعل؟ وكيف نخرج من حصار هؤلاء الأعداء؟

قال عبد الرحمن : أنّهم مشغولون بالحديث مع الحسين عليه السلام .

قال عبد اللّه : وماذا لو أخذونا وانكشف أمرنا؟ أليس يقتلوننا؟

قال عبد الرحمن: لا أعتقد، فهم لم يؤمروا بعد بقتال من يهرب من جيش الحسين عليه السلام فهم يريدون رأس الحسين، كما قال نفسه قبل ساعات، أمّا نحن فلا حاجة لهم فينا.

قال عبد اللّه بن مسلم : لنتوكّل علي اللّه .

فأخذ كلّ واحد منهما سيفه، وتسلّلا خارج مخيّم الحسين عليه السلام ، واستطاعا الخروج من حصار جيش ابن سعد بسهولة تقريباً. فقد اتخذا طريق النخيل،ودخلا أوّل قرية وصلا إليها، وكانت تبعد عن كربلاء ثلاثة فراسخ، فدخلا المسجد لأداء الصلاة ، لكن المصلّين استغربوا منهما، فقد كانت ملامحهما مختلفة تماماً ، فسألوهما عن أمرهما ، فذكرا لهم بصراحة ما جاءا به من أجله، فظنّ هؤلاء أنّهما عيون من قبل ابن زياد، يريدان أن يعرفا موقفهم من الحسين، فكتّفوهما وأخذوهما إلي رئيس شرطة ابن زياد الحصين بن نمير الذي بدوره أرسلهما إلي الكوفة، وهناك أودعا السجن، وانقطعت أخبارهما .

*

ثمّ إنّ الحسين ركب مرّة أخري فرسه وجاء إلي القوم، وقد نشر القرآن علي رأسه، فطلب منهم الصمت، فأبوا أن ينصتوا. فقال لهم: «ويلكم؛ ما عليكم أن تنصتوا إليّ، فاسمعوا قولي، فإنّي إنّما أدعوكم إلي سبيل الرّشاد، فمن أطاعني كان من المهتدين، ومن عصاني كان من المهلكين.

«وكلّكم عاصي لأمري غير مستمع قولي، فقد انجزلت عطايا كم، وملئت بطونكم من الحرام، فطبع علي قلوبكم» .

«ويلكم؛ ألا تنصتون؟ ألا تستمعون»؟

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم وقالوا: انصتوا له . فسكتوا، وأنصتوا .

فقام الحسين فيهم، فحمد اللّه وأثني عليه، وذكره بما هو أهله، وصلّي علي محمّد وعلي الملائكة والأنبياء والرّسل، ثمّ قال : «يا قوم؛ إنّ بيني وبينكم كتاب اللّه، وسنّة جدّي رسول اللّه .

ثمّ استشهدهم عن نفسه، وعن جدّه وأبيه وأمّه وجدّته، وذكر لهم أنّه يحمل سيف رسول اللّه، ودرعه وعمامته .

ثمّ قال لهم : ما الذي أقدمكم علي قتلي، واستحلال دمي؟

فقالوا : قد علمنا ذلك كلّه، ونحن غير تاركيك حتّي تذوق الموت عطشاً.

فقال لهم: «تبّت لكم أيتها الجماعة وترحا، أحين استصرختمونا والهين، فأصرخنا كم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها علي عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم علي أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلّا الحرام من الدّنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منّا، ولا رأي تفيل لكم.

و «فهلّا لكم الويلات، إذ كرهتمونا وتركتمونا، والسيف مشين، والجأش طامن، والرأي لمّا يستصحف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبي، وتهافتّم إليها كتهافت الفراش، ثمّ نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم،

وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السّنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمّة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدّمت لهم أنفسهم، وفي العذاب هم خالدون.

«وأنتم، ابن حرب وأشياعه تعضدون، وعنّا تتخاذلون»؟

«أجل واللّه غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم، وتأزّرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث ثمر شجاً للناظر، وأكلة للغاصب. ألا لعنة اللّه علي الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم عليكم كفيلاً، فأنتم واللّه هم».

ثمّ قال : «ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبي اللّه ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة ، من أن نؤثر طاعة اللئام، علي مصارع الكرام.

«ألّا وقد أعذر وأنذرت، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة، مع قلّة العدد، وكثرة العدوّ، وخذلان الناصر». .

ثمّ استشهد بأبيات فروة بن مسيك المرادي :

فإن نهزم فهزّامون قدماً * وإن نغلب فغير مغلّبينا

وما إن طبّنا جبن * ولكن منايانا ودولة آخرينا

إذا ما الموث رفّع عن أناس * كلاكله أناخ بآخرينا

فأفني ذلكم سروات قومي * كما أفني القرون الأوّلينا

فلو خلد الملوك إذن خلدنا * ولو بقي الكرام إذن بقينا

فقل للشّامتين بنا أفيقوا * سيلقي الشامتون كما لقينا

ثمّ قال: «أيم اللّه ؛ لا تلبثون بعـدها إلّا كريث ما يركب الفرس حتّي تدور بكم دور الرحي، وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي، فاجمعوا أمركم وشركاؤكم، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثمّ أقضوا إليّ ولا تنظرون، إنّي توكّلت علي اللّه ربّي وربّكم، ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها ، إنّ ربّي علي صراط مستقيم».

ثمّ رفع يديه إلي السّـماء وقال: «اللّهمّ احبس عنهم قطر السّـماء، وابعث عليهم سـنين كسـنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف، فيسومهم كأساً مصبرّة، فإنّهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربّنا، عليك توكّلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير»(1).

*

كان الحسـين لا يترك لحظـة من لحظات يوم عاشوراء إلّا ويحمّلها موقفاً ما، فكان يلقي علي أصـحابه أو أعـدائه خطبة بعد أخري، يذكرهم فيها بما جاء في رسالات الأنبياء والأوصياء من المواعظ والتعاليم . وكان من ذلك خطاب مختصر ذكر فيه كلّ ما يرتبط بالدّنيا والآخرة، ألقاه علي جيش عمر بن سعد. فبعد أن حمد اللّه وأثني عليه ، قال :

«عباد اللّه : اتقوا اللّه وكونوا من الـدّنيا علي حـذر، فإنّ الـدّنيا لو بقيت الأحـد، أو بقي عليها أحـد، لكان الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولي بالرّضا، وأرضي بالقضاء. غير أنّ اللّه تعالي خلق الدّنيا للبلاء،

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص100؛ وتحف العقول، للحراني، ص 275؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج 6، رقم 2587.

وخلق أهلها للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضـمحل، وسرورها مكفهر، والمنزل تلعة، والدار قلعة، فتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوي، واتقوا اللّه لعلّكم تفلحون»(1).

وعندما أتمّ الحسـين كلامه هذا وأراد الانصـراف إلي المخيّم، فإذا بجماعة عمر بن سعد يرمونه بالسهام والنبال، حتّي أنّ رجلا من بني تميم يقال له عمر الطهوي رمي الحسين بسهم، فوقع بين كتفيه متعلّقاً بجبّته(2) .

وكان ذلك هو جوابهم علي أمثال هـذه الخطبـة التي فيها بصائر النبوّة، ومواعظها ، كالنصـيحة بالتقوي، والدعوة إلي اللّه والخير، والحذر من عواقب ما يقدم عليه المرء في حياته، وخاصّة حينما ترتبط القضيّة بالعدل والظلم.

*

وكما ألقي الحسين خطباً كثيرة وعظ بها العدوّ، فإنّ أصحاب الحسين أيضاً ألقوا الكثير من الخطب في جند بني أميّة.

فقد خرج زهير بن القين علي فرس له ذنوب، وهو شاك في السلاح، ووقف بإزاء جيش عمر بن سعد، ورفع صوته قائلاً :

«يا أهل الكوفة؛ نذار لكم من عذاب اللّه ، نذار ..

«إنّ حقّاً علي المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّي الآن إخوة، وعلي دينواحد وملّة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف،

1- (1) تاريخ ابن عساكر، ص 215، رقم 272؛ والتهذيب، لابن بدران، ج4، ص 333؛ وكفاية الطالب، للكنجي، ص 430.
2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 392.

وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أمّة، وكنتم أمّة.

«إنّ اللّه قد ابتلانا وإيّاكم بذرّيّة نبيّه محمّد صلي الله عليه و آله و سلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلي نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد اللّه بن زياد، ويزيد بن معاوية، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا سوء عمر سلطانهما، يسمّلان أعينكم، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم علي جذوع النخل، ويقتّلان أماثلكم وقرّائكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه».

فأخذ أصحاب عمر بن سعد يسبّونه، ويثنون علي عبيد اللّه بن زياد، قائلين : واللّه لا نبرح حتّي نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلي الأمير عبيد اللّه سلماً .

فقال لهم زهير : «عباد اللّه ؛ إنّ ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، فإن لم تنصروهم، فأعيذكم باللّه أن تقتلوهم، فخلّوا بين الرجل وبين ما يريد».

فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال : أسكت، أسكت اللّه نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير : يابن البوّال علي عقبيه، ما إيّاك أخاطب، إنّما أنت بهيمة، واللّه ما أظنّك تحكم من كتاب اللّه آيتين، فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم».

فقال له شمر : إنّ اللّه قاتلك وصاحبك عن ساعة .

فقال زهير : «أبالموت تخوّفني؟ فواللّه للموت معه – أي مع الحسين – أحبّ إليّ من الخلد معكم».

ثمّ التفت إلي الناس وقال : «عباد اللّه، لا يغرنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فواللّه لا تنال شفاعة محمّد قوماً أهرقوا دماء ذرّيته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم، وذبّ عن حريمهم» .

فناداه رجل من خلفه : إنّ أبا عبد اللّه يقول لك أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه، وأبلغ في الدّعاء، فلقد نصحت هؤلاء، وأبلغت النصح والإبلاغ(1).

*

ثمّ إنّ الحسين عليه السلام خرج من خيمته وجاء إلي العدوّ ونادي : أين عمر بن سعد؟ أدعوا لي عمراً. فدعي له.

وكان عمر بن سعد يكره الخروج إليه، ولا يحب أن يأتيه ، ولكنّه اضطرّ تحت إلحاح جماعته، أن يأتي إليه . فقال له الحسين : «يا عمر؛ أنت تقتلني وتزعم أن يولّيك الدّعي ابن الدّعي بلاد الرّي وجرجان؟

«واللّه لا تتهنّا بذلك أبداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك علي قصبة قد نصب بالكوفة يتراماه الصبيان، ويتّخذونه غرضاً بينهم.

فغضب عمر بن سعد من كلامه ، وصرف بوجهه عنه، وعاد إلي خيمته (2).

ص: 442

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 427؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 12.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 8؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص 4253 وبحارالأنوار، للمجلسي، ج45، ص 10.

مع تزايـد العطش بالحسـين وأهـل بيته وأصـحابه ، حـاولوا حفر الآبار، لكنّهم لم يحصـلوا علي الماء. فقـد روي أنّه لمّا اشـتدّ العطش قال الحسين لأخيه العبّاس : اجمع أهل بيتك وأحفروا بئراً، ففعلوا ذلك، فوجدوا فيها صخرة، ثمّ حفروا أخري ووجدوها كذلك(1).

وكان أصحاب عمر بن سعد يضيقون الحصار علي مخيّم الحسين ساعة بعد ساعة، فلمّا رأي الحرّ بن يزيد الرّياحي أنّ القوم قد صمّموا علي قتال أهل البيت، لامه ضميره علي ما ارتكب بهؤلاء الفتية، إذ منعهم من الرجوع إلي المدينة أو الذهاب إلي الكوفة ، فأقبل إلي عمر بن سعد وقال له : أي عمر، أمقاتل أنت هذا الرجل؟

قال عمر بن سعد: إي واللّه قتالاً شديداً، أيسره أن تسقط الرؤوس، وتطيح الأيدي.

فقال الحرّ: أمالكم فيما عرضه عليكم رضي؟

قال عمر بن سعد: لو كان الأمر إليّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبي.

فسـكت الحرّ وترك عمر بن سـعد، وابتعـد قليلاً من أصـحابه ، وكـان إلي جنبه رجل من قومه يقال له قرّة بن قيس، فقال له الحرّ: يا قرّة، هل سقيت فرسك اليوم؟

قال قرة: لا.

قال الحرّ: أفما تريد أن تسقيه؟

فظنّ الرجل أنّ الحرّ إنّما يريد أن يبتعد من العسكر، فلا يشهد

1- (1) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 467 وناسخ التواريخ، ج 20، ص 216.

القتال، وأنّه ربّما يكره أن يراه حين يسمع ذلك. فقال للحرّ: لم أسقه، وأنا منطلق لأسقيه الآن.

ثمّ اعتزل قرّة مكانه، فأخذ الحرّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً ، وهنا سأله المهاجر بن أوس، قائلاً : ما تريد يابن يزيد، أتريد أن تحمل علي الحسين؟

فلم يجبه الحرّ، وأخذته مثل الرّعدة، وبدأ يرتجف. فقال له المهاجر: إنّ أمرك لمريب، واللّه ما رأيت منك في موقف قطّ مثل هذا، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟

فقال له الحرّ: إي واللّه أخيّر نفسي بين الجنّة والنّار .

ثمّ سكت هنيئة ، قال بعدها : فواللّه لا أختار علي الجنّة شيئاً ، ولو قطّعت وأحرقت.

ثمّ ضرب فرسه منطلقاً باتجاه مخيّم الحسين، فلمّا قرب منه وضع يده علي رأسه وهو يقول: اللّهمّ إليك أنبت، فتب عليّ، فقد أرعبت قلوب أوليائك، وأولاد بنت نبيّك.

وكان يمشي مطأطأ رأسه، مستحياً من ربّه، فوقف أمام الحسين صامتاً، فقال له أبو عبد اللّه : من أنت؟

قال الحرّ: جعلت فداك يابن رسول اللّه، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ويبلغون منك هذه المنزلة . واللّه لو علمت أنّ القوم ينتهون بك إلي ما أري ما

ركبت مثل الذي ركبت، فإنّي تائب إلي اللّه ممّا صنعت، فهل تري لي من توبة؟

فقال له الحسين : نعم؛ يتوب اللّه عليك، فانزل.

فقال الحرّ: أنا لك فارساً خيرٌ منّي راجلاً، أقاتلهم لك علي فرسي ساعة، وإلي النزول يصير آخر أمري.

وقال : يابن رسول اللّه، لقد كنت أوّل خارج عليك، فائذن لي أن أكون أوّل قتيل بين يديك، فلعلّي أن أكون ممّن يصافح جدّك محمّدا غداً في القيامة .

فقال له الحسين : فاصنع، يرحمك اللّه ، ما بدا لك(1).

ثمّ إنّ الحرّ حكي للحسين قصّته حين خروجه من الكوفة ، فقال: لمّا وجّهني عبيد اللّه إليك، خرجت من القصر، فنوديت من خلفي: أبشر يا حرّ بخير. فالتفت، فلم أري أحداً.

فقلت لنفسي: واللّه ما هذه بشارة وأنا أسير إلي حرب الحسين، وما كنت أحدّث نفسي باتّباعك.

فقال الحسين له: لقد أصبت أجراً وخيراً(2)...

ويبدو أنّ الحرّ لم يكن وحده حينما أتي إلي الحسين، فلقد صحبه ولده أيضاً، فلقد قال له قبل أن ينتقل إلي جبهة الحسين : إنّ الحسين يستغيث فلا يغيثه أحد، فهل لك نقاتل بين يديه ونفديه

1- (1) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 103؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 243؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 10.
2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص15؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 56

بأرواحنا، حتّي لا يكون خصمنا محمّد المختار، فإنّا لا صبر لنا علي النار؟

فقال ولده : واللّه أنا مطيعك (1).

وبعد انتقاله إلي جبهة الحسين عليه السلام أخذ الحرّ يشعر بنشوة الإيمان من جديد، فأراد لقومه أن يفيقوا من كبوتهم، ويهتدوا إلي الحقّ كما اهتدي، فاستأذن من الحسين أن يكلّمهم، فأذن له، فجاء

حتّي قرب منهم، فرفع صوته وقال :

«يا أهل الكوفة، لأمّكم الهبل والعبر!

«أدعوتم هذا العبد الصالح، وزعمتم أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه، حتّي إذا جاءكم أسلمتموه، وعدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكلكله، وأحطتم به من كلّ جانب، ومنعتموه من التوجّه إلي بلاد اللّه العريضة، فأصبح كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرّاً، وحلأتموه ونسائه وصبيته وأهله عن ماء الفرات الجاري، يشربه اليهود والنصاري والمجوس، وتمرر فيه خنازير السواد وكلابه، فها هم قد صرعهم العطش، بئسما خلّفتم محمّداً صلي الله عليه و آله و سلم في ذرّيته، لا سقاكم اللّه يوم الظمأ».

ثمّ سكت هنيئة، قال بعدها: «إذا لم تنصروه، ولم تفوا له بما حلفتم عليه ، فدعوه يمضي حيث شاء من بلاد اللّه.

«أمّا أنتم باللّه مؤمنون؟ وبنبوّة محمّد جدّه مصدّقون؟ وبالمعاد موقنون»(2).

1- (1) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 76.

2- (2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 143؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص 255؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 104.

غير أنّ محـاولته هـذه بـاءت بالفشـل، لأنّ القوم كـانت لهم آذان لا يسـمعون بها، وعيون لا يبصـرون بها، وقلوب لا يعقلون بها؛ إن هم كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً .

***

بداية المعركه

اشارة

بدأت المعركة صباح عاشوراء حينما تقدّم عمر بن سعد نحو معسكر الحسين، ونادي غلامه دريد قائلاً : أدن رايتك، فأدناها ، ثمّ وضع سهماً في كبد قوسه، ورماه باتجاه الحسين وقال لأصحابه : إشهدوا لي عند الأمير، أنّي أوّل من رمي(1).

فوقع السهم بين يدي الحسين، فتنحّي عنه راجعاً إلي ورائه(2).

فصاح أحد أصحاب الإمام موجّهاً كلامه إلي عمر بن سعد: أشهد أنّك أوّل من يدخل النار من هذه الأمّة (3).

ومع رمية عمر بن سعد قام الجيش الأموي كلّه برمي السهام، فجاءت كأنّها المطر، فما بقي أحد من أصحاب الحسين إلّا أصابه سهم من رميهم(4).

فقال الحسين لأصحابه : قوموا رحمكم اللّه إلي الموت الذي لابدّ منه، فهذه السهام رسل القوم إليكم(5).

فحمل أصحاب الحسين علي أعدائهم، فاقتتلوا ساعة من

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 398.

2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 183.

3- (3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 278.

4- (4) الأمالي، لأبي طالب الزيدي، ص 97؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 23.

5- (5) المناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 100؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 184.

النهار، فما انجلت الغبرة إلّا عن خمسين قتيلاً من أصحاب الحسين (1).

ولمّا رأي الحسين مقتل هذا العدد الكبير من رجاله، ضرب بيده عل لحيته ، وقال: «اشتدّ غضب اللّه تعالي علي اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدّ غضبه علي النصاري إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه علي المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتدّ غضبه علي قوم اتفقت كلمتهم علي قتل ابن بنت نبيّهم، أما واللّه لا أجيبهم إلي شيء ممّا يريدون، حتّي ألقي اللّه وأنا مخضّب بدمي»(2).

ثمّ صاح: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟

فبكت النساء وكثر صراخهن .

وكان في أصحاب عمر بن سعد اثنان من الأنصار، هما سعد بن الحارث، وأخوه أبو الحتوف، فلمّا سمعا استنصار الحسين واستغاثته، وبكاء عياله جرّدا سيفهما ومالا بهما علي أصحاب عمر بن سعد، وقاتلا دفاعاً عن الحسين، وقتلا ثلاثة أشخاص، ثمّ قتلا(3).

بعد تراجع الطرفين إلي المخيّمات، بدأت المواجهات

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 184؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص 76.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 908؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 101؛وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 12.

3- (3) الأمالي، للشجري، ج 1،ص 172؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 295.

المتفرّقة، سواء بين الأفراد أو المجموعات الصـغيرة، فقد خرج يسار مولي زياد ابن أبيه، ومعه سالـم مولي عبيد اللّه بن زياد من معسـكر عمر بن سعد يطلبان المبارزة، فوثب حبيب بن مظاهر الأسدي، و برير بن خضير ليواجهانهما .

فقال لهما الحسين : أجلسا، ولم يأذن لهما .

فقال عبد اللّه بن عمير من بني عليم، وهو الرجل الذي كان يسكن في ظهر الكوفة. فلمّا رأي الناس يتهيّأون للخروج إلي قتال الحسين، قال : واللّه لقد كنت علي قتال أهل الشرك حريصاً، وانضمّ إلي قافلة الحسين، فلمّا نظر إليه الإمام ورآه طويل القامة، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، أذن له في الخروج لمواجهتهما، وقال : إنّي لأحسبه للأقران قتّالاً. فخرج الرجل إلي الميدان. فقال له يسار مولي زياد ابن أبيه : من أنت؟

فانتسب له، فقال له يسار : لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر.

فقال عبد اللّه بن عمير : أو بك رغبة عن مبارزة أحد من

الناس؟

وأضاف: إنّه لا يخرج إليك أحد منّا إلّا وهو خير منك.

ثمّ شدّ عليه ، فضـربه بسـيفه حتّي برد، وحينما كان منشـغلا به يضـربه بسيفه، إذ شدّ عليه سالـم مولي عبيد اللّه ، فصاح به : قد رهقك العبد، فلم يأبه له حتّي غشيه، فبدره بالضربة، فاتقاه عبد اللّه بيده اليسري، فأطار أصابع كفّه، ثمّ مال عليه عبد اللّه، فضربه حتّي قتله .

ثمّ أقبل يرتجز وهو يقول، وقد قتلهما جميعاً :

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي * حسبي ببيتي في عليم، حسبي

إنّي امرؤ ذو مرّة وعصب * ولست بالخوار عند النكب

ولم يرجع إلي المخيّم، بـل بقي يهجم علي العـدوّ، ويقاتـل، وفيما هو كـذلك، إذ رأي زوجته وقـد أقبلت نحو الميـدان وهي تحمل عموداً وتقول له: فداك أبي وأمّي، قاتل دون الطيّبين، ذرّيّة محمّد صلي الله عليه و آله و سلم.

فحاول ردّها إلي المخيّم، فامتنعت وقالت: لن أدعك حتّي أموت معك.

فناداها الحسين قائلاً : جزيتم من أهل البيت خيراً، إرجعي رحمك اللّه، ليس الجهاد علي النساء، فرجعت .

أمّا هو فواصل القتال حتّي قتل(1).

ولمّا قتل الرجل، التفت الحرّ بن يزيـد الرّياحي إلي ولـده الذي انضمّ إلي الحسـين معه، وقال له: إحمل يا بنيّ علي القوم الظالمين ، فخرج الغلام إلي الميدان، ولم يزل يقاتل حتّي قتل.

فلمّا رآه أبوه مقتولاً ، قال : الحمد للّه الذي منّ عليك بالشهادة، بين يدي ابن بنت رسول اللّه(2).

*

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 430؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 289؛ والبداية والنهاية ، لابن كثير، ج 8، ص 182.
2- (2) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 76؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 369.

ثمّ إنّ أبي الشعثاء يزيد بن زياد بن المهاصر الكندي استأذن الحسين في أن يرمي القوم بسهامه، فأذن له.

وكان الرجل سابقاً من جنود عمر بن سعد، فلمّا ردّوا علي الحسين ما عرض عليهم من أمور لتجنّب القتال، عدل إلي جبهة الحسين، فوقف بين يدي أبي عبد اللّه وأخذ يرمي العدوّ، وكلّما رمي قال له الحسين : اللّهمّ سدّد رميته، واجعل ثوابه الجنّة. وعندما أكمل سهامه ، حمل علي القوم وهو يقول:

أنا يزيد وأبي المهاصر * أشجع من ليث بغيل خادر

يا ربّ إنّي للحسين ناصر * ولابن سعد تارك وهاجر

وقاتل حتّي قتل(1).

*

-واستمرّ القتال بين الطرفين بين كرّ وفرّ، وكان بعض أصحاب عمر بن سعد يهجمون أحياناً من الأطراف، فيصدّهم أصحاب الحسين، وأحياناً كان يتمّ القتال بطريقة المواجهة بين الأفراد.

فقد حمل عمرو بن الحجّاج الزبيدي، وهو قائد ميمنة عمر بن سعد، علي أصحاب الحسين، فلمّا دنوا منهم جثي أصحاب الحسين علي الركب، وأشرعوا الرماح نحوهم، فلم تقدم خيلهم علي الرماح ورجعت ، فرشقهم أصحاب الحسين بالنبل، فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

كما أنّ شمر بن ذي الجوشن أيضاً هاجم علي ميسرة الإمم،

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 293؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 405؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 446.

فاستقبلهم أصحاب الحسين بالرماح، فلم تقدم خيلهم عليها، فانصرفوا راجعين، فرموهم بالنبل وصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

*

وخرج من أصحاب الحسين برير بن خضير إلي الميدان، وأخذ يرتجز ويقول:

أنا برير وفتي خضير * أضربكم ولا أري من ضير

يعرف فينا الخير أهل الخير * كذاك فعل الخير من برير

وكان من عباد اللّه الصالحين، فحمل وقاتل قتالاً شديداً وهو يقول: إقتربوا منّي يا قتلة المؤمنين، إقتربوا منّي يا قتلة أولاد البدريّين، إقتربوا منّي يا قتلة عترة خير المرسلين.

فبرز إليه رجل يقال له يزيد بن معقل، فقال لبرير: يا برير؛ كيف تري صنع اللّه بك؟

قال برير : صنع اللّه بي خيراً، وصنع بك شرّاً .

قال الرجل : كـذبت، وقبل اليوم ما كنت كذّاباً، هل تذكر وأنا أماشـيك في بني لوذان وأنت تقول: إنّ عثمان بن عفان كان علي نفسه مسـرفاً، وأنّ معاوية بن أبي سفيان ضالّ مضلّ، وأنّ إمام الهدي والحقّ علي بن أبي طالب؟

فقال له برير : أشهد أنّ هذا رأيي وقولي.

فقال له يزيد بن معقل : فإنّي أشهد أنّك من الضالين .

فقال له برير بن خضير : هل لك أن أباهلك علي أن يلعن اللّه الكاذب، ويقتل المبطل؟

فقبل الرجل، وتباهلا علي أن يلعن اللّه الكاذب، وأن يقتل المحقّ منهما من هو علي الباطل. ثمّ تبارزا، فاختلفا ضـربتين، فضـرب يزيـد بن معقل علي رأس برير بن خضير ضربة بسيفه، فلم يضرّه شيئاً، وضربه برير ضربة قدّت المغفر، وبلغت الدماغ، وسقط والسيف في رأسه.

وفيما كان برير مشغولاً بالرجل، حمل عليه رضي بن منقذ العبدي، فاعتنق بريراً واعتركا ساعة، واستطاع برير أن يصرعه ويجلس علي صدره، لكن زميلاً للعبدي واسـمه كعب بن جابر الأزدي حمل علي برير بالرمح وضربه في ظهره حتّي غيّب السنان فيه، فلمّا أحسّ برير بذلك نزل عن صدر رضي بن منقذ بعد أن عضّ أنفه وقطع ظفره، ولكنّه ضعف وسقط علي الأرض، فأقبل عليه كعب بن جابر، فضربه بسيفه حتّي قتله .

ولمّا رجع قاتل برير إلي امرأته، قالت له : أعنت علي ابن فاطمة، وقتلت بريراً سيّد القرّاء، لا أكلّمك أبدا(1).

وحينما التقي قاتل برير ابن عمّه، قال له : ويلك يا كعب، أقتلت برير بن خضير، بأيّ وجه تلقي ربّك غداً؟

فندم الرجل، ولكنّه كعادة كلّ الطغاة والقتلة في التاريخ، ألقي

مسؤولية ذلك علي ربّه وقال :

فلو شاء ربّي ما شهد قتالهم * ولا جعل النعماء عند ابن جابر

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 290؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 433؛ و بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 16.

لقد كان ذاك اليوم عاراً وسبّة * يعيّره الأبناء عند المعاشر

فيا ليت أنّي كنت في الحرب حفنة * ويوم حسين كنت في رمس قابر

ويا سوأتاه ماذا أقول لخالقي * وما حجتي يوم الحساب القماطر(1).

وكان في ذلك مصداقاً لقوله تعالي : (سيقول الّذين أشركوا لو شاء اللّه ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرّمنا من شيء)(2).

*

وبعد برير برز الحرّ بن يزيد الرياحي بعد أن استأذن الحسين ، وكان يرتجز ويقول:

إنّي أنا الحرّ ومأوي الضيف * أضرب في أعناقكم بالسيف

عن خير من حلّ بأرض الخيف * أضربكم ولا أري من حيف (3)

وكان الحرّ رجلاً يضرب به المثل في الشجاعة، ويستطيع أن يواجه الجموع، فكيف بالأفراد. ولذلك فقد قتل كلّ من برز إليه، وإنّ دمائه تسيل وفرسه لمضروب علي أذنيه وحاجبه. فقال الحصين بن نمير ليزيد بن سفيان : هذا الحرّ الذي كنت تتمنّي قتله .

قال : نعم؛ فخرج إليه يزيد بن سفيان، فقال للحرّ: هل لك يا حرّ في المبارزة؟

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 189؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 12؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 16.

2- (2) سورة الأنعام، آية 148.

3- (3) المناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 100؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 263.

قال الحرّ: نعم، قد شئت.

فتبارزا، وما لبث أن صرعه الحرّ، فكأنّما كانت نفسه في يده(1).

ثمّ تحرّز منه أهل الكوفة، فلم يبرز إليه أحد، فرفع صوته قائلاً: «يا أعداء اللّه تعالي وأعداء رسوله، كتبتم إلي الحسين وزعمتم أنّكم لتنصرونه، فلمّا جاءكم وثبتم عليه لتقتلوه وغررّتم به؟ لا أنالكم اللّه شفاعة جدّه يوم القيامة».

ثمّ حمل عليهم، وهو يقول :

أكون أميراً غادراً وابن غادر * إذا كنت قاتلت الحسين ابن فاطمة

ونفسي علي خذلانه واعتزاله * وبيعة هذا الناكث العهد لائمه

فيا حسرتا أن لا أكون نصرته * علي كلّ نفس لا تواسيه نادمة

أهمّ مراراً أن أسير بجحفل * إلي فئة زاغت عن الحقّ ظالمة

ثمّ غاص في أوساط الأعداء، فقتل رجالاً، ونكّس أبطالاً ، حتّي تجاوز من قتل الأربعين (2).

ثمّ رجع إلي مخيّم أصحاب الحسين، وهو يقول :

هو الموث فاصنغ ويك ما أنت صانع * فأنت بكأس الموت لا شكّ كارع

وحامي عن ابن المصطفي وحريمه * لعلّك تلقي حصد ما أنت زارع

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 435؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 31.

2- (2) معالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 366.

لقد خاب قوم خالفوا اللّه ربّهم * يريدون هدم الدين والدين شارغ

يريدون عمداً قتل آل محمّد * وجدّهم يوم القيامة شافع(1)

وبقي الحرّ في المخيّم يعالج جراحاته فيه.

*

وفيما كانت المعركة قائمة، والحرب سجال بين أصحاب الحسين وأعدائه، التفتت أمّ وهب بن عبد اللّه بن جناب الكلبي، وكان نصرانيّاً قد أسلم علي يد الحسين قبل سبعة عشر يوماً من عاشوراء، جاءت إلي ولدها، وقالت له:

«قم يا بنيّ فانصر ابن بنت رسول اللّه .

فقال وهب : أفعل يا أمّاه، ولا أقصّر إن شاء اللّه .

ثمّ برز وهو يقول:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي * سوف تروني وترو ضربي

وحملتي وصولتي في الحرب * أدرك ثاري بعد ثأر صحبي

وادفع الكرب بيوم الكرب * فما جلادي في الوغي باللّعب

فلم يزل يقاتلهم مستميتاً في الدفاع عن الحقّ حتّي صرع جماعة منهم، ثمّ رجع إلي أمّه ومعها زوجته، ووقف عليهما قائلاً : يا أمّاه ، أرضيت عنّي؟

1- (1) المقتل، لأبي مخنف، ص 478 وأسرار الشهادة، للدربندي، ص 290.

فقالت: لا واللّه ما رضيت، حتّي تقتل بين يدي ابن بنت رسول اللّه .

فلمّاهمّ بأن يعود مرّة أخري إلي المعركة تعلّقت به زوجته قائلة : أسألك باللّه أن لا تفجعني بنفسك.

وكان قد دخل بها قبل عشرة أيّام فقط من ذلك اليوم.

فقالت له أمّه : اعزب عن قولها، وارجع وقاتل بين يدي ابن بنت رسول اللّه، لتنال شفاعة جدّه يوم القيامة.

فتقدّم وهو يقول:

إنّي زعيم لك أمّ وهب * بالطعن فيهم تارة والضّرب

ضرب غلام مؤمن بالرّبّ * حتّي يذيق القوم مرّ الحرب

ولم يزل يقاتل حتّي قطعت يمينه، فلم يبال، وجعل يقاتل حتّي قطعت شماله، وفيما هو كذلك، إذا به يسمع زوجته من خلفه تقول له، وقد حملت عموداً من أعمدة الخيمة: «يا وهب، فداك أبي وأمّي، قاتل دون الطيّبين، حرم رسول اللّه.

فالتفت إليها وقال : الآن كنتي تنهينني عن القتال، والآن تحرّضيني علي ذلك؟

قالت: «يا وهب، لقد عفت الحياة، وتركت الدّنيا، منذ أن سمعت الحسين وهو ينادي : وآغربتاه، وآقلّة ناصراه، أما من ذابّ يذبّ عنّا، أما من مجير يجيرنا»؟

فأرجعها وهب إلي الخيمة، وعاد إلي الميدان فقاتل حتّي قتل.

ولمّا رأت زوجته مصرعه ركضت إليه، وجلست عند جثّته

تمسح الدم والتّراب عن وجهه ، فأبصرها شمر بن ذي الجوشن، فأمر غلاماً له يقال له رستم، فضربها بالعمود حتّي شدخها، وقتلها وهي علي جثّة زوجها .

وكانت أوّل امرأة تقتل من أصحاب الحسين .

وتوغّلاً في الجريمة عمد أصحاب عمر بن سعد إلي جثّة وهب وقطعوا رأسه، ورموا به إلي أمّه التي كانت واقفة بباب الخيمة ، فأخذت الرأس، فقبّلته ومسحت ما به من الدم، وقالت له: هنيئاً لك الجنّة .

ثمّ شدّت علي الأعداء وهي تحمل عمود الفسطاط، وقتلت به رجلين .

فجاء إليها الحسينعليه السلام وقال لها : إرجعي يا أمّ وهب، فإنّ الجهاد مرفوع عن النساء.

فرجعت وهي تقول: إلهي لا تقطع رجائي.

فقال لها الحسين: لا يقطع اللّه رجائك يا أمّ وهب، أنت وولدك مع رسول اللّه وذرّيته في الجنّة(1).

*

وهكذا كان أصحاب الحسين عليه السلام يخرج الواحد تلو الآخر إلي القتال دفاعاً عن الحقّ والعدل والإيمان، وكان كلّ واحد منهم

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 13؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج 45، ص 17؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 388.

يكشف عن بصيرته من خلال أبياته التي يرتجزها في القتال، كما كانوا يكشفون عن نبلهم ووفائهم وثباتهم بقتالهم حتّي الموت .

فقد خرج عمرو بن قرضة الأنصاري يقاتل دون الحسين وهو يرتجز ويقول:

قد علمت كتيبة الأنصار * أنّي سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكس شار * دون حسين مهجتي وداري(1)

وكان هذا الرجل ممّن يقف أحياناً أمام الحسين، يتّقي السهام والضربات بيده و مهجته(2).

وفي قتاله استطاع أن يصرع رجالاً ويجرح آخرين، ثمّ قتل.

وكان مع عمر بن سعد أخ لهذا الرجل اسمه عليّ بن قرضة ، فنادي الرجل : يا حسين؛ أضللت أخي، وغررته حتّي قتلته ؟

فقال الحسين : إنّ اللّه لم يضلّ أخاك ، ولكنّه هدي أخاك، وأضلّك.

فغضب عليّ بن قرضة، وقال : قتلني اللّه إن لم أقتلك أو أموت دون ذلك، فحمل علي الحسين، فاعترضه نافع بن هلال، فطعنه ، فصرعه، ولكنّه لم يقتل، فحمله أصحابه واستنقذوه(3).

*

ومن أصحاب البصائر الذين قاتلوا مع الحسين بشجاعة نادرة

ص: 460

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 434.
2- (2) اللهوف، لابن طاوس، ص 108.
3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 434.

حتّي قتلوا، نافع بن هلال الجملي، فقد دخل الميدان وهو يرتجز قائلا :

أنا هلال الجملي * أنا علي دين عليّ

أضربكم بمنصلي * تحت عجاج القسطلي

وبعد قتال عنيف مع الأعداء قتل نافع بن هلال(1).

*

وكان ممّا يثير الدهشة أنّ الحسين وأصحابه كانت تشرق ألوانهم، وتسكن نفوسهم، كلّما اشتدّ بهم الأمر، حتّي أنّ البعض من الأعداء قال : انظروا، لا يبالون بالموت.

ولقد قال لهم الحسين : «صبراً بني الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلي الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلي قصر؟ وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلي سجن وعذاب».

وأضاف: «إنّ أبي حدّثني عن رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم أنّ الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، والموت جسر هؤلاء، أي المؤمنين، إلي جنانهم.. وجسر هؤلاء، أي الكافرين، إلي نيرانهم، ما كذبت ولا كذّبت»(2).

والحقّ أن أصحاب الحسين كانوا من أشجع من عرفتهم البشريّة، كما قال الشاعر:

قوم إذا نودوا لدفع ملمّة * والخيل بين مدعّس ومكردس

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص15؛ والإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 107.

2- (2) معاني الأخبار، للصدوق، ص289؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص 92.

لبسوا القلوب علي الدروع كأنّهم * يتهافتون علي ذهاب الأنفس(1)

ولقد وصف أحد رجال عمر بن سعد شجاعة أصحاب الحسين وبسالتهم، فقال: «ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية، تحطّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها علي الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود علي حياض المنيّة، فلو كففنا عنها رويداً لأتت علي نفوس العسكر بحذافيرها »(2).

ولقد استطاعت تلك القلّة القليلة من أصحاب الحسين أن يكثروا القتل في أهل الكوفة ويجندلوهم، ولو استمرّت المواجهات الفرديّة لكانت الغلبة لهم قطعاً، لقوّة بأسهم ولأنّهم كانوا قوماً مستميتين، إذ لم يكن لهم عاصم إلّا سيوفهم.

فقد برز إليهم مسلم بن عوسجة، وهو يرتجز ويقول:

إن تسألوا عنّي فإنّي ذو لبد * من فرع قوم من ذري بني أسد

فمن بغانا حائد عن الرشد * وكافر بدين جبّار صمد

فقتل كلّ من برز إليه، ولمّا رأي قادة جيش العدوّ أن لا أحد يستطيع أن يواجه هذا البطل، صاح عمرو بن الحجّاج بأصحابه قائلاً: «أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر ، وقومة مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم إلّا قتلوه علي قلّتهم. واللّه لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم».

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 403؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 112.
2- (2) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج 3، ص 263؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 302.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت، أرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم».

فحمل عمرو بن الحجّاج علي ميمنة الحسين، فثبتوا له وجثوا علي الركب، وأشرعوا الرماح، فولّوا هاربين وتعقّبهم أصحاب الحسين، فحدثت البلبلة في صفوفهم، فصاح عمرو بن الحجّاج في أصحابه : قاتلوا من مرق عن الدّين وفارق الجماعة.

فصاح به الحسين: «ويحك يابن الحجّاج، أعليّ تحرّض الناس؟ أنحن مرقنا من الدّين وأنت تقيم عليه؟ ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من أولي بصلي النار».

وعاد عمرو بن الحجّاج من نحو الفرات، وهاجم علي مخيّم الحسين، فاقتتلوا ساعة، وفيها قتل مسلم بن عوسجة، فشدّ عليه مسلم بن عبد اللّه الضبابي، من أصحاب عمر بن سعد، ومعه شخص آخر يعاونه اسمه عبد اللّه بن خشكارة البجلي، فثارت لشدّة الجلاد غبرة شديدة، وما انجلت الغبرة إلّا ومسلم بن عوسجة صريع وبه رمق، فمشي إليه الحسين ومعه حبيب بن مظاهر الأسدي فقال له الحسين: رحمك اللّه يا مسلم، (فمنهم من قضي نحبه ومنهم مّن ينتظر وما بدّلوا تبديلا)(1).

ودني حبيب بن مظاهر من مسلم بن عوسجة، وهو صريع علي الأرض، فقال له: عزّ عليّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنّة .

فقال مسلم بصوت ضعيف : بشرك اللّه بخير .

1- (1) سورة الأحزاب، آية 23.

فقال له حبيب: لولا أنّي أعلم أنّي في الأثر، لأحببت أن توصي إليّ بما أهمّك.

فقال مسلم – وهو يشير إلي الحسين بإصبعه –: أوصيك بهذا أن تموت دونه.

فقال حبيب: أفعل وربّ الكعبة .

ثمّ فاضت روح مسلم بن عوسجة بينهما .

ولمّا علمت جارية لمسلم أنّ سيّدها قد قتل صرخت قائلة : وآمسلماه، وآسيّداه ، يابن عوسجتاه .

فتنادي أصحاب عمر بن سعد فرحين مسرورين : قتلنا مسلماً .

فقال لهم شبث بن ربعي، من قادة جيش ابن زياد: «ثكلتكم أمّهاتكم، أيقتل مثل مسلم بن عوسجة وتفرحون؟ لربّ موقف له كريم في المسلمين، فقد رأيته يوم أذربيجان وقد قتل ستّة من المشركين، قبل أن تلتأم خيول المسلمين»(1).

*

وبعد أن قتل أكثر أصحاب الحسين أمر عمر بن سعد ميمنته وميسرته بالهجوم علي مخيّم الحسين، أمّا أصحاب الحسين فأخذ الواحد تلو الآخر، وربّما كان كل اثنين منهم يخرجان معاً ويقاتلان ويقتلان، وكان ذلك يبيّن فيهم لقلّتهم. بينما كان يقتل من أصحاب عمر بن سعد العشرة، فلا يبيّن ذلك فيهم لكثرتهم(2).

ثمّ إنّ عمر بن سعد أمر باختراق مخيّم الحسين، وهدم خيامه

ص: 464

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص297؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص 20؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 290.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 17؛ ولواعج الأشجان، ص 155.

حتّي يحيطوا بهم من كلّ جانب، فحمل شمر بن ذي الجوشن مع جماعة من رجاله علي ذلك المخيّم، كما هجم عمرو بن الحجّاج الزبيدي مع من معه من طرف آخر، ممّا اضطرّ أصحاب الحسين إلي أن يقوم الثلاثة والأربعة منهم بتخلّل الخيام. فكلّما اقترب أحد من الأعداء كانوا يشدّون عليه، بينما هو ينهب أو يدمر الخيمة، فيقتلونه ويرمونه من قريب.

وكان شمر في مقدّمة من وصل إلي المخيّم، واستطاع أن يطعن فسطاط الحسين برمحه، ونادي : عليّ بالنار حتّي أحرق هذا البيت علي أهله. فصاحت بنات رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم، وولولن، وخرجن من الفسطاط.

فقال له الحسين : ويحك، أتدعو بالنار لتحرق بيتي علي أهلي؟

وقال شبث بن ربعي لشمر: «أمرعباً صرت للنساء؟ يا سبحان اللّه ؛ ما رأيت مقالاً أقبح من مقالك، ولا موقفاً أسوأ من موقفك .

فاستحي شمر من صاحبه، فحمل عليه زهير بن القين في عشرة من رجال الحسين عليه السلام ، فكشفوه هو وأصحابه عن المخيّم(1) .

صلاة الحسين عليه السلام:

ولمّا دني وقت الصلاة، لاحظ أبو ثمامة الصيداوي أنّ الشمس قد زالت، فقال للحسين : «يا أبا عبد اللّه ؛ نفسي لك الفداء،

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 402؛ والتاريخ، للطبري،ج 5، ص 439؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 397.

إنّي أري هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، لا واللّه لا تقتل حتّي أقتل دونك، وأحبّ أن ألقي اللّه وقد صلّيت هذه الصّلاة التي دنا وقتها معك».

فرفع الحسين رأسه إلي السّماء وقال له: «ذكرت الصّلاة ، جعلك اللّه من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها .

ثمّ قال لأصحابه : سلوهم أن يكفّوا عنّا حتّي نصلّي.

فقالوا لأصحاب عمر بن سعد: كفّوا عن القتال حتّي نصلّي .

فقال الحصين بن نمير وهو يوجّه كلامه إلي الحسين : إنّها لا تقبل منك.

فقال له حبيب بن مظاهر : زعمت أنّ الصلاة لا تقبل من آل رسول اللّه، وتقبل منك يا خمّار؟

فغضب الحصين، وحمل علي حبيب بن مظاهر، فضرب حبيب وجه فرسه بالسيف، فشبّ به الفرس ووقع عنه الحصين، فاحتوشه أصحابه فاستنقذوه(1).

ثمّ هجم أصحاب عمر بن سعد علي حبيب وشبّت المعركة، فخاضها حبيب وهو يرتجز ويقول :

أنا حبيب وأبي مظاهر * فارس هيجاء وحرب تسعر

وأنتم أعدّ عدّة وأكثر * ونحن أعلي حجّة وأظهر

وأنتم عند الوفاء أغدر * ونحن أولي منكم وأصبر

حقّاً وأنمي منكم وأعذر

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 17؛ ومقتل الحسين ، للمقرم، ص 301.

فحمل عليه أحـدهم وهو من بني تميم، فطعنه برمحه ، فـذهب حبيب ليقوم، فضـربه الحصـين بن نمير علي رأسه بالسـيف، فوقع، ونزل إليه ذلك الرجل التميمي فاحتزّ رأسه، فهدّ مقتله الحسين، فقال : عند اللّه أحتسب نفسي وحماة أصحابي(1) .

ثمّ أشار إليه قائلاً : رحمك اللّه يا حبيب، لقد كنت تختم القرآن في ليلة واحدة، وأنت فاضل(2) .

وكان حبيب بن مظاهر أوّل شهيد قدّمه الحسين من أجل إقامة الصلاة في يوم عاشوراء.

وبعـد مقتل حبيب بن مظاهر وقف الحسـين للصّـلاة، فتقدّم أمامه كلّ من زهير بن القين وسـعيد بن عبد اللّه الحنفي، وكان أكثر أصـحاب الحسين قد قتل، وبقي النصف الأقلّ منهم فصلّي الحسين بهم صلاة الخوف (3).

*

وبينما كان الحسـين في حالـة الصّـلاة، تكالب عليه الأعداء (4). وأخـذوا يرمونه بالنبال، وكلّما كان يأتي إليه نبل يقـدّم سـعيد بن عبـد اللّه الحنفي صدره أو وجهه أو يديه حتّي يمنعه من الإصابة بالحسين به، فما زالوا يرمونه حتّي إذا أتمّ الحسين الصّلاة كان سعيد

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 19؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 183.
2- (2) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 71.
3- (3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 287؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 292.
4- (4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص 143.

قد أصيب بكثير من النبال، فسقط إلي الأرض وهو يقول: اللّهمّ العنهم لعن عاد وثمود، اللّهمّ أبلغ نبيّك السّلام عنّي، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإنّي أردت بذلك نصرة ذرّية نبيّك(1).

ثمّ توجّه إلي الحسين قائلاً : أوفيت يابن رسول اللّه؟

فقال الحسين : نعم، أنت أمامي في الجنّة .

وفاضت روحه، فوجدوا فيه ثلاثة عشر سهماً، غير الضرب والطعن (2).

وبعد إتمام الصلاة، التفت الحسين إلي أصحابه، فقال: «يا كرام ؛ هذه الجنّة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول اللّه والشّهداء الذين قتلوا في سبيل اللّه يتوقّعون قدومكم ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين اللّه ودين نبيّه، وذبّوا عن حرم رسول اللّه وحرم ذرّيته، فقد امتحنكم اللّه تعالي بنا، فأنتم جيراننا وأهل مودّتنا، فدافعوا بارك اللّه فيكم عنّا »(3) .

*

ا

ثمّ إنّ الحرّ وزهير بن القين حملا معاً علي الأعداء، وقاتلا قتالاً شديداً، فكان إذا شدّ أحدهما واستلحم وحوصر، شدّ الآخر حتّي يخلّصه، ففعلا ذلك ساعة(4).

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 21.

2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 304.

3- (3) مقتل أبي مخنف، ص 68؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص 295؛ وينابيعالمودة، للقندوزي، ج 3، ص 72.

4- (4) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 441؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 184.

ولم يزل الحرّ يقاتل حتّي عقروا فرسه، ولكنّه ظلّ يواجههم

راجلاً، وهو يقول:

إن تعقروا بي فأنا ابن الحرّ * أشجع من ذي لبدة هزبري

ولست بالخوّار عند الكرّ * لكنّني الثابت عند الفرّ

وبعد أن أثخن بالجراح حاصروه وصرعوه، فحمله أصحاب الحسين عليه السلام حتّي وضعوه بين يدي أبي عبد اللّه، وكان لا يزال به رمق، فجعل الحسين يمسح التّراب عن وجهه، ويقول: «أنت الحرّ كما سمّتك أمّك، أنت الحرّ في الدّنيا وأنت الحرّ في الآخرة».

وفاضت روحه بين يديه، فرثاه عليّ بن الحسين الأكبر قائلاً :

لنعم الحرّ حرّ بني رياح * صبورٌ عند مشتبك الرّماح

ونعم الحرّ إذ نادي حسين * فجاد بنفسه عند الصباح(1)

وكان للحرّ أخ له اسمه مصعب في عسكر عمر بن سعد، فغضب لمقتل أخيه، وهجم علي أصحاب ابن سعد، وقاتلهم حتّي قتل(2).

وهكذا فقد قتل مع الحسين ثلاثة من عائلة الحرّ، وهم الحرّ نفسه، وأخوه، وابنه .

*

بعد مقتل الحرّ جاء زهير بن القين إلي الحسين مستأذناً ، فضرب بيده علي منكبه وقال :

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 11؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 186؛ والأمالي، للشجري، ج 1، ص 167.

2- (2) معالي السبطين، ج 1، ص 368، نقلا عن ناسخ التواريخ .

أقدم هديت هادياً مهديّا * فاليوم نلقي جدّك النبيّا

وحسناً والمرتضي عليّا * وذا الجناحين الفتي الكميّا

وأسد اللّه الشهيد الحيّا

فأذن له الحسين، فحمل علي القوم وهو يقول :

أنا زهير وأنا ابن القين * أذودكم بالسّيف عن حسين

إنّ حسيناً أحد السبطين * من عترة البرّ التقيّ الزّين

ذاك رسول اللّه غير المين * أضربكم ولا أري من شين(1)

وكعادة غيره من أصحاب الحسين لم يكن يواجه شخصاً واحداً، بل كلّما خرج أحد منهم احتوشه مجموعة من الأعداء ، وهكذا كان بالنسبة إلي زهير الـذي هجم عليه بعضـهم بالنبل، والبعض الآخر بالرّماح، والبعض الثالث بالسـيوف، أمّا الـذي باشـر قتله بعـد ذلك فهو كلّ من مهاجر بن أوس التميمي وكثير بن عبد اللّه الشعبي (2).

ولمّا صرع زهير، قال الحسين : «لا يبعدك اللّه يا زهير، ولعن قاتلك لعين الذين مسخوا قردة وخنازير»(3).

*

ثمّ خرج عمرو بن خالد الأزدي، وهو يرتجز ويقول :

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 441؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2،ص 20؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 452.
2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 403.
3- (3) العوالم، للبحراني، ج 17، ص 269؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 26؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 406.

اليوم يا نفس إلي الرّحمن * تمضين بالرّوح وبالريحان

اليوم تجزين علي الإحسان * ما كان منك غابر الزمان

ما خطّ باللّوح لدي الدّيان * فاليوم زال ذاك بالغفران

لا تجزعي فكلّ حيّ فان * والصبر أحضي لك بالأمان (1)

ثمّ قاتل حتّي قتل.

فبرز بعد مقتله ابنه خالد بن عمرو، وهو يرتجز ويقول:

صبراً علي الموت بني قحطان * كي ما تكونوا في رضي الرّحمن

ذي المجد والعزّة والبرهان * وذي العلي والطول والإحسان

يا أبتا قد صرت في الجنان * في قصر درّ حسن البنيان

ثمّ قاتل حتّي قتل (2).

*

ثمّ خرج سعد بن حنظلة التميمي، وهو يرتجز ويقول :

صبراً علي الأسياف والأسنّة * صبراً عليها لدخول الجنّة

وحور عين ناعمات هنّه * لمن يريد الفوز لا بالظنّة

يا نفس للرّاحة فاجهدنّه * وفي طلاب الخير فارغبنّه

وقاتل حتّي قتل (3).

*

ثمّ برز عمير بن عبد اللّه المذحجي، وهو يرتجز ويقول:

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 14؛ الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 192.

2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 193؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 18؛ولواعج الأشجان، للأمين، ص 161.

3- (3) المناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 101؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 193؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 288.

قد علمت سعد وحيّ مذحج * أنّي لدي الهيجاء غير محرج

أعلو بسيفي هامة المدجّج * وأترك القرن لدي التعرّج

فريسة الضبع الأذل الأعرج

وقاتل الأعداء، فهجم عليه مجموعة منهم وقتلوه، واشترك في قتله مسلم الضبابي وعبد اللّه البجلي، ثمّ قطعوا رأسه(1).

*

ثمّ التفت عمرو بن خالد الصيداوي إلي الحسين، فقال : السّلام عليك يا أبا عبد اللّه، قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلّف فأراك وحيداً من أهلك قتيلاً.

فقال له الحسين : تقدّم، فإنّا لاحقون بك عن ساعة .

فتقدّم وقاتل حتّي قتل (2).

*

كان أصحاب الحسين يقاتلون عن بصيرة وإيمان وعزيمة ، ولذلك فإنّهم كانوا يواصلون القتال حتّي آخر قطرة من دمائهم. فلم يستسلم منهم أحد للعدوّ، وإنّما هنالك أسير واحد فقط أخذ حيّا منهم، وهو سوار بن حمير الجابري الهمداني، وسبب وقوعه أسيراً بيد الأعداء أنّه قاتل قتالاً شديداً، حتّي امتلأ جسمه بالجراحات وضعف عن القتال، فأخذوه أسيراً، فأراد ابن سعد قتله، ولكن

1- (1) نفس المهموم، للقمي، ص 288؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 193؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 14.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 24؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 109؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 23.

تشفّع فيه قومه وبقي عندهم جريحاً إلي أن توفّي علي رأس ستّة أشهر(1).

ومن المفارقات إنّ أصحاب الحسين كانوا من مختلف بقاع الأرض، ومختلف القبائل. فمن الحجاز إلي الكوفة، ومن البصرة إلي اليمن.. كان مع الحسين رجال قاتلوا وقتلوا، فقد خرج عبد الرحمن بن عبد الله اليزني، وهو من اليمن، وكان يرتجز ويقول :

أنا ابن عبد اللّه من آل يزن * ديني علي دين حسين وحسن

أضربكم ضرب فتي من اليمن * أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن

فقاتل حتّي قتل (2).

*

وكما كان مع الحسين رجال من جميع القبائل والمدن، كذلك كان معه رجال من جميع الأعمار. فبالإضافة إلي حبيب بن مظاهر الأسدي، الذي كان عمره قرابة التسعين، فقد كان مع الحسين جابر بن عروة الغفاري، وكان شيخاً كبيراً قد شهد مع رسول اللّه معركة بدر و حنين، وفي كربلاء خرج لمقاتلة أعداء الحسين عليه السلام وقد شدّ وسطه بعمامته، وشدّ حاجبيه بعصابة حتّي رفعهما عن عينيه ، فنظر إليه الحسين وقال : شكر اللّه سعيك يا شيخ.

فحمل علي الأعداء وهو يقول:

1- (1) الأمالي، للشجري، ج 1، ص 173؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 316.
2- (2) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 194؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص 17؛ والمناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 102.

قد علمت حقّاً بنو غفّار * وجندب ثمّ بنو نزار

نصرتنا لأحمد المختار * وآله السادة الأبرار

صلّي عليهم خالق الأشجار * ربّ البرايا خالق الأطيار

وقاتل حتّي قتل(1).

*

ثمّ إنّ نافع بن هلال الجملي أخذ يرمي الأعداء بما تبقّي لديه من النبال، فجعل يرمي بها العدوّ ويصيب منهم من يصيب، وكان يقول:

أرمي بها معلّمة أفواقها * والنفس لا ينفعها إشفاقها

مسمومة تجري لها أخفاقها * لتملأنّ أرضها رشاقها

ولمّا فنيت نباله، هجم عليهم بالسّيف، وهو يرتجز ويقول:

أناهلال وأنا ابن البجل * ديني علي دين حسين وعلي

أضربكم حتّي ألاقي أجلي * ويختم اللّه بخير عملي

فقتل إثنا عشر من أصحاب عمر بن سعد، سواء بنباله أو بسيفه، سوي من جرح منهم، فضربوه بسيوفهم حتّي كسر عضداه ، وأخذ أسيراً من قبل شمر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقونه، حتّي أتوا به إلي عمر بن سعد، وكانت الدماء تسيل من رأسه ووجهه وعضديه المكسورتين ، فقال له عمر بن سعد : ويحك يا نافع، ما حملك علي ما صنعت بنفسك؟

ص: 474

1- (1) المقبل، لأبي مخنف، ص 73؛ وينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 74؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 308.

فقال نافع مستنكفاً الكلام معه : إنّ ربّي يعلم ما أردت .

ثمّ قال: واللّه لقد قتلت منكم اثني عشر، سوي من جرحت، وما ألوم نفسي علي الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني.

فقال شمر بن ذي الجوشن لعمر بن سعد: أقتله، أصلحك اللّه.

فقال عمر بن سعد: أنت جئت به، فإن شئت فاقتله أنت.

فجرّد شمر سيفه ليقتله، فقال له نافع: أما واللّه لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقي اللّه بدمائنا، وأضاف: الحمد للّه الذي جعل منايانا علي أيدي شرار خلقه.

فقتله شمر (1)

*

بعد ذلك تقدّم كلّ من عبد اللّه الغفّاري، وعبد الرحمن الغفّاري إلي الحسين، فقالا : السّلام عليك يا أبا عبد اللّه ، أحببنا أن نقتل بين يديك، وأن ندافع عنك.

فقال : مرحباً بكما، أدنوا منّي، فدنوا منه وهما يبكيان.

فقال لهما الحسين: يا بني أخي، ما يبكيكما، فواللّه إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري العين؟

فقال الغفاريان: جعلنا اللّه فداك، لا واللّه ما نبكي علي

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 442؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 292؛ والبداية والنهاية ، لابن كثير، ج 8، ص 184.

أنفسنا، ولكن نبكي عليك، نراك قد أحيط بك، ولا نقدر أن نمنع عنك .

فقال لهما الحسين : جزاكما اللّه يا بني أخي، بوجدكما من ذلك، ومواساتكما إيّاي بأنفسكما، أحسن جزاء المتّقين .

ثمّ ودّعا الحسين وهما يقولان: السّلام عليك يابن رسول اللّه .

فقال الحسين : وعليكما السّلام ورحمة اللّه وبركاته .

فقاتلا قتالاً شديداً حتّي قتلا(1).

*

وتسارعت وتيرة مقتل الأصحاب، فأخذ الواحد منهم والإثنان يودّعان الحسين ويقاتلان حتّي يقتلا. هكذا كان الأمر مع سيف بن الحارث بن سريع الهمداني ومالك بن عبد اللّه بن سريع ابن عمّه، فقد قاتلا حتّي قتلا(2).

وبرز عمرو بن مطاع الجعفي، وهو يرتجز ويقول:

أنا عمير وأبي المطاع * وفي يميني مره قطّاع

وأسمر سنانه لمّاغ * يري له من ضوئه شعاع

قد طاب لي في يومي القراع * دون حسين وله الدفاع

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 24؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 292؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج 20، ص 453.

2- (2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 405؛ وبحارالأنوار، للمجلسي، ج45، ص 31؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 292.

وقاتل حتّي قتل(1).

*

ثمّ خرج يحيي بن سليم المازني، وهو يرتجز ويقول :

لأضربنّ القوم ضرباً فيصلا * ضرباً شديداً في العدي معجّلا

لا عاجزاً فيها ولا مولولا * ولا أخاف اليوم موتاً مقبلا

وقاتل حتّي قتل (2).

*

و بعد مقتله خرج قرّة بن أبي قرة الغفاري، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت حقّا بنو غفّار * وخندف بعد بني نزار

بأنّي اللّيث الهزبر الضاري * لأضربنّ معشر الفجّار

ضرباً وجيعاً عن بني الأخيار

فقتل ثمانية من الأعداء، وقاتل حتّي قتل(3) .

*

وخرج بعد استشهاد قرصة رجل من أصحاب الحسين عليه السلام اسمه مالك بن أنس الكاهلي، وهو يقول :

قد علمت كاهلها ودودان * والخندفيّون وقيس عيلان

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج5، ص197؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 290؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 25.

2- (2) العوالم، للبحراني، ج 17، ص 268؛ والمناقب، لابن شهر آشوب، ج4، ص 102.

3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 18؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 196؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج 8، ص 102.

بأنّ قومي آفة للأقران * وإنّني سيّد تلك الفرسان

وقاتل حتي قتل (1).

*

ومع كثرة من قتل من أصحاب الحسين، إلّا أنّ البقيّة منهم لم يتركوا فرصة إلّا وحاولوا هداية الأعداء، وتحذيرهم من أن يرتكبوا من الجرائم أكثر ممّا فعلوه، وكانوا ينذرونهم عذاب النار يوم القيامة، علي عكس جماعة عمر بن سعد، حيث كان هدفهم ومنطقهم هدفاً دنيويّاً بحتاً. فما كان يقوله أصحاب عمر بن سعد هو وجوب الخضوع لسلطان يزيد ولزوم البيعة له و إطاعته ، وحديثهم كلّه كان يدور حول الدّنيا والمال والمنصب، بينما حديث أصحاب الحسين كان يدور حول الحقّ والعدل والثواب والعقاب في يوم القيامة، تماماً كما كان ذلك منطق الأنبياء.

ومن جملة من نصح القوم و وعظهم حنظلة بن أسعد الشبامي وكان من أواخر من بقي من الأصحاب. فقد وقف بين يد الحسين يقيه السهام والرّماح والسيوف بوجهه ونحره، وأخذ ينادي بالقوم قائلاً: «يا قوم؛ إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، وما اللّه يريد ظلماً للعباد .

«يا قوم؛ إنّي أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولّون مدبرين، ما لكم من اللّه من عاصم».

«يا قوم؛ لا تقتلوا حسيناً، فيسحتكم اللّه بعذاب، وقد خاب من افتري» .

1- (1) الأمالي، للصدوق، ص 161؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 25.

وكان حنظلـة بن الشـبامي هذا قد نصح القوم قبل أن تقع المواجهة بين الطرفين، ولكنّهم ردّوه بأن شـتموه وشـتموا أصـحابه وسـبّوه، فقال له الحسـين : يـابن أسـعد، رحمـك اللّه ، إنّهم قـد اسـتوجبوا العـذاب حين ردّوا عليـك مـا دعـوتهم إليه من الحقّ، ونهضوا إليـك يشـتمونك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين؟

فقال حنظلة للحسين : صدقت جعلت فداك، أفلا نروح إلي ربّنا، فنلحق بإخواننا؟

فقال له الحسين : بلي؛ رخ إلي ما هو خير لك من الدّنيا وما فيها، وإلي ملك لا يبلي.

فقال حنظلة – وقد اعتبر ذلك إذناً من الحسين –: السّلام عليك يا أبا عبد اللّه، وعلي أهل بيتك، وجمع اللّه بيننا وبينك في الجنّة .

فقال الحسين : آمين، آمين .

ثمّ تقدّم إلي القوم وقاتل قتالاً شديداً، فحمل عليه جماعة من الأعداء، فقتلوه(1).

*

حقّاً، كان أصـحاب الحسـين يتنافسون علي المنية دفاعاً عن الحقّ، وعن إمام الحقّ، وعن منهج الحقّ، مع علمهم بأنّهم سـيقتلون بالسيوف والرماح، وتقطع الرؤوس. وهذا ما كان يميّزهم عن غيرهم من المقاتلين في التاريخ، فلم يكن عندهم أي أملٍ في البقاء أحياء،

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 25؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 292؛ وأعيان الشيعة، للأمين، ج 1، ص 605.

لكنّهم كانوا يشعرون بأنّهم يسقون شجرة مقدّسة بعث اللّه الأنبياء والرّسل لزرعها في الأرض، وأنّ أعدائهم يحاولون اقتلاعها من الجذور، وهي شجرة الإيمان والتقوي والخير والعدل والصلاح، وكانوا مؤمنين بأنّ من يكون مع اللّه يكون اللّه معه، وأنّ مصيرهم هو الجنّة، كما أنّ مصير أعدائهم النّار.

فقد أقبل عابس بن أبي شبيب الشاكري، وكان من الصالحين المخلصين لأهل البيت، إلي شوذب مولي شاكر، وقال له: «يا شوذب ؛ ما في نفسك أن تصنع»؟

فقال شوذب: «وما أصنع؟ أقاتل معك دون ابن بنت رسول اللّه حتّي أقتل».

فقال عابس : «ذلك الظنّ بك، أمّا الآن فتقدّم بين يدي أبي عبد اللّه حتّي يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه و حتّي أحتسبك أنا ، فإنّه لو كان معي السّاعة أحد أنا أولي به منك لسرّني أن يتقدّم بين يدي حتّي أحتسبه ، فإنّ هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكلّ ما قدرنا عليه، فإنّه لا عمل بعد اليوم، وإنّما هو الحساب».

فتقدّم شوذب، فسلّم علي الحسين و ودّعه، ثمّ مضي، فقاتل حتّي قتل(1).

وبعد مقتله التفت عابس إلي الحسين وقال: «يا أبا عبد اللّه ؛ واللّه ما أمسي علي ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ، ولا أحبّ

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 444؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 312؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 23.

إليّ منك، ولو قدرت علي أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلت».

وقال: «السّلام عليك يا أبا عبد اللّه، أشهد اللّه أنّي علي هديك وهدي أبيك».

ثمّ مشي مصلتاً سيفه وبه ضربة علي جبينه . فلمّا رآه الأعداء، صرخ أحدهم قائلاً : «أيّها الناس، هذا أسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب القويّ، لا يخرجنّ إليه أحد منكم، فهذا من أشجع الناس».

فأخذ عابس ينادي : ألا رجل لرجل؟

فرفضوا جميعاً أن يتقدّموا إليه.

فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة ، فرموه بالحجارة من كلّ جانب، فلمّا رأي أن لا أحد منهم يتقدّم لمقاتلته، ألقي درعه ومغفره .

وتقدّم إليهم حاسراً، فقال له أحد أصحاب الحسين : أجننت يا عابس؟

قال : إي واللّه، إنّ حبّ الحسين أجنّني!

ثمّ شدّ علي الأعداء، فانهزموا من بين يديه، فكان يهجم علي تلك الكتل البشريّة، فيفرّون من أمامه، فلم يكن يصل إلي أحد منهم إلّا ويصرعه.

وبعد أن ضعف وأثخن بالجراح، عطفوا عليه من كلّ جانب، وضربوه بكلّ ما كانوا يملكون، من السيف والرّمح والنبل، وحتّي الحجارة، إلي أن صرع وقتل.

ثمّ تكالبوا عليه، فقطعوا رأسه، وأخذوا يتصارعون حول ذلك

ص: 481

الرّأس، كـلّ واحـد منهم يقول : أنـا قتلته، فـأتوا عمر بن سـعد، فقـال لهم ابن سـعد: لا تختصـموا، هـذا لم يقتله إنسان واحـد، بل قتلتموه بأجمعكم، وفرّق بينهم بهذا القول(1) .

*

لقد كان واضـحاً أنّ الحق والعدل والخير والصلاح والإيمان مع الحسين، في مواجهة الباطل، والظلم، والشرّ، والفساد، والنفاق لدي أعدائه . ومن هنا فلا أحد من أصـحاب الحسـين التحق في يوم عاشوراء بعمربن سـعد، ولكن التحق من أصحاب عمر بن سعد الكثيرون بالحسين، وقاتلوا بين يـديه حتّي قتلوا، ومنهم بكر بن حي التميمي، فقد كان ممّن خرج مع ابن سـعد الحرب الحسـين، ثمّ مال مع الحسـين وقتل بين يديه (2).

*

ومن الذين قاتلوا قتالاً شديداً مع البصيرة رجل اسمه يزيد بن معقل، وكان من بني مذحج، وكان أبوه من الصحابة. فقد خرج وهو يرتجز قائلاً :

إن تنكروني فأنا ابن مغفل * شاك لدي الهيجاء غير أعزل

وفي يميني نصل سيف مصقل * أعلو به الفارس وسط القسطل

ص: 482

1- (1) الكامـل، لابن الأثير، ج 3، ص 292؛ والتاريـخ، للطبري، ج 5، ص 444 ؛ ونهايـة الإرب، للنويري، ج 20، ص 455؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج 8، ص 185.
2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 419.

فقاتل قتالاً شديداً حتّي قتل(1).

*

وكما قاتل مع الحسين رجال من جميع البلدان والأعراق، فقد كان معه جمع من العبيد، الذين لم يميّز الحسين بينهم وبين غيرهم من الأحرار في التعامل معهم. فهذا جون مولي أبي ذرّ، كان عبداً أسوداً، جاء إلي الحسين ليستأذنه، فقال له الحسين: «أنت في إذن منّي، فإنّما تبعتنا للعافية، فلا تبتل بطريقتنا.

فقال له جون: «يابن رسول اللّه ؛ أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، فهل في الشدّة أخذلكم؟ .. واللّه إنّ ريحي لنتن، وحسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفّس عليّ بالجنّة حتّي يطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضّ وجهي».

وأضاف ودموعه تنزل علي خدّيه: «لا واللّه لا أفارقكم حتّي يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم أهل البيت».

فأذن له الحسين عليه السلام، فخرج وهو يقول:

كيف يري الكفّار ضرب الأسود * بالسّيف ضرباً عن بني محمّد

أذبّ عنهم باللّسان واليد * أرجو به الجنّة يوم المورد

فقاتل حتّي قتل (2).

فجاء الحسين ووقف عليه، وقال: «اللّهمّ بيّض وجهه،

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 419؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص 103.
2- (2) اللهوف، لابن طاوس، ص 109؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 22؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص 33.

وطيّب ريحه، وأحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمّد وآل محمّد»(1).

*

لقد كان يوم عاشوراء عرس الشهادة حقّاً، وكان أصحاب الحسين عليه السلام ينالون شرف الاستشهاد في سبيل اللّه فرادي أو جماعات. ففي واحدة من أرع ما شاهده التاريخ في ذلك اليوم أنّه خرج جماعة من أصحاب الحسين عليه السلام ، فيهم عمرو بن خالد الصيداوي، ومولاه سعد، وجابر بن الحارث السلماني، ومجمّع بن عبد اللّه العائدي، فشدّوا جميعاً علي أهل الكوفة، كأنّهم يبحثون عن موتهم هم، وليس عن موت أعدائهم، فأوغلوا في الأعداء قتلاً وتنكيلاً حتّي أمر عمر بن سعد الجيش كلّه بأن يحاصرهم، فعطفوا عليهم وقطّعوهم عن أصحابهم، وضاعوا بين الجمع، فندب الحسين إليهم أخاه العبّاس، فهجم علي الأعداء، ففرّوا من بين يديه، وأنقذ أصحابه بسيفه، وقد جرحوا بأجمعهم. وفيما هم عائدون إلي مخيّم الحسين عليه السلام ، هجم عليهم الأعداء وحاصروهم، ولكنّهم لم يتوانوا، بل شدّوا بأسيافهم مع ما بهم من الجراح، وقاتلوا حتّي قتلوا جميعاً في مكان واحد(2).

*

فيما كان الحسين جالساً والموت يدور حوله، ويقتل أصحابه

ص: 484

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 23؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص 304؛ ومقتل أبي مخنف، ص 81.

2- (2) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 446؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 293؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 295.

واحداً بعد واحد، وإذا به يري شابّاً لم يبلغ الحادية عشـرة من عمره بعد، واسمه عمرو بن جنادة الأنصاري يدخل عليه، ولمّا مثل أمامه طلب منه الإذن بالقتال، فقال الحسين لمن حوله: «إنّ هذا غلام قتل أبوه في المعركة، ولعلّ أمه تكره ذلك».

فقال الغلام: «أبا عبد اللّه ؛ إنّ أمّي هي التي أمرتني بذلك، وألبستني لامة حربي».

فأذن له الحسين، فخرج وهو يرتجز قائلاً :

أميري حسين ونعم الأمير * سرور فوائد البشير النذير

عليّ وفاطمة والده * فهل تعلمون له من نظير

له طلعة مثل شمس الضحي * له غرّة مثل بدر منير

ولم يعرف إن كان الشـعر منه، أو أنّ أمه هي التي حفّظته إيّاه ، وعلي كلّ حال فإنّه انحـدر إلي الميـدان بلهفة وشوق، وقاتل حتّي قتل. فرمي الأعـداء برأسه إلي جهـة الحسـين عليه السـلام ، فأخذته أمّه ومسـحت الدم عنه، وضـربت به رجلاً من الأعداء كان قريباً منها، فمات ذلك الرجل، وعادت إلي المخيّم، فأخذت عموداً وهجمت علي القوم وهي تقول:

إنّي عجوز في النّسا ضعيفة * خاوية بالية نحيفة

أضربكم بضربة عنيفة * دون بني فاطمة الشريفة

فردّها الحسين عليه السلام إلي الخيمة، بعد أن أصابت بالعمود رجلين من الأعداء(1).

ص: 485

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 315؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 421وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 28.

وكان بعض أصحاب الحسين أحيانا يقاتلون لفترة، وربّما يتحمّلون بعض الجراحات فيرجعون إلي الحسين عليه السلام لكي يتزوّدوا منه، بنظرة إلي وجهه الملائكي، أو ليسمعوا منه كلمة أو كلمتين، ثمّ يعودون إلي ميدان المعركة ويقاتلون حتّي ينالوا شرف الشهادة . ومنهم الحجّاج بن مسروق الجعفي، وكان مؤذّن الحسين، فقد عاد إلي أبي عبد اللّه، وقد خضّب وجهه وصدره بالدماء، وأخذ يقول:

اليوم ألقي جدّك النبيّا * ثم أباك ذا الندي عليّا

و ذاك الذي نعرفه الوصيا

فقال له الحسين : وأنا ألقاهما علي أثرك، ورجع فقاتل حتّي قتل (1).

*

وكان ممّن قاتل وقتل عمرو بن جنادة ، فقد خرج وهو يرتجز قائلا :

أضق الخناق بابن هند وإرمه * في عقره بفوارس الأنصار

ومهاجرين مخضّبين رماحهم * تحت العجاجة من دم الكفار

خضبت علي عهد النبيّ محمّد * واليوم تخضب من دم الفجّار

خانوا حسينة والحوادث جمّة * ورضوا يزيداً والرّضي في النار

واللّه ربّي لا أزال مضارباً * في الفاسقين بمرهف بتّار

هذا عليّ اليوم حقّ واجب * في كلّ يوم تعانق وحوار

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 315؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 413.

فقتل حتّي قتل(1).

*

لقد أبدي أصحاب الحسين من الشجاعة والبسالة والثبات ، بمقدار ما كانت لهم من البصيرة والإيمان ممّا أدهش العدوّ قبل الصديق، فقد رأي أصحاب عمر بن سعد بعد أن قتل أكثرية أصحاب الحسين رجلاً يقاتل قتالاً شديداً، لا يحمل علي قوم إلّا كشفهم، ثمّ كان يرجع إلي الحسين ويرتجز قائلاً :

أبشر هديت الرّشد تلقي أحمدا * في جنّة الفردوس تعلو صعّدا

ثمّ يعود مرّة أخري إلي الأعداء ويقاتلهم هكذا، حتّي اعترضه جماعة من جيش عمر بن سعد، بعد أن أثخن بالجراح وتعب، فقتلوه واحتزّوا رأسه. وحينما سألوا عن اسمه تبيّن أنّه أبو عمرو النهشلي، وكان رجلاً متهجّداً، كثير الصّلاة(2) .

*

لقد كان أصحاب الحسين من النوع النادر في الشجاعة والبصيرة، وكانت بصائرهم تظهر في أرجوزاتهم، كما أن شجاعتهم كانت تظهر في مواجهة الواحد منهم لجيش العدوّ كلّه.

فهذا مالك بن داود، من أصحاب الحسين، يخرج وهو يرتجز ويقول:

إليكم من مالك الضرغام * ضرب فتيً يحمي عن الكرام

يرجو ثواب اللّه بالإنعام * سبحانه من ملي علّام

1- (1) مقتل الخوارزمي، ج 3، ص 121.

2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص30؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص 167.

ويغوص في جيش العدوّ، ويقاتل حتّي يقتل منهم جماعة ، فيحملون عليه بأجمعهم ويقتلونه(1).

*

ولم تكن شجاعة أصحاب الحسين وبصائرهم مقتصرة علي الأحرار وحدهم، بل كان العبيد الذين اشتركوا معهم لا يختلفون في ذلك عنهم فهذا غلام تركي اسمه أسلم، كان قارئاً للقرآن، عارفاً بالعربيّة ، وهو من موالي الحسين، خرج يقاتل القوم وكان يقول :

البحر من طعني وضربي يصطلي * والجوّ من سهمي ونبلي يمتلي

إذا حسامي في يميني ينجلي * ينشقّ قلب الحاسد المبجّل

أو يقول:

اليوم أسقيكم بكأس الحنظل * بصارم ذي شفرة لم يفلل

في حومة الميدان عند القسطل * أذودكم عن الحسين بن علي

فقتل جماعة من الأعداء، فاحتوشوه من كلّ جانب وصرعوه ، فجاء الحسين إليه وبكي، ثمّ انحني ووضع خدّه علي خدّه وكان به رمق، ففتح الغلام عينه واعتنق الحسين، ثمّ تبسّم وقال: «من مثلي وابن رسول اللّه واضع خدّه علي خدّي»؟

وفاضت نفسه بين يدي الحسين(2).

*

1- (1) المقتل، لأبي مخنف، ص 74؛ وينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 74.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 24؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص 287؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 413.

ثمّ إنّه كان يأتي إلي الحسين الرجل بعد الرجل، فيقول : السّلام عليك يابن رسول اللّه . فيجيبه الحسين : وعليك السّلام، ونحن خلفك . ويقرأ قوله تعالي: (فمنهم مّن قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا)(1)، ثمّ يحمل علي القوم، فيقاتل حتّي يقتل.

وكانوا يجدون في إيمانهم بأهل البيت ذلك الزاد الذي يحتاجون إليه في تلك المواقع، خاصّة وأنّهم كانوا يتبادلون الحديث الذي روي عن رسول اللّه أنّه قال: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة ، الضارب بسيفه أمام ذرّيتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في حوائجهم، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه»(2).

*

أمّا آخر من قتل من أصحاب الحسين فكان سويد بن عمرو الخثعمي، فقد قاتل حتّي سقط مثخناً بالجراح ووقع بين القتلي، ولم يعي ما يدور حوله، حتّي سمع القوم يقولون: قتل الحسين، فأفاق وأخذ يبحث عن سلاح، فإذا معه سكّين، وكانوا قد أخذوا منه سيفه ، فقاتلهم بسكّينه . ثمّ هجم عليه اثنان من رجال عمر بن سعد وقتلوه برماحهم(3) .

وهكذا فقد قتل كلّ أصحاب الحسين، ولم يبق معه إلّا أهل بيته من إخوته وأولاده وأولاد أبي طالب وعقيل .

1- (1) سورة الأحزاب، آية 23.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 26.

3- (3) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 453؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 120.

استشهاد أهل البيت عليهم السلام

اشارة

حينما جري الحديث ليلة عاشوراء، بين أصحاب الحسين عن المواجهة المتوقّعة في النهار، أصرّ الأصحاب علي أن يتقدّموا علي أهل البيت في القتال ، ورفضوا رفضاً قاطعاً أن يسمحوا لأحد من هؤلاء أن يقتل قبلهم، لأنّهم كانوا يعرفون مقام أهل البيت عند اللّه وعند رسوله، ولأنّهم أساساً إنّما انضمّوا إلي قافلة الحسين عليه السلام لكي يدافعوا عنه وعن أهل بيته، ولكن مع مقتل آخر رجل من الأصحاب، لم يبق مع الحسين سوي أهل بيته، وهم ولد عليّ، وولد جعفر بن أبي طالب، وولد عقيل، وولد الحسن وولد الحسين. فقد اجتمعوا مع بعض، وجعل يودّع بعضهم بعضاً، وعزموا علي الحرب وملاقات الحتوف بنفوس أبيّة، وروح مطمئنة، وبأس شديد .

لقد كان هؤلاء يحملون صفات آبائهم وأجدادهم، ابتداءً من روح الفروسيّة والعزم والثبات والشجاعة والكرم والبطولة، وانتهاءً بحبّ الاستشهاد في سبيل اللّه ، ومروراً بكل فضائل الهاشميّين.

وأوّل من خرج منهم لمواجهة الأعداء ومعانقة الموت هو أعزّ أولاد الحسين عليه، وهو عليّ الأكبر، الذي كان من جهة الأب حفيد رسول اللّه صلّي اللّه وآله وسلّم، ومن جهة الأمّ حفيد أبي

سفيان، فأمّه ليلي بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود، وأمّ ليلي هي بنت أبي سفيان.

ومن هنا فقد كان عليّ الأكبر رحماً ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ورحماً أيضاً لعمر بن سعد الذي كان من قريش.

فجاء عليّ الأكبر إلي أبيه مستأذناً منه لخوض القتال، رغبة منه في الرحيل إلي جنّة اللّه، ومع أنّ الحسين كان عازماً علي أن يقدّم أولاده شهداء في سبيل ربّه، إلّا أنّ عواطفه هاجت عليه . فقال له : «إرحم غربتنا، ولا تستعجل إلي القتال، فإنّه ليس لنا طاقة في فراقك». فلم يزل عليّ الأكبر يجهد ويبالغ في طلب الإذن من أبيه حتّي أذن له(1).

وفيما هو يهمّ بأن ينطلق إلي الميدان، نظر إليه الحسين عليه السلام نظرة آيس منه، وأرخي عينيه بالدّموع، ثمّ نظر إلي السّماء كأنّه يشكو إلي اللّه عزّ وجلّ ما يفعل به الأعداء، ثمّ رفع شيبته بيده وقال :

«اللّهمّ إشهد علي هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام هو أشبه الناس خَلقاً وخُلقا ومنطقاً برسولك محمّد صلّي اللّه عليه وآله، وكنّا إذا اشتقنا إلي رؤية نبيّك نظرنا إليه».

اللّهمّ امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا، فغدوا علينا يقاتلوننا».

ثمّ صاح بعمر بن سعد، قائلاً : «ما لك يابن سعد، قطع اللّه رحمك، ولا بارك اللّه لك في أمرك، وسلّط عليك من يذبحك بعدي

1- (1) الدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 328.

علي فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول اللّه» . ثمّ تلي قوله تعالي : (إنّ اللّه اصطفي ءادم و ءال إبراهيم وال عمران علي العالمين * ذرّيّة بعضها من بعض و اللّه سميع عليم)(1).

لقد كان الحسين عليه السلام مع كلّ عواطفه تجاه ولده في أتمّ الاستعداد لكي يقدّمه قرباناً في سبيل اللّه من أجل تلك المباديء والقيم والمثل التي قتل من أجلها كل الصالحين في التاريخ، ومن هنا فإنّه هو الذي ألبس ولده لامة حربه، وأفرغ عليه درعه ومغفره، وشدّ وسطه بمحزم ادّخره من أبيه أمير المؤمنين، وأركبه فرسه المسمّي العقاب (2).

كما أنّ عليّاً الأكبر ودّع النساء اللّاتي اجتمعن حوله وتعلّقن بأطرافه، وودّع أيضاً أباه وعموم بني هاشم، وظهر في أبهي صورة ممكنة عندما هجم علي القوم، وحينما رآه الأعداء، قال أحد أهل الشام له : إنّ لك بيزيد قرابة ورحماً، فإن شئت أمّناك، وامض حيث ما أحببت .

فقال علي الأكبر : أما واللّه لقرابة رسول اللّه أولي أن ترعي،من قرابة أبي سفيان(3).

وهكذا رفض ذلك الأمان المسموم، كما رفض من قبل عمّه العبّاس عليه السلام وإخوته ، أمان الأعداء.

ص: 492

1- (1) سورة آل عمران، الآيتان 33 - 34.

2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 337.

3- (3) نسب قريش، لمصعب الزبيري، ص 57؛ وشرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 153.

فهجم عليهم وهو يقول:

أنا عليّ بن الحسين بن عليّ * نحن - وبيت اللّه - أولي بالنّبي

واللّه لا يحكم فينا ابن الدّعي * أضربكم بالسيف أحمي عن أبي

و ضرب غلام هاشميّ علويّ

فحمل علي ميمنة جيش عمر بن سـعد، وأجبرهم علي الفرار بعد أن قتل بعضاً منهم، ثمّ حمل علي الميسـرة وغاص في الأساط، فلم يقابله جحفل منهم إلّا ردّه، ولا وقف له شجاع إلّا وصرعه . ولقد بلغت حملاته تلك إثنتي عشرة حملة، وقتل من الأعداء مقتلة ضجّ بسببها الناس من كثرة من قتل منهم.

فاشتدّ به العطش لكثرة الجراح وثقل السلاح، فرجع إلي الحسين قائلاً : «يا أبتاه؛ العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلي شربة من الماء سبيل، أتقوّي بها علي الأعداء»؟

فـدمعت عينا الحسـين، وقال: «عدّ يا بنيّ، بارك اللّه فيك وقاتل قليلاً، فما أسـرع ما تلقي جدّك رسول اللّه، فيسـقيك بكأسه الأوفي شـربة لا تظمأ بعدها أبداً(1).

«يا بنيّ؛ يعزّ علي جدّك المصطفي، وعلي عليّ المرتضي، وعليّ، أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستيث بهم فلا يغيثوك»(2).

ثمّ دفع إليه خاتمه الشريف وقال له: «يا بنيّ؛ أمسكه في فمك وارجع إلي قتال عدوّك».

فرجع عليّ الأكبر إلي الحرب مستميتاً في الذبّ عن دين جدّه

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 339.
2- (2) معالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 412.

المصطفي وعترته الطاهرة، آيساً من الحياة، عازماً علي الموت، وهو يقول:

الحرب قد بانت لها حقائق * وظهرت من بعدها مصادق

واللّه ربّ العرش لا نفارق * جموعكم أو تهمد البوارق

وأخذ يكرّ علي القوم كرّة بعد كرّة، ويجندل الأعداء جماعة بعد جماعة. فبصر به رجل من الأعداء اسمه «مرّة بن منقذ العبدي»، فقال لمن حوله: «عليّ آثام العرب لئن مرّ بي هذا الغلام، يفعل مثل ما فعل، إن لم أثكله أمّه».

ثمّ اختفي بين الجموع، يتحيّن الفرصة لكي يضربه من حيث لا يحتسب.

وفيما كان عليّ الأكبر يشدّ علي الأعداء، اعترضه مرّة بن منقذ ورماه بسهم وقع في حلقه فخرقه، ثمّ ضربه بالسّيف علي أمّ رأسه ، ثمّ طعنه بالرّمح في ظهره، فاعتنق عليّ الأكبر فرسه ، فسال الدّم علي عين الفرس، فلم يبصر الطريق، وبدل أن يأخذه إلي معسكر الحسين، حمله إلي معسكر الأعداء، فتكالبوا عليه وقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً.

ولمّا بلغت روحه التراقي رفع صوته قائلاً: «يا أبتاه، عليك منّي السّلام، هذا جدّي رسول اللّه قد سقاني بكأسه الأوفي شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وهو يقول لك: العجل العجل، فإنّ لك كأساً مذخورةً حتّي تشربها الساعة».

ثمّ شهق شهقة كانت فيها نفسه، وفارقت روحه الدّنيا. فصاح الحسين بأعلي صوته: وآولداه، فتصارخت النّساء، فسكّتهنّ الحسين وقال: إنّ البكاء أما مكن.

ثمّ حمل علي القوم كأنّه صـقر ينقضّ علي فريسـته، ففرّقهم، وكان في طريقه يلهج بذكر ولده ويكثر من قوله : ولدي عليّ، ولدي عليّ، حتي وصل إليه، فأخلي رجليه معاً من الركاب، ورمي بنفسه علي جسد ولده، وأخذرأسه، فوضعه في حجره، وجعل يمسح الدم والتّراب عن وجهه . ثمّ انكبّ عليه ووضع خدّه علي خدّه، وقال : «يا بنيّ؛ قتل اللّه قوماً قتلوك، ما أجرأهم علي الرّحمن، وعلي انتهاك حرمة الرّسول».

ثمّ انهملت عيناه بالـدّموع وقال: «علي الـدّنيا بعـدك العفي يا بنيّ، أما أنت فقـد استرحت من همّ الدّنيا وغمّها، وصـرت إلي روح وريحان، وجنّة ورضوان، وبقي أبوك لهمّها وغمّها، فما أسرع لحوقه بك».

فخرجت عمّته زينب وهي تنادي : وآولداه، واغربتاه ، وآمهجة قلباه، ليتني وسدت الثري.

فوثب إليها الحسين وردّها إلي الخيمة، وهو يكرّر من قوله : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون(1).

وجاؤوا به إلي الفسطاط الذي يقاتلون أمامه، وكان عليّ الأكبر أوّل من قتل من ولد أبي طالب(2).

*

بعد مقتل عليّ الأكبر، بدأ رجال أهل البيت يتسابقون لنيل الشهادة في سبيل اللّه ، فكان أوّل من خرج بعده هو عبد اللّه بن مسلم بن عقيل، فقد دخل حومة الميدان، بينما كانت أمّه رقيّة بنت

1- (1) مقتل الحسين، لأبي مخنف، ص 83.
2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 350؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 447.

الإمام عليّ واقفة بباب الخيمة تنظر إليه، فأطلق العنان مسرعاً إلي الأعداء وهو يرتجز قائلا :

اليوم ألقي مسلماً وهو أبي * وغصبةً بادوا علي دين النبيّ

ليسوا بقوم عرفوا بالكذب * لكن خيارٌ وكرام النسب

من هاشم السّادات أهل الحسب

واستطاع في ثلاثة حملات أن يصرع جماعة من الأعداء، فأخذوا يرمونه من بعيد، وجاءه سهم رماه رجل اسمه عمرو بن صبيح، فاتقاه عبد اللّه بن مسلم بيده، فسمّرها إلي جبهته، وكلّما حاول أن يزيل السهم ما استطاع، فرفع صوته قائلاً: «اللّهمّ إنّهم استقلّونا واستذلّونا، فاقتلهم كما قتلونا، وأذلّهم كما أذلّونا».

وبينما هو بهذا الحال، إذ حمل عليه رجل برمحه فطعنه في قلبه ، فسقط شهيداً علي الأرض وفارقت روحه الدّنيا . فجاء عمرو بن صبيح الذي رماه بالسهم، فحاول أن يخرج سهمه من جبهته، فلم يستطع أن يفعل ذلك، إذ بقي النصل داخل جبهته (1).

ولمّا جاء الحسين إلي جثّته، قال : «اللّهمّ أقتل قاتل آل عقيل».

ثمّ التفت إلي من بقي من أهل البيت وقال: «احملوا عليهم بارك اللّه فيكم، وبادروا إلي الجنّة التي هي دار الإيمان»(2).

*

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 371؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 26.
2- (2) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 73.

وبعد مقتل عبد اللّه خرج أخوه محمّد بن مسلم بن عقيل، وقاتل قتال الأبطال كأخيه، ثمّ اجتمع عليه جماعة من الأعداء وقتلوه(1).

وبعد قتله حمل جملة من آل أبي طالب حملة واحدة علي العدوّ، فقال لهم الحسين عليه السلام : «صبراً علي الموت يا بني عمومتي، واللّه لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم».

فوقع منهم كثيرون صرعي، وكان منهم الحسن ابن الإمام الحسن السبط، الملقّب بالمثنّي، فقد أصابه ثمانية عشر جراحة بين يدي عمّه، كما قطعت يده اليمني، لكنّه لم يمت، بل أسروه. وتوسّط أسماء بن خارجة، وهو خال الحسن المثنّي، فقبل عمر بن سعد وساطته وقال : «دعوا لأبي حسّان ابن أخته، ومات بعد حين»(2).

*

وبعد ذلك خرج عبد الرحمن بن عقيل، فحمل علي القوم وهو يقول :

أبي عقيل فاعرفوا مكاني * من هاشم وهاشم إخواني

فينا حسين سيّد الأقران * وسيّد الشباب في الجنان

فقاتل حتّي قتل(3).

*

1- (1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 62.
2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 328؛ وإسعاف الراغبين، للصبان، ص 201.
3- (3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 26، وتسلية المجالس، لمحمد بن أبي طالب، ج 2، ص 303؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص 33.

ثمّ خرج جعفر بن عقيل بن أبي طالب، فحمل علي الأعداء وهو يقول:

أنا الغلام الأبطحي الطالبي * من معشر في هاشم وغالب

فنحن حقّاً سادة الذوائب * فينا حسين أطيب الأطايب

فرموه بالسهام وقتلوه(1).

ثمّ برز عبد اللّه الأكبر بن عقيل، وكان متزوّجاً بميمونة بنت عليّ عليه السّلام، فتقدّم إلي الحرب وهو يرتجز قائلاً :

خلّوا عن المصحر دون الغيل * خلّوا عن الشريف من عقيل

يمنع عن صريخة الرّسول * بسيفه المهنّد المصقول

وقاتل قتالاً شديداً حتّي أثخن بالجراح، فشدّ عليه مجموعة من الأعداء، فقتلوه(2).

وكان كلّما قتل واحد من أبناء عقيل خرج أخوه وقاتل، حتّي قتل تسعة منهم دفاعاً عن الحقّ، وعن إمام الحقّ، وعن منهج الحقّ.

*

ثمّ خرج عون بن عبد اللّه بن جعفر الطيّار، وأمّه العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين، وكان يرتجز ويقول : إن تنكروني فأنا ابن جعفر * شهيد صدق في الجنان أزهر

1- (1) العبرات، للمحمودي، ج 2، ص 64؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 61؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص 276.

2- (2) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص65؛ وتذكرة الخواص، ص 255؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 353.

يطير فيها بجناح أخضر * كفي بهذا شرفاً في المحشر

فقاتل حتّي قتل، وكانت أمّه زينب واقفة بباب الخيمة تنظر إليه(1).

ثمّ خرج من بعده أخوه محمّد بن عبد اللّه بن جعفر، وهو يقول :

نشكو إلي اللّه من العدوان * فعال قوم في الرّدي عميان

قد بدّلوا معالم الفرقاني * ومحكم التنزيل والتبيان

وكانت أمّه زينب أيضاً واقفة تنظر إليه، فاجتمع عليه مجموعة من الأعداء، فقتلوه(2).

وهكذا قدّمت زينب بنت عليّ اثنين من أولادها، فداءً لدين اللّه عزّ وجلّ، ودفاعاً عن أخيها أبي عبد اللّه .

ثمّ إنّ آل أبي طالب استمرّوا يتسابقون إلي الشهادة ، وينحدرون نحو الميدان فرادي أو مجتمعين، ببصيرة ثاقبة وشجاعة فائقة، حتّي انتهت النوبة إلي القاسم بن الحسن بن عليّ، وهو غلام لم يبلغ الحلم بعد، وأمّه أم ولد، واسمها رملة، وهي أمّ أخويه عبد اللّه الأكبر وعبيد اللّه الأصغر، وكان للقاسم حينما مات أبوه من العمر ثلاث سنوات، فربّاه الحسين عليه السلام ، فكان له بمنزلة ابنه

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص27؛ وتسلية المجالس، لمحمد بن أبي طالب، ج2، ص33؛ والإقبال، لابن طاوس، ص 575.

2- (2) الفتوح،لابن اعثم، ج 5، ص 203؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 26؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 34.

العزيز، وكان يحبّه حبّاً شديداً . وقيل إنّ الحسين كان ينوي أن يزوّجه من ابنته سكينة(1).

فجاء القاسم إلي عمّه ليستأذنه في القتال، فقام إليه الحسين واعتنقه ، ثمّ أرخي عينيه بالدّموع، وأخذ القاسم يبكي معه، وأخذ يقبّل يدي عمّه حتّي يأذن له، ولمّا حصل علي ما يريد انحدر نحو المعركة، وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجل الحسن * سبط النبيّ المصطفي والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن * بين أناس لا سقوا صوب المزن

كان وجه القاسم في تلك الحالة مشرقاً كأنّه شقّة قمر، وعليه قميص وإزار، وفي رجليه نعلان. وبينما هو يقاتل، إذ انقطع شسع نعله اليسري، فوقف ليشدّه من دون أن يحسب حساباً لأولئك الجمع، إذ كانوا عنده أقل قيمة من نعله. فقال عمرو بن سعد بن تقيد الأزدي : واللّه لأشدنّ عليه .

فقال له صاحبه حميد بن مسلم : سبحان اللّه ؛ ما تريد بذلك، فواللّه لوضربني ما بسطت له يدي، يكفيك هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه.

لكن الرجل أصرّ علي جريمته وقال : واللّه لأشدنّ عليه .

فبينما كان القاسم منشغلاً بشدّ شسع نعله، إذ ضربه عمرو بن سعيد علي رأسه بالسيف، ففلقه، فوقع القاسم لوجهه، فصاح يا عمّاه .

1- (1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 181.

فأتاه الحسـين كالصقر المنقضّ، وتخلّل صفوف الأعداء، حتّي وصل إلي قاتله عمرو بن سعد الأزدي، فضربه بالسيف، فاتقاه عمرو بساعده، فأطنها الحسـين من المرفق، فصاح صـيحة عظيمة سـمعها العسـكر، فحمل خيل أهل الكوفة ليسـتنقذوه من الحسين، فاستقبلته بصدورها، ووطأته بحوافرها، فمات القاتل.

وقـامت بسـبب ذلك غبرة كبيرة، ولمّا انجلت الغبرة، فإذا بالحسـين قائم علي رأس القاسم، وهو يفحص برجليه، والحسـين يقول: «يعزّ واللّه علي عمّك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك.. بعداً لقوم قتلوك، هذا يوم كثر واتره، وقلّ ناصره».

ثمّ حمله علي صدره، بينما رجلاه تخطّان الأرض، فجاء به إلي الخيمة، وألقاه إلي جنب ولده عليّ الأكبر والقتلي من أهل بيته .

ثمّ رفع طرفه إلي السّماء وقال: «اللّهمّ احصهم عدداً، وأقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً».

وتوجّه إلي من بقي من أهل بيته وقال لهم: «صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً»(1).

*

وبعد مقتل القاسم خرج أخوه عبد اللّه بن الحسن، وكان من أجمل الناس، فأخذ يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابن حيدرة * ضرغام آجام وليس قسورة

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 358؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 331؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 36.

إنّ الأعادي مثل ريح صرصرة * أكيلكم بالسيف كيل السندره

فرآه رجل من أهل الكوفة ، فقال : لأقتلنّ هذا الفتي. فقيل له : ويحك، ما تصنع بقتله؟

قال : لأفعلن. ثمّ حمل عليه فضربه، فقطع يده، ثمّ ضربة أخري فقتله(1).

*

وبعد مقتل القاسم وعبد اللّه خرج إخوتهما، وهم عمر بن الحسن، وبشر بن الحسن، وأحمد بن الحسن، وكلّهم من أولاد السبط المجتبي عليه السّلام، فقاتلوا حتّي قتلوا جميعاً(2).

*

وبعد مقتل أولاد الحسن لم يبق مع الحسين إلّا إخوته، فتقدّموا عازمين علي الموت دونه، فأوّل من تقدّم منهم أبو بكر بن عليّ، واسمه عبد اللّه، وأمّه ليلي بنت مسعود بن خالد التميميّة، فبرز وهو يقول: شيخي عليّ ذو الفخار الأطول * من هاشم الصدق الكريم المفضل

هذا الحسين ابن النبيّ المرسل * نذود عنه بالحسام الفيصل

تفديه نفسي من أخ مبجّل * يا ربّ فامنحني ثواب المجزل

فحمل عليه القوم، فاجتمع عليه مجموعة، فمنهم من رماه

1- (1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج 2، ص 6؛ ومقتل الحسين،للخوارزمي، ج2، ص 28؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص 176.

2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 63؛ والمناقب، لابن شهر آشوب، ج4، ص 113؛ وشرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص 370.

بالسهام، ومنهم من قاتله بالسيف، ومنهم من ضربه بالرّمح حتّي قتل (1).

*

ثمّ خرج من بعده أخوه محمّد بن علي بن أبي طالب، وكان يرتجز ويقول:

سأصبر حتّي يحكم اللّه بيننا * وبين يزيد، ذلك الظالم النذل

لقد ضلّ من والي يزيداً ونسله * وعادي عليّاً من له السبق والفضل

إلي اللّه نبري من أناس تظاهروا * علينا بجور، إنّهم معشر ضلّوا

فقاتل حتّي قتل (2).

*

ثمّ خرج من بعـده أخوه عمر بن عليّ بن أبي طالب، قاصداً الثأر من قاتل أخيه، وبالفعل فقد اسـتطاع أن يقضـي عليه. ثمّ اجتمع عليه القوم، فجعل يضرب فيهم بسيفه ضرباً منكراً، وهو يقول:

خلّوا عداة اللّه خلّوا عن عمر * خلّوا عن الليث العبوس المكفهر

يضربكم بسيفه ولا يفرّ * وليس يغدو كالجبان المنحجز

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 354؛ ومقال الطالبيين، لأبي الفرج، ص 57.

2- (2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 354.

فلم يزل يقاتل، حتّي اجتمعوا عليه وقتلوه(1).

*

وبعد ذلك خرج أولاد عليّ الواحد تلو الآخر، منهم إبراهيم بن عليّ، الذي قاتل القوم حتّي قتل (2).

ثمّ خرج عبيد اللّه بن عليّ وقاتل حتّي قتل(3) .

مقتل إخوة العبّاس عليه السلام:

لمّا رأي العبّاس بن عليّ علي كثرة القتلي في أهله، جمع إخوته من أمّه وأبيه، وهم: عبد اللّه بن عليّ، وجعفر بن عليّ، وعثمان بن عليّ، وهم أولاد أمّ البنين بنت خالد بن حزام الكلابيّة واسمها فاطمة، فقال لهم : «تقدّموا بنفسي أنتم، فحاموا عن سيّدكم حتّي تموتوا دونه فأحتسبكم عند اللّه، وأراكم قد نصحتم للّه ولرسوله»(4)

ولم يكن سهلاً علي أبي الفضل أن يطلب من إخوته أن يقاتلوا قبله فيقتلوا، وإنّما طلب منهم ذلك حتّي يصبر علي فراقهم يحتسبهم عند ربّه فيوفّيه اللّه أجور الصابرين.

وقد اختلف إخوة العبّاس في من يكون أوّل من يتقدّم، فقال

1- (1) الفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 206؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 29.

2- (2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 39.

3- (3) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 57.

4- (4) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 113؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 454 والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 320.

العبّاس لأخيه عبد اللّه بن علي : تقدّم يا أخي أنت حتّي أراك قتيلاً وأحتسبك(1).

فخرج عبد اللّه وعمره خمس وعشرون عاماً، وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن ذو النجدة والأفضال * ذاك عليّ الخير ذو الفعال

سيف رسول اللّه بالنكال * في كل يوم ظاهر الأهوال

فقاتل قتال الأبطال، وتجمّع عليه الأعداء فتقلوه(2).

وكان الذي تولّي قتله من الأعداء هاني بن ثبيت الحضرمي (3).

*

ثمّ خرج من بعده أخوه جعفر بن عليّ، وعمره تسعة عشر

عاماً(4) ، فحمل علي الأعداء وهو يقول:

إنّي أنا جعفر ذو المعالي * ابن عليّ الخير ذي النوال

حسبي بعمّي شرفاً وخالي * أحمي حسيناً ذا الندي المفضال

وفيما هو يقاتل، رماه خولّي الأصبحي بسهم، فأصاب شقيقته ، فسقط من علي الفرس، فتجمّعوا عليه وقتلوه(5).

ص: 505

1- (1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 38؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم،ص 316.
2- (2) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 194؛ والفتوح، لابن اعثم، ج5، ص 207.
3- (3) الإقبال، لابن طاوس، ص 574؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص316.
4- (4) شرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص 367.
5- (5) المناقب، لابن شهر آشوب، ج 4، ص 107؛ وتسلية المجالس، لمحمد بن أبيطالب، ج 2، ص 307؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 66.

ثمّ خرج من بعده أخوه عثمان بن عليّ، وعمره واحد وعشرون عاماً(1)، وكان يرتجز ويقول:

إنّي أنا عثمان ذو المفاخر * شيخي عليّ ذو الفعال الطاهر

هذا حسين سيّد الأخاير * وسيّد الصغار والأكابر

فقاتل قتالاً شديداً، فرموه بالسهام، فسقط من علي الفرس، وشدّوا عليه، فقتلوه وقطعوا رأسه(2).

*

وبقتل هؤلاء لم يبق مع الحسين إلّا أبو الفضل العبّاس، الذي شعر أن قد حان حينه بعد إخوته، وأنّ عليه أن يفدي نفسه للحسين .

كان العبّاس في الرابعة والثلاثين من عمره(3). وكان وسيماً ، جميلاً، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطّان في الأرض، ولجماله يقال له (قمر بني هاشم).فجاء إلي الحسين وطلب منه الرخصة في القتال، وكان صعباً علي الطرفين أن يفترقا في تلك اللحظات. أمّا بالنسبة إلي العبّاس، فلأنّه كان يعرف أنّه لم يبق مع الحسين أحد غيره، وكانت حرائر رسول اللّه ، مطمئنّات إلي وجوده، وأمّا بالنسبة إلي الحسين فلأنّه كان صعباً عليه أن يري أخاه قتيلاً، فقال للعبّاس : يا أخي؛ أنت صاحب لوائي، (ويقصد أنّه لو قتل فإنّ اللّواء سيسقط علي الأرض ويعتبر نهاية المعركة).

1- (1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 194.
2- (2) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص 55؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص 321؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 78.
3- (3) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 194.

فقال العبّاس : قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين، وأريد أن آخذ ثأري منهم.

فقال له الحسين : إذن، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

فجاء العبّاس إلي القوم ووعظهم وحذّرهم غضب الجبّار ، وقال فيما قال: «إنّ هذا الحسين ابن بنت رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم قد قتلتم أصحابه وأهل بيته، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشي، فاسقوهم من الماء، قد أحرق الظمأ قلوبهم، وهو مع ذلك يقول : دعوني أذهب إلي الروم أوالهند، وأخلي لكم الحجاز والعراق.

فصاح الشمر قائلاً : «يابن أبي تراب، لو كان وجه الأرض كلّه ماءاً، وهو تحت أيدينا، لما سقيناكم منه قطرة، إلّا أن تدخلوا في بيعة يزيد.

فرجع العبّاس إلي الحسين عليه السلام ونزل من فرسه، ليخبره بما سمع، فإذا به يسمع الأطفال يتصارخون من العطش، فثارت به الحميّة، فقفز علي فرسه من جديد، وتوجّه نحو القوم مصلتاً سيفه ، وهو يرتجز ويقول:

أقسمت باللّه الأعزّ الأعظم * وبالحجور صادقاً وزمزم

وبالحطيم والفني المحرّم * ليخضبنّ اليوم جسمي بدمي

إمام ذي الفضل وذي التكرّم * ذاك حسين ذو الفخار الأقدم

فأحاط به أربعة آلاف من الرجال، فقتل منهم رجالاً ونكّس منهم فرساناً ، فتفرّقوا عنه، كما يتفرّق عن الأسد فريسته ، وصعد قوم علي التلال والأكماد، وأخذوا يرمونه بالسّهام، ومع

ذلك كان كالجبل الأصم، لا تحرّكه العواصف ولا تزيله القواصف(1).

وكان في عسكر عمر بن سعد رجل يقال له المارد بن صديف التغلبي، فلمّا نظر إلي ما فعله العبّاس بأصحابه، صرخ فيهم قائلاً : «لا بارك اللّه فيكم، أما واللّه لو أخذ كلّ واحد منكم ملا كفّه تراباً

الطمّرتموه، ولكنّكم تظهرون النصيحة وأنتم تحت الفضيحة؟

ثمّ نادي بأعلي صوته: «أقسم علي من كان في رقبته بيعة للأمير يزيد إلّا اعتزل عن الحرب، فأنا لهذا الغلام الذي قد أباد الرجال».

ثمّ أخذ بيده رمحاً وسيفاً وتوجّه إلي قتال العبّاس، والعبّاس واقف لا يتحرّك، حتّي إذا وصل قريباً، حاول أن يضربه برمحه ، فانتزع العبّاس الرّمح منه وجذبه إليه، فكاد أن يقع المارد من سرجه .

فصاح العبّاس: «يا عدوّ اللّه ؛ إنّني أرجو أن أقتلك برمحك .

فجال المارد علي العبّاس وقحم عليه، لكنّ العبّاس طعن جواده في خاصرته، فشبّ به ووقع علي الأرض، ولم يكن له طاقة علي القتال راجلاً ، لأنّه كان عظيم الجثّة، ثقيل الخطوة، فاضطرب اضطراباً شديداً . فنادي الشمر بأصحابه قائلاً: ويلكم، أدركوا صاحبكم قبل أن يقتل .

غير أنّ العبّاس كان أسرع منهم، فضربه بالرّمح وجندله. فقال الرجل: يا قوم، أأغلب علي جوادي وأقتل برمحي؟

1- (1) معالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 438.

ولمّا رأي الموت يرفرف علي هامته، قال للعبّاس: يابن عليّ، رفقاً بأسيرك.

فقال العبّاس : أبمثلي يلقي إليه الخدع؟

ثمّ طعنه في نحره، فخرّ صريعاً يخور في دمه(1).

ولمّا رأي القوم مصـرع ذلك المارد هابوا العبّاس أكثر، ولم يثبت له الرجال، فأصبح طريقه سالكاً نحو المشرعة، فأسرع نحوها ووصلها بكل سهولة فأقحم فرسه في النهر، غير مبال بمن حوله. فمدّ يده إلي الماء ليشـرب، فلمّا أحسّ ببرده تذكّر عطش الحسـين وأهل بيته، فرمي الماء علي الماء، وقال مغضباً : يا نفس من بعد الحسين هوني * وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنون * وتشربين بارد المعين

تاللّه ما هذا فعال ديني

ثمّ ملأ القربة من دون أن يشرب قطرة، وركب جواده وتوجّه نحو المخيّم، فزحف إليه جمع من الأعداء، وحاصروه، فأخذ يضرب فيهم يميناً وشمالا، ويجندل الفرسان، والقربة علي ظهره، فكشفهم عن الطريق وهو يقول :

لا أرهب الموت إذا الموت زقي * حتّي أواري في المصاليت لقا

نفسي لسبط المصطفي الطّهر وقي * إنّي أنا العبّاس أغدو بالسقي

ولا أخاف الشّر يوم الملتقي

وأخذ طريق النخيل حتّي يستطيع أن يصل إلي المخيّم من دون

1- (1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص 335.

أن يخسـر القربة، فكمن له زيد بن الرقّاد الجهني من وراء نخلة، وعاونه حكيم بن الطفيل السندسي، فضرب علي يمين العبّاس ، فتطاير كفّه في الهواء، فقال العبّاس:

واللّه إن قطعتموا يميني * إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين * نجل النبيّ الطاهر الأمين

ولم يهتمّ بيمينه المقطوعة، لأنّ همه كان إيصال الماء إلي أطفال الحسـين وعياله، فعاد الرجلان : حكيم بن الطفيل، وزيد بن الرقّاد الجهني من جديـد، وكمنوا له في مكـان آخر من النخيلـة. فلمّا مرّ من هناك ضـربه حكيـم بن الطفيل علي شـماله، فقطعها، وتكاثروا عليه، والعبّاس يقاتلهم ويقول:

يا نفس لا تخشي من الكفّار * وأبشري برحمة الجبّار

مع النبيّ سيّد الأبرار * قد قطعوا ببغيهم يساري

و فاصلهم يا ربّ حرّ النار(1)

وظلّ يواصل طريقه نحو المخيّم، فلمّا نظر ابن سـعد إليه والقربة سالمة علي ظهره، نادي بأصـحابه: «ويلكم، ارشـقوا القربة بالنبل، فواللّه إن شرب الحسين الماء، أفناكم عن آخركم(2).

فأتته السـهام كالمطر، فأصاب القربة سـهم وأريق ماؤها، فخاب أمل العبّاس في إيصال الماء إلي مخيّم الحسـين، فتجمّد في مكانه، وتوقّف عن محاولة الوصول إليه، وقام القوم برشقه بالسهام، فأصاب سهم صدره، وأصاب سهم آخر عينه، فحاول أن يخرج

1- (1) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 68.
2- (2) معالي السبطين، للمازندراني، ج 1، ص 440.

السهم من عينه، لكنّ يداه كانتا مقطوعتين، فأخذ يحرّك رأسه بقوّة ليسقط السهم، فسقطت الخوزة من علي رأسه. فاستغلّ أحد الأعداء ذلك، فضربه بالعمود علي رأسه، ففلق هامته وسقط علي الأرض، فنادي : أبا عبد اللّه، عليك منّي السّلام(1).

وكان الحسـين إذ ذاك واقفاً بباب الخيمـة يراقب الموقف من بعيـد، فلمّا سـمع صوت العبّاس انقضّ إلي الميـدان كأنّه ليث مغضب، فابتعد القوم عنه مـذعورين. ولمّا وصل إلي أخيه رآه مقطوع اليمين واليسار، مفضوخ الهامـة، مثخناً بالجراح، وكانت الراية ممزّقة إلي جنبه، والقربة مخرّقة، فبكي بكاءً عالياً وقال: «الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمت بي عدوّي» .

ثمّ تركه في مكانه وحمل علي القوم، فأخذ يضرب فيهم وهو يقول :

إلي أين تفرّون، وقد فتّتم عضدي؟

إلي أين تفرّون، وقد قتلتم أخي؟

ثمّ رجع إلي المخيّم منكسراً حزيناً، يكفكف دموعه بكمّه ، لكي لا تراه النساء، وكان يتمتم مع نفسه قائلا :

أيا قمراً منيراً كنت عوني * علي كلّ النوائب في المضيق

فبعدك لا تطيب لنا حياة * سنجمع في الغداة علي الحقيق

ألا للّه شكوائي وصبري * وما ألقاه من ظلم وضيق (2)

ص: 511

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 237.
2- (2) معالي السبطين، للمازندراني، ص 446.

ولمّا رأته ابنته سكينة قادماً إلي المخيّم وحده، تقدّمت إليه قائلة : يا أبتاه ؛ أين عمّي العبّاس؟

فقال لها : إنّ عمّك قد قتل.

فصرخت قائلة: وآعمّاه. وسمعتها العقيلة زينب، فخرجت من الخيمة، فقالت: وآضيعتاه.

فقال الحسين، إي واللّه، واضيعتنا بعدك يا أبا الفضل(1).

*

بعد مقتل العبّاس لم يبق مع الحسين أحد، فجعل ينظر يميناً وشمالاً، فلم يري من أصحابه إلّا من صافح التّراب جبينه، وقطع الحمام أنينه، فنادي: «يا مسلم بن عقيل، ويا هاني بن عروة، ويا حبيب بن مظاهر، ويا زهير بن القين، يا أبطال الصفا، وفرسان الهيجا، ما لي أناديكم فلا تجيبون؟

«وأدعوكم فلا تسمعون؟

«أنتم نيام، أرجوكم تنتبهون، أم حالت منيتكم دون إمامكمفلا تنصرون»؟

«هذه نساء الرّسول لفقدكم قد علاهنّ النحول، فقوموا عن نومتكم أيّها الكرام، وادفعوا عن حرم الرّسول هؤلاء الطغاة اللئام .. ولكن صرعكم - واللّه - ريب المنون، وغدر بكم الدهر الخؤون، وإلّا لما كنتم عن نصرتي تقصّرون، ولا عن دعوتي تحتجبون، فها نحن عليكم مفتجعون، وبكم لاحقون، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون»(2).

1- (1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 324.
2- (2) مقتل أبي مخنف المشهور، ص 85.

ثم رفع صوته قائلاً :

«هل من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله»؟

«هل من موحّد يخاف اللّه فينا»؟

«هل من مغيث يرجو اللّه في إغاثتنا»؟

«هل من معين يرجو ما عند اللّه في إعانتنا»؟

فارتفعت أصوات النساء بالعويل (1).

فأخذ يلتفت إلي خيم بني أبيه، فرآها خالية منهم، ثمّ التفت إلي خيم بني عقيل، فوجدها خالية منهم، ثمّ التفت إلي خيم أصحابه، فلم يري أحداً منهم،فجعل يكثر من قوله : لا حول ولا قوة إلّا باللّه العليّ العظيم.

ثمّ ذهب إلي خيم النساء، فجاء أوّلا إلي خيمة ولده زين العابدين، وكان ملقي علي نطع من الأديم، فدخل عليه وعنده زينب تمرّضه. فلمّا نظر «عليّ» إلي أبيه أراد النهوض، فلم يتمكّن من شدّة المرض، فقال لعمّته: سنّديني إلي صدري، فهذا ابن رسول اللّه قد أقبل.

فجلست زينب خلفه، وأسندته إلي صدرها، فجعل الحسين يسأله عن مرضه، وهو يحمد اللّه تعالي.

ثم قال عليّ : «يا أبتاه ؛ ما صنعت اليوم مع هؤلاء المنافقين»؟

فقال الحسين : «يا بنيّ؛ قد استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 32؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص 289.

ذكر اللّه، وقد شبّ بيننا وبينهم القتال، حتّي فاضت الأرض بالدّم منّا ومنهم» .

فقال علي بن الحسين : يا أبتاه ؛ وأين عمّي العبّاس؟

فلمّا سمعت عمّته زينب اسم العبّاس اختنقت بعبرتها، وأخذت تنظر إلي الحسين كيف يجيبه .

فقال له الحسين : يا بنيّ؛ إنّ عمّك قد قتل.

فبكي عليّ بن الحسين، ثمّ أخذ يسأل عن كلّ واحد من عمومته وإخوته، والحسين يقول له: قد قتل، قد قتل.

ولمّا أكثر من السؤال عن الأصحاب وأهل البيت، قال الحسين: «يا بنيّ؛ اعلم أنّه ليس في الخيام رجل حيّ إلّا أنا وأنت ، أمّا من تسأل عنهم فكلّهم صرعي علي وجه الثري».

فقال عليّ لعمّته زينب: «يا عمّة؛ عليّ بالسيف والعصي» .

فقال له الحسين : «وما تصنع بهما»؟

فقال عليّ بن الحسين : «أمّا العصي فأتوكّأ عليها ، وأمّا السيف فأذبّ به عنك، فإنّه لا خير في الحياة بعدك» .

فضمّه الحسين إلي صدره وقال: «يا بنيّ؛ أنت خليفتي علي هؤلاء العيال والأطفال، فإنّهم غرباء مخذولون، قد شملتهم نوائب الزّمان . سكّتهم إذا صرخوا، وآنسهم إذا استوحشوا، فإنّه ما بقي من رجالهن من يستأنسون به غيرك»(1).

ص: 514

1- (1) الدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 353.

ثمّ إنّ الحسين كما وصّي زين العابدين بالنساء والأطفال، فقد وصّي النساء به، وقال لهن: «إنّ ابني هذا خليفتي عليكم».

والتفت إلي أمّ كلثوم وقال : «خذيه لئلّا تبقي الأرض خالية من نسل آل محمّد».

ثمّ أرجعوا زين العابدين إلي فراشه(1).

*

مقتل ثلاثة أطفال في حجر الحسين عليه السلام :

كان آخر من قتل مع الحسين ثلاثة أطفال من أهله(2)، وهؤلاء هم:

الأوّل : علي الأصغر، وعمره يومئذ ست سنوات .

الثاني : عبد اللّه الرضيع، وعمره ستّة شهور .

والثالث: عبد اللّه بن الحسن الذي قتل بعد سقوط الحسين من علي الفرس، وقبيل أن يقدموا علي قطع رأسه.

أمّا علي الأصـغر، فإنّ ما حـدث له هو أنّ الإمام جاء إلي الخيام وجلس عنـدها، وكانت عليه جبّة خزّ دكناء، وقال: ناولوني طفلي عليّاً حتي أودعه ، فجاؤوا إليه بعليّ الأصغر وأمّه أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد اللّه التميميّة، فأخذه في حجره ولبّاه بريقه،

1- (1) مقتل الحسين، البحر العلوم، ص 435؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص 318؛ ومقتل الحسين، للمقرم، ص 340.

2- (2) الإرشاد، للمفيد، ج 2، ص 115؛ وأعلام الوري، للطبرسي، ص 249؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ص 288.

وخاطبه قائلاً : يا بنيّ؛ ويل لهؤلاء القوم إذا كان غداً جدّك محمّد خصمهم .

فبينما هو كذلك، إذ رماه عبد اللّه بن عقبة الغنوي بسهم،فنحره في حجر أبيه(1).

وكان الأعـداء قد قرروا في تلك اللحظات أن يرموا كلّ رجل أو امرأة أو طفل يخرج من المخيّم(2)، وبعد مقتل عليّ الأصغر أخذ الحسين دمه في كفّه، فلمّا امتلأت صبّه في الأرض (3)، ثمّ حمله حتّي وضعه مع قتلي أهل بيته(4).

*

وأمّا عبد اللّه الرضـيع، وهو الطفل الثاني الذي قتل في حجر الحسين عليه السلام، فقد جاءت إليه أمّ كلثوم وقالت له: يا أخي؛ إنّ ولدك عبد اللّه ما ذاق الماء منذ ثلاثة أيّام، فاطلب له من القوم شربة تسقيه.

فأخذه الحسـين ومضـي به إلي القوم وقال: «يا قوم؛ لقد قتلتم أصحابي وبني عمّي وإخوتي وولدي، وقد بقي هذا الطفل وهو ابن ستّة أشهر، يشتكي من الظمأ، فاسقوه شربة من الماء».

1- (1) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 3، ص 203؛ والتاريخ، للطبري، ج 4، ص 432 ؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 209.
2- (2) جنة المأوي، ص 217.
3- (3) التاريخ، للطبري، ج 4، ص 342.
4- (4) الإرشاد، للمفيد، ص 254؛ والكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 294.

ثم سكت هنيئة، وقال بعدها: «إن كان ذنب للكبار، فلا ذنب للصغار، خذوه وأسقوه، فقد جفّ اللبن في صدر أمّه»(1).

كان الحسين يخاطب القوم، وأمّ الرّضيع، وهي الرّباب، واقفة بباب الخيمة تنظر ماذا يفعل القوم، وترجو أن يحصل الحسين علي قطرات من الماء تبلّ ريقه، وتنقذه من الموت عطشاً.

لقد كان القوم أمام طلب الحسين هذا، بين ثلاث خيارات : إمّا أن يعطوا الحسين مقداراً قليلاً من الماء له حتّي يسقي ولده، أو أن يأخذوا الطفل منه ويسقوه، أو أن يردّوا علي طلبه بطريقتهم الخاصّة. وقد اختاروا الأمر الثالث، حيث إنّ حرملة بن كاهل الأسدي وضع سهماً في كبد القوس، وهي من السهام المصنوعة القتل الرجال الكبار، إذ لم تكن هنالك سهام خاصّة لقتل الأطفال الرضّع، فرمي به في نحر الرّضيع، فذبحه من الوريد إلي الوريد، وبدأ دمه يسيل علي كتف الحسين عليه السلام .

فتلقّي الحسين الدّم بكفّه ورمي به نحو السّماء وهو يقول : «بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدّك المصطفي خصمهم يوم القيامة».

ثمّ التفت إلي السّماء وقال :

«هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين اللّه تعالي، اللّهمّ لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح. إلهي إن كنت حبست عنّا النصر فاجعله لما هو خير منه، وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حلّ بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل. اللّهمّ أنت الشاهد علي قوم قتلوا أشبه

1- (1) ناسخ التواريخ، لسبهر، ج 2، ص 363.

الناس برسولك محمّد، وقد عمدوا أن لا يبقوا أحداً من ذرّية رسولك»(1)

فسمع الحسين هاتفاً يقول له: «دعه يا حسين، فإنّ له مرضعاً في الجنّة».

ثمّ نزل عن فرسه، وصلّي عليه(2) وحفر له بجفن سيفه قبراً صغيراً بحجم جثّته الصغيرة، ودفنه مرمّلاً بدمه، ولقد قيل إنّ الدّم الذي رمي به الحسين إلي السّماء لم يسقط منه قطرة علي الأرض(3).

*

أمّا الطفل الثالث الذي قتل في حضن الحسين فكان بعد سقوط الحسين علي الأرض، وسوف يأتي ذكره.

***

1- (1) ينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص 79.
2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 344؛ وأبصار العين، للسماوي.
3- (3) العبرات، للمحمودي، ج 2، ص 90.

هجمات الحسين عليه السلام قبل مقتله

لم تفلل إرادة الحسـين بعد مقتل إخوته وبنيه وأصـحابه، بل العكس تماماً، فكلّما سـقط من أصحابه شهيد ازداد إصراراً علي دفاعه عن الحق حتي النفس الأخير. ولقد ظهرت منه الشـجاعة أكثر ما ظهرت حينما بقي وحيداً بين أعدائه، فهم إنّما قتلوا أصـحابه لكي يصلوا إليه، وها هو أصبح وحيداً بينهم.

لقد كان الحسين ينتظر اللحظة المباركة، وهي لحظة الشهادة في سبيل اللّه، وعروج روحه مطمئنة إلي بارئها.

أليس هو الذي قال من قبل : «وما أولهني إلي أسلافي اشتياق يعقوب إلي يوسف»؟

فها هي لحظات عروجه إلي لقاء ربّه، وجدّه، وأسلافه قد دنت منه .

أمّا بالنسبة إلي أعدائه، فقد ازدادوا وحشيّة وتصميماً علي قتل الحسين بكلّ ما تطلّبته غرائزهم الحيوانيّة .

فبعد مقتل الطفلين الصـغيرين في حضنه، ركب الحسين فرسه ووقف قبالة القوم، مصلتاً سيفه بيده، آيساً من الحياة، عازماً علي الموت، وهو يقول:

أنا ابن عليّ الخير من آل هاشم * كفاني بهذا مفخراً حين أفخر

وجدّي رسول اللّه أكرم من مضي * ونحن سراج اللّه بالأرض نزهر

وفاطمة أمّي ابنة الطّهر أحمد * وعمّي يدعي ذا الجناحين جعفر

وفينا كتاب اللّه أنزل صادعاً * وفينا الهدي والوحي بالخير يذكر

ونحن أمان اللّه للخلق كلّهم * نسرّ بهذا في الأنام ونجهر

ونحن ولاة الحوض نسقي وليّنا * بكاس رسول اللّه ما ليس ينكر

فيسعد فينا في القيام محبّنا * ومبغضنا يوم القيامة يخسر(1)

ثمّ دعي القوم إلي المبارزة، فلم يزل يقتل كلّ من برز إليه من شجعان الرجال، حتّي قتل منهم مقتلة كبيرة(2).

يقول عبد اللّه بن عمّار بن عبد يغوث ، وهو من أصحاب عمر بن سعد: «ما رأيت مكثوراً قطّ قد قتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه، وإن كانت الرجال لتشدّ عليه فيشد عليها بسيفه، فتنكشف عنه انكشاف المعزي إذا شدّ فيها السبع، وكانوا ثلاثين ألفا، فيحمل عليهم فينهزمون كأنّهم الجراد المنتشر، ثمّ يرجع إلي مكانه، وينتظر من جديد الهجوم علي العدوّ، أو مقاتلة أفراد منه»(3).

ولمّا رأي القوم مقتل من تقدم للحسين امتنعوا عن مقابلته، فأخذ الحسين المبادرة وهجم علي ميمنة العدوّ، وهو يقول:

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 1، ص 32؛ والفصول المهمة، لابن الصباغ، ص 176؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص 72.
2- (2) كشف الغمة، للإربلي، ج 2، ص 20.
3- (3) مثير الأحزان، لابن نما، ص 27.

القتل أولي من ركوب العار * والعار أولي من دخول النّار

والله ما هذا وهذا جاري(1)

ثمّ حمل علي الميسرة، وهو يقول:

أنا الحسين بن عليّ * آليت أن لا أنثني

أحمي عيالات أبي * أمضي علي دين النّبي(2)

ولم يزل يخوض القتال، فيجندل رجالاً ـ ويجرح آخرين، فقال عمر بن سعد لقومه : «الويل لكم، أتدرون من تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، فاحملوا عليه من كلّ جانب».. فلم يبال بهم جميعاً، بل واصل القتال.

وكانت الرماة وعددهم أربعة آلاف ترميه بالسّهام(3).

ولقد ألقي الرّعب في قلوب جميعهم، حتّي أنّه قلّب الميمنة علي الميسرة، والميسرة علي الميمنة، وقلّب القلب علي الجناحين، وكان يدخل في أوساطهم ويخرج من أعراضهم، ويروي الأرض من دمائهم(4).

وكان كلّما غاص فيهم وقتلهم، يعود إلي باب خيمته وهو يقول : لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم(5).

ثمّ إنّ رجلاً جريئاً من أصحاب عمر بن سعد من أهل الشام،

1- (1) أعلام الدين، للديلمي، ص 298.
2- (2) تسلية المجالس، لمحمد بن أبي طالب، ج2، ص318.
3- (3) العوالم، للبحراني، ج 17، ص 293؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، - ص 50.
4- (4) معالي السبطين، للمازندراني، ج 2، ص 30.
5- (5) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 304.

واسمه تميم بن قحطبة، اقترب من الحسين ونادي بأعلي صوته: يابن عليّ، إلي متي الخصومة، فقد قتل أولادك وأقربائك ومواليك، فأنت بعد تضرب بالسّيف مع هؤلاء الألوف»؟

فقال الحسين: «أنا جئت إلي محاربتكم، أم أنتم جئتم إلي محاربتي؟

«أنا منعت الطريق عنكم، أم أنتم منعتموني عنه»؟

«وقد قتلتم إخواني وأولادي وليس بيني وبينكم إلّا السّيف، فلا تكثر المقال.

ثمّ طلب منه الحسين المبارزة، قائلاً: «تقدّم إليّ حتي أري ما عندك، فتقدّم إلي الحسين، فصاح الحسين صيحة وسلّ السّيف وضرب عنقه، فتبعّد خمسين ذراعاً.

ثمّ بارزه رجل آخر اسمه يزيد الأبطحي، وكان مشهوراً بالشجاعة، فسلّ سيفه وهجم علي الحسين، فسبقه الحسين وضرب علي وسطه بالسيف، فقده نصفين(1).

*

ولما رأي الحسين وجوم القوم، وسمع بكاء الأطفال من العطش هجم علي الشريعة، وكان يحرسها أربعة آلاف، بقيادة عمر بن الحجّاج الزبيدي، واستطاع أن يكشفهم عنها وأن يقحم الفرس في الفرات. فلمّا دخل الماء، أولغ الفرس برأسه ليشرب، فقال الحسين: «أنت عطشان، وأنا عطشان، فواللّه لا أذوق الماء حتّي تشرب».

1- (1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص 410.

فلمّا سمع الفرس كلام الحسين رفع رأسه ولم يشرب، كأنّه فهم الكلام.

فقال الحسين : «اشرب فأنا أشرب»، ثمّ مدّ الحسين يده في الماء، فغرف منه غرفة وقرّبه إلي فمه ، وإذا بأحد رماة العدوّ من بني دارم، رماه بالسهم، فأثبته في حنكه الشريف، فانتزعه وبسط يديه تحت الحنك، فلمّا امتلأتا دماً رمي به نحو السّماء وقال «اللّهمّ إنّي أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيّك . اللّهمّ احصهم عدداً، وأقتلهم بدداً، ولا تذر علي الأرض منهم أحداً»(1).

وخوفاً من أن يعاود الحسين محاولة شرب الماء، ناداه أحد الأعداء قائلاً : «يا أبا عبد اللّه ؛ أتتلذّذ بشرب الماء وقد هتكت محرمك؟

فنفض الحسين الماء من يده، وخرج من المشرعة، وحمل علي القوم، فكشفهم عن مخيمه، فإذا خيمه سالمة(2).

ثمّ عاود الحملة علي القوم في المشرعة، فلم يزل يحمل عليهم ويحملون، وهو في ذلك عطشان، فكلّما حمل بنفسه، هجموا عليه حتّي أحالوه عن الماء. وفيما هو كذلك إذ رماه رجل من الأعداء اسمه أبو الحتوف بسهم، فوقع السهم في جبهته، فنزع السهم، فسالت الدماء علي وجهه ولحيته ، فقال : «اللّهمّ إنّك تري ما أنا فيه من عبادك هؤلاء الطغاة العصاة» .

1- (1) أبصار العين، للماوي، ص 13؛ ونفس المهموم، للقمي، ص 364.

2- (2) الإمام الحسين وأصحابه ، للقزويني، ج 1، ص 296؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 51.

ولم يحاول بعـد ذلك أن يصل إلي المشرعة، وكانت عمليات الكرّ والفرّ مسـتمرّة بينه وبين الأعـداء، وفي إحـداها تقـدّم الشـمر في جماعة عظيمـة من الأعداء، فقاتلهم الحسـين بأجمعهم فحالوا بينه وبين رحله، وتقدّم بعضـهم إلي مخيّمه، فصاح بهم الحسـين قائلاً : «ويحكم يا شيعـة آل أبي سـفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هـذه، وارجعوا إلي أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون»!

فناداه الشمر قائلاً : ماذا تقول يابن فاطمة؟

فقـال الحسـين: «أقول أنـا الـذي أقاتلكم وأنتم تقاتلوني، والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عتاتكم وطغاتكم عن التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً».

فقال الشمر: لك ذلك يابن فاطمة .

ثمّ صاح بأصحابه قائلاً : إليكم عن حرم الرّجل وأقصدوه بنفسه ، فلعمري إنّه لكفوء كريم(1) .

فقصـدوه من كـلّ جانب، فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه(2). فأحـاطوا به من كلّ جانب، فأسـرع منهم رجل يقال له مالك بن النسـر الكندي، فشتم الحسين وضربه علي رأسه بالسّيف، وكان عليه قلنسوة، فقطعها حتّي وصل إلي رأسه، فأدماه، فامتلأت.

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 293؛ وتجارب الأمم، لأبي علي مسكويه ، ج 2، ص 72؛ والفتوح، لابن اعثم، ج 5، ص 215.
2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 33.

القلنسوة دماً . فقال له الحسين : «لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك اللّه مع القوم الظالمين».

وتراجع القوم عنه فجاء إلي مخيمه وألقي القلنسوة ودعا بخرقة، فشدّ بها رأسه، وأخذ قلنسوة أخري، فلبسها واعتمّ عليها ، ورجع الشمر ومن كان معه إلي مواضعهم(1).

*

وبعد يقين الحسين باقتراب الموت إليه، قال لأخته زينب : «آتيني بثوب عتيق لا يرغب فيه أحد من القوم، أجعله تحت ثيابي لئلّا أجرّد منه بعد قتلي»(2).

فجاءت إليه بتبّان، وهو سروال صغير يلبسه أهل المهن المتواضعة .

فقال: لا؛ ذلك لباس من ضربت عليه الذلّة، ثمّ أخذ ثوباً فمزّقه، فجعله تحت ثيابه(3).

*

وبالرغم من شدّة أحواله وما كان عليه، إلّا أنّه قام بتسليم وصيّته في كتاب إلي ابنته فاطمة لكي تسلّمها إلي علي بن الحسين إذا قام من مرضه. فالحسين بصفته أمين اللّه في أرضه، وحجّته علي عباده، كان عليه أن يسلّم مواريث الأنبياء إلي من بعده من الأئمّة ،

1- (1) التاريخ، للطبري، ج 5، ص 448؛ وشرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج 3، ص 163؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص 255.

2- (2) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج 1، ص 300.

3- (3) المعجم الكبير، للطبراني، ج 3، ص 125؛ وكفاية الطالب، للكنجي، ص 434؛ ومجمع الزوائد، للهيثمي، ج 9، ص 193.

وكان أيضاً قد أودع أشياء عند أمّ سلمة في المدينة لتسلّمها لأكبر ولده(1)

وبعد ذلك نادي في حرمه قائلاً :

«يا سكينة، ويا فاطمة، ويا أمّ كلثوم، عليكنّ منّي السّلام، فهذا آخر الاجتماع، وقد قرب منكنّ الافتجاع».

فعلت أصواتهنّ بالبكاء والنحيب ، وصحن : الوداع الوداع ، الفراق الفراق.

فنادته ابنته سكينة قائلة : أراك قد استسلمت للموت، فإلي من نتكل؟

فقال الحسين : «يا نور عيني، كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين؟ فاصبري علي قضاء اللّه ولا تشكي، فإنّ الدّنيا فانية والآخرة باقية».

فقالت له سكينة : «إذن ردّنا إلي حرم جدّنا رسول اللّه» .

فقال الحسين : «هيهات، لو ترك القطي لغفي ونام» .

فبكت بكاءاً مرّاً، فأخذها الحسين وضمّها إلي صدره، ومسح الدموع عن عينها، وأنشد يقول :

سيطول بعدي يا سكينة فاعلمي * من البكاء إذا الحمام دهاني

لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة * ما دام منّي الرّوح في جسماني

فإذا قتلت فأنت أولي بالذي * تأتينه يا خيرة النسوان(2)

1- (1) بصائر الدرجات، للصقار، ص 204، وص 169.

2- (2) وسيلة الدارين، للزنجاني، ص 320؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج 2، ص 25.

ثمّ أمر أهل بيته بالصّبر، وأن يلبسن أزرهن ومقانعن ، وقال لهن :

«استعدّوا للبلاء، واعلموا أنّ اللّه تعالي حافظكم وحاميكم، وسينجّيكم من شرّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلي خير، ويعذّب أعاديكم بأنواع البلاء،ويعوّضكم عن هذه البليّة بأنواع النعم والكرامة، ولا تشكّوا، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم»(1).

وفيما كان الحسين يودّع عياله، نادي عمر بن سعد بأصحابه قائلاً : «ويحكم، اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه، فواللّه إن فرغ لكم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم».

فحملوا عليه يرمونه بالسّهام حتّي تخالفت السّهام بين أطناب المخيّم، وشكّ بعض السهام أزر النساء، فدهشن وأرعبن وصحن ودخلن الخيم .

ثمّ أخذن ينظرن إلي الحسين كيف يصنع، فحمل عليهم كالليث الغضبان، فكان لا يلحق أحداً إلّا ضربه بسيفه فقتله، وكانت السّهام تأخذ منه من كلّ ناحية، وهو يتّقيها بصدره وجسمه(2).

*

ومن غريب ماحدث في تلك اللّحظات أنّ بعض كبار السّنّ من شيوخ أهل الكوفة كانوا واقفين علي تلّ يبكون علي الحسين

1- (1) نفس المهموم، للقمي، ص 355؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج 4، ص 346.
2- (2) مقتل الحسين، للمقرم، ص 348؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 443.

ويقولون : اللّهمّ أنزل عليه نصرك. فقال لهم سعد بن عبيدة، وهو منهم: يا أعداء اللّه ، ألا تنزلون فتنصرونه(1)؟

*

لقد كانت حملات الحسين عنيفة جدّاً، لأنّه أساساً كان يطلب بها موتاً محققاً، علي عكس أعدائه الذين كانوا يفرّون منه طلباً للحياة .

ولمّا قتل خلقاً كثيراً، نظر الشـمر إلي عمر بن سـعد وقال له :« أيّها الأمير؛ واللّه لو برز الحسين إلي أهل الأرض لأفناهم عن آخرهـم، فالرّأي أن نفترق عليه فرقتين، فرقة تقاتله بالسّيوف والرّماح، وفرقة بالنّبل والسّهام»(2).

وسمع الحسين ذلك، فنادي: أعلي قتلي تحاثّون؟

ثمّ حمل عليهم وهو يقول: «يا أمّـة السّوء، بئس ما خلّفتم محمّـداً في عترته، أما إنّكم لن تقتلوا بعـدي عبـداً من عباد اللّه الصالحين، فتهابوا قتله ، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إيّاي . وأيم اللّه إنّي لأرجوا أن يكرمني ربّي بهوانكم، ثمّ ينتقم منكم من حيث لا تشعرون».

فصاح الحسين بن مالك السكوني مستهزءاً : يابن فاطمة، بماذا ينتقم لك منّا»؟

1- (1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 424؛ والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 392.
2- (2) أسرار الشهادة، للدربندي، ص411.

فقال الحسين: «يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دمائكم، ثمّ يصبّ عليكم العذاب الأليم»(1).

وبعد أن تحمّل اثنتين وسبعين جراحة(2) رجع يستريح وهو يكثر من قول : لاـ حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم(3). وبينما هو واقف، وقد ضعف عن القتال، إذ رموه بحجر، فوقع علي جبهته ، فسالت الدماء منها، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينيه ، فأتاه سهم محدّد مسموم له ثلاث شعب، فوقع في صدره، فقال وهو يسقط من فرسه: «بسم اللّه وباللّه ، وعلي ملّة رسول اللّه» .

ورفع رأسه إلي السّماء وقال: «إلهي إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس علي وجه الأرض ابن نبيّ غيره». .

ثمّ أخذ السّهم وأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الدّم كالميزاب، فوضع يده علي الجرح، فلمّا امتلئت دماً رمي بها إلي السّماء، ثمّ وضع يده علي الجرح ثانياً، فلمّا امتلأت لطّخ به رأسه ولحيته، وقال: «هكذا واللّه أكون حتّي ألقي جدّي محمداً، وأنا مخضوب بدمي وأقول : يا رسول اللّه، قتلني فلان وفلان»(4).

1- (1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص 295، ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 34؛ ونفس المهموم، ص 356.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص34؛ واللهوف، لابن طاوس، ص 120.

3- (3) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص 443.

4- (4) شرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص 372؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2، ص 35؛ وتسلية المجالس، لمحمد بن أبي طالب، ج 2، ص 320؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص 53.

وبعد سقوط الحسين من علي الفرس، بقي ملقيً علي الأرض لا يستطيع النهوض، والقوم يهابون قتله، وقد أحاطوا به. فبينا هو كذلك، إذ نظر عبد اللّه بن الحسن، وهو غلام لم يبلغ الحلم، إلي عمّه علي الأرض وقد أحدق به القوم، فانفلت من يد أمّه، وحاولت زينب حبسه، فأفلت منها، وانحدر إلي الحسين ورمي بنفسه في حضنه. فأهوي بحر بن كعب بالسيف ليضرب الحسين، فصاح الغلام: «يابن الخبيثة، أتضرب عمّي»؟

فغضب من كلام الطفل، وبدل أن يضرب الحسين، وجّه الضربة إلي الغلام، فاتقاها بيده، فأطنّها إلي الجلد، فإذا هي معلّقة ، فصاح عبد اللّه : «ياعمّاه، قطعوا يميني».

فضمّه الحسين إليه، وقال : يابن أخي، إصبر علي ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإنّ اللّه يلحقك بآبائك الصالحين.

ثمّ رفع الحسين يديه بالدّعاء قائلاً : «اللّهمّ إنّ متّعتهم إلي حين ففرّقهم تفريقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا ، ثمّ عدوا علينا يقاتلونا».

وكان حرملة بن كاهل الأسدي واقفاً علي رأس الحسين، فرمي الغلام بسهم فذبحه، وكان عبد اللّه بن الحسن هو الطفل الثالث الذي قتل يوم عاشوراء في حضن الحسين(1).

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 353؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 202 والتاريخ، للطبري، ج 5، ص 451.

ومطرت السّماء دماً

بينما كان الحسين طريحاً علي الأرض، حاولت نسوة أهل البيت الخروج من الخيام والتوجّه إليه في الميدان، فحمل شمر بن ذي الجوشن علي فسطاطهن، علي مرأي من الحسين ومسمع، فطعنه بالرّمح، ثمّ قال: عليّ بالنار لأحرقه علي من فيه.

فنادي الحسين : «يا بن ذي الجوشن؛ أنت تدعو لتحرق النار علي أهلي، أحرقك اللّه بالنار».

فجاء شبث بن ربعي، فوبّخ شمراً لما فعل، فعاد عن ذلك(1). ثمّ نادي بجماعته قائلاً : ما وقوفكم وما تنتظرون بالرجل وقد أثخنته السّهام والرّماح؟ احملوا عليه.

فضربه زرعة بن شريك علي كتفه الأيسر، ورماه الحصين بن نمير فيحلقه، وضربه آخر علي عاتقه ضربةً بي بها لوجهه، وكان قد أعيي، وجعل ينوء ويكبو، فطعنه سنان بن أنس في ترقوته، ثمّ في بواني صدره، ثمّ رماه بسهم في نحره، وطعنه صالح بن وهب في جنبه .

قال هلال بن نافع: «كنت واقفاً نحو الحسين وهو يجود

1- (1) اللهوف، لابن طاوس، ص 123؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص 297.

بنفسه، فواللّه ما رأيت قتيلاً قطّ مضـمّخاً بدمه أحسن منه وجهاً، ولا أنور، ولقد شـغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فاستقي في هذه الحال ماءً، فأبوا أن يسقوه».

وقال له رجل منهم: يا حسين ؛ لا تذوق الماء حتّي ترد الحامية، فتشرب من حميمها.

فقال الحسين بصوت ضـعيف: «أأنا أرد الحاميـة؟! إنّما أرد علي جـدّي رسول اللّه، وأسـكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشكو إليه ما ارتكبتم منّي وفعلتم بي».

فغضبوا بأجمعهم، حتّي كأنّ اللّه لم يجعل في قلب أحدهم من الرّحمة شيئاً(1).

*

ولمّا اشتدّ به الحال رفع طرفه إلي السّماء قائلاً :

«اللّهمّ أنت متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديـد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر علي ما تشاء، قريب الرّحمة، صادق الوعـد، سـابغ النعمـة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبـة لمن تاب إليك، قادر علي ما أردت، تـدرك ما طلبت، شكور إذا شـكرت، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجـاً، وأرغب إليـك فقيراً، وأفزع إليـك خائفاً، وأبكي مكروباً، وأسـتعين بك ضـعيفاً، وأتوكّل عليك كافياً».

«اللّهمّ أحكم بيننا وبين قومنا، فإنّهم غرّونا، وخذلونا ،

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم.

وغدروا بنا، وقتلونا، ونحن عترة نبيّك، وولد حبيبك محمّد صلّي اللّه عليه وآله، الذي اصطفيته بالرّسالة، وائتمنته علي الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، يا أرحم الرّاحمين»(1).

ثمّ قال : «صبراً علي قضاءك يا ربّ، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي ربّ سواك، ولا معبود غيرك، صبراً علي حكمك، يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاد له، يا محيي الموتي، يا قائماً علي كلّ نفس بما كسبت، أحكم بيني وبينهم، وأنت خير الحاكمين»(2).

*

وأقبل فرس الحسين يدور حوله، ويلطّخ ناصيته بدمه. فصاح عمر بن سعد بأصحابه: دونكم الفرس، فإنّه من خيار جياد رسول اللّه .

فأحاطت به الخيل، فجعل الفرس يضربهم برجله، حتّي قتل منهم جماعة وجرح آخرين.

فقال ابن سعد: دعوه، لننظر ما يصنع.

فلمّا أمن الفرس الطلب ، أقبل نحو الحسين يمرّغ ناصيته بدمه، ويشمّه، ويصهل صهيلاً عالياً، ثمّ توجّه نحو المخيّم.

فمّا نظرن النساء إلي الجواد مخزيّاً، والسّرج عليه ملويّاً،

1- (1) مصباح المتهجد، للطوسي، ص 759؛ والمصباح، للكفعمي، ص 544؛ والإقبال، لابن طاوس، ص 690.
2- (2) الإمام الحسين قدوة الصديقين، ص 60.

خرجن من الخدور، علي الخدود لاطمات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذلّلات، وإلي مصرع الحسين مبادرات. ونادت زينب :

وآمحمّداه، وآعليّاه، هذا حسين بالعراء صريع بكربلاء، ليت السّماء أطبقت علي الأرض، وليت الجبال تدكدكت علي السهل».

وانتهت نحو الحسين، وقد دني منه عمر بن سعد في جماعة من أصحابه، والحسين يجود بنفسه، فصاحت به قائلةً: أي عمر، أيقتل أبو عبد اللّه وأنت تنظر إليه؟

فصرف ابن سعد بوجهه عنها ، ودموعه تسيل علي لحيّته .

فتوجهت إلي القوم وقالت: ويحكم؛ أما فيكم مسلم؟

فلم يجبها أحد.

*

ثمّ إنّ عمر بن سعد صاح بالنّاس: انزلوا إليه وأريحوه، فبدر إليه خولي بن يزيد الأصبحي ليحتزّ رأسه، فأرعد.

وتقدّم عمرو بن الحجّاج، فنظر إلي عينيه، فرآهما كأنّهما عيني رسول اللّه صلي الله عليه و آله و سلم ، فتراجع.

ثمّ تقدّم إليه شمر بن ذي الجوشن، فرفسه برجله، وجلس علي صدره، وقبض علي شيبته المقدسة، وضربه بالسّيف إثنتا عشرة ضربة، واحتزّ رأسه المقدس(1) .

1- (1) مقتل الحسين، للمقرم، ص 359؛ والعوالم، للبحراني، ج 17، ص 197؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص 55.

ومع قتل الحسين أظلمت السّماء وظهرت حمرة فيها، وما رفع حجر إلّا وتحته دم عبيط، ولقد مطرت السّماء دماً بقي أثره في الثياب مدّة حتّي تقطّعت(1).

***

ص: 535

1- (1) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي، ص 116؛ وفضائل الخمسة، للفيروزآبادي، ج 3، ص 363؛ والعبرات، للمحمودي، ج 2، ص 190؛ وينابيع المودة، للقندوزي، ج 3، ص15؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج 3، ص 209؛ والتاريخ الكبير، للبخاري، ج 2، ص 130؛ والجرح والتعديل، الابن أبي حاتم، ج 4، ص 216.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩